مقدونية

بين الماضى والحاضر

د. جمال الدين سيد محمد

الهيئة المصرية العامة للكتاب



الاخراج الفنى
البير جورجى

تصميم الغلاف
سعد الدين الشريف

تقديم

يمكننى بكل سعادة أن أقول أن يوغسلافيا ، دولة وشعبا وثقافة ، قد أصبحت معروفة فى الأوساط الثقافية والأدبية بمصر وبالدول العربية وقد ساهمت ترجماتى وأبحاثى وكتبى مساهمة كبيرة فى هذا المضمار .

واليوم نتخذ أسلوبا جديدا فى التعريف بهذه الدولة الصديقة . فقد أخذت احدى جمهورياتها ، وهى جمهورية مقدونيـة ، وتحدثت عنها حديثا مفصلا عارضا للجوانب التاريخية والجغرافية والحضارية والثقافية والدينية والأدبية الخاصة بهذه الجمهورية التى تقع فى الجزء الأوسط من شبه جزيرة البلقان ، ولذا فهى تعد حلقة اتصال بين وسط وغرب أوربا وبين منطقة شرق البحر الأبيض المتوسط والشرق الأوسط وجنوب آسيا والمحيط الهندى .

وفكرة الكتابة عن مقدونية متواجدة فى ذهنى منذ عام ١٩٨٢ حينما زرتها لحضور مهرجان ليالى الشعر بستروجا ثم توالت بعد ذلك الزيارات المتعددة فى فترات متقاربة . ومنذ البداية كنت عازما على ألا تكون زياراتى هذه زيارات سياحية تهدف الى قضاء وقت ممتع فحسب بين مرابع الجمال فى مقدونية ، وانما قصدت الى أن تكون زيارات بحث ودراسة واستكشاف للجديد والتنقيب عن المثير والطريف فى كل أنحاء مقدونية . وفى كل زيارة كنت أتجول بين المدن والقرى المقدونية وبين ربوعها الفاتنة ومناظرها الخلابة وبين آثارها العريقة . وفى كل مرة كانت معارفى ومعلوماتى تتزايد حتى ولو كررت الزيارة لنفس المكان .

وسجلت العديد من انطباعاتى ويومياتى عن هذه الزيارات وكتبت كمية كبيرة من المعلومات الجديدة الوفيرة . ومن حصيلة هذه الانطباعات

واليوميات جاء الجزء الأساسى من هذا الكتاب ، والجزء الباقى مصدره قراءة مختلف المراجع والكتب التى تتحدث عن مقدونية · وفى هذا المضمار عاوننى الأصدقاء المقدونيون معاونة كبيرة فى الحصول على كل ما أحتاج اليه من كتب ومراجع ·

وختاما أشكر هؤلاء الأصدقاء المقدونيين الذين ساعدونى أيما مساعدة ، كما أشكر الهيئة العامة للكتاب ، ممثلة فى شخص الدكتور سمير سرحان ، لترحيبها بنشر مثل هذا الكتاب الفريد من نوعه ·

والله أسأل ان اكون قد استطعت بالفعل أن أحقق الغاية التى نشدتها من وراء هذه الدراسة وأن أكون قد ملأت جانبا من الفراغ الكبير الذى تشكو منه المكتبة العربية فيما يتعلق بهذه البلدان الصديقة ·

والله المعين والموفق ··

والحمد لله من قبل ومن بعد ··

القاهرة فى ١٩٨٧/٤/٧ دكتور جمال الدين سيد محمد

البـاب الأول

الفصل الأول ـ مقدونية عبر عصور التاريخ

الفصل الثانى ـ الأرض المقدونية

الصفل الثالث ـ المقدونيون

الفصل الرابع ـ جولة بين المدن المقدونية وآثارها

الفصل الأول

مقدونية عبر عصور التاريخ

ابدأ دراستى هذه بحديث موجز عن تاريخ مقدونية ، وذلك ايمانا منى بان التاريخ هو أفضل مدخل من أجل التعرف على مقدونية نفسها وعلى اهلها وثقافتها وأدبها ، وتيقنا منى بان التاريخ هو أنشودة الزمن التى خلدت وبقيت فى ذاكرة الناس .

والتاريخ المقدونى يعرض أمامنا ثمرات عقل الانسان المقدونى من ادب وعلم وفن ، ويوضح لنا ما مر به أفراد الشعب المقدونى وطبقاته من محن وصعاب وما سموا اليه من مجد وعظمة ، ويبين لنا التطور السياسى والاجتماعى لمقدونية .

ومن المؤكد أن اهتمام الناس بالتاريخ انما هو اهتمام بتركة الانسان وبآثار الجهد الانسانى . ومن هنا شعر الناس منذ القدم بما للتاريخ من أهمية بالغة وقيمة عظيمة فعنوا بدراسته وسارعوا الى تدوين أخباره على صفحات الذاكرة ثم على مبانيهم ومنشآتهم ثم سجلوهم فى كتبهم ، احساسا منهم بضرورة الحفاظ على تراث الآباء والأجداد وصيانته للأجيال التالية من بعدهم ، بل والى أبد الآبدين .

ونظرا لما للتاريخ من أهمية جليلة فى حياة الأمم والشعوب فان الدول المحبة للاستعمار وللهيمنة والسيطرة تحاول بشتى الطرق وبمختلف الأساليب طمس حقائق التاريخ وتزييفها فى أذهان الشعوب حتى يسهل عليها استعمارها والسيطرة عليها . وهذا أمر مماثل لما تتعرض له مقدونية ، ومن هنا أيضا كان تركيزنا على الجانب التاريخى فى هذه الدراسة الشاملة عن مقدونية والتمهيد لها بحديث موجز عن التاريخ المقدونى يوضح لنا

ما غمض من أمور وقضايا ويكشف ما يجرى من محاولات ترمى الى تلفيق وتزييف وطمس الحقائق التاريخية ٠

ولا شك أن أول ما يتبادر الى ذهننا من المعلومات التاريخية حينما نذكر اســـم مقدونية هو اســـم الامبراطور الاسكندر المقدونى (٥٣٦ ـ ٣٢٣ ق.م) الذى يرجع أصله الى مقدونية أيام أن كانت تابعة للامبراطورية اليونانية ٠ ومن المعلوم أن الاسكندر المقدونى كان قائدا من أوائل القادة وفاتحا من أشهر الفاتحين ، ويمتـاز عن غـيره من القواد بانه أقدمهم فى التاريخ وأصغرهم سنا ، ويتفوق على غيره من الفاتحين بأنه أكثرهم شهرة ٠ وقد كون زعامته بنفسه فى سن مبكرة وقاد جيوشه وفتح الأمصار وهو لم يتجاوز العقد الثالث من عمره ٠ وابتكر أساليب القتال والخطط الحربية التى استطاع بواسطتها التغلب على خصومه معارضا آراء قواده المجربين ذوى الخبرة بفنـون الحرب ، وأثبت للعـالم أنه أكفأهم وأنه عبقرى فى قيادته ٠

كان الاسكندر قائدا عظيما ودبلوماسيا خطيرا واداريا صادقا وهى صفات قل أن تجتمع فى شخص واحد ، الا أن نشأته وتربيته جعلتاه يحوز هذه الصفات الممتازة ٠ وحياة هذه الشخصية العسكرية التاريخية سفر حافل بجلائل الأعمال الحربية بما كان يمتاز به هذا القائد العظيم من مهارة فى قيادة الجيوش وادارة المعارك ٠

كما أننا لابد وأن ننوه الى أن الاسكندر أتى الى مصر مسالما لا غازيا ٠ فقد كان المصريون اذ ذاك يئنون من الفرس ويبغون التخلص منهم ، فلما دحر الاسكندر المقدونى الفرس وأقبل الى وادى النيل اعتبره المصريون حليفا أتى لكى يعينهم على هؤلاء المستبدين ، ولذا لم يرفع فى وجه المصريين سلاحا ولم يرفعوا فى حربه يدا ٠

وأقبل الاسكندر يقرب لأقداس المصريين من مظاهر الاحترام ما كان يبديه نحو أقداس الاغريق ولا غـرابة فى هذا فقد كانت آلهة مصر آلهة للاغريق فى ذلك الحين ، وكان معبد آمون فى واحة سيوه ثالث ثلاثة أقداس فى العهد القديم فزاره الاسكندر وحاز بركته ٠

وكلنا يعرف قصة الاسكندر المقدونى فى بلدنا مصر ، فلا تزال العاصمة الثانية لبلادنا ـ الاسكندرية ـ أثرا باقيا خالدا لهذا القائد العظيم، فهو الذى ابتناها وخلع عليها اســمه لكى تكون مهبطا للتجار اليونانيين ومدرســة كبرى لآدابهم وعلومهم ٠ وكان يريد لهـا أن تجىء على غـرار « طروادة » حتى لقد قال رامزا الى ذلك : ان هوميروس سيكون هو مهندس مدينتى ٠

١ ـ نزوح السلاف الى مقدونية

تختلف مقدونية فى عصورها الوسطى اختلافا بينا وهائلا عن مقدونية فى العصور القديمة من حيث تركيبها العرقى واتساعها الجغرافى ٠ واتسعت مقدونية فى العصور الوسطى بحيث أصبحت تشمل كل المنطقة الواقعة بين نهر «ميستا»وبحيرة« أوهريد » وبين جبل «شار» وجبال «أوزجوف» ٠ **وقد بدأت عملية الاستيطان المستمر للسلاف فى هذه المنطقة فى الثمانينات من القرن السادس الميلادى وانتهت بوجه عام فى العشرينيات من القرن السابع الميلادى ٠**

وقدم السلاف الى مقدونية وهم مقسمون فى شكل قبائل متعددة استوطنت فى مناطق تطوقها ، من الناحية الجغرافية والسياسية ، تحالفات عسكرية قوية دائمة تحمل اسم « السكلافين المقدونيين » ٠ ولا تعرف سوى أسماء تلك القبائل التى استوطنت فى أماكن قريبة أو بعيدة من «سالونيك» مثل قبائل الدراجوفيت والفليجيزيت والبرسياك والساجودات والهاليكديتس ورينهين وستروميليان ٠ وكانت الحرفة الرئيسية لهؤلاء السلاف المقدونيين هى الزراعة ، وبعد تعرفهم المبـاشر على التقدم الذى توصلت اليه الزراعـة البيزنطية أحرزت حرفة الزراعة لديهم أيضا تقدما كبيرا ٠

وفى أثناء عملية استيطان مقدونية خاض السلاف أطول وأشد المعارك مع بيزنطة بشأن الاستيلاء على « سالونيك » ، وقد استمرت هذه المعارك حوالى مائة عام على فترات متقطعة ٠ وتعرضت المدينة لهجمات وعمليات حصار متكررة ٠ ومن أشد الهجمات ذلك الهجوم الذى حدث فى الفترة من عام ٦٧٤ وحتى عام ٦٧٧ م والذى كان سببه مقتل الأمير «بريبوند» ٠ وفى خـلال هذه المعارك ظهرت فى أوضح صورة وأشـد حدة التناقضـات السلافية البيزنطية ٠ وبينمـا كان الســلاف يسـعون باستيلائهم على « سالونيك » الى أن يطردوا بيزنطة من معقلها الأخير فى مقدونية كانت « سالونيك » تمثل بالنسبة لبيزنطة نقطة ارتكاز قوية لاستعادة نفوذها فى شبه جزيرة البلقان ٠

وبعد انشغال بيزنطة فى جهات أخرى وكذلك اهتمامها بمشاكلها الداخلية استمر الســلاف المقدونيون فى هجـومهم خلال هذه المعـارك وأصبحوا يمثلون أخطر خصم لها فى منطقة البلقان ٠ وبعد أن تخلص البيزنطيون من همومهم تحولوا للهجوم على القبائل المقدونية بغرض أن يخضعوها ويفرضوا عليها سيطرتهم ، ومن أجل أن يحافظ السلاف على استقلالهم أبدوا مقاومة شديدة وفى أعقاب ذلك استمرت المعارك حتى منتصف القرن التاسع ٠

وقد قامت بيزنطة بتهجير جزء من السلاف الخاضعين مرتين (فى عامى ٦٥٨ و ٦٨٩ م) الى آسيا الصغرى ، وتم توطين هؤلاء الجنود السلاف ، شأنهم فى ذلك شأن الجنود البيزنطيين فى مستوطنات زراعية عسكرية وبذلك تدفق دم جديد فى شرايين الجيش البيزنطى ، وبذلك تحول السلاف الى قوات تحارب العرب وترد هجماتهم المتكررة .

ويذكر أنه فى عام ٦٥٨ م فى عهد الامبراطور « قسطنطين الثانى » انتقلت وحدة عسكرية بيزنطية قوامها خمسة آلاف جندى من السلاف الى صف القائد العربى عبد الرحمن واستوطنت فى سوريا ، **وهذا يدفعنا على الفور الى الاستنتاج بان السلاف كانوا يحاربون مع البيزنطيين ومع العرب على حد سواء** . وقد جرت على الحدود بين الدولة الاسلامية وبين الامبراطورية حروب استمرت ما يقرب من ثمانية قرون اشترك فيها السلاف مع البيزنطيين ومع المسلمين العرب . **وهذه الحقيقة تجعلنا نقرر بان تاريخ العلاقات والحروب التى جرت بين العرب والبيزنطيين هو فى نفس الوقت تاريخ للعلاقات بين العرب وبين السلاف** .

وحاولت باقى القبائل السلافية الخاضعة أن تنظم نفسها من الناحية العسكرية وأن تنضم الى نظام المستوطنات الزراعية العسكرية . وتعرض للخطر بشكل جاد التطور المستقل للسلاف المقدونيين نتيجة لهذه المعارك المستمرة ، ولفترة طويلة تم وضع العراقيل أمام توحيد وتنظيم السلاف المقدونيين .

وبقدوم البلغار الى منطقة البلقان وباشتراكهم فى القتال مع بيزنطة حول السلطة فى مقدونية زادت صعوبة التطور المستقل للسلاف المقدونيين . وبعد وقوع معارك مديدة مع بيزنطة نجح البلغار أخيرا فى الستينات من القرن التاسع فى تثبيت أقدامهم فى مقدونية ، فيما عدا منطقة الحزام الممتدة بمحاذاة « سالونيك » . واضطر السلاف المقدونيون الذين ظلوا فى اطار الدولة البيزنطية الى دفع ضريبة سنوية والى تأدية الخدمة العسكرية ، الا أنهم لم يخضعوا للامبراطورية البيزنطية خضوعا كاملا ، فقد واصلوا حياتهم القبلية المستقلة تحت قيادة أمرائهم .

وحدث خلال هذه المعارك تغير كبير فى الحياة الاجتماعية والاقتصادية للسلاف المقدونيين ، وبالرغم من بدائية تسليحهم فى القرن الخامس الا انهم مع مضى الأعوام نوعوه تنويعا كبيرا . وتطورت أيضا تطورا عظيما بعض الحرف اليدوية الأخرى مع تطور صناعة الأسلحة وبمرور الزمن ظهر من بينهم أبرز الأعيان أمثال « هاكون » و « بريبوند » و « أكامير »

وغيرهم من الذين تميزوا عن أفراد قبيلتهم لا فحسب بوضعهم الاجتماعى بل وبعاداتهم فى الحياة .

ولم يتوقف التطور المستقل للسلاف المقدونيين داخل اطار الدولة البلغارية . وخلال الحكم البلغارى تدعمت الديانة المسيحية بشكل نهائى بين السلاف . **ويرتبط انتشار المسيحية ارتباطا وثيقا بنشاط «كليمنت»** الذى عمل فى ذلك الحين على تنظيم الكنيسة فى مقدونية بوساطة القساوسة المحليين . وقد نظم مختلف المدارس فى الأديرة التى أصبحت مراكزا للتعليم ، وينسب اليه تأليف حروف الكتابة « التشيريلتسية » الموجودة فى معظمها حتى وقتنا الحالى .

وهكذا أصبحت لغة السلاف المقدونيين هى اللغة التى تطور بها التعليم والثقافة الدينية السلافية فى القرون الوسطى . وقام بنفس العمل « ناعوم » الذى ، بعد اقامته فى القصر البلغارى لفترة طويلة ، انتقل فى عام ٨٩٣ الى مقدونية حيث واصل مع « كليمنت » نشر التعليم بين السلاف المقدونيين .

ومع تطور النظام الاقطاعى فى مقدونية حدثت اعادة ترتيب للطبقات وانهارت البلديات القروية ، كما تزايد نمو عدد الفلاحين غير المستقلين الموجودين فى اقطاعيات الكنيسة وغيرها من الاقطاعيات . وحدث استغلال سيىء ، بالتوازى مع هذا الانهيار ، للبلديات القروية وفقدان الحرية الشخصية لأعضائها . وعلاوة على ذلك فان الحروب المتكررة التى كانت تقوم بها بلغاريا أدت الى تزايد استنفاذ طاقة السكان .

وفى هذه الأثناء ظهرت فى مقدونية فى منتصف القرن العاشر حركة البوجوميل التى قامت بها جماهير الشعب العريضة رغبة منها فى احداث تغيرات اجتماعية ، وكانت هذه الحركة فى أساسها حركة طبقية من الجماهير المستغلة تحدث تحت ستار الدين . وسرعان ما نمت هذه الحركة وأصبحت حركة جماهيرية وتجاوزت حدود مقدونية . وكانت السلطات الرسمية تطارد مطاردة شديدة أتباع هذه الحركة بمختلف الوسائل والأساليب . ووفقا لطبيعة تعاليم هذه الحركة وقاعدتها الاجتماعية فلم يكن من الممكن أن تصبح حركة ثورية حقيقية لأنها كانت تطالب بعودة التنظيم القديم للبلديات ، وهو التنظيم الذى حكم عليه التطور التاريخى بالهلاك ، وبسبب ذلك لم يكن بالامكان أن تلاقى نجاحا .

٢ ـ امبراطورية صمويل

وباستمرار تطبيق نظام الاقطاع فى البلاد مصحوبا بتزايد الاستغلال من جانب الاقطاعيين من رجال الدين وغيرهم تزايدت صعوبة الحياة أمام الطبقات المستغلة · وكثيرا ما ازدادت نقمة الجماهير وعدم رضاها وظهرت فى شكل ثورات وتمردات ، مثل تلك الثورة التى جرت فى عام ٩٣٠ فى منطقة « ستروميتسا » ·

وفى عام ٩٦٩ قام أبناء الأمير « نيقولا » بثورة ، بيد أنه لم تلق نجاحا الا ثورتهم الثانية ضد بيزنطة فى عام ٩٧٦ · وتم خلال المعارك تشكيل دولة جديدة وحدت جميع السلاف المقدونيين ، وكانت هذه الدولة تمثل نهاية لمساعيهم ولكفاحهم المديد من أجل الحصول على استقلالهم الحكومى · وكانت الهجمات الأولى « لصمويل » ، وهو الابن الوحيد المتبقى من أبناء الأمير « نيقولا » ، موجهة صوب الجنوب · وباستغلاله للخلافات الداخلية فى بيزنطة وكذلك بسبب انشغالها بالقتال فى الجبهات الأخرى نجح صمويل فى نهاية القرن العاشر فى تحرير مقدونية كلها باستثناء « سالونيك » وبالاستيلاء على « تساليا » و « ايبير » وعلى جزء من ألبانيا مع « دراتش » وعلى شمال بلغاريا ·

وفى عام ٩٨٦ حاول الامبراطور البيزنطى « باسيل الثانى » ايقاف الأعمال العسكرية التى يقوم بها « صمويل » الا أن جيشه انهزم فى القتال عند بوابة « ترايان » وكاد « باسيل » شخصيا أن يقع أسيرا فى يد « صمويل » · ومن أجل مجابهة صمويل عقد « باسيل » حلفا مع الملك الكرواتى ومع أمير « دوكليان » ، وقد بدده « صمويل » فى عام ٩٩٨ م· بالهجوم الذى قام فيه بتخريب دالماسيا حتى زادار واخضاع « دوكليا » · وشملت حدود دولته آنذاك المناطق المذكورة بالاضافة الى ألبانيا ودوكليا وزاهومليا وراشكا والبوسنة وسريم ·

وبالرغم من المعارك المستمرة فقد عمل « صمويل » على تدعيم دولته وأقام بطريركية ، ونقل مركز الحكومة والسلطة الروحية من « برسبا » الى « أوهريد » المحصنة · وفى عام ١٠٠٤ وقع فى يد البيزنطيين جزء كبير من امبراطورية « صمويل » ومعه مدينة « سكوبلى » وحارب « صمويل » عشر سنوات كاملة من أجل الدفاع عن باقى مناطق دولته ، الا أنه تعرض لهزيمة منكرة فى المعركة التى جرت فى « بلاسيكا » فى عام ١٤١٠ م وأمر « باسيل الثانى » بسلب البصر من حوالى ١٤ ألفا من جنود «صمويل» المأسورين · ثم حدثت صراعات بين أفراد العائلة الحاكمة زادت من اضعاف القدرة الدفاعية للدولة المقدونية ·

٣ ـ عودة النفوذ البيزنطى

وبعد انهيار امبراطورية « صمويل » وقعت مقدونية ثانية تحت وطأة النفوذ البيزنطى ، ولأسباب تكتيكية منح « باسيل » الثانى الاستقلال الذاتى لبطريركية « أوهريد » واحتفظ بنظام الضرائب القديم الذى كان ساريا فى عهد « صمويل » · ومن أجل تأمين سلطانه ونفوذه بدأ هذا الامبراطور يضفى الطابع اليونانى على أفراد الطبقة الاقطاعية فى مقدونية عن طريق علاقات الزواج وعن طريق جلب الموظفين البيزنطيين · وبعد وفاته نشأت تغيرات هامة ، ففى الثلاثينيات من القرن الحادى عشر بدأ احلال وتبديل نظام الضرائب السلعى بنظام الضرائب النقدى ، الأمر الذى أصبح فى ظروف الاقتصاد السلعى يمثل عبئا غير عادى بالنسبة للسكان ·

وساءت الأحوال الاقتصادية والاجتماعية التى كانت عسيرة بالفعل نتيجة لهجمات السلب والنهب من جانب جنود الباشقدير والشعوب الأخرى · وفى مثل هذا الموقف نشبت فى عام ١٠٤٠ بقيادة « بيتار دليان » ـ حفيد « صمويل » ـ ثورة كبيرة بهدف التخلص من السلطة البيزنطية · ووجه الثوار نشاطهم صوب الجنوب فى اتجاه « سالونيك » من أجل نشر الثورة بين السكان هناك · وفى البداية هاجموا « سالونيك » وحيث أنهم لم يتمكنوا من احتلالها فقد تحركوا فى مختلف الاتجاهات ·

ونجحت وحدة من الثوار فى هزيمة الجيش البيزنطى عند « تيفا » وبعدها امتدت الثورة الى ايبير · واتجهت وحدة ثانية من الثوار صوب الغرب بغرض احتلال « دراتش » بينما ظلت باقى القوات الثورية مع « دليان » عند « أوستروفو » لكى تمارس نشاطها في جنوب مقدونية . وقد أدى هذا التمزق للقوات الثورية الى اضعاف قوتها الضاربة اضعافا كبيرا · وباخماد ثورة « دليان » فى عام ١٠٤١ أعادت بيزنطة بسط نفوذها على مقدونية · وبهذه المناسبة جرت مضاعفة الضرائب على السكان ·

ونشبت ثورة جديدة ومركزها فى « تساليا » فى عام ١٠٦٦ ، ولكنها سرعان ما فشلت · وكانت هذه الثورة فى حقيقة أمرها تمهيدا لثورة كبرى مركزها « سكوبلى » فى عام ١٠٧٢ ويقودها « جورج فويتة » · وفى هذه المرة طلب الثوار العون من الأمير « ميهايلو » الذى أرسل لهم ابنه « بودين » بثلثمائة جندى « وبيتريلو » قائدا للجيش · وبعد أن تم التخلص من السلطة البيزنطية فى منطقة وادى نهر فاردار المقدونية تحرك « بودين » على رأس وحدة صوب « نيش » و « بيتريلو »

بوحدة أخرى تجاه « كوستور » . وفى ذلك الحين بدأ الجيش البيزنطى عملياته العسكرية واحتل أولا « سكوبلى » وأسر « فوتيه » ثم تم أيضا أسر « بودين » الذى انهزم فى معركة كوسوفو . وفى بداية عام ١٠٧٣ تم أيضا اخماد هذه الثورة اخمادا تاما .

واستمرت الحالة الاقتصادية والاجتماعية للجماهير فى التدهور ، وساهمت فى ذلك مساهمة كبيرة هجمات النهب التى قام بها النورمان والكومان والصليبيون وغيرهم . ولم يتمكن الفلاحون من الوفاء بالتزاماتهم الضريبية ولذا فقد بدأ جامعو الضرائب يجمعونها فى شكل ضرائب « بشرية » ، فكانوا يأخذون من كل خمسة غلمان غلاما للعمل كعبد وكأنهم يأخذون خمس أو عشر الماشية . ونتيجة لانتشار الجوع فقد ظهرت حينذاك ظاهرة استعباد الفلاحين . وجعلت الحروب المتكررة المتزايدة التى قادتها بيزنطة حياة الفلاحين غير محتملة . وفى بداية القرن الثانى عشر تم الاحساس بالافتقار الى العمالة نتيجة لتزايد استدعاء الجنود . واشتركت الكنيسة كذلك فى استغلال الفلاحين ولذا فانهم أخذوا يهجرون قراهم بأعداد كبيرة ويهربون الى الجبال .

وفى نهاية القرن الثانى عشر أخذت بيزنطة تنهار انهيارا سريعا ومن ثم غمرتها موجة من الثورات . ففى حوالى عام ١١٨٥ قام البلغار بثورة ، وقام « دوبرومير » بالتخلص من السلطة البيزنطية فى منطقة «ستروميتسا» وما حولها . وبعد تدعيم سلطانه قام «دوبرومير» بتوجيه نشاطه صوب الجنوب ، ونظرا لأن بيزنطة لم تتمكن من احتلال « بروسيك » ، قلعته الرئيسية ، فقد اضطرت الى الاعتراف باستقلاله بمعاهدة سلام وبالحلف الذى تم عقده آنذاك .

الا أن «دوبرومير» لم يلتزم بهذه المعاهدة لفترة طويلة واستأنف القتال ونجح فى الاستيلاء على «بلاجونيا» بالاضافة الى «برليب» . وبعد فقدان «ستروميتسا» أصبح مصير «دوبرومير» مجهولا وأصبحت مقدونية هدفا لغزوات الدول المجاورة ، وعلى الأخص بعد الحرب الصليبية الرابعة .

٤ ـ استيلاء صربيا على مقدونية

ونجح الاقطاعى «ستريز» بمساعدة «راشكا» وبعون من أتباعه أن يحرر حينذاك جزءا من مقدونية وأن يدعم نفوذه عليه . وباستغلاله لتمزق بيزنطة وللمعارك الجارية بين الأطراف المتحاربة أفلح «ستريز» فى توسيع رقعة ممتلكاته التى امتدت من سكوبلى وحتى سالونيك ومن

أوهريد حتى ستروميتسا . بيد أن حكمه لم يستمر فترة طويلة ، ففى عام ١٢١٤ تم قتله بعد محاولة فاشلة لازالة العداء مع صربيا . وبعد مقتل «ستريز» ضمت «ايبير» جزءا من مقدونية لها ، وفى عام ١٢٣٠ احتل البلغار مقدونية كلها .

وبدأت الدولة الصربية تتوسع فجاة حينذاك بالتقدم صوب الأراضى المقدونية وبذلك أخذت تهدد المواقع البلغارية البيزنطية . وفى الثمانينات من نفس القرن ، وفى أثناء حكم الملك «ميلوتين» نجحت صربيا فى السيطرة على شمال مقدونية . وخلال المعارك التالية حققت نجاحات أكبر بحيث أنه فى الأربعينيات من القرن الرابع عشر ، وفى عهد الامبراطور «دوشان» سيطرت سيطرة تامة على مقدونية وأصبحت سكوبلى آنذاك مركزا للدولة الصربية الشاسعة .

٥ ـ استقلال مقدونية

وبعد وفاة الامبراطور «دوشان» فى عام ١٣٥٥ وقعت الدولة الصربية فى أزمة عسيرة ، وعلى الأخص بسبب مساعى كبار الاقطاعيين فى الحصول على الاستقلال . وفى أثناء حكم «أوروش» ، ابن «دوشان» ، (من ١٣٥٥ وحتى ١٣٧١) بدأ الانهيار السريع للامبراطورية وانحلالها . وفى مقدونية التى كانت جزءا لايتجزأ من دولة دوشان أخذت ، على وجه السرعة ، أجزاء متفاوتة المساحة تحصل على استقلالها . وحصل كل من «فوكاشين» و «أوجليشا» والأخوين «ديانوفيتش» على أكبر هيبة وعلى أكبر مساحة من الأرض .

وسيطر «فوكاشين» على الجزء الغربى من مقدونية ، من «بريزرن» فى الشمال وحتى المنطقة الواقعة أسفل «كوستور» فى الجنوب ، ومن نهر فاردار فى الشرق وحتى الجبال الألبانية فى الغرب . وفى عهد «دوشان» أصبح حاكما للمقاطعة فى «برليب» وحصل من «أوروش» على لقب الحاكم المطلق ، وأصبح من الشخصيات المؤثرة فى القصر وفى عام ١٣٦٦ حصل على لقب ملك . ولم تكن له عاصمة مستديمة ولكنه ، فى أغلب الأحيان ، كان يقيم فى مدن « برليب » « سكوبلى » و « برود » . واستمر فى اعترافه الشكلى بالسلطة العليا للامبراطور « أوروش » ، بيد أنه ـ من الناحية الفعلية ـ كان يحكم حكما مستقلا وصك نقوده الخاصة به . وفى اطار الاجراءات التى اتخذها من أجل تنمية التجارة فى بلاده أكد فى عام ١٣٧٠ الامتيازات التى منحها الامبراطور « دوشان » لتجار « دوبرفنيك » .

أما « يوفان أوجليشا » ، شقيق الملك « فوكاشين » ، فقد سيطر على

الجزء الجنوبى الشرقى من مقدونية وكانت عاصمته « سيرا » · وقبله كانت تحكم هذه المدينة وما حولها الامبراطورة « يلينا » ، والدة الامبراطور « أوروش » ، وكان الامبراطور « فويهنا » يحكم « درام » وضواحيها · وقد سيطر « أوجليشا » على أراضيهما فى اثر ترهب الامبراطورة « يلينا » ووفاة الامبراطور « فويهنا » · وكان « أوجليشا » يلقب نفسه بالحاكم المطلق أو الامبراطور فى الوثائق والمستندات الرسمية ·

وفيما يتعلق بالأخوين « ديانوفيتش » فقد كانا يحكمان المنطقة الممتدة بين فاردار وستروما ، وكانت عاصمتها « فلبوجد » · وعلاوة على ذلك فقد كانت تتبعهما أيضا مدن كراتفو وشيتب وكوتشانا وسترومبتسا وبيتريتش ·

٦ ـ استيلاء الأتراك العثمانيين على مقدونية

ومثل هذا التمزق والصراعات المتكررة بين الاقطاعيين مهد الطريق أمام الأتراك العثمانيين للاستيلاء على مقدونية · وكان « دوشان » قد تنبأ بخطر الأتراك العثمانيين واتخذ خطوات تهدف الى تحطيمهم · ولم يتمكن الامبراطور « أوجليشا » من ادراك حقيقة هذا الخطر ، وكانت الحدود الشرقية لبلاده تتلامس تلامسا مباشرا مع مواقع الكتائب التركية · وقد عمل على توحيد قوات جميع الدول المعرضة للخطر بهدف طرد العثمانيين من أراضيها ·

واتخذ أول خطوة نحو التقارب مع بيزنطة وذلك بموافقته على عقد صلح مع بطريركية القسطنطينية معترفا بحقوقها السابقة على أراضيه · الا أن سرعة تطور الأحداث أجبرت « أوجليشا » على أن يتخذ فى ربيع عام ١٣٧١ الاستعدادات اللازمة للدخول فى قتال مع الأتراك العثمانيين ، وانضم الى دعوته الملك « فوكاشين » · ولا توجد معلومات دقيقة عن عدد الجنود الذين جمعهما الأخوان ، ووفقا لبعض المصادر فقد بلغ عددهم حوالى مائة وستين ألف جندى · غير أنه من المؤكد أن جيشهما كان يفضل الجيش العثمانى ، الأمر الذى دفع العثمانيين الى استخدام أسلوب المباغتة فى الهجوم ·

وفى ليلة السادس والعشرين من سبتمبر فى عام ١٣٧١ هاجم الأتراك العثمانيون المعسكر الحربى للأخوين الذين لقيا مصرعهما فى هذه المعركة وتم تحطيم جيشهما تحطيما كاملا · وترتبت على هذه الهزيمة آثارا حاسمة لا فحسب بالنسبة لمصير مقدونية التى سرعان ما وقعت بعد ذلك تحت السيطرة التركية ، بل وبالنسبة لباقى دول البلقان ·

واستولى العثمانيون بسرعة على جميع أراضى الامبراطور « أوجليشا » مع التوغل فى أعماق مقدونية ·

وبالرغم من ذلك فلم يكن الأتراك العثمانيون يملكون ، فى ذلك الحين ، القوة الكافية للسيطرة المستمرة على منطقة مقدونية كلها · واحتل «ماركو» (١٣٧١ ـ ١٣٩٥) مكان أبيه الملك «فوكاشين» الذى لقى مصرعه، واضطر الى الاعتراف بسيادة السلطان العثمانى · وسنرى فيما بعد كيف تغنت به القصائد والحكايات الشعبية فى منطقة البلقان بأكملها ·

وأصبح الأخوان «ديانوفيتش» أيضا من التابعين للعثمانيين ، واحتفظا هما والملك « ماركو » بالادارة الذاتية الداخلية فى مناطقهم مع الالتزام بدفع جزية سنوية للعثمانيين وتقديمهم الجنود عند الحاجة · وعند تنفيذ هذا الالتزام سقط كل من «ماركو» و «قنسطنطين ديانوفيتش» فى المعركة عند « روفينا » فى عام ١٣٩٥ وهما يحاربان فى صف الأتراك · **وبعد مقتلهما وضع العثمانيون أيديهم ، دون عقبات كبيرة ، على مقدونية كلها ·**

٧ ـ مقدونية تحت الحكم التركى

فى بداية الحكم التركى لمقدونية ، وعلى الأخص فى الفترة الأولى حتى منتصف القرن الخامس عشر ، حدث نوع من الكساد فى التنمية الاقتصادية وفى التطور الاجتماعى وذلك بسبب حدوث تغيرات جوهرية فى حياة البلاد · وعلاوة على ذلك فقد كانت تسود تركيا ، فى العقود الأولى من القرن الخامس عشر ، صراعات داخلية شرسة كان يتم الاحساس بتأثيرها فى مقدونية وكذلك فى باقى أجزاء شبه جزيرة البلقان الواقعة تحت الحكم التركى ·

وجرى حدوث تحسن منذ النصف الثانى من القرن الخامس عشر ، وسجل الاقتصاد والتجارة فى المدن المقدونية تقدما ملحوظا وكبيرا منذ نهاية القرن الخامس عشر · وفى هذه الفترة ازدهرت فى المدن الحرف المرتبطة بالتعدين والرعى · وكانت المراكز الاقتصادية والتجارية فى مقدونية هى «سالونيك» و «سكوبلى» و «بيتولا» · وكانت «سالونيك» هى الميناء الرئيسى الذى يتم عن طريقه نقل التجارة الخارجية لمقدونية · وكان يتم تفريغ البضائع الواردة من غرب أوروبا فى هذا الميناء ويتم فيما بعد نقلها بالعربات والشاحنات الى داخل منطقة البلقان ، وبالطبع يتم نقلها الى المدن والقرى المقدونية حيث يتم بيعها أو استبدالها بالمنتجات المحلية ·

وبوجه عام كان يتم تصدير المنتجات الزراعية ومنتجات الماشية ، وعلى الأخص الجلود والصوف .

وقد أبدى أفراد الشعب المقدونى بعض مظاهر المقاومة للحكم التركى ، وكانت جماعة «الهايدوك» هى أقدم شكل لهذه المقاومة وأكثره انتشارا . وفى عام ١٥٦٤ نشب تمرد «ماريهوف» الذى اشترك فيه الفلاحون من «ماريهوف» والمواطنون من «برليب» وكان الدافع اليه هو فرض مختلف أنواع الضرائب . وقد اضطرت الحكومة المركزية الى التدخل مما يدل على خطورة هذا التمرد ، ولكن لاتوجد معلومات عن تطور الثورة فيما بعد . ونشبت قلاقل مماثلة فى النصف الثانى من القرن السادس عشر فى باقى أنحاء مقدونية مثل «أوهريد» و «سكوبى» و «بيتولا» وغيرها .

وتدهورت الأحوال فى الامبراطورية العثمانية تدهورا مريعا فى القرن السابع عشر ، وبرزت بروزا متزايدا عملية انهيار الأجهزة الاقطاعية الحربية التى تواجدت منذ منتصف القرن السادس عشر . وأصبحت من الظواهر المألوفة عدم احترام القوانين واساءة المعاملة والفساد والطغيان . وأصبح الجيش العثمانى الذى كان لاينهزم فى وقت من الأوقات يتعرض لهزيمة تلو الأخرى فى ميدان القتال . وأدى كل هذا الى سرعة تدهور أحوال الرعية وبالتالى الى تزايد العمليات الهجومية من جانب جماعة «الهايدوك» فى جميع أنحاء شبه جزيرة البلقان الواقعة تحت السيطرة التركية . وانتشرت كتائب أفراد المقاومة فى مقدونية كلها ، وتم اتخاذ اجراءات عنيفة وشديدة من أجل القضاء عليها مما أدى الى تزايد نقمة أفراد الشعب ومقاومته .

وفى نهاية القرن السابع عشرقامت أول ثورة للفلاحين فى مقدونية، ويطلق عليها ثورة «كاربوش» وشملت الجزء الشمالى الغربى من مقدونية. وكان الدافع المباشر للثورة هو توغل الجيش النمساوى توغلا عميقا فى المنطقة الخلفية من الامبراطورية التركية فى اثر الحصار التركى الفاشل لمدينة فيينا فى عام ١٨٨٣ . غير أنه تم القضاء على الثورة وتم اعدام «كاربوش» فى «سكوبلى» . وترك الكثير من الثوار وكذلك بعض سكان المناطق الشمالية بلادهم واتجهوا نحو المجر . وهكذا انتهت هذه المحاولة الفاشلة للتخلص من الحكم التركى . ومن الجلى أن الظروف الداخلية والخارجية لم تكن مهيأة من أجل نجاح الكفاح التحررى للشعب المقدونى .

وبانسحاب الجيش النمساوى من مقدونية نشأت تغيرات ضخمة فى الحياة الاقتصادية والسياسية للسكان المقدونيين ، ونشأت كذلك تغيرات

اقتصادية ضخمة فى الامبراطورية العثمانية فى القرن الثامن عشر . ومن ناحية أخرى تغير النظام الاقطاعى التقليدى بسبب تأثيرات رءوس الأموال الأجنبية وتغلغل الاقتصاد النقدى . بيد أن الحروب وأعمال التخريب من جانب الناقمين وعصابات السلب والنهب كانت تعمل على اعاقة تطور النظام الاقتصادى . وبالاضافة الى ذلك كانت السلطات التركية ذاتها تقوم بأعمال غير شرعية ضد السكان ، وأدى هذا الى هجرة الفلاحين من قرية الى أخرى والى هروب الى الجبال وما الى ذلك .

وبالرغم من أن الحروب التى نشبت بين تركيا وبين النمسا وفينيسيا وروسيا كانت تزيد من عسر حياة سكان مقدونية الا أنها أيقظت لديهم الأمل فى الاستقلال . وفى عام ١٧١٢ نشبت ثورات فى ألبانيا وفى منطقة «فودن» المقدونية ، وبعدها بثلاث سنوات تم نفى عدد كبير من سكان «أوهريد» الذين اشتبه فى وجود صلة لهم بفينيسيا . وبعد ذلك فى أثناء الحرب التركية النمساوية والحرب الروسية التركية (فى ١٧٣٧ وحتى ١٧٣٩) قام الشعب المقدونى بقيادة كبير أساقفة «أوهريد» والبطريرك «ارسينيا الرابع» وكبير أساقفة «سكوبلى» باجراء مفاوضات مع النمسا بشأن اشتراك الشعب فى صف النمسا فى الحرب المتوقعة .

٨ ـ اشتراك الشعب المقدونى فى الثورتين الصربية واليونانية

وخلال النصف الأول من القرن التاسع عشر حدثت تغيرات ضخمة فى الحياة الاقتصادية والاجتماعية للامبراطورية العثمانية ، وهى الفترة التى كان ينهار فيها نظامها الاقطاعى الحربى وتتوالد قوى اجتماعية جديدة . وأزمة النظام الاقطاعى الحربى العثمانى زادت من تدهور الوضع الاقتصادى لجماهير الفلاحين فى مقدونية التى ناءت كواهلها بمختلف أنواع الضرائب والالتزامات المتزايدة . وقام السلطان « سليم الثالث » (١٧٨٩ ـ ١٨٠٧) بمحاولات للاصلاح من أجل تحقيق المركزية وتدعيم هيبة السلطة المهتزة عن طريق اعادة تنظيم القوى العسكرية للدولة العثمانية ، وأثارت هذه المحاولات للاصلاح ردود فعل العناصر الرجعية من أفراد الطبقة الاقطاعية الحاكمة فى مقدونية وزادت بالتالى من انتشار حالة الفوضى ، وقامت مجموعات من المتمردين تتألف من الجنود الآبقين من الجيش والانكشارية والمسيحيين بمهاجمة القرى والمدن ونهبها .

ودفع الوضع الاقتصادى العسير والاستيلاء على الأراضى من الفلاحين وفرض ألوان الظلم ـ الكثير من المقدونيين الى الهروب الى الغابات والى الانضمام الى جماعات المقاومة . ولم تتمكن هذه الغليانات فى مقدونية

في بداية القرن التاسع عشر من أن تتخذ شكل الكفاح المنظم المسلح ضد العثمانيين ، الا أن العديد من المقدونيين المهاجرين والعاملين خارج بلادهم اشتركوا اشتراكا فعليا فى الثورة الصربية الأولى .

ونشأت حالة من الفوضى فى مقدونية بسبب تمردات الباشـوات الأتراك والحكام الآخرين وأنشطة جماعات « الهايدوك » فى هذا الاقليم العثمانى فى أثناء الثورة الصربية الأولى . وفى عام ١٨٠٦ قامت قوات كبيرة من المتمردين وجماعات «الهايدوك» من مدن «تيكفيش» و «فيليس» و «كيتشفو» ومن المناطق الألبانية بمهاجمة « بيتولا »ونهبها . ومن أجل الدفاع عن المدينة وما حولها من هذه الهجمات ومن عمليات النهب قام الاقطاعى جلال الدين بك بتنظيم دفاع مسلح مشترك عن الأتراك وعن المقدونيين فى منطقة « أوهريد » .

وأدت الأنشطة والاجراءات الفعالة التى اتخذها « السلطان محمود الثانى » ، خليفة « السلطان سليم » ، (١٨٠٨ – ١٨٣٩) الى اخماد القلاقل والصراعات بين الاقطاعيين العثمانيين فى مقدونية . الا أن الثورة اليونانية اجتاحت الجماهير مرة ثانية فى عام ١٨٢١ ، وعلى الأخص فى جنوب مقدونية ، واشترك فيها بعض المقدونيين .

وفى عام ١٨٢٢ قام الفلاحون فى منطقة « فودين » بثورة وتغلبوا على القوات العثمانية واحتلوا مدينة « نيجوش » . وتحرك الجيش العثمانى من مدن « سالونيك » و « بيتولا » و « أوهريد » بقوة تبلغ خمسة عشر ألف جندى وتم اخماد الثورة . وبعد اخماد هذه الثورات والاضطرابات حدث تحسن نسبى فى مجال الأمن العام والمواصلات وأدى اتساع المدن عن طريق هجرة الفلاحين اليها وتدعيم الحاميات العثمانية . وساهم كل هذا فى انعاش التجارة والحرف والاقتصاد بوجه عام .

٩ ـ بداية حركة النهضة المقدونية

وقد تزامن ظهور وتطور حركة النهضة المقدونية مع حدوث الغليانات الاجتماعية وتشكيل جماعات جديدة فى مقدونية كنتيجـة حتمية لتزايد التباين بين سـكان المدن والقرى ولتغلغل عنـاصر الاقتصـاد الرأسمالى ولنشاط العناصر القوية غير الاقتصادية . وساعد التجار وأصحاب الحرف من أهل البلاد والعناصر الأخرى من طبقة البرجوازية المقدونية الجديدة على انتشار الثقافة والتعليم باللغة المحلية ، وجاءت هذه المساعدة تحت تأثير الأفكار التحررية للحركات الثورية فى صربيا واليونان والاصلاحات التى جرت فى تركيا ، وكان هدفهم من ذلك هو نجاح قيامهم بأنشطتهم الاقتصادية

وتسهيل الاتصالات . ومثل هذا التوجه والنشاط من جانبهم فى الظروف والاطارات التاريخية والاجتماعية الموجودة آنذاك جعل منهم دعـاة لحركة النهضة وللتقدم الاجتماعى فى مقدونية .

وحتى ذلك الحين كانت المراكز الثقافية التعليمية ، الوحيدة تقريبا ، هى الأديرة أو المدارس الموجودة بداخلها وكانت تحافظ على التقاليد وعلى استمرارية التعليم السلافي في مقدونية . وقدر أبرز رجال الثقافة المقدونية حينذاك تقديرا عاليا دور اللغة الشعبية فى تثقيف الشعب وأهمية تطبيقها فى الكتب المطبوعة الجديدة مع التأكيد على أن الكلمة المكتوبة تصبح بهذه الطريقة فى متناول طبقات الشعب العريضة بأيسر السبل الممكنة . وقد أعرب احد الناشرين المقدونيين عن هذا المفهوم بقوله أن لغة الشعب تعتبر « مفتاحا مصنوعا من حديد وصلب » يتم به فتح قلب الانسان العادى .

ومن المعلوم أن حركة النهضة المقدونية كانت تجرى فى نفس وقت حدوث عملية التحديث التدريجى لتركيا ، وحصلت حركة النهضـة على انطلاقة كبيرة بعد التنبؤ باجراء اصلاحات كبيرة فى عام ١٨٣٩ . وصدرت وعود بحماية الأشخاص والممتلكات والأعراض لجميع رعايا الدولة العثمانية دون تمييز للتبعية الدينية أو القومية . وقاوم الاقطاعيون فى مقدونية اجراء أية اصلاحات . وفى عام ١٨٤٣ نشبت ثورة الاقطاعيين الألبان فى « بولوج » وفى « الجبل الأسود السكوبى » ، وبالاشتراك مع قوات باشوات وباكوات « بريشتينا » و « فرانيسكى » غزوا كل منطقة شمال مقدونية حتى « شتيب » و « رادوفيشته » محتفظين بهـذه المنطقة تحت سيطرتهم الى أن خسروا المعركة فى « كاتلانوف » الواقعة أسفل مدينة « سكوبلى » . وعودة السلطة المركزية فى هذه المنـاطق كان يعنى القضـاء الجزئى على الطغيان وعلى اختطاف المتمردين ، وسمح تطبيق الاصلاحات بظهور بعض المظاهر الأكثر حرية فى الحياة الثقافية والتعليمية للسكان المسيحيين .

وتحت تأثير هذا الجو الملائم ظهر كتاب « **قواعد نحو اللغة السلافية** » فى عام ١٨٥٠ من تأليف « يوان ديميتريفيتش » من مدينة « أوهريد » ، ولم يكن الغرض منه دينيا على الاطلاق ، وقد خدم ـ الى حد ما فيما بعد ـ مؤلفى كتب النحو والقراءة المقدونيين . وكان من نتائج الاجراءات التى تلت ذلك صدور الفرمان السلطانى فى عام ١٨٤٥ وتشكيل لجنة الباب العالى من أجل تحسين التعليم انشاء المدارس فى بعض الأماكن بمقدونية وتدعيم النضال من أجل الغـاء الدور القيادى الذى تقـوم به سلطات بطريركية القسطنطينية فى مجال الأنشطة الدينية المدرسية . **واستغلت البرجوازية اليونانية بطريركية القسطنطينية كستار وسلاح لتنفيذ نواياها التوسعية تجاه السكان السلاف ، والهادفة الى حرمانهم من حقوقهم** . وكان

رجال الدين المسيحى ، وهم من اليونانيين أساسا ، يظهرون – تحت رعاية بطريركية القسطنطينية – على أنهم الممثلون الروحيون والسياسيون للرعايا المسيحيين أمام العثمانيين ·

١٠ – الصراع المعادى لليونان فى مقدونية

وحيث أن المسيحيين من أفراد الشعب المقدونى كانوا يدينون بالديانة الأرثوذكسية الشرقية ويتبعون السلطة القضائية لبطريركية القسطنطينية فقد سعى المؤيدون لفكرة اقامة اليونان الكبرى الى أن تتم معاملة المقدونيين كجزء مكمل للشعب اليونانى وعن طريق تقديم الرشاوى واستخدام مختلف أساليب التقييد والطغيان بذلوا كل جهودهم من أجل اخماد المقاومة الطبيعية التى أبداها أفراد الشعب المقدونى ضد اضفاء الطابع اليونانى عليهم ·

وقد اشتدت هذه المقاومة اشتدادا كبيرا بعد انشاء « المجالس » ، وهى الأجهزة الاستشارية للادارة التركية ، وكان يشترك فيها ممثلو الجماعات الدينية وهكذا كان المقدونيون يتعرضون لتأثير قوى من جانب اليونانيين والفلاش والأرمن وغيرهم ·

وقد تم اتخاذ بعض الخطوات والاجراءات التى أدت الى اشتداد كفاح الشعب المقدونى على الصعيدين السياسى والدينى ، ومنها التسهيلات الجزئية التى تم منحها للقوميات غير التركية مثل الغاء الخراج والاصلاح القضائى واشتراك المسيحيين فى الخدمة العسكرية ، وتشكيل جهاز خاص من القساوسة والعلمانيين من القوميات المسيحية بهدف حل المسائل غير الدينية وازالة بعض العوائق الادارية فيما يتعلق باصلاح وانشاء الكنائس والاعتراف بحقوق الجماعات الدينية فى افتتاح مختلف المدارس ، وتشكيل محاكم مختلطة فى الولايات والسناجق ، ومنح وعود لجميع المواطنين الأتراك – بغض النظر عن دينهم وعن انتمائهم القومى – بامكانية التحاقهم بالوظائف الحكومية ·

١١ – أهمية حركة « القوميين المقدونيين »

وتم تكوين أرض مناسبة للانتقال الى مرحلة متطورة من حركة النهضة عن طريق التدعيم التدريجى للسكان المحليين وانتشار التأثيرات الثقافية والأفكار السياسية الديمقراطية القادمة من الدول الأوروبية المتقدمة · وفى منتصف القرن الحادى عشر ظهر الأدب المقدونى غير الدينى وما تسمى بالحركة القومية المقدونية · وكان الأدباء يدافعون عن تنوير الشعب المقدونى ويسعون الى تحطيم الأوهام والخرافات ·

وانعكس فى الأنشطة الأولى للقوميين المقدونيين ترددهم واستعدادهم لتقبل الحلول الوسط التى كانت فى نهاية الأمر تعبيرا عن عدم الحسم والتردد من جانب الطبقة المقدونية البرجوازية التى لم تشتد قوتها بما فيه الكفاية ·

واشتد نضال المقدونيين وأفراد طبقة المثقفين ضد الحكام اليونانيين وضد التأثيرات اليونانية بوجه عام فى الستينيات من القرن التاسع عشر فى الوقت الذى سعى فيه الحكام ورجال الدين اليونانيون الى منع استخدام اللغة السلافية الدينية فى الطقوس الدينية ، والى فرض اللغة اليونانية فى جميع الكنائس والمدارس المقدونية · واستنادا الى التقاليد القديمة أكد المقدونيون مطالبتهم بتجديد أسقفية«أوهريد»، المستقلة من قبل ، وبتعيين رجالهم فى المناصب الدينية الهامة ·

وفى عام ١٨٦٠ قدم سكان «أوهريد» والقرى المجاورة شكوى جماعية تحمل اثنى عشر ألف توقيع ضد الحاكم اليونانى المكروه«ميليتى»وطالبت بخلعه · وأعلن سكان مدينة « برليب » فى عام ١٨٦٨ عدم خضوعهم لبطريركية القسطنطينية · وفى العام التالى استولى السكان المقدونيون على الكنيسة الموجودة فى « كروشيفو » وأعلنوا انفصالهم عن البطريركية · وقام ألفان من المواطنين والفلاحين بالاشتراك فى الهجوم على المطرانية ، وهذا يبين أبعاد الكفاح المقدونى ضد الحاكم اليونانى فى « سكوبلى » فى ذلك الحين ·

ونقاط الاتصال والمصالح المشتركة بين المقدونيين والبلغار فى نضالهم الموحد ضد بطريركية القسطنطينية وضد سياسة اضفاء الطابع اليونانى جعلت من المحتم اجراء تعاون بين الشعبين وتوحيد لجهودهما ، خاصة وأن بطريركية القسطنطينية عارضت تأسيس الكنائس القومية والاعتراف بها فى الامبراطورية العثمانية · وفى عام ١٨٧٠ صدر الفرمان السلطانى الذى قرر انشاء كنيسة تشمل الأبرشيات فى بلغاريا وفى جزء من صربيا وفى مقدونية · وجرت فى المجلس الخاص بانشاء الكنيسة البلغارية فى عام ١٨٧١ فى القسطنطينية مناقشة ما اذا كان سيتم السماح بدخول أعضاء الوفد القادمين من مقدونية ، وذلك لأنهم ينوون تقديم طلبات خاصة ·

واشتدت حدة الخلافات والصراعات بين ممثلى مقدونية وبلغاريا فيما يتعلق بادارة الكنيسة وباختصاصاتها بعد تفريق أفراد الجماعة المقدونية فى القسطنطينية وتشكيل قسم بالكنيسة يختص بادارة المدارس · واتسعت دائرة النقمة وتم البدء فى تنفيذ المقاطعة ضد المدرسين الذين

ارسلتهم الكنيسة الى مختلف المدن المقدونية والذين كانوا يعملون على غرس الوعى القومى البلغارى بين السكان المقدونيين . والمرارة الناجمة عن تصرفات الكنيسة وعلى الأخص فى الأقاليم الجنوبية من مقدونية فى عام ١٨٧٤ أدت الى اشتداد المساعى الرامية الى الانفصال عن الكنيسة البلغارية والتحول الى الطائفة الشرقية والى البروتستانتينية .

واستمرت الشخصية القومية المقدونية فى التشكل خلال فترة السبعينيات من القرن التاسع عشر ، واتضح ذلك لا فحسب فى الأنشطة المعادية للكنيسة البلغارية بل وفى تزايد التبلور الواضح للفكر القومى المقدونى ، وكذلك فى بعض الأنشطة الثقافية . وخلافا لسابقيه من القوميين المقدونيين كان «جورجى بوليفسكى» يدافع ـ دون أدنى تردد ـ عن الرأى القائل بأنه ينبغى على المقدونيين ألا يصيغوا لغتهم الأدبية على أساس لغة الكلام فحسب مع تأييد أن يتم ايكال تأليف كتاب النحو المقدونى الى مجموعة من العلماء ومن المتمكنين من معرفة اللهجات المقدونية .

١٢ ـ فترة الثورات والغليانات

وقد اجتاح الغليان الثورى المنتشر فى منطقة البلقان فى الفترة من ١٨٧٥ الى ١٨٧٦ الجماهير المقدونية التى كانت حتى ذلك الحين تظهر ثورتها ضد الظلم وضياع الحقوق عن طريق الهجمات المسلحة لجماعات « الهايدوك » والآبقين . وفى نهاية عام ١٨٧٥ وبداية ١٨٧٦ حدث تشكيل لمنظمة مستقلة فى « سالونيك » من أجل الاعداد لثورة مسلحة فى مقدونية . وكان زعيم الثائرين هو « ديمتار بوب جيورجييف » الذى درس بالمدرسة العسكرية فى بلغراد التى كانت آنذاك مركزا لكثير من الثوار القوميين من البوسنة وبلغاريا ومقدونية.وفى قرية « رازلوفيتس » أحرق الثوار الفلاحون الكتب وعقود الملكية الخاصة بالاقطاعيين الأتراك وتوجهوا لكى يحرروا « بيروفو » . وتكبدت قوات الثوار خسائر فادحة فى المعارك مع الجنود الأتراك الذين كانوا أكثر عددا وأفضل عدة ، بيد أن الجزء الرئيسى من قوات الثوار لم يتحطم . وفى ربيع عام ١٨٧٧ قام « ديمتار » مع أفراد قوته المتمركزة فى جبل « أوزجوف » « وبيانتس » بتصويب الضربات الى الوحدات العثمانية التى كانت متجهة لمحاربة صربيا .

ولم تحصل مقدونية على استقلالها فى أعقاب الحرب الروسية التركية (فى ١٨٧٧ ـ ١٨٧٨) التى أسفرت عن تحطيم السلطة التركية فى بلغاريا.ومن أجل تحقيق أهدافها استغلت الدوائر الصربية واليونانية

الحاكمة وممثلو البرجوازية البلغارية نشاط الدبلوماسية الأوربية فى مؤتمر برلين بشأن تعديل معاهدة « سان ستيفان » للسلام . ونظمت الدوائر المذكورة ارسال التماسات من مقدونية تطالب بأن يتم فصل مقدونية كلها أو أجزاء منها عن تركيا وضمها الى الدول المذكورة . وفى هذا المضمار جرت محاولة من الجانب اليونانى للتأثير على الموقف عن طريق ارتجال فكرة ما تسمى بالحكومة المؤقتة لمقدونية .

وبسبب تعارض مصالح القوى العظمى والدول البلقانية فقد تركت قرارات مؤتمر برلين مقدونية باقية تحت الحكم العثمانى ، الا أن القرارات اشتملت على تعهدات بتنفيذ اصلاحات فى المنطقة الأوربية من الامبراطورية العثمانية.ووفقا لمعاهدة برلين فقد انفصلت مناطق شاسعة من الامبراطورية العثمانية (اقامة الدولة البلغارية ومنح أربع مناطق الى صربيا واحتلال البوسنة والهرسك) ، ونتيجة لذلك تقلص بشكل مفاجىء سوق المنتجات المقدونية الأمر الذى أدى الى حدوث مضاعفات ملموسة فى الحياة الاقتصادية لمقدونية . وأدى غضب ونقمة الشعب المقدونى بسبب تدهور الأحوال الاقتصادية والاجتماعية والثقافية والسياسية الى القيام ، فى أواخر عام ١٨٧٨،بنشاط حاسم من أجل استئناف نشاط أسقفية « أوهريد » .

وفى نفس الوقت وقعت ثورات فى شرق مقدونية (فى كرسنا وفى رازلوج) ، وحطم الثوار حامية تركية عند منحدر « كرسنا » وأخذوا يشكلون فى القرى المجاورة أجهزة جديدة للسلطة المحلية . وواجهت نفس المصير الحامية التركية فى « بانسكا » ، وبعدذلك أسرع الثوار الى « رازلوج » وحدثت معارك مسلحة بين الكتائب الصغيرة وبين الجيش العثمانى فى وادى نهر فاردار حيث اتسعت الحركة لارسال مساعدات فى الرجال والعتاد الى الثوار فى شرق مقدونية .

وظهرت فى بلغاريا ، فى نفس الآونة ، لجان سعت ـ تحت ستار ارسال المساعدات الى أن تفرض قادتها على الثوار وأن توجه نضالهم نحو ضم المناطق المقدونية الى المملكة البلغارية . وبسبب المعارضة الشديدة لمثل هذه النوايا صدر أمر من لجنة صوفيا بقتل الدوق « ستويان » ، أحد القادة الرئيسيين للثورة . وتم فى النهاية اخماد الثورة .

وساعد استمرار الحكم العثمانى والحالة غير المحتملة فى مقدونية بعد مؤتمر برلين جهود حكومات الدول البلقانية فى أن تخلق لنفسها مراكز سياسية وأن تنتشر دعاياتها فى مقدونية . واشتد الصراع والتنافس بين الطبقات البرجوازية فى الدول البلقانية من أجل اكتساب مناطق نفوذ وتحقيق توسعات اقليمية ، وأخفت هذه الطبقات البرجوازية مطامعها

التوسعية بتأييدها لتنفيذ الاصلاحات فى مقدونية . وفى هذا المضمار استغلت المدارس والكنائس بهدف فرض تأثيرها فى جميع مجالات الحياة العامة بمقدونية . ومن ناحية أخرى جرت محاولات لاستغلال الحالة النفسية لدى الجماهير المقدونية من أجل الاطاحة بالحكم العثمانى والفوز بالحكم الذاتى كتلك المحاولة التى جرت فى ربيع عام ١٨٨٠ فيما يتعلق بالحكومة المؤقته لمقدونية .

١٣ ـ ظهور الانفصاليين

وجرت عملية التحرر السياسى والثقافى القومى وتدعيم المقدونيين فى فترة الثمانينيات فى ظروف السياسة التوسعية والمساعى الى ضم مقدونية وافقاد المقدونيين قوميتهم . **وفى هذه الفترة اتخذت الدعاية من جانب بلغاريا الكبرى آمادا واسعة فى مقدونية ، وحصلت هذه الدعاية عن طريق الكنيسة البلغارية على سلاح قوى يمتلك امكانيات شرعية ووسائل مالية ضخمة للقيام بأنشطة عن طريق المدارس والكنائس .** وبرزت المقاومة الموجهة الى سياسة الكنيسة بروزا واضحا فى الكفاح الذى ابدته الطبقة المثقفة والطبقة المتوسطة فى مقدونية من أجل الحفاظ على استقلال الوحدات المدرسية الدينية ، وبرزت كذلك فى تكرار الأنشطة التى تهدف الى اعادة عمل بطريركية « أوهريد » . ويدخل ضمن هذه الأنشطة ما قام به أسقف « سكوبلى » خلال ١٨٩٠ ـ ١٨٩٢ من قطع علاقاته مع الكنيسة البلغارية ودخوله فى مفاوضات مع الفاتيكان بهدف اعادة نشاط بطريركية « أوهريد » على أساس الاتحاد مع الكنيسة الرومانية الكاثوليكية .

وارتبطت الحركة القومية المقدونية فى تطورها التالى بنشاط من يسمون « بالانفصاليين » ، وهم الذين يدعون الى مناهضة مساعى مختلف المجاورين والى مكافحة الدعايات التى تبثها الطبقات البرجوازية فى منطقة البلقان بهدف العمل على اخماد التيقظ القومى للشعب المقدونى . وأرسلت الكنيسة البلغارية أتباعها لكى يغرسوا بذور الوعى القومى البلغارى لدى المقدونيين ، ونظرا لفشلهم فى التوصل الى أهدافهم المغرضة فقد انتقدوا وهاجموا الوطنيين المقدونيين واتهموهم بالخيانة والانفصالية . وكان للمؤيدين « اللانفصالية » اتجاه ديمقراطى قومى ، ولذا فقد قادوا معركة لا هوادة فيها من أجل ادخال اللغة المقدونية فى برنامج الدراسة المدرسية. وكذلك من أجل الحفاظ على استقلال الوحدات المدرسية الدينية .

ووجد « الانفصاليون » متنفسا لهم فى مجلة « لوزا » التى كانت

الجماعة الأدبية المقدونية الشابة تصدرها فى صوفيا نظرا لأنه لم تكن هناك امكانيات لاصدارها بشكل شرعى فى مقدونية نفسها . ونددت المجلة بالنشاط الضار الذى تقوم به مختلف الدعايات الأجنبية فى مقدونية ، وايدت ودافعت عن تجمع الوطنيين المقدونيين بحيث يشكلون قوة شعبية مشتركة . وكان النشاط العملى لأنصار مجلة « لوزا » يقوم بدور هام فى تشكيل تنظيم وفكر الحركة القومية المقدونية ، أى فى اقامة وبناء المنظمة الثورية المقدونية الداخلية (فمرو) التى كان « بيتار بوب أرسوف » من بين مؤسسيها .

١٤ ـ نشاط منظمة « فمرو »

وتحولت الحركة القومية المقدونية من حركة تلقائية الى حركة منظمة عن طريق اقامة منظمة « مرو » (فى عام ١٨٩٣) باعتبارها منظمة سرية مركزها فى « سالونيك » وأصبحت منظمة جماهيرية فى العقد الأخير من القرن التاسع عشر فى فترة زيادة تدهور التناقضات الاجتماعية فى مقدونية ، واصطبغت هذه التناقضات بلون قومى ودينى بسبب تباين التبعية الدينية والقومية للمتعرضين للاستغلال والقائمين به .

وجرت فى نهاية عام ١٨٩٣ وبداية ١٨٩٤ مناقشات بين مؤسسى منظمة « مرو » فيما يتعلق بالمبادىء والأهداف المنهجية الثابتة للمنظمة فى دستورها ، وأثبتت هذه المناقشات أنه لا يوجد تصور واحد فى هذا المضمار . وأخيرا سيطرت على المناقشات وجهة النظر القائلة بأن الهدف الأساسى للمنظمة ، الذى تمت صياغته فى دستورها الأول ، يقتصر على الكفاح من أجل الحصول على الحكم الذاتى السياسى لمقدونية فى اطار الدولة العثمانية .

وقبل أن تقف منظمة « مرو » فى ثبات على قدميها تم تأسيس اللجنة المقدونية فى صوفيا (فى ١٨٩٤) ، وبمعاونة ضباط الجيش البلغارى أخذت تحرض الكتائب على الهجوم على الأرضى المقدونية . وأثارت أعمال التخريب التى قامت بها الكتائب ردود فعل دموية من جانب رجال الجيش والبوليس العثمانيين . الا أن تصرفات هذه الكتائب أثارت ثورة وغضب المسئولين فى منظمة « مرو » ، الذين أدانوا بكل شدة الخطوات الاستفزازية المغامرة التى اتخذتها اللجنة المقدونية العليا فى صوفيا ، كما أدانوا سياسة التدخل فى الشئون المقدونية وضم الأراضى المقدونية من جانب القصر والحكومة البلغارية .

وتحولت اللجنة المقدونية العليا فى صوفيا بحيث أصبحت سلاحا

للاطماع والأهداف العدوانية التى ترمى الى السيطرة من جانب بلغاريا ، وكانت النية متجهة الى استخدام هذا السلاح فى اخضاع واخماد منظمة « مرو » على أساس أنها هى التى تدعو وتنظم النضال التحررى المستقل للشعب المقدونى . وهذا دفع المنظمة الى اعداد لائحة جديدة فى عام ١٨٩٦ تقوم على المبادىء الديمقراطية ، والى أن تجعل مهمتها الأساسية تجميع كل العناصر الناقمة فى مقدونية وفى منطقة « يدرينى » ـ بغض النظر عن القومية ـ بهدف القيام بثورة والظفر بالحكم الذاتى السياسى الكامل بالنسبة لهاتين المنطقتين . ودفعها أيضا الى أن تدعم صفوفها وتشكل هيئة تمثيل خارجية ، والى أن تشرع فى تسليح كتائبها والسكان المقدونيين مع ضمان اعتماد الأموال اللازمة لذلك والى أن تغير أسمها الى منظمة « فمرو » .

وواجه نشاط وتطور منظمة « فمرو » فى هذه الفترة الكثير من الصعاب والمحن بسبب النشاط القوى للدعايات القومية التى تبثها الأنظمة الملكية والبرجوازية البلقانية فى مقدونية . واجتهد رجال الدعاية البلغارية واليونانية والصربية والرومانية ، الذين يتلقون التمويل من قصور وحكومات بلادهم ، فى أن يفرضوا على المقدونيين المفاهيم القومية الأجنبية وأن يمهدوا الأرض من أجل الاستيلاء على مقدونية وتمزيقها . وأفلحت المنظمة فى السيطرة على الاهتزازات والأزمات الحادة الناجمة عن تفرع الشبكة وتعددالقنوات وعن امداد أفرادها بالسلاح وعن انشاء فروع لها بالقرى .

وساهم الاشتراكيون المقدونيون فى الكفاح من أجل الحفاظ على الاستقلال وعلى الاتجاه الثورى للمنظمة ، وبذلوا جهودهم لكى يربطوا برباط وثيق نشاطهم الدعائى الاشتراكى بالكفاح ضد الاستعباد القومى بهدف الحصول على حق الشعب فى تقرير مصيره وتكوين دولته الخاصة به . وعارض الاشتراكيون المقدونيون الاثارة المصطنعة للثورات والأعمال المتعجلة وارتأوا أن أسلم وسيلة للكفاح التحررى ـ ألا وهى الثورة الشعبية الحقيقية ـ تنتج عن الاستعدادات المناسبة وعن تنظيم الجماهير تنظيما جيدا .

وكانت الفكرة الأساسية من وراء النشاط الثورى غير الشرعى تتمثل فى ايقاظ وعى الشعب لكى يناضل بقواه الذاتية من أجل تحقيق أهدافه ومطالبه التحررية . وقد ساهم الاشتراكيون المقدونيون فى نشر الآراء الصحيحة فى صفوف الديمقراطيين الثوريين فى مقدونية وذلك عن طريق ادانة المفهوم القائل بأن النضال التحررى للشعب المقدونى يقتصر على

المطالبة بتطبيق المادة ٢٣ من معاهدة برلين ، وكذلك عن طريق الدعوة الى الفكرة الخاصة بقيام جمهورية مقدونية المستقلة والخاصة بالثورة باعتبارها أكثر الوسائل فعالية للنضال مع ايجاد حلفاء طبيعيين بين الشعوب المضطهدة الأخرى وبين الأقليات القومية التابعة للدولة العثمانية وبين الحركات العمالية والتقدمية بمنطقة البلقان .

واتصل أعضاء الجماعة الاشتراكية الثورية ، فى عام ١٨٩٦ ، بوفود اللجنة المركزية لمنظمة «فمرو» من اجل التعاون وتنظيم الأنشطة . وفى عام ١٨٩٨ ظهرت فى الساحة المقدونية ماتسمى باللجنة الثورية السرية المقدونية ومجموعة الارهابيين المقدونيين ، وكان أعضاء اللجنة وأفراد المجموعة يبشرون بالارهاب الفردى ويغفلون ضرورة وحتمية وجود منظمة ثورية جماهيرية . وفى نفس الوقت كانوا يؤيدون الانفصال الكامل لمقدونية ، من الناحيتين السياسية والادارية ، عن الامبراطورية العثمانية وتكوين اتحاد بلقانى فيدرالى أو كونفدرالى .

وبغض النظر عن حدوث اختلافات وانحرافات معينة عن مواقف المفكرين العقائديين لمنظمة «فمرو» فقد كانت ايجابية علاقة الاشتراكيين المقدونيين بحركة التحرير القومية للمنظمة . وقرر أبرز الاشتراكيين ، ومعظمهم من أعضاء الجماعة الاشتراكية الثورية المقدونية فى مؤتمرهم الأول المنعقد فى مقدونية نفسها فى يونيو عام ١٩٠٠ ، الانضمام الى منظمة «فمرو» بشرط ضمان الامكانيات اللازمة من أجل القيام بلا عوائق بالدعاية الاشتراكية وضم ممثلين عنهم الى لجان المنظمة . وانضم الاشتراكيون فى المناطق الأخرى من مقدونية الى كتائب المنظمة والى التشكيلات القيادية الخاصة بمنظماتها الفرعية ، وساعدوا بمختلف السبل على تنفيذ مهام الحركة القومية والمساهمة فى تعريف أتباعهم بالمعتقدات الثورية . وعن طريق تقديم الاشتراكيين المقدونيين التأييد الى المناضلين من أجل الحفاظ على استقلالية المنظمة ساهموا فى فضح المأجورين الأجانب ، وساعدوا كذلك فى تعبئة جماهير الشعب بالمقاومة الواعية ضد النقل المتزايد للكتائب المسلحة من الدول المجاورة الى مقدونية .

وخلال عام ١٩٠٢ اتسعت أبعاد الصراع بين «أنصار المركزية» وبين أنصار اللجنة المقدونية العليا فى صوفيا ، على الأخص فيما يتعلق بسعى اللجنة العليا الى اثارة صراعات مسلحة فى مقدونية والى تخريب منظمة «فمرو» . وهجوم كتائب اللجنة العليا على منطقة «كوستور» أدى الى حدوث خسائر جسيمة بالسكان وبتنظيمات «فمرو» فى شرق مقدونية .

والغليانات التى جرت فى مقدونية ورد فعل الرأى العام اتاح الفرصة للدبلوماسية الأوروبية وقدم لها الدافع لكى تتخذ خطوات جديدة من أجل اجبار الحكومة بالقسطنطينية على تنفيذ الاصلاحات فى المناطق الأوروبية من الامبراطورية العثمانية . وأعلن السلطان عبد الحميد فى نوفمبر ١٩٠٢ ، لكى يحول دون تدخل الدول الكبرى ، عن اجراء اصلاحات معينة ، وعين حلمى باشا مراقبا رئيسيا على الولايات المقدونية الثلاث مع منحه الصلاحيات اللازمة لتنفيذ الاصلاحات المزعومة . وظلت حروفا ميتة على الورق تلك الاصلاحات التى تم الاعلان عن القيام بها فى الشرطة والثقافة والعدل .. ألخ . وزادت أعمال الارهاب والنهب .

١٥ ـ الثورة المسلحة فى ١٩٠٣

وفى هذه الظروف حدثت خلافات فى صفوف قيادات منظمة «فمرو» وتشكلت وانفصلت مجموعة من المناضلين المتحمسين للحفاظ على استقلال حركة التحرير الشعبية المقدونية . وأثارت اللجنة العليا الخلافات والمشاحنات داخل قيادة المنظمة ، وتحت تأثير أعضاء اللجنة العليا تم قبول قرار مؤسف مبكر تم اصداره فيما يسمى «بمؤتمر سالونيك» فى يناير ١٩٠٣ ، بشأن القيام بالثورة فى مقدونية فى نفس العام .

والاغتيالات التى قام بها الفوضويون المقدونيون والارهابيون والقاء القبض على بعض أعضاء اللجنة المركزية والانفجارات التى جرت داخل منظمة « فمرو » ، كل هذا عاق مجهودات أنصار « المركزية » والاشتراكيين المقدونيين عن العمل على تغيير او تأجيل قرار القيام بالثورة . وحيث أنه باءت بالفشل جهود جميع الذين يعارضون القيام بثورة قبل الأوان فى أن يغيروا قرار « مؤتمر سالونيك » فقد أجتهدوا فى أن يحسنوا اعداد الجماهير لمواجهة الأحداث القادمة .

وشملت الثورة المسلحة ، المعروفة باسم ثورة «اليندن» ، التى نشبت فى منطقة بيتولا فى يوليو ١٩٠٣ ، جماهير الفلاحين ، فى المقام الأول ، ثم انتشرت فى المناطق المجاورة . وكانت نقطة الذروة للثورة هى تحرير كروشيفو ونيفسيكا وكليسورا وتجاوزت الادارة المستقلة القصيرة الأمد «لكروشيفو» ، المشهورة باسم «جمهورية كروشيفو» ، بعض المطالب الثورية القومية آنذاك . وتفوق القوات العثمانية وعدم وجود أى مساعدة فعالة من الخارج أدى الى الانهيار التدريجى لثورة «اليندن» والى اخمادها فى النهاية .

١٦ ـ الاصلاحات فى مقدونية

واستغلت القوى الكبرى التى تبدى اهتماما بمصير الامبراطورية العثمانية ، ثورة «اليندن» كعذر من أجل تنفيذ خططها الخاصة باجراء اصلاحات فى مقدونية . وكانت النمسا الهنغارية وروسيا قد أجريتا مفاوضات فى فبراير ١٩٠٣ من أجل صياغة مقترحات مشتركة تتعلق بالاصلاحات . وقبلت الدول الأوروبية بعد نشاط ديبلوماسى مكثف الحل الذى تقدمتا به النمسا الهنغارية وروسيا فيما يتعلق بأسلوب تنفيذ الاصلاحات المذكورة .

وعلى أساس برنامج الاصلاح المقترح تم منح حلمى باشا مساعدين مدنيين ، من النمسا الهنغارية وروسيا ، ويختصان بمراقبة الادارة والشئون المالية فى الولايات المقدونية . وتم ايكال اعادة تنظيم الشرطة العثمانية الى جنرال ايطالى ويساعده ضباط أجانب . وتم تقسيم الأراضى المقدونية الى عدة مناطق كان يشرف على رجال الشرطة فيها ضباط من النمسا وايطاليا وروسيا وفرنسا وانجلترا والسويد . وبالنظر الى الظروف التى تم تحتها اجراء اعادة تنظيم الشرطة التركية والى الهيئة المشرفة عليها ، وبالنظر كذلك الى الامكانيات الحقيقية للرقابة فانها الى حد ما اكتسبت طابعا دوليا وأصبحت سلاحا لتدعيم تأثير ووضع الدول الكبرى فى مقدونية .

وأعمال الاصلاح التى جرت فى مقدونية على أساس برنامج الاصلاح المذكور أعيقت اعاقة كبيرة بالخطوات الماهرة من جانب حلمى باشا ، وكذلك بتقييد حقوق واختصاصات الممثلين المدنيين ، ونتيجة أيضا لتصارع مصالح القوى المعنية وباقى الدول الأوروبية الكبرى . الا أن هذه الاصلاحات لم تغير تغييرا جوهريا الحالة العسيرة فى مقدونية ، ولذا فانه تمت من جديد (فى عام ١٩٠٥) محاولة اجراء مساعى لزيادة الاصلاحات فى القضاء والمالية فى مقدونية وبذلك يتم ضمان شرعية تحديد الضرائب وجمعها بطريقة أكثر عدالة ، الا أنه تم اجهاض هذه المحاولات .

١٧ ـ تشكيل اليسار فى منظمة «فمرو»

وساهم فشل ثورة «اليندن» والأضرار التى لحقت بالمنظمة فى تعميق الخلافات الفكرية والسياسية داخل المنظمة ، وفتحت الباب أمام تسلل العناصر الدخيلة الى قيادة منظمة «فمرو» . وساعد على هذا التسلل نقل مركز المنظمة من سالونيك الى صوفيا وتغلغل عدد كبير من الكتائب المسلحة الى مقدونية من الدول المجاورة لها . وبذل المسئولون المخلصون

للشعب وكذلك التنظيمات المحلية للمنظمة جهودا عظيمة للتكيف مع الموقف الجديد . ولم يصمتوا أمام الرجعية ولم يهاجروا الى الخارج ، بل سعوا الى ربط الخيوط الممزقة وتجديد شبكة المنظمة الداخلية . ونجحوا فى أن يعقدوا فى أوائل مايو ١٩٠٤ مؤتمر «برليب» وأن يصدروا القرارات المناسبة باعتبارهم أتباع الرأى الذى يرمى الى لا مركزية وديمقراطية الحركة التحررية القومية .

وكانت قرارات مؤتمر «برليب» موجهة الى حصر وكبح تأثير بعض الشخصيات عند حل المسائل الخاصة بالتنظيم ، والى زيادة اشتراك الكتائب فى تنظيم الخلافات بين الفلاحين أو بين الفلاحين وبين ملاك الأراضى، والى تحسين الاستخبارات والى اصدار أحكام مكتوبة فى أحوال الاعدام .. الخ .

وكانت هذه الاجراءات حتمية ، على الأخص بسبب الحقيقة التى تفيد بأن مقدونية قد أصبحت مركزا لعمليات التعصب واراقة الدماء بسبب الغارات وهجمات الكتائب المسلحة . واستخدم أساقفة وقناصل الدول المجاورة كل الوسائل المشروعة وغير المشروعة بهدف اثارة الأهواء التعصبية . ومن أجل تصويب ضربات ملموسة الى الكتائب المقدونية ، ومن أجل تمهيد السبل لقيام أنشطة رجال «التشيتنيك» ، المخططة من قبل حكوماتها ، لجأوا الى التعاون الصريح مع الأتراك العثمانيين .

وفى الوقت الذى كانت فيه منظمة « فمرو » تتعرض لأزمة عميقة أدى عدم اشتراك العناصر الديمقراطية الثورية والوطنية الى مساعدة نوايا الرامين الى التوسع لحساب بلغاريا الكبرى والبلقانيين الآخرين فى أن يخضعوا منظمة « فمرو » وان يحولوها الى سلاح لتنفيذ سياستهم لضم مقدونية والسيطرة عليها . ولذا فان مجموعة من الديمقراطيين الاشتراكيين نددت ، فى عام ١٩٠٤ ، بالاشتراكيين لتركهم منظمة « فمرو » مع تقديم النصح لمن يماثلونهم فى التفكير بأن يواصلوا انضمامهم الى صفوف المنظمة وبأن يوجهوا نشاطهم من أجل تغيير الهيكل الداخلى للمنظمة ونظام قيادتها وصبغهما بالصبغة الديمقراطية . **وقد ساهم الاشتراكيون المقدونيون بتأثيرهم فى تشكيل المجموعة التقدمية فى جناح المنظمة المسمى باسم « اليسار »** . وتدعمت هذه المجموعة تدعما قويا فى مؤتمر « ريلسكى » للمنظمة فى عام ١٩٠٥ ، وفيه أحرزت القوى التقدمية لحركة التحرير الشعبية نصرا كبيرا .

وقد أكد مؤتمر « ريلسكى » من ناحية المبدأ ، الموقف العدائى للمنظمة تجاه الدعايات التى تقوم بها الطبقات البلقانية الحاكمة فى

مقدونية ، وكشف تماما عن التعصب البلغارى وفضح الكنيسة البلغارية وأنصار اللجنة العليا . وفى نفس الوقت اتخذ المؤتمر رأيا واضحا فى تلك الجماعات التى تقوم بنشاط خارج المنظمة او خارج البلاد .

وحصل اليسار على وسيلة اعلامية هامة ومؤثرة نتيجة لاسناد تحرير « **الصحيفة الثورية** » ، **وهى لسان حال منظمة « فمرو »** ، الى الاشتراكى « ديموف » . وأخذ يستخدم هذه الصحيفة من أجل اثارة الجماهير واضفاء الشعبية على وجهات نظره . ولعبت « الصحيفة الثورية » دورا هاما فى كشف المفاهيم الكامنة وراء قبول أنصار اللجنة العليا للشعار الخاص بالحكم الذاتى لمقدونية ، باعتبار أن هذا الشعار ليس الا مناورة من أجل اخفاء الخطط الخاصة بضم مقدونية الى المملكة البلغارية . فقد كانوا يزيدون من شعبية موقف المنظمة الذى يفسر الحكم الذاتى لمقدونية على أن حصولها على الاستقلال مع تمتعها بحق الانضمام ـ طواعية ـ الى تحالف مع الدول الأخرى بمنطقة البلقان . وحصل على أهمية كبرى كفاح اليسار بمنظمة « فمرو » ضد المفاهيم والانحرافات المعادية للقومية وضد الانتهازية والرجعية ، وذلك من أجل تجميع القوى الديمقراطية الثورية المقدونية وتدعيم نضالها .

١٨ ـ ثورة « تركيا الفتاة » وتشكيل الحزب الفيدرالى الشعبى

وأدت ثورة تركيا الفتاة التى نشبت فى يوليو ١٩٠٨ وتدعمت أولا فى مقدونية الى اقامة نظام دستورى فى الدولة العثمانية . وأصبحت المشاكل القومية فعلية نتيجة لتغير النظام ، وبذلك برزت الامكانيات لطرح هذه المشاكل بشكل شرعى صريح . ولتأكيد سلسلة من المطالب الديمقراطية . وعن طريق التسهيل والتعجيل باطراد القوى الديمقراطية التقدمية الاجتماعية منح النظام الدستورى الجديد دفعة قوية لنمو حركة التحرير القومية المقدونية لكى تصبح حزبا سياسيا شرعيا .

واتجهت جماعة اليسار الى التعاون مع أعضاء حزب « تركيا الفتاة » من أجل القيام بنضال مشترك بهدف قمع العناصر الرجعية والاستبدادية فى تركيا . ولعب البيان الذى وجهته جماعة اليسار الى أتباع جميع القوميات الموجودة فى تركيا دورا هاما فى الربط الوثيق بين العناصر التقدمية فى كفاحها ضد القوى الاجتماعية المحافظة .

وحدث انقسام فى صفوف جماعة اليسار الخاصة بحركة التحرير الشعبية المقدونية ، وأدى هذا التمزق الى منع تشكيل حزبها السياسى الشرعى الموحد خلال عام ١٩٠٨ . وعلى النقيض من ذلك شكل أتباع

اللجنة العليا والقائمون بتنفيذ التأثير البلغارى داخل الحركة المقدونية ، فى سبتمبر من عام ١٩٠٨ ، اتحادا للنوادى البلغارية للناخبين فى الدولة العثمانية ، وبهذه الطريقة تمكنوا من القيام بنشاط أكثر تنظيما . وقد اتضح ذلك فى الانتخابات البرلمانية فى أكتوبر من نفس العام حينما تم انتخاب مرشحى اتحاد نوادى الناخبين كنواب ، ومن المقدونيين انضم الى البرلمان التركى أتباع مجموعة « ساندانسكى » .

وبتخلى منظمة « فمرو » عن الأساليب العتيقة المهجورة وجه أتباع « ساندانسكى » نشاطهم الى تشكيل حركة شعبية جماهيرية قوية تقوم على أسس تنظيمية جديدة وفقا لامكانيات النشاط الشرعى وزيادة الفعالية واشتراك الجماهير فى الحياة السياسية والاجتماعية . وتحت قيادة « ساندانسكى » هب الاشتراكيون والثوريون القوميون المقدونيون دفاعا عن نظام « تركيا الفتاة » ، وساهموا فى اخماد الانقلاب المضاد للثورة فى ربيع عام ١٩٠٩ . واشتركت الكتائب المقدونية من المتطوعين تحت قيادة « ساندانسكى » وزملائه فى التحطيم العسكرى للثورة المضادة وفى خلع السلطان .

ودفعت هذه الأحداث أتباع هاتين المجموعتين بالجناح الأيسر من الحركة القومية المقدونية الى تجاوز الخلافات السابقة والى الانضمام الى حزب سياسى شرعى واحد . وبعد نجاح المفاوضات الختامية تكتلت الجماعتان وشكلتا الحزب الفيدرالى الشعبى واصدرتا صحيفة مشتركة . وهكذا تم استخدام أساليب وأشكال جديدة من النضال السياسى تناسب الظروف التاريخية والاجتماعية الراهنة ، وبذلك لعبت النواة التقدمية للديمقراطية الثورية المقدونية دورا هاما فى تجميع القوى الوطنية حول البرنامج المعدل للأهداف والمطالب الأساسية للحركة القومية المقدونية .

وانضمت الى الحزب الفيدرالى الشعبى لا فحسب العناصر الراديكالية من منظمة « فمرو » بل وبعض الاشتراكيين أتباع البرجوازية الصغيرة المتوجهين توجها ليبراليا . وأكد المؤسسون للحزب الفيدرالى الشعبى أن الحزب سيقوم بنشاط باسم التصورات السياسية والاجتماعية الجديدة وسيؤدى رسالة ثورية تسهم فى التحولات الاجتماعية التقدمية . وتضمن بيان مؤتمره التأسيسى أن المسألة القومية لا تقتصر ، بالنسبة للحزب الفيدرالى الشعبى ، على تغيير حالة عدم المساواة الحالية لصالح الشعوب المضطهدة حتى ذلك الحين فى اطار الامبراطورية العثمانية ، بل وعلى الكفاح من أجل التنظيم الديمقراطى ، ومن أجل ضمان أقصى الامكانيات بهدف التعبير عن أصغر الأقليات القومية وتطورها المستقل ، وكذلك من أجل

اجراء اصلاحات ديمقراطية فى مجال الثقافة عن طريق ضمان المساواة والتطور الحر لكل اللغات والثقافات القومية .

ووفقا لمثل هذه المبادىء والمفاهيم قاد الحزب الفيدرالى الشعبى نضالا من أجل ديمقراطية الادارة الحكومية ، ومن أجل الغاء الامتيازات القومية والطبقية ، ومن أجل حصول الشعب على حقه فى تقرير مصيره مع التأكيد على المطالبة بالحكم الذاتى الاقليمى لمقدونية ، وعلى الحل العادل للقضية الزراعية وفرض الضرائب بطريقة تقدمية وجعل التعليم الأساسى اجباريا وما شابه ذلك . وهذه المطالب من جانب الحزب الفيدرالى الشعبى عكست ، فى نهاية الأمر ، أهداف واتجاهات الحركة القومية المقدونية ، وعكست كذلك التغيرات التى حدثت فى تكتيكاتها واتجاهاتها التى وضعت شروطا لامكانية قيامها بالأنشطة المشروعة . واكتسب الحزب فى طبقة الفلاحين عونه الثابت نتيجة لمطالبته بسد احتياجات الفلاحين وتحقيق مطالبهم الأساسية ، أى تقسيم أراضى كبار الملاك على من لا يملكون أرضا وعلى المعدمين من الفلاحين .

وكانت فترة حكم حزب تركيا الفتاة حافلة باستمرار المؤامرات من جانب الدعايات الأجنبية فى مقدونية ، ومفعمة بمساعى الدوائر البلقانية الحاكمة الى أن تعيق عن طريق اثارة الصراعات القومية عملية الديمقراطية الجارية فى الامبراطورية العثمانية . وتم فى مقدونية تشكيل مؤسسات سياسية شرعية أخرى تتبع الدول المجاورة مثل الحزب الديمقراطى للصرب العثمانيين . ومن جهة أخرى ارتبط بهذه الفترة التاريخية التطور السريع للحركة العمالية والاشتراكية فى مقدونية .

١٩ ـ تطور الحركة العمالية

شكلت الجماعة الاشتراكية المقدونية فروعها فى المدن المقدونية منذ عام ١٩٠٤ ، بينما كانت الجماعات الاشتراكية موجودة فى سكوبلى وبيتولا وكروشيفو وستروميتسا وجيفجليا وتيتوفو وفى أماكن أخرى . وبرز الدور التنظيمى للاشتراكيين وتأثيرهم فى تنفيذ سلسلة من اضرابات العمالى فى بيتولا وستروميتسا وديهوف ، واجتاحت حركة الاضرابات بشكل خاص فى عام ١٩٠٦ ، مدن سالونيك وسريز وسكوبلى .

وجاءت الانطلاقة القوية للحركة الاشتراكية والعمالية فى مقدونية بعد اقامة النظام الدستورى والحياة البرلمانية في تركيا . وسعت المؤسسات الديمقراطية الاشتراكية ، التى تم انشاؤها مؤخرا ، الى السيطرة على التشرنق القومى » ، ولذا فقد قبلت أن ينضم الى صفوفها جميع سكان

الامبراطورية العثمانية بغض النظر عن تبعيتهم القومية . وتحت تأثير وقيادة المؤسسات والنقابات الديمقراطية الاشتراكية تم تنفيذ عدد من الاضرابات الناجحة فى مقدونية . وقام عمال كل المهن الهامة فى المدن الكبرى من مقدونية باضرابات وقاموا بأنشطة جماعية من أجل رفع الأجور وتخفيض ساعات العمل والحصول على تأمين اجتماعى وما شابه ذلك .

واكتسب المؤتمر الديمقراطى الاشتراكى البلقانى الأول ، والذى انعقد فى بلغراد فى ١٩١٠ ، أهمية حاسمة من أجل التوجه الفكرى والسياسى فيما بعد ، ومن أجل النشاط العملى للمنظمات الاشتراكية والنقابية فى مقدونية . وأصبح الاشتراكيون المقدونيون بعد المؤتمر دعاة متحمسين لفكرة التحالف البلقانى وهم على اقتناع شديد بانه يمكن ، بسهولة كبيرة ، نجاح النضال ضد الحرب والنضال من أجل الحرية الحقيقية والتطور الديمقراطى للشعب المقدونى اذا ما تم انشاء اتحاد تطوعى تطوعى للجمهوريات البلقانية المستقلة المتحدة . وكانت تكتسب اهمية خاصة الحقيقة القائلة بان الاشتراكيين السلافيين الجنوبيين ، وعلى الأخص المقدونيين ، كانوا ، عن طريق نشر دعاية للشعار الخاص بالتحالف البلقانى ، يؤيدون وجهة النظر القائلة بان مقدونية ككل لابد وان تدخل ضمن تحالف الجمهوريات الديمقراطية البلقانية باعتبارها وحدة متكاملة .

وأدى التطور الناجح للحركة الاشتراكية فى تركيا ، وعلى الأخص فى مقدونية، وانتشارها الى ضرورة ربط وتوحيد المؤسسات الديمقراطية الاشتراكية فى حزب واحد . وقد أثيرت مثل هذه المبادرات فى منتصف عام ١٩١٠ ، وكانت تمثل نشاطا جادا فى هذا المضمار الخطوات التى اتخذتها وفود المؤسسات الديمقراطية فى سالونيك وسكوبلى وبيتولا وفيليس وتيتوفو وممثلى الحزب الديمقراطى الاشتراكى فى صربيا والاشتراكيين الديمقراطيين بالقسطنطينية فى أواخر عام ١٩١٠ . وقرر المؤتمر القيام بالاستعدادات اللازمة من أجل عقد المؤتمر التأسيسى الذى ستتم فيه الموافقة على لائحة الحزب وعلى هيكله التنظيمى . الا أنه لم يتم عقد هذا المؤتمر التأسيسى الا فى عام ١٩١١ .

٢٠ ـ تقسيم مقدونية

واوقفت الحروب البلقانية (فى ١٩١٢ و ١٩١٣) عملية التماسك الداخلى للحركة القومية المقدونية ، ونتج عنها تقسيم مقدونية . وخلال هذه الحروب قدم الشعب المقدونى العديد من الضحايا ، وقد انضم الى

الحلفاء البلقانيين فى حروبهم ضد تركيا متوقعا أنها ستقدر تضحياته وتحترم مصالحه وبذلك يحصل على استقلاله . وخلال هذه الحروب وبعد عقد الهدنة نشأ خلاف بين الحلفاء البلقانيين حول تقسيم الأماكن المحتلة فى مقدونية ، وعلى الأخص فيما يتعلق بالمنطقة المختلف عليها وبمسالة « سالونيك » . وكل حكومات الدول البلقانية كانت تحاول أن تضم الى دولها أكبر جزء ممكن من مقدونية ، وبذلك كانت تتغافل عن القرارات السابقة وعن الموافقة التى تم التوصل اليها بعقد اتفاق بين الحلفاء فيما يتعلق بالحكم الذاتى للمناطق المقدونية .

وقاوم الوطنيون المقدونيون تقسيم مقدونية بين الحلفاء البلقانيين ، وعملوا على الحفاظ على السيادة الاقليمية للشعب المقدونى وعلى تكوين الدولة المستقلة الخاصة به . وجرت محاولة لارسال وفد مقدونى الى مؤتمر السلام فى لندن لكى يناصر فكرة اقامة دولة مقدونية فى حدودها الجغرافية والتاريخية والاقتصادية . وأرسل ممثلو المهاجرين المقدونيين فى « بترو جراد » الى مؤتمر لندن مذكرتين ، طالبوا فيهما بمنع تقسيم مقدونية والحفاظ على وحدتها الجغرافية والتاريخية والاقتصادية ، وأن تظل دولة بلقانية مستقلة موحدة وبأن يقوم المجلس الشعبى المقدونى فى « سالونيك » بتحديد نظامها الداخلى وعلاقاتها الخارجية . كما أنهم أشاروا ، بل وحذروا من أن تقسيم مقدونية ستكون له عواقب وخيمة لا فحسب بالنسبة للشعب المقدونى .

وتنكرت الدول البلقانية البرجوازية لارادة الشعب المقدونى . **ووفقا لمعاهدة « بوخارست » فى عام ١٩١٣ تم تقسيم مقدونية بين اليونان وصربيا وبلغاريا .** وأخذت هذه الدول المذكورة تضع سلطتها فى الأجزاء المقدونية التى آلت اليها . وتوالت عمليات الطرد والسلب والنهب وفرض الاجراءات الاستثنائية فى مقدونية بينما أدى تقسيمها الى حدوث اهتزازات ضخمة وعواقب وخيمة على الحياة الاقتصادية والقومية والسياسية للبلاد .

وبذلك أصيبت الحركة الثورية القومية المقدونية بضربة قاصمة ، وتحطمت الوحدة الاقليمية للبلاد . وفى ذلك الحين ازداد نشاط المهاجرين المقدونيين ، وتحت تأثير هؤلاء المهاجرين فى « بترو جراد » تم ، فى عام ١٩١٥ ، اعلان القرار الخاص بالقضية المقدونية الذى تتم به المطالبة باعادة سيادة مقدونية وحصولها على استقلالها كدولة . وناضلت « الجمعية المقدونية الخاصة بمقدونية المستقلة » فى سويسرا من أجل تحرير مقدونية تحت شعار « **مقدونية للمقدونيين** » .

وفى نهاية الحرب جرت فى مقدونية محاولة لوضع حل للمسالة

القومية المقدونية فى اطار الجهود الرامية الى توحيد الشعوب اليوغسلافية وفقا للمبادىء الفيدرالية • وبعد الحرب مباشرة أعلن الجناح اليسارى للحركة الثورية القومية فى مقدونية (فى عام ١٩١٨) بيانا لحل المسألة المقدونية يطالب فيه بحصول مقدونية على سيادتها • وتم تشكيل المكتب التمثيلى المؤقت الذى أرسل من قبله ممثلا الى مؤتمر السلام فى باريس لكى يمثل المصالح الحقيقية للشعب المقدونى • وفى هذا المضمار أبرز « المجلس العام » للجمعيات المقدونية فى سويسرا نشاطا خاصا • وبالرغم من ذلك فان مؤتمر باريس وافق على نتائج الحروب البلقانية ، فيما يتعلق بتقسيم مقدونية مع اجراء بعض التعديلات •

وأصبح وضع الحركة القومية المقدونية عسيرا للغاية بعد الحرب العالمية الأولى • وتمت فى مقدونية الممزقة اقامة نظام عسكرى لسلطات الاحتلال ، وحاول هذا النظام بكل قوته أن يضم الأراضى وأن يفقد السكان هويتهم القومية • وعن طريق الاستيطان الجماعى للأراضى المقدونية المطلة على بحر ايجة وبوساطة التهجير القسرى للمقدونيين تم تغيير الشكل العنصرى لمقدونية •

وتعرض اليساريون الذين كانوا موجودين فى المهجر للمطاردات ولعمليات الاستقطاب الداخلى والتفتت • وكان اليمينيون يتلقون العون من الدوائر الرجعية بالبرجوازية البلغارية ، ولذا فقد تدعموا وأصبحوا يمثلون عنصرا سياسيا يؤثر تأثيرا قويا على الموقف السياسى والعسكرى غير المستقر فى منطقة البلقان • وجرى فى البلاد تكيف مع الموقف الجديد •

واتجهت القوى السياسية المقدونية ، بالرغم من الضغوط التى تتعرض لها ، الى التعاون مع اليساريين وفى المقام الأول الى التعاون مع الأحزاب الشيوعية • وفى الجزء المقدونى المطل على نهر فاردار بدأ الربط بين نضال الشعب المقدونى ونضال الطبقة العمالية والقوى التقدمية للحركات التحررية للشعوب اليوغسلافية الأخرى وكذلك بين كل القوى الديمقراطية من أجل بناء يوغسلافيا الجديدة على أسس ديمقراطية ومع حصول كل الشعوب والقوميات على حقوق متساوية •

وظهر فى البلاد العديد من المنظمات الحزبية القوية ، وحظى الحزب الشيوعى اليوغسلافى بتعاطف وتأييد متميزين • الا أنه فى عام ١٩٢٠ تم توجيه ضربة الى التفاف الشعب المقدونى حول الحزب الشيوعى اليوغسلافى ، واستغل الجناح اليمينى المتطرف فى الحركة الثورية المقدونية حالة الاضطراب وعدم الاستقرار • وأخذ أنصار اليمين يزرعون الأوهام بأنهم يناضلون من أجل مقدونية المستقلة الموحدة ، وتمكنوا بذلك

من انشاء منظمات خاصة بهم فى بعض الأجزاء من مقدونية الممزقة • الا أن هذا النشاط الغوغائى لم يستمر لفترة طويلة •

وسرعان ما تكشف الوجه الحقيقى لأنصار اليمين بعد اشتراكهم فى الحياة السياسية البلغارية فى صف البرجوازية الرجعية وبعد تعاونهم فى اخماد ثورة سبتمبر ١٩٢٣ واشتراكهم فى التصفية الغادرة لقيادة اليساريين • وتحول أنصار اليمين الى جماعة ارهابية فاشية ترتبط بالدوائر الفاشية فى منطقة البلقان ، وبالمراكز الفاشية فى روما وبرلين •

ولكن تلاشت الأوهام وبزغت الحقيقة نتيجة لفقدان الثقة بأنصار اليمين من جهة ، ونتيجة للجهود التى بذلتها الحركة الشيوعية من أجل تدعيم كفاح الشعب المقدونى للحصول على الاستقلال من جهة أخرى • وساهمت سياسة الحزب الشيوعى اليوغسلافى فى هذا المضمار مساهمة خاصة ، وكذلك قبول قرارات الكومينترن فى ١٩٢٣ بشأن المسألة المقدونية • **وادى هذا الى التعرف على أصالة كفاح الشعب المقدونى والى الاعتراف به وقبول سيادته الاقليمية ، والى المساهمة فى زيادة ارتباطه بالحزب وبسياسته •**

ومنذ ذلك الحين تم انشاء فروع للحزب فى جميع المراكز الكبرى فى الأراضى المقدونية المطلة على نهر فاردار ، وتم انشاء فروع لحزب العمال المستقل فى يوغسلافيا ، وتم كذلك احياء الحركة النقابية وانشاء فروع لاتحاد الشباب الشيوعى • وبالتدريج أخذت تختفى من الحياة السياسية فى مقدونية الأحزاب الموالية للنظام مثل الحزبان الراديكالى والديمقراطى ، وكذلك مختلف المنظمات الشبابية والوطنية التى كانت تساعد على سياسة الضم وافقاد الهوية القومية •

وباقامة نظام ديكتاتورية السادس من يناير فى يوغسلافيا أصبيت الحركات القومية بضربة مرة أخرى • وفى يوليو ١٩٢٩ تم القضاء على منظمة « فمرو » نتيجة للقبض على عدد كبير من أعضاء وأنصار منظمة « فمرو » فى الجزء المقدونى المطل على نهر فاردار • بيد أن نشاط المنظمة ظهر فى الأراضى المقدونية المطلة على بحر ايجة ، وعلى الأخص بعد عام ١٩٣٠ • وفى هذه الفترة تحررت المنظمة تحررا نهائيا من ترددات معينة تتعلق بالهوية القومية للشعب المقدونى ، وكانت هذه الترددات نتيجة لما تقوم به بعض دوائر الحركة العمالية البلغارية من تأثير عليها •

وفى عام ١٩٣٣ تم تشكيل اللجنة المحلية للحزب الشيوعى اليوغسلافى لمقدونية • ونما تأثير الحزب وعلى الأخص بين الطلبة والتلاميذ، وساهمت فى ذلك قرارات المؤتمر الاقليمى الرابع للحزب الشيوعى

اليوغسلافى (فى لوبليانا ١٩٣٤) بشأن انشاء أحزاب فى كل من كرواتيا وسلوفينيا ، وفيما بعد فى مقدونية .

٢١ - انشاء حركة « مانابو »

وتم فى الاجتماع الذى انعقد فى زغرب (فى عام ١٩٣٦) تأسيس « **الحركة الشعبية المقدونية** » المعروفة باسم « **مانابو** » التى أحسنت استقبالها دوائر الطبقة المتوسطة . **وفى اجتماع « أوهريد » فى نفس العام تم بالتفصيل التعريف بالأهداف السياسية للحركة وهى : الكفاح من أجل الحرية القومية والمساواة فى اطار يوغسلافيا الاتحادية .** وساهمت أفكار هذه الحركة فى اثراء كفاح الشعب المقدونى من أجل الحريات السياسية والقومية وفتحت آفاقا كبيرة أمام نجاحها . وقامت الحركة بنشاط سياسى بارز واقترحت على الأحزاب المعارضة اقامة حركة سياسية ديمقراطية موحدة معادية للفاشية . وحيث أن الحركة لم تستطع أن تقدم ممثليها فى الانتخابات بالاشتراك مع الحزب الشيوعى ، فقد ساعدت مرشحى أحزاب المعارضة . وأصدرت الحركة صحيفة فى زغرب » ولكن سرعان ما حظر رجال الشرطة صدورها .

وركز الحزب الشيوعى اليوغسلافى نشاطه السياسى على المسائل القومية وعلى الحركات الثورية القومية للشعوب المضطهدة . وهكذا تمت مساعدة المنظمة الحزبية المقدونية فى الشفاء العاجل من آثار الضربات البوليسية وفى أن تعرض بأسلوب أكثر وضوحا مواقف الحزب الشيوعى اليوغسلافى فيما يتعلق بالمسألة القومية مع تعضيد الحركة الثورية القومية للشعب المقدونى فى كفاحه المشترك مع الحركات التقدمية للشعوب والقوميات اليوغسلافية الأخرى من أجل الاتحاد الفيدرالى .

والربط بين صفوف الحزب المقدونى ، وعلى الأخص بعد عام ١٩٣٨، مكن من قيامه بنشاط سياسى أكثر حيوية ، وسعى الحزب بكل قوته الى تدعيم نفسه فى الحياة السياسية المقدونية . وعن طريق حركة « المانابو » جرت ثانية محاولة الاتصال بأحزاب المعارضة من أجل التمثيل المشترك فى الانتخابات البرلمانية ، وعن طريق حزب الشعب العامل حاولت ابراز قائمتها المستقلة . وأدى النشاط المتزايد للمنظمات الحزبية وتدعيم سياسة الحزب فى المسألة القومية الى التقليل من مجال نشاط حركة « المانابو » ، بل وأخذ هذا النشاط يتلاشى ببطء من الحياة السياسية . وساهمت الحركة ، الى حد ما ، فى تدعيم الوعى القومى المقدونى وساهمت مساهمة أكبر فى دعم النضال القومى للشعب المقدونى .

وفى اطار النشاط الحزبى المتزايد أصدرت اللجنة الاقليمية المؤقتة فى فبراير ٩٩٣٩ صحيفة « **كلمتنا** » ، وبعد مشاورات مايو للجنة المركزية **للحزب الشيوعى اليوغسلافى** (فى ١٩٣٩) تم تشكيل لجنة اقليمية جديدة تحفز على الكفاح من أجل الحقوق القومية والاجتماعية . واشتدت ردود الفعل الصريحة الجريئة ضد الاعتداءات التى تقوم بها الطبقة البرجوازية الصربية . وفى عام ١٩٤٠ تم فى « سكوبلى » عقد المشاورات الموسعة للجنة الاقليمية التى نتج عنها انتشار الكفاح السياسى بين الجماهير والقيام بأنشطة من أجل حل المشاكل الملموسة للطبقة العاملة (الاضرابات والمظاهرات فى ذكرى ثورة « اليندن » وتوزيع المنشورات على الجماهير) .

والاحتفالات بثورة « اليندن » التى جرت فى عام ١٩٤٠ فى مدينتى « برليب » و « أوهريد » دعمت النفوذ المباشر للحزب الشيوعى اليوغسلافى فى مقدونية وفى نفس الآونة دعمت من قوة الحركة القومية المقدونية وأثار تزايد النشاط السياسى فى مقدونية ردود فعل قوية من جانب النظام الحاكم فى صربيا . وتم اعداد قوائم بأسماء أصحاب النشاط السياسى التقدمى تمهيدا لاتخاذ اجراءات عنيفة ضدهم ، وتم ارسال مائتين من أكثرهم نشاطا الى معسكرات الاعتقال . الا أن الحركة القومية استمرت فى توسيع قاعدتها الشعبية ، وأفضل دليل على ذلك هى المظاهرات التى نشبت فى مارس ١٩٤١ ضد انضمام يوغسلافيا الى الحلف الثلاثى . **ولكن بعد انهيار مملكة يوغسلافيا قسمت كل من بلغاريا وايطاليا الجزء المقدونى الواقع فى وادى نهر فاردار .**

٢٢ - مصير الأجزاء الأخرى من مقدونية

فى السنوات الأولى التى تلت الحرب العالمية الأولى انتشرت فى هذا الجزء من مقدونية الأفكار المتعلقة بثورة أكتوبر الروسية ولاقت ترحيبا . ولكن بعد اخماد الثورة التى حاول القيام بها الحزب الشيوعى البلغارى فى ١٩٢٣ تفوق وسيطر الجناح اليمينى الفاشى المتطرف فى الحركة الثورية المقدونية . وجرى قتل أتباع اليسار وتم تطبيق أفظع نظام لاستغلال السكان وتم حظر أى نشاط للقوى التقدمية والغاء المنظمات الحزبية .

ولم ينتعش النشاط السياسى للقوى اليسارية ، ثانية ، الا فى عام ١٩٢٧ . ونشطت اللجنة المحلية لمنظمة « فمرو » نشاطا خاصا فى الفترة من ١٩٣٠ وحتى ١٩٣٥ بحيث أنها أصدرت فى عام ١٩٣٤ قرارا بتدعيم

استقلال الشعب المقدونى بمنطقة البلقان . وأثار هذا الأمر تدخل النظام البلغارى الذى طارد أتباع منظمة « فمرو » . وتم اصدار الأحكام على ستين من أبرز المسئولين فى المنظمة مما أدى الى توقف نشاط المنظمة فى هذه المنطقة من مقدونية .

وحصلت اليونان ، بعد الحرب العالمية الأولى ، على الجزء المقدونى المطل على بحر ايجة ، وتعرض السكان المقدونيون فى هذه المنطقة لضغوط قاسية وتهجير قسرى . وأيدت هذه السياسة الاتفاقية التى وقعتها كل من اليونان وبلغاريا فى ١٩١٩ بشأن التبادل الاختيارى للسكان . ووفقا لهذه الاتفاقية تم ترحيل ما يزيد على عشرة آلاف من المقدونيين الى بلغاريا . وهكذا قل عدد السكان المقدونيين فى هذه المنطقة الى أقل عدد ممكن .

كما جرت موجة جديدة من التغيرات القسرية لنوعية السكان فى هذا الجزء من مقدونية بعد هزيمة اليونان فى حربها مع تركيا فى عام ١٩٢٣ . وتم توطين ٦٠٠ ألف لاجىء من آسيا الصغرى فى الجزء المقدونى المطل على بحر ايجه ، الأمر الذى غير بالقوة العناصر العرقية لصالح العنصر اليونانى . وتم الحفاظ على التفوق العددى للشعب المقدونى فى الجزء الغربى من هذه المنطقة . وبالرغم من الضغوط التى تعرض لها السكان المقدونيون فى هذه المنطقة فقد عضدوا السياسة اليسارية . وساعد على اتساع تأثير الحزب الشيوعى اليونانى على السكان المقدونيين علاقته الايجابية ازاء الحركة الثورية القومية المقدونية وتأييدها لسياسة توحيد مقدونية فى اطار دولة مستقلة فى منطقة البلقان باعتبارها عضوا متكافئا فى اتحاد الدول البلقانية .

وفى عام ١٩٣٤ تم تشكيل قيادة منظمة « فمرو » الخاصة بمقدونية المطلة على بحر ايجة على أن يكون مركزها فى « سالونيك » . وتمت اقامة مطبعة صغيرة يتم فيها طبع المواد الدعائية باللغة المقدونية . وتم كذلك اصدار صحيفة سرية تطبع أيضا باللغة المقدونية . وناصرت المنظمة الاستخدام الحر للغة المقدونية فى الحياة العامة وفتح المدارس التى يتم التدريس فيها باللغة المقدونية ، وناصرت كذلك الحقوق الثقافية والقومية الأخرى .

ونتيجة لقيام النظام الديكتاتورى فى عام ١٩٣٦ أصيب اليسار بضربة قاصمة ، وتم اعتبار نشاطه غير قانونى ، كما تم القبض على كل قادة منظمة « فمرو » وبذلك تمت تصفيتها بشكل عملى . وفى هذه الفترة تم استخدام كل الوسائل من أجل ضم السكان المقدونيين وافقادهم

هويتهم ، وتم حظر استخدام اللغة المقدونية لا فحسب فى الأماكن العامة ، بل وفى المنازل أيضا . وجرى افتتاح مدارس ليلية لتعليم اللغة المقدونية .

٢٣ - تحرير مقدونية

بعد تدمير المملكة اليوغسلافية واليونان فى أبريل عام ١٩٤١ حدث تقسيم جديد لمقدونية بين بلغاريا وايطاليا . وفى الأراضى المقدونية التى آلت الى بلغاريا تم تطبيق سياسة الاستغلال الاقتصادى المتزايد وافقاد الهوية القومية . وتعرض كل نشاط قومى مقدونى للمطاردات القاسية . وافسد سكرتير اللجنة الاقليمية فى مقدونية كل أنشطة الحزب الشيوعى اليوغسلافى التى تهدف الى قيام الثورة وتحرير البلاد . وبعد احتلال البلاد قطع كل علاقاته مع اللجنة المركزية للحزب الشيوعى اليوغسلافى وضم المنظمة الحزبية المقدونية الى الحزب البلغارى .

وتشكلت لجنة اقليمية جديدة ، وبقيادة الحزب الشيوعى اليوغسلافى قام الشعب بالثورة المسلحة ضد قوات الاحتلال الفاشية . وأثرت الانتصارات الكبرى التى حققتها ثورة الشعوب اليوغسلافية تأثيرا ايجابيا على تطور الثورة فى مقدونية . وخلال عام ١٩٤٢ سجلت الثورة المسلحة للشعب المقدونى نجاحات جديدة .

ويمثل عام ١٩٤٣ نقطة تحول فى تطور الثورة المسلحة ضد المحتل الفاشى ، وتم انشاء الحزب الشيوعى المقدونى كفرع للحزب الشيوعى اليوغسلافى . وهكذا أصيبت الدعاية المعادية بضربة قاصمة . وتم اتخاذ قرار بتشكيل وحدات عسكرية ضخمة ونشر وتدعيم شبكة مجالس التحرير الشعبية ، وسجلت الثورة الشعبية انتصارات جديدة .

وبدأ تحرير المناطق الأولى من مقدونية . وبعد استسلام ايطاليا فى عام ١٩٤٣ تحررت « ديبار و كيتشيفو » وتكونت منطقة مستقلة كبيرة كانت قاعدة لنمو الثورة . وبعد اتخاذ الاجراءات من أجل دعوة المجلس المناهض للفاشية الخاص بالتحرير الشعبى لمقدونية ، المعروف باسم « أسنوم » ، حدثا سياسيا عظيما بالنسبة لتطور حركة التحرير الخاصة بالشعب المقدونى .

وفى الاجتماع الأول لمجلس « الأسنوم » فى عام ١٩٤٤ تم تحقيق حلم الشعب المقدونى منذ قرون عديدة ألا وهو اقامة الدولة المقدونية .

وصدر أيضا قرار باعلان اللغة المقدونية لغة رسمية لمقدونية · وبذلك تهيأت الظروف الرئيسية الملائمة لتطور التعليم والثقافة لأفراد الشعب المقدونى فى اطار المجتمع الاشتراكى المستقل للشعوب والقوميات اليوغسلافية ، وبالتالى تم اتخاذ الخطوات اللازمة للتحرير النهائى لمقدونية من المحتل الفاشى · وواصلت الوحدات المقدونية من جيش التحرير الشعبى كفاحها مع باقى وحدات الشعوب اليوغسلافية الى أن تم التحرر النهائى للبلاد من المحتلين الأجانب ·

وبعد الحرب بدأ تعمير البلاد وخلق القاعدة المادية من أجل تطور ونمو العلاقات الاجتماعية الاشتراكية · وتم ، فى المقام الأول ، تنفيذ الاصلاح الزراعى الذى تمت به التصفية النهائية لبقايا العلاقات الاقطاعية. وبوجه عام تم العمل على تحسين الأوضاع الاقتصادية والنهوض بالصناعة ورفع مستوى التعليم والثقافة · ومع التطور السريع للشعب المقدونى حدث أيضا تطور ديناميكى للقوميات ·

ومنذ نهاية الحرب العالمية الثانية وحتى الهجوم الستالينى على يوغسلافيا تمكن الشعب المقدونى الموجود فى منطقة جبل « بيرين » ، أى التابع لبلغاريا ، والموجود فى منطقة بحر ايجة ، أى التابع لليونان ، من تدعيم هويته القومية · وكنتيجة للتعاون الوثيق بين بلغاريا واليونان آنذاك فقد تهيأت الظروف الملائمة لحصول الشعب المقدونى هناك على حكم ذاتى واستقلال ثقافى · وبمساعدة الكوادر المقدونية تم ادخال الدراسة فى المدارس باللغة المقدونية وعقد محاضرات عن التاريخ القومى المقدونى وما الى ذلك من أنشطة تعمل على تدعيم العلاقات بين مقدونية وبين المقدونيين الموجودين فى منطقة جبل «بيرين» ·

وخلال الحرب الأهلية فى اليونان كان يتم الاعراب بشكل متزايد عن الهوية القومية لأفراد الشعب المقدونى الموجودين فى منطقة بحر ايجة · كما تم الغاء التفرقة القومية فى أجهزة السلطة الشعبية وتم فتح المدارس التى يتم التعليم فيها باللغة المقدونية ·

الا أنه بعد هجوم ستالين على يوغسلافيا فى عام ١٩٤٨ جرت فى هذين الجزئين من مقدونية تحولات ومطاردات والغاء للحقوق المكتسبة وللنتائج التى تم التوصل اليها · وبعد الحرب الأهلية فى اليونان تم تهجير عشرات الآلاف من المقدونيين من المنطقة المقدونية المطلة على بحر ايجة وتوطينهم فى دول شرق أوروبا واجبارهم على مهاجمة جمهورية مقدونية ويوغسلافيا وعلى التخلى عن تبعيتهم القومية ·

وعملت يوغسلافيا ، وفقا لسياسة عدم الانحياز ، على تحسين الوضع القومى للقوميات المقدونية الموجودة فى اطار الدول المجاورة · وباعتبار ان القومية رباط ينمى علاقات حسن الجوار فان مقدونية تلتزم بالاهتمام بوضع المقدونيين الموجودين خارج الحدود اليوغسلافية وتدافع من أجل الاعتراف بحقوقهم القومية والانسانية وفقا لميثاق الأمم المتحدة ·

الفصل الثانى

الأرض المقدونية

١ ـ السمات الجغرافية والطبيعية

قدمنا فيما سبق صورة موجزة لكفاح الشعب المقدونى الذى توجه بحصوله على الاستقلال فى اطار جمهورية يوغسلافيا . وسنحاول فيما يلى تقديم صورة مبسطة للخصائص الجغرافية والطبيعية التى تتميز بها المنطقة المقدونية ، وعرض المميزات التى يتصف بها سكان مقدونية ومايتعلق بذلك من أمور .

والمنطقة التى يسكنها المقدونيون تقع فى الجزء الأوسط من شبه جزيرة البلقان ويحدها من الشمال جبل شار والجبل الأسود السكوبى وجبل أوزوجوفو وجبل ريلا .ويحدها من الجنوب نهر بستريتسا وساحل بحر ايجة حتى منبع نهر ميستا ، ومن الغرب سلسلة جبال كوراب ويابلانيتسا وجراموس وبيتد ، ومن الشرق نهر ميستا والأجزاء الغربية من جبل رودوب .

والحدود الجغرافية لمنطقة مقدونية تحيط بمساحة قدرها ٢ر٧٤١ر٦٧ كيلو مترا مربعا ، منها ٢٥٧١٣ كم مربع . أو ٣٨٪ تخص جمهورية مقدونية اليوغسلافية ، والأجزاء الباقية تقع داخل الحدود اليونانية (وهى مقدونية المطلة على بحر ايجه) وداخل الحدود البلغارية (وهى مقدونية الواقعة عند جبل بيرين) .

وبعد الوضع الجغرافى لمقدونية مناسبا للغاية ، فهى ملتقى لكثير من الطرق الهامة والرئيسية . وتعتبر مقدونية مفتوحة أمام بحر ايجة ، باعتباره جزءا من البحر الأبيض المتوسط ، عن طريق أودية نهرى فاردار وستروميتسا وكذلك عن طريق الأودية المنخفضة فى الجنوب . وعن طريق واديى بريشفيو وكومانوفو اللذين يرتفعان عن سطح البحر بمقدار

٤٥٠ مترا يندمج وادى نهر فاردار مع وادى نهر مورافا الشمالى ويشكلان الوادى الفريد لنهرى فاردار ومورافا . وهذا هو طريق المواصلات الطبيعى وأقصر طريق موصل بين دول وسط وغرب أوروبا ودول الشرق الأوسط .

وتقود كل شرايين المواصلات بداخل جمهورية مقدونية نفسها الى وادى نهر فاردار ، بحيث أن الوادى يعد مفتوحا أمام وسائل المواصلات المتجهة الى المنطقة الداخلية من مقدونية . وفى شمال مقدونية يوجد طريق مواصلات رئيسى آخر يوصل الى المناطق الأخرى من جمهورية يوغسلافيا ، وهذا هو الطريق الموصل عبر أودية نهرى ليبيناتس وايبار .

وفى الماضى كان هناك طريق رئيسى هام ـ فيا اجناتسيا ـ يمر خلال مقدونية عبر شبه جزيرة البلقان ، وكان يمر من دورس عبر الباسان وأوهريد وبيتولا متجها الى سالونيك والقسطنطينية . وجزء من شمال غرب مقدونية مفتوح للمواصلات ـ حتى يومنا هذا ـ بوساطة هذا الطريق متجها الى وادى نهر فاردار . وكان له أيضا أهمية كبيرة فى الماضى خط المواصلات المار عبر أودية نهرى ستروما وستروميتسا .

ونتيجة لكونها مركزا جغرافيا لشبه جزيرة البلقان وملتقى للطرق الهامة والعامة ومفتوحة صوب بحر ايجة فقد تعرضت مقدونية منذ زمن بعيد للتأثيرات الاقتصادية والثقافية لمنطقة البحر الأبيض المتوسط النامية ، ولكنها كانت تتحمل أيضا كل تلك العواقب السلبية للغزوات المتكررة التى قام بها مختلف الغزاة والفاتحين ، على الأخص خلال الحربين العالميتين الأخيرتين . وكان معظم غزواتهم يتم ، فى أغلب الأحوال ، عن طريق مقدونية . وقد أوضح «بسمارك» الصورة بايجاز حين قال : «من يسيطر على وادى نهر «فاردار» يعد سيدا على منطقة البلقان» .

٢ ـ بلاد الجبال والأودية

والتضاريس المقدونية متميزة للغاية ، وتعد مقدونية منطقة جبلية فى المقام الأول . والى جنوب سلسلة جبال الجبل الأسود السكوبية فى المنطقة الشاسعة لوادى نهر فاردار توجد الكتلة الجبلية «رودوب» . وقد نشأت الملامح الجيوتكتونية الرئيسية لهذه الكتلة الجبلية القديمة فى بداية العصر الثلثى عند انهيار سلسلة جبال دينار وشار وبيند ، وذلك حينما تعرضت لضغط هائل ونتيجة لذلك انهارت وتحولت الى أرض صخرية والى أرض منخفضة خصبة . ومن ناحية الغرب تمتد السلاسل الجبلية شار وبيند ابتداء من أودية بولوشيا وكيتشفو فى خطين مزدوجين .

وأكبر وأجمل سلسلة جبلية فى مقدونية هى جبال شار فى الجزء الغربى الذى توجد فيه أيضا الجبال المشهورة الأخرى مثل كوراب ، يابلانيتسا ، بيسترا ، وستوجوفو وغيرها . ومن الجبال الموجودة فى المنطقة الشرقية جبال بلاسيتسا وسلسلة جبال أوزوجوف والجبل الأسود السكوبى .

وتوجد بمقدونية ٣٤ قمة ترتفع بمقدار ٢٠٠٠ مترا عن سطح البحر ، وأعلى هذه القمم كوراب (ارتفاعها ٢٧٦٤ مترا) وقمة تيتو على جبل شار (وارتفاعها ٢٧٤٧ مترا) .

والظاهرة الجيومورفولوجية الأخرى التى تترك آثارها الهامة على تضاريس مقدونية ترتبط بتكون البحيرات التى نشأت نتيجة للتشققات التكتونية ولهبوط حوض بحر ايجه . وقد جفت بالارتشاح الأودية المليئة بالبحيرات والخاصة بنهر « فاردار » وبالأنهار الأخرى . وفيما بعد شكلت الأنهار تلك الأودية الموجودة فى الوقت الحالى ، وكذلك الأودية الموجودة عند الأنهار الأخرى .

وبالرغم من أن الأودية فى مقدونية تبدو لأول وهلة منفصلة ومنعزلة ، الا أنها فى الحقيقة متصلة ببعضها بوساطة ممرات وجسور . وحتى وقتنا الحالى توجد بعض الأودية التى تعد جزئيا تحت بقايا البحيرات او ما زالت مستنقعية ، أو تم تحسينها وتجفيفها . واستمرت كل من بحيرة « أوهريد » وبحيرة « بريسبا » فى البقاء حتى وقتنا الحالى بسبب نشاط الزلازل وهبوط هذه المنطقة والتجديد المستمر لحوضيهما .

وتغطى بحيرة « **أوهريد** » مساحة قدرها ٣٦٦ر٧٤ كيلو مترا مربعا ، وتعتبر من أكبر المناطق الحافلة بالمناظر الطبيعية الخلابة . وطولها ٣١ كيلو مترا وعرضها ١٥ كيلو مترا ، وأقصى عمق لها ٢٨٦ مترا وترتفع عن سطح البحر بحوالى ٦٩٥ مترا . ويدخل فى نطاق الحدود اليوغسلافية حوالى ٢٤٧ر٧٦ كيلو مترا مربعا من مساحة البحيرة ، و١١٨ر٩٨ كيلو مترا مربعا داخل الحدود الألبانية .

وتصل المياه الى هذه البحيرة عن طريق الينابيع الطباشيرية الموجودة على حواف الجبال المحيطة ، وتصل فى معظمها عن طريق باطن الأرض . وبسبب صفاء مياه البحيرة فان الرؤية فيها تصل الى ٢١ مترا ، ولون المياه أزرق صاف . وتصل درجة حرارتها فى الصيف الى ٢٣ درجة ونادرا ما تقل برودتها عن ٦ درجات مئوية .

أما بحيرة « **بريسبا** » فتبلغ مساحتها ٢٨٥ر٤ كيلو مترا مربعا ،

وأقصى عمق لها ٥٤ مترا . وترتفع عن سطح البحر بمقدار ٨٥٣ مترا . ويدخل فى نطاق الحدود اليوغسلافية حوالى ١٨٨ر٢ كيلو مترا مربعا من مساحة البحيرة ، و٤٩ر٤ كيلو مترا مربعا داخل الحدود الألبانية ، و٤٧ر٨ كيلو مترا مربعا داخل الحدود اليونانية .

ويتم الاحساس بالهبوط التكتونى لبحر ايجة بشدة أكثر فى منطقة جنوب مقدونية التى تعد قريبة منها ، وبالتالى فالأودية والحقول تعد هنا أكثر اتساعا وأشد انخفاضا عن سطح البحر عن تلك الموجودة فى الشمال . ومع ذلك فالانخفاض التكتونى لبحر ايجة ما زال مستمرا وتصاحبه الزلازل المتكررة ، ويتناقص من الجنوب صوب الشمال ولكنه يصل الى البعد الذى تصل اليه أودية « سكوبلى » .

ويمثل الاردواز والفحطل والصخور المتغيرة التى تتكون منها الى حد كبير تضاريس مقدونية مصدرا لا ينضب من بعض المعادن الهامة من الناحية التكنولوجية . ومنطقتا كراتفو وزليتفو غنيتان بالرصاص والزنك الخام . ويمكن استخراج معدن الكروم من الصخور السربنتينية ، وعلى الأخص تلك الصخور الموجودة بجبال « لوبوتينسكى » . وثراء الأرض المقدونية يعد قاعدة صلبة لتطور التعدين والصناعة فى مقدونية .

٣ ـ الأحوال المناخية

تقع منطقة مقدونية بين خطى عرض ٤٠ر٥١ و ٤٢ر٣٠ درجة مئوية شمالا . وتتعرض هذه المنطقة فى جنوب وادى نهر فاردار لمناخ منطقة البحر الأبيض المتوسط ، بينما فى الشمال بأعلى أودية نهرى مورافا وفاردار تقع تحت تأثير المناخ القارى . وبالاضافة الى ذلك فان مناخ منطقة البحر الأبيض المتوسط يتغلغل ، ولكن بدرجة أقل ، تغلغلا عميقا صوب الشمال عبر وادى نهر فاردار وفوق المرتفعات المنخفضة . أما الأودية الجبلية الواقعة فى غرب وشرق مقدونية فهى واقعة تحت تأثير المناخ الجبلى .

وتتحقق السمات الرئيسية لمناخ منطقة البحر الأبيض والمناخ القارى ـ أى الصيف الحار الجاف ـ تحققا كاملا فى مقدونية . ونتيجة لذلك فان الحرارة تشتد وتقل الرطوبة حينما تكون النباتات فى ذروة نموها . وهكذا فان المناخ فى مقدونية يتبدل بين مناخ منطقة البحر الأبيض وبين المناخ القارى ، ولذا فان مناخها يختلف اختلافا خاصا عن المناخ السائد فى المناطق المجاورة .

وتقل الأمطار فى مقدونية بشكل واضح ، ففى مناطقها الغربية يسقط سنويا ما يقرب من ٧٠٠ ملليمترا من الأمطار ، وفى المناطق الشرقية ما يزيد عن ٥٠٠ ملليمترا . بينما بمحاذاة وادى نهر فاردار وفى منطقة « تيكفيش » يسقط حوالى ٤٥ ملليمترا فحسب من الأمطار . وعلاوة على ذلك فان توزيع الأمطار خلال فصول العام غير مناسب على الاطلاق . ويحدث ، على الدوام تقريبا ، نقص فى الأمطار خلال فترة نمو النبات . وخلال هذه الفترة يستمر الجفاف ، فى بعض الأحيان ، الى ما يزيد على مائة يوم . ولذا فان المزروعات تحتاج الى رى صناعى ، ولدى مقدونية كميات كافية من المياه المتوفرة من أجل ذلك .

وتسمح الأحوال المناخية المتميزة فى مقدونية بزراعة مجموعة منوعة من النباتات الزراعية التى تتميز بها المناطق الشمالية القارية مثل القمح والذرة والبطاطس وفواكه وسط أوروبا ، وتسمح أيضا بنمو المحاصيل المتنوعة التى تتميز بها مناطق البحر الأبيض المتوسط والمناطق شبه الاستوائية (مثل القطن والأفيون والخشخاش وغيرها من المحاصيل) ، ولكن بسبب تفاعل هذين النوعين الرئيسيين من الأحوال المناخية فان المزروعات لا تجد الجو المناسب من أجل نموها ونضوجها .

٣ ـ مصادر المياه فى مقدونية

فى العصور السحيقة كانت الأودية فى مقدونية مليئة بالمياه ، ونشأ نظام كامل من البحيرات التى بدأت تفيض بعد أن غمرت المياه أطرافها الجنوبية فى المنطقة التى يقع فيها حاليا بحر ايجة . وخلال عملية التفريغ انطلقت مياه البحيرات عبر الحواجز وشقت مسارات لها . وفى أثناء الفيضان الأخير لمياه البحيرات على الوهاد والأودية المنخفضة تشكلت الأنهار الموجودة بمقدونية فى الوقت الحالى .

ويعد نهر « **فاردار** » من أكثر أنهار مقدونية أهمية . ونهر فاردار بفروعه المتعددة يروى حوالى ٨٠٪ من مجموع مساحة الأراضى المقدونية . ويقع منبع نهر فاردار بجوار قرية « فروتوك » على المنحدرات الشمالية لجبل فلانتيسا على حافة وادى بولوج . وتبلغ طاقة هذا المنبع ٥ر١ مترا مكعبا فى الثانية ، وهو يتزود بالمياه عن طريق المجرى العلوى لنهر راديكا .

ويبلغ طول نهر فاردار على الأرض المقدونية ٣٠٠٥ كيلو مترا ، أى ٧٢٪ من طوله الاجمالى . ويتبقى منه ١١٩ر٥ كيلو مترا ، أى ٢٨٪ من اجمالى طوله ، تجرى داخل الحدود اليونانية المجاورة . ومسافة كيلو مترين من مجرى النهر تجرى صوب مجرى النهر عند « جيفجيليا » الى أن تتدفق الى

بحر ايجه عند خليج « سالونيك » . ويقع منبع نهر « فاردار » على ارتفاع ٦٨٣ر٥ مترا ، ومن هناك وحتى مدينة « جيفجيليا » يصل مستوى الهبوط الى ٢ر١٥ مترا فى الكيلو متر الواحد .

وتقل مياه نهر « فاردار » فى الفترة من يونيو الى نوفمبر بينما تكثر فى الفترة من ديسمبر الى مايو . ومتوسط الأمطار فى حوض النهر ٧٢٥ ملليمترا .

وتقع على الجانب الأيمن من نهر فاردار فروعه الرئيسية تريسكا وماركوفا وتوبولكا وبابونا وتسرنا وبوشافا ، وعلى الجانب الأيسر ليبنتس وبتشينيا وبريجانيتسا . ونهرا تريسكا وتسرنا على قدر أكبر من الأهمية بسبب كمية مياههما ، وتوزيعهما غير الموسمى للمياه وتكمن بهما طاقات أكبر اذا ما قارناهما بباقى فروع نهر فاردار .

وتتميز أنهار حوض فاردار بقدرتها على تخزين المياه طوال العام ، أو خلال سنوات عديدة ، وهكذا فانه يتحقق مستوى متوسط من الرطوبة فى كل عام . وبهذه الطريقة يصبح استخدام المياه والانتفاع بها على قدر هائل من الأهمية بالنسبة لعدد من الأغراض مثل توليد الطاقة الكهربائية والرى والصناعة والأشغال العامة والسياحة والاستجمام وغيرها من الأغراض .

ويقدر أن حوض نهر فاردار به طاقة مائية تبلغ حوالى ٢٤٤ر٤ ملايين كيلووات/ساعة ، وهى تعد طاقة هامة أهمية كبيرة بالنسبة لمقدونية نظرا لأنها تفتقر الى الأشكال الأخرى من مصادر الطاقة .

ويمكن رى ٣٢٥ هكتارا من الأرض (تمثل ٢ر٥١ ٪ من الأراضى الصالحة للزراعة فى مقدونية) عن طريق المخزون الحالى والمستقبلى لحوض نهر فاردار . وهذا الأمر يسمح بالعديد من المميزات ، اذا أنه يمكن تغيير الانتاج الزراعى من الزراعة التى تغلب عليها المحاصيل ذات العائد المنخفض مثل القمح والشعير الى زراعة المحاصيل ذات العائد المرتفع مثل البساتين وعلف الحيوان والفواكه والكروم . وفى هذه الحالة يظهر تأثير المميزات الهامة التى يقدمها المناخ المقدونى بالمقارنة بالمناطق الأخرى من يوغسلافيا .

وعند تقدير الجوانب الاقتصادية لنهر « فاردار » فلابد من التنويه الى توفر الظروف الملاءمه بالنسبة للمواصلات ، وذلك لأن مسارات الأنهار ترافقها خطوط للسكك الحديدية وطرق للمواصلات السريعة والبطيئة ، ثم المواصلات النهرية .

وحوض نهر «دريم الأسود» الذى يعتبر حوضا لبحيرتى « أوهريد » « وبريسبا » يروى ٣٠٪ من منطقة مقدونية. والحوضان ينبعان من حوض بحر الأدياراتيك . والحقيقة أن نهر « دريم » الأسود » يمثل الذراع بالنسبة لبحيرة « أوهريد » ، وبعد أن يتدفق النهر فى مجراه لمسافة ١٢ كيلو مترا يخترق – بالقرب من قرية دابوفيانى – سهلا ضيقا وعميقا بطول أربعين كيلو مترا .

وتسقط على حوض نهر « دريم » كمية كبيرة من الأمطار اذا ما قورنت بكمية الأمطار التى تسقط على حوض نهر « فاردار » . ولذا فان تدفق المياه كبير للغاية ، ويصل الى ٥٤ مترا مكعبا فى الثانية عند « شبليا بالقرب من « ديبار » . وهذه ظروف مناسبة للغاية من أجل تركيز الطاقة الكهرومائية وتستخدم بواسطة محطتى توليد الطاقة الكهربائية جلوبوتشيتسا وشبليا من أجل توليد حوالى ٨٠٠ مليون كيلووات/ساعة من الطاقة . وباستخدام بحيرة «أوهريد» كمستودع طبيعي يمكن أن تصبح مياه نهر « دريم الأسود » على مستوى واحد خلال العام أو خلال عدة أعوام .

ويبلغ طول مجرى نهر «**ستروميتسا**» الموجود بالأراضى اليوغسلافية حوالى ٧٣ كيلو مترا ، وتشمل منطقة حوض النهر فى الجزء الجنوبى الغربى ٧٪ من أراضى جمهورية مقدونية .

والبحيرات المقدونية (أوهريد وبريسبا ودويران) أصلها تكتونى . ويقل الطعام اللازم للأسماك فى بحيرتى « أوهريد » « وبريسبا » ولذا تقل كمية الأسماك التى يتم صيدها منها ، وهى تبلغ حوالى عشره كيلو جرامات من السمك فى الهكتار الواحد من البحيرة سنويا . والوضع يختلف بالنسبة لبحيرة « دويران » فهى غنية بالأسماك وتصل كمية الصيد الى مائة كيلوجرام فى الهكتار سنويا .

وتقع بحيرة « دويران » على الحدود اليوغسلافية اليونانية ، وتبلغ المساحة الكلية للبحيرة ٢٢ر٧٠ كيلو مترا مربعا ، منها ٢٧ر١٢ كيلو مترا مربعا تخص يوغسلافيا . ويصل عمق البحيرة الى حوالى عشرة أمتار. وشكل البحيرة بيضاوى ، وهى تضيق فى الجنوب حيث تكون أعمق ما يكون . ولون مياهها أخضر رمادى. وتتساوى درجة حرارة المياه السطحية مع درجة مياه الأعماق بسبب العمق الضئيل للمياه وبسبب سرعة اختلاطها .

٥ – التربة والنباتات

تتمثل العناصر الأساسية للتربة فى التضاريس والتكوين الجيولوجى والمناخ وما الى ذلك ، وتحت تأثير هذه العناصر اكتسبت التربه المقدونية شكلها الحالى . وتصل الى سطح التربه أيضا تلك المادة المعدنية الشبيهة بالقار والموجودة فى قاع الوادى . ويمكن العثور على هذه المادة فى كل الأودية المقدونية تقريبا ، وهى تمثل علامة أكيدة على الخصوبة الكاملة . وفى السنوات التى تقل فيها الأمطار تعطى محاصيل جيدة من القمح والذرة وبعض المحاصيل التى تستخدم فى الصناعة مثل القطن وعباد الشمس ، بينما فى السنوات الجافة تضعف المحاصيل ضعفا كاملا بسبب فقر سماتها الطبيعية .

وتتراكم طبقات من الطمى بمحاذاة شواطىء الأنهار ونتيجة لجريان المياه. وفى تلك المناطق توجد فى كثير من الأحيان أخصب طبقات الأرض . ونظرا لتواجدها فى المناطق المجاورة للأنهار وامكانية ريها بواسطة مياه الأنهار فانه يتركز بها انتاج الأرز (فى واديى كوتشانسكا وستروميتسا وغيرها من الأودية) جنبا الى جنب مع الخضراوات وتعطى نتائج طيبة المحاصيل الخاصة بالصناعة وبالماشية .

وتوجد طبقات من الطمى على أطراف الوديان وعلى المنحدرات المنخفضة للجبال وبالأراضى المنخفضة . وهذه الأراضى مناسبة لزراعة الكروم والتبغ ، وعندما يتم ريها تكون صالحة لزراعة مختلف أنواع الفاكهة . وفى ظل الظروف المناخية الجافة فى وادى « سكوبلى » ووادى « أوفتشه بوله » تتكون طبقات مالحة حول الطمى . وعادة ما تستخدم كمراعى للماشية وتستخدم الى حد ما فى زراعة المحاصيل الخاصة بالماشية ؛

وتتميز المناطق الجبلية بأرضها الصخرية الضحلة ذات اللون البنى الغامق . والعوامل الخاصة بتكوين التربة ليس لديها هنا الوقت الكافى لكى تحسن من جودة التربة ، وعادة ما تتم هنا زراعة النباتات التى لا تحتاج الى جودة خاصة فى التربة (مثل الجاودار والشعير والبطاطس) .

وتمثل جمهورية مقدونية مجموعة من الأنواع الرئيسية والفرعية للأراضى التى بالاضافة الى المميزات المناخية تؤدى الى تميز الانتاج الزراعى عبر الأودية المختلفة . وقد تشكلت التربة اللازمة لنمو النباتات تحت تأثير الأحوال المناخية والعناصر الأخرى للبيئة الجغرافية .

ويتم فى المناطق الشمالية من مقدونية زراعة النباتات الخاصة بمنطقة البحر الأبيض المتوسط . ومع ذلك فانه بسبب التأثيرات المناخية

القارية لا تتم زراعة الزيتون باعتباره محصولا زراعيا يخص منطقة البحر الأبيض المتوسط الا فى الحزام الساحلى الجنوبى الضيق ·

وفى أقصى الشمال توجد منطقة الغابات الموسمية التى تتخذ نظاما يشبه المدرجات العريضة بحيث أن أشجار البلوط تكون منخفضة الى أقصى حد · وهذه الغابات ترتفع الى حوالى ٩٠٠ مترا فوق سطح البحر · وفى أماكن كثيرة تحل محلها أشجار الكستناء · وتلك هى الحال على المنحدرات الشمالية لجبل بلاسيتسا والمنحدرات الشرقية لجبل يابلانيتسا وعلى المنحدرات الشرقية لجبل شار·ويوجد تغير فى المناخ فى المنطقة التى تعلو الحزام المكون من أشجار البلوط ، فهناك هبوط فى درجة الحرارة وتتزايد الأمطار·وكيفت أشجار الزان نفسها وفقا لهذه الأحوال والظروف فهى ترتفع من ١٢٠٠ الى ١٦٠٠ مترا فوق سطح البحر وفى بعض الأماكن الى أكثر من ذلك · وغابات أشجار البلوط والزان متناثرة وغير كثيفة ، وفى المساحات الشاسعة تفنى تماما بسبب انتشار التربه الصالحة للزراعة أو بسبب مراعى الدواب ، وكذلك بسبب استخدام أخشاب الغابة نفسها فى أعمال البناء والانتفاع بأخشابها فى التدفئة ·

وتسببت درجات الحرارة العالية نسبيا والكمية الغزيرة من الأمطار فى انقراض الغابات الدائمة الخضرة · وتم الاحتفاظ بهذه الغابات ، بشكل جزئى ، فى المناطق العالية من بليستر وجبل شار ، وبشكل متناثر فى المناطق الأخرى ·

وتوجد مراعى الماشية فى الأراضى المنخفضة ، وتزدهر مزروعات الأراضى المنخفضة حول المستنقعات بينما تتميز الضفاف المنخفضة لمجارى الأنهار بمثل هذه المزروعات ·

وعلى أساس المميزات السطحية والمناخية لمقدونية يمكن تقسيمها الى ثلاث مناطق جغرافية طبيعية كبيرة : المنطقة الشرقية التى تقع فى نفس المكان مع جبل رودوب فى شرق مقدونية ، ومنطقة فاردار الجغرافية الطبيعية فى الجزء الأوسط من مقدونية ، والمنطقة الغربية العالية ·

٦ ـ الزراعـــة

بعد استقلال يوغسلافيا حدثت تغيرات عميقة فى المجالات السياسية والاقتصادية والاجتماعية مما أدى بالتالى الى حدوث تأثير ايجـابى على الاقتصاد بوجه عام ، وعلى المجال الزراعى بشكل خاص · ومن أجل هذا فانه فى فترة وجيزة نسبيا ، من عام ١٩٤٥ وحتى عام ١٩٦٠ ، نشأت تغيرات ضخمة كما وكيفا فى تطور الزراعة وهيكلها ·

وكانت المهمة الأساسية فى السنوات الأولى بعد الاستقلال هو ايجاد الحل الفعال لمشاكل التجديد ووضع الأسس اللازمة لاعادة بناء الزراعة · ومن أجل ذلك تم اتخاذ الاجراءات الادارية والتنظيمية والاقتصادية اللازمة التى تهدف الى حل المشاكل الرئيسية فى مجال الزراعة وهى : تخليص الفلاحين من الديون ومن الضرائب التصاعدية وتقديم المساعدات الضرورية لهم · كما تم الاستيلاء على الأراضى الزراعية الخاصة بالعناصر الرأسمالية وتوزيعها على المزارعين وعلى الجمعيات التعاونية الزراعية ·

وتم تكثيف الجهـود التى ترمى الى استخدام الأساليب والتقنيات الحديثة فى مجال الزراعةوتغيير نوعيات المحاصيل وانشاء نظام متكامل للرى وتشكيل الجمعيات الزراعية والتعاونية وتدريب الاخصائيين الزراعيين واتخاذ كل ما يلزم من أجل تحديث الزراعة ·

وتشتهر مقدونية بالقمح والجاودار والذرة والشعير والأرز ، ومن المحاصيل التى تستخدم فى الصناعة يزرع بها التبغ والقطن والخشخاش وبنجر السكر ، ومن الخضراوات البطاطس والفاصوليا والبصل والثوم والكرنب والطماطم والفلفل ، ومن الفواكه البرقوق والتفاح والكمثرى والمشمش والكرز والخوخ والشمام والكروم ·

٧ ـ الصناعة والتعدين

تعرضت الصناعة فى مقدونية لتغير جذرى بعد الاستقلال · وبدأ التوسع فى انشـــاء المصانع التى تعمل بالخامات المحلية ، وظهر العديد من المنتجات المحلية الجديدة ، الأمر الذى ساهم فى سرعة تطورها الاقتصادى · وتم تشييد مصانع كبيرة للنسيج وتطوير الصناعات الغذائية وانشاء مصنع للخزف وللصناعات التعدينية والجلود والصناعات الكيماوية والآلات الكهربائية ومعدات البناء والأخشاب والسيارات والورق وغير ذلك من البضائع ·

ويوجد بمقدونية احتياطى وافر من معادن الحديد والزنك والكروم والرصاص والنحاس والنيـكل والمنجنيز ، عـلاوة على الذهب والفضة والزئبق ·

والتبغ المقدونى مشهور فى جميع أنحاء العالم وتوجد مصانع لتصنيع التبغ وانتاج السجائر فى كل من «برليب» و «سكوبلى» و «كومانوفو» · وقد وصلت شهرة التبغ المقدونى الى الشعر وتحدث عنه الشاعر الكبير « كوتشواراتسين » أكثر من مرة فى قصائده ·

لقد خطت الصناعة المقدونية عدة خطوات نحو الأمام . وتحاول مقدونية التغلب على مشاكلها الاقتصادية عن طريق انشاء المصانع الجديدة وتحديث مؤسساتها العلمية الموجودة حاليا ، هذا علاوة على تدريب المتخصصين الذين ستكون لديهم القدرة على تحقيق الانجازات العلمية فى مجال الاقتصاد وفى مجال العلاقات الانتاجية . وترى كل المشروعات الاقتصادية التى يجرى تنفيذها فى الوقت الحالى الى اعطاء الصناعة دفعة قوية والنهوض بها نهضة كاملة حتى تحتل مكانا متميزا فى الاقتصاد المقدونى .

الفصل الثالث

المقدونيون

١ ـ المقدونيون والعرب :

ذكرت المصادر والمراجع البيزنطية أن عديدا من القبائل السلافية قد استوطن المنطقة الجنوبية من شبه جزيرة البلقان ، والمعروفة حاليا باسم مقدونية . والتطور التاريخى للقبائل السلافية فى منطقة مقدونية كان متأثرا بظروف التطور الاجتماعى الداخلى فى وطنها الجديد وبالوضع الجغرافى والسياسى بمنطقة البلقان .

وقد ذكر فيما سبق أن التعارف الأول بين العرب وبين السلاف الجنوبيين ، ومنهم المقدونيين ، تم لأول مرة على الحدود بين الدولة الاسلامية والامبراطورية البيزنطية التى كانت قد وطنت هؤلاء السلاف داخل حدود امبراطوريتها وطعمت بهم جيشها واشتركت بهم فى محاربة العرب ، كما أن بعضا من السلاف اشترك فى جانب العرب .

وتسجل كتب التاريخ أن أول اتصال مباشر بين العرب وبين السلاف الجنوبيين تم فى بداية القرن السابع الميلادى ، وبالتحديد فى عام ٦٢٩م ، على الحدود بين الامبراطورية البيزنطية وبين الدولة الاسلامية، وبالتحديد فى الجنوب الشرقى من البحر الميت وكان العرب يهدفون من وراء هذا الهجوم الى توفير الأسلحة التى كان يتم صنعها فى تلك المنطقة وفى المدن المجاورة .

وقد جرت معارك مريرة بين الجيش البيزنطى بما فيه من جنود من السلاف الجنوبيين وبين الجيش العربى الاسلامى من أجل كل شبر من الأرض فى عهد الأمويين والعباسيين . وحتى بداية القرن العاشر كانت تتكرر فى كل عام تقريبا الهجمات من كلا الجانبين ويتم أسر الجنود وتبادلهم .

ومن المؤكد أن كل هذا كان يؤدى الى حدوث اتصالات مباشرة بين العرب وبين السلاف الجنوبيين ، وبالتالى المقدونيين ، وقد انعكس هذا فيما بعد على القصائد والحكايات الشعبية وعلى الأدب اليوغسلافي بوجه عام . **ورغم كل هذه المعارك فقد كان يتم عبور هذه الحدود أيام السلم أيضا وهكذا كان يتم بلا عوائق تبـادل الاتجاهات الروحيـة والأفكار وأسباب الحضارة والثقافة .**

والسبيل الثانى من السبل المحتملة للتعارف بين العـرب وبين السلاف الجنوبيين ، وبالتالى المقدونيين ، هو منطقة حوض البحر الأبيض المتوسط . اذ أنه من الحقـائق المؤكدة أن الهجمات العربية على بحر الأدرياتيك خلال القرن التاسع الميلادى استمرت قرنين كاملين على فترات متقطعة . ولا ريب أن هذه الهجمات العربية أثبتت بروز عنصر خارجى جديد له قوته مما سيؤثر فيما بعد على تاريخ دول بحر الأدرياتيك . وقد جرت معارك قاسية بين البيزنطيين والفرنجة والعرب على شواطىء بحر الأدرياتيك فى اطار الصراع الاستراتيجى والعسكرى فى منطقة البحر الأبيض المتوسط من أجل التجارة بين غرب أوروبا والشرق فى هذه المنطقة ، علاوة على أن العرب كانوا يريدون فى نفس الآونة بهجماتهم على بحر الأدرياتيك أن يهددوا النفوذ البيزنطى .

والسبيل الثالث عن طريق الدولة الفاطمية بمصر ، فقد قام تجار الدولة الفاطمية بدور بالغ الأهمية فى التجارة بين مصر والهند وكذلك مع أوروبا . وكان يوجد هنا عدد من المماليك السلاف . وكان لدى الخليفة المهدى حرس خاص أغلبهم من السلاف القادمين من سواحل شبه جزيرة البلقان . وعلاوة على ذلك فقد كان الخليفة المعز لدين الله الفاطمى يعرف احدى اللغات السلافية ، وهذا يؤكد وجود عدد كبير من الجنود والضباط من السلاف الجنوبيين لديه .

والسبيل الرابع هو الحروب الصليبية التى اشترك فيهـا الملك « أندريا الثانى » ملك الكروات والمجر ، وكانت هذه الحروب تعنى الكثير بالنسبة للحضارة الغربية بوجه عام وهنا لا ننسى المماليك الذين كان من بينهم روس وسلاف .

والدولة الأموية باسبانيا هى السبيل الخامس من السبل المحتملة للتعارف بين السلاف الجنوبيين ، وبالتالى المقدونيين ، وبين العرب . وهنا كانت قرطبة مركزا للحياة الثقافية والروحية بالغرب الاسلامى كله . وكان عدد السلاف الجنوبيين بها كبيرا وكانوا يشكلون الحرس الخاص لبعض الحكام مثل الخليفة الحكم والخليفة عبد الرحمن الثالث .

وبوجه عام كان الدور السياسى للسلاف الجنوبيين فى أسبانيا دورا كبيرا للغاية . وكان منهم بعض القائلين والحكام أصحاب القصور الرائعة . وعلى الصعيد الثقافى يوجد عـدد من الشخصيات السـلافية التى برزت بفضائلها وخدماتها ، ونذكر منها على سبيل المثال لا الحصر هرمان الدلماسى الذى يقال عنه أنه أول من ترجم القرآن العربى الى اللغة اللاتينية .

ولا خلاف على أن الحروب المديدة المتواصلة التى اشترك فيها كل من العرب ومن السلاف الجنوبيين ، وبالتالى المقدونيين ، قد سمحت بعلاقات ثقافية متنوعة ومتميزة بينهما . ومن المعلوم أن الحياة المشتركة قد تفرض على المتحاربين ، فى بعض الأحيان ، أن يتمثلوا ببعضهم وأن يتعارفوا فى جميع المجالات الممكنة والمتاحة وبمختلف الأشكال . وهذا يدفعنا ببساطة الى الاستنتاج بأنه عن طريق هذه السبل تعرف السلاف الجنوبيون على الأدب والحضارة العربيتين ، وبالتوازى مع كل هذا كانت الخبرات والتقاليد الشعبية تنتقل من العرب الى السلاف الجنوبيين فى وقت الحرب ، وكذلك فى وقت السلم .

٢ ـ مسألة المقدونيين :

نتيجة للأحداث التاريخية المؤسفة التى شرحناها فيما سبق أصبح هناك مقدونيون يعيشون خارج مقدونية الحالية . ونتيجة لهذه الأحداث فقد المقدونيون وحدتهم الجغرافية والاقتصادية وتفرق شملهم وفقا للشريعة الغاب التى تنص على أن الأقوى هو الذى يملك الحق على الدوام . وقبل هذه الأحداث التاريخية المؤسفة والحروب الوخيمـة ، كان المقدونيون عنصرا مسيطرا فى مقدونية ، ولكن فيما بعد وجدوا أنفسهم أشخاصا غير مرغوب فى وجودهم بأرضهم ووجدوا أنهم أصبحوا أقلية داخل حدود الدول المجاورة التى لم تبد تفهما لنضال الشعب المقدونى ولأفكاره القومية .

بل على العكس من ذلك حاولت هذه الدول المجاورة ، بقدر استطاعتها وعن طريق مختلف الأعمال المنظمة للاقناع والارهاب ، ضم المقدونيين اليها واعتبارهم رعايا تابعين لها . واذا لم يفعلوا ذلك فانها تطردهم من ديارهم . ومن ناحية أخرى **أصبحت المشكلة المقدونية سببا مستمرا لسوء الظن ولتدهور العـلاقات بين يوغسـلافيا وبين تلك البـلاد التى يوجد بها مقدونيون . وبدلا من أن تكون الأقليات المقدونية معبرا للتفاهم وجسرا للصداقة بين دول البلقان أصبحت حجر عثرة أمام تحسن هذه العلاقات، بل انها غالبا ما تؤدى الى برود العلاقات المتبادلة .**

وقد حصلت اليونان بعد الحروب البلقـانية على حوالى ٣٤ر٣٥٦

كيلو مترا مربعا من الأراضى المقدونية وعلى ما يزيد على مليون من السكان ، منهم حوالى ٣٢٨ر٣٧١ من المقدونيين و٣١٤ ألفا من الأتراك المسلمين .

وتتمثل المشكلة الحالية فى أن هذه **الجالية المقدونية الكبيرة التى تعيش الآن داخل الحدود اليونانية محرومة من ممارسة حقوقها القومية . وتعتبر اليونان أن هؤلاء السكان المقدونيين التابعين لها سكان يونان ولا تعترف بلغتهم القومية المقدونية ، كما أنها لا تسمح لهم بالتعليم بلغتهم القومية أو باستخدامها فى التعبير عن أى شىء أو فى التعامل بها ، وتعاملهم على أساس أنهم من رعاياها اليونانيين .**

وما حدث للمقدونيين الموجودين فى المنطقة المطلة على بحر ايجة حدث أيضا للمقدونيين الموجودين فى المنطقة المقدونية الواقعة عند جبل «بيرين» والتى تتبع بلغاريا فى الوقت الحالى . **فبلغاريا لا تعترف بوجود قومية مقدونية وتعتبر السكان المقدونيين من رعاياها البلغاريين وذلك لكى تتجاهل حقوق المقدونيين الذين يعيشون على أرضها ، وهذا ما تفعله أيضا مع المسلمين البلغار من أصل تركى الذين يعيشون داخل حدودها الاقليمية .**

ومن الطريف أن ننوه الى أن هذه المشكلة لم تكن متواجدة خلال السنوات الماضية بين يوغسلافيا وبلغاريا . وهناك ألف دليل ودليل على أن المقدونيين كانوا يتلقون تعليمهم بلغتهم القومية المقدونية ويمارسون أنشطتهم بها ويستخدمونها فى التعبير عن أنفسهم وفى المعاملات المألوفة. الا أن الحال تغير فى السنوات الأخيرة وأصبحت بلغاريا لا تعترف بجمهورية مقدونية اليوغسلافية .

والحقيقة أن عدم استعداد الجانب البلغارى لتنظيم أحوال الأقلية المقدونية الموجودة فى بلغاريا وفقا للقوانين الدولية ولمواد معاهدة السلام الموقع عليها مع بلغاريا فى عام ١٩٤٧ ، ووفقا أيضا للدستور البلغارى وللتشريعات البلغارية الصادرة فى ذلك الحين ، وعلى أساس الاحترام المتبادل لحق كل دولة لاتخاذ ما يلزم من القرارات الخاصة بشئونها الداخلية . وفى هذا المضمار لا يمكن فهم نكران وجود الشعب المقدونى كله الا بأن بلغاريا تخفى مطامع اقليمية تجاه يوغسلافيا .

ومن المعلوم أن يوغسلافيا لا تخفى أية مطامع اقليمية لها تجاه بلغاريا. وقد تجلى ذلك وقت اعداد معاهدة السلام مع بلغاريا ، ويتجلى أيضا فى الوقت الحالى فى تصرفات المسئولين اليوغسلاف وما يدلون به من تصريحات . ولكن هذا الكلام لا ينطبق على بلغاريا التى كانت وما زالت

تطمع فى اعتبار السكان الموجودين بالمنطقة الواقعة بين « أوهريد » ونهر « الدانوب » من رعاياها البلغاريين .

أما الأقلية المقدونية فى ألبانيا فهى أحسن حالا . ويرى الجانب اليوغسلافى أن التحسين المستمر لحقوق الأقليات القومية فى مجال استخدامها للغتها وثقافتها وتلقيها للتعليم بلغتها القومية ، يعد هو السبيل الوحيد لتدعيم هذه الأقليات واعتبارها جسورا للربط والصداقة والتعاون « الدانوب » من رعايا البلغاريين .

٣ ـ المغتربون المقدونيون :

هناك مقدونيون تركوا بلادهم الى الأبد واستقروا فى البلدان الأوروبية وفى أمريكا وكندا بل وفى استراليا . وقد علمت مؤخرا أنه يوجد مقدونيون أيضا فى مصر . وفى هذه البلاد كون المقدونيون جاليات قومية أصبح لها مع مرور الزمن كيان اجتماعى وثقافى .

بيد أن نفوس هؤلاء المغتربين المقدونيين لا تعرف البهجة فى غربتها، وما زالت صدورهم عامرة بالحب والوفاء لبلادهم ومفعمة بالحنين الى وطنهم ، ومليئة كذلك بالأسى والألم نتيجة لحياتهم فى بيئة أجنبية تغاير بيئتهم وتتباين عنها .

ولا شك أن حياة المغترب المقدونى عسيرة ومريرة نظرا لأن البحث عن الرزق فى بلد أجنبى يبدأ على الدوام بممارسة الأعمال القاسية وبالدخول فى معركة من أجل البقاء ومن أجل الاستمرار على قيد الحياة . وعلى المغترب المقدونى أن يواجه الصعاب من أجل أن يحسن مستواه المعيشى وأن يجابه المشاق من أجل أن يزيد من دخله .

وفى هذه الحياة الشاقة لا يعرف المغترب المقدونى ماذا يخبىء له الغد ، وتشتاق نفسه المغتربة الى العودة الى وطنها . وبالتدريج يتعود على البيئة الجديدة ، الا أنه بالرغم من ذلك يتعلق بأهداب الأمل بأنه سيعود يوما الى بلده ، ربما غنيا أو ربما فقيرا كما كان حين تركها . ويدرك أن البلد الأجنبى الذى استقر به قد أصبح وطنه الجديد ، على الأخص اذا كان قادما من تلك الأجزاء المقدونية التى لم تتحرر بعد .

والمغترب المقدونى يحتفظ بعادات بلده وتقاليدها وذلك لكى يكبت حنينه الى وطنه واحساسه بالوحدة . ولا شىء يمنعه ، عند الاحتفال بمناسبة وطنية معينة ، من مشاركة أبناء وطنه وأصدقائه فى رقصاتهم الشعبية ، وذلك حتى يتذكر ويعيد الى ذهنه موسيقى بلده ورقصاتها ،

وهذا دليل على أنه فى أفكاره ومشاعره ما زال هو نفس الشخص الذى كان حينما غادر بلدته ٠

ولم ينس هؤلاء المغتربون المقدونيون أصلهم المقدونى أو احساسهم القومى حتى فى تلك البلاد الأجنبية النائية ، ولذا فانه يتم انشاء نوادى جديدة ومراكز ثقـافية وفرق للرقص الشعبى وللغناء ، واقامة أماكن للعبادات واصدار صحف ومجلات وكتب ٠ وهنا يجتمع شمل المغتربين المقدونيين ويجلسون فى اطمئنان ويتبادلون الحديث بلغتهم التى تتخذ قيمة جديدة وتكتسب سموا ورفعة فى هذا الجو الذى يتعجل فيه كل انسان كسب رزقه ٠

وهكذا تعود الى الحيـاة من جديد العـادات والتقاليد المقدونية فى أماكن جديدة ٠ وكل هذه المؤسسات الخاصة بالمغتربين المقدونيين تكثف الاحساس بالقومية المقدونية بأسلوب أو بآخر وتمنحهم الاحساس بانهم يملكون شيئا متميزا يخص وطنهم فى هذه البلاد الأجنبية النائية ٠ وهذا يزيد من صبرهم وجلدهم ومثابرتهم فى جهودهم وأنشطتهم اليومية ٠ وهـذه النفحات المقدونية تنمو لكى تصبح فى بعض الأحيـان مقدسات حقيقية تعمل على ازدهار وانتعاش الوعى القومى المقدونى لدى المغتربين المقدونيين ٠

وأينما كان المغتربون المقدونيون فهم يعدون أنفسهم جزءا لا يتجزأ من أفراد الشعب المقدونى ، وهذا الاحساس يزيد من ارتباطهم الروحى ببعضهم ويجمع شملهم بالرغم من أنهم مبعثرون فى جماعات صغيرة فى جميع أنحاء العـالم ٠ وتتوثق علاقاتهم بوطنهم الأم عن طريق الزيارات المتكررة فيتيهون فخرا وعجبا ببلادهم ويستمدون منها قوة جديدة تكون عونا لهم عند عودتهم الى أماكن عملهم فى البلاد الأجنبية ٠

٤ ـ الحياة الاجتماعية :

الأسرة هى الخلية الاجتماعية الأساسية فى المجتمع المقدونى ، وهذه الأسرة تحمل كل ملامح الأسرة البلقانية المحافظة ٠ والوالد هو رب الأسرة وهو السيد الذى لا حدود لحقوقه على أفراد أسرته ٠ والى عهد قريب كانت أغلب العائلات تتكون من ثلاثة أجيال : الوالدين وأبناءهما وأحفادهما، ولكن توجد أيضا جمـاعات أسرية أكبر من ذلك تتألف من عـدة أخوة وعائلاتهم وعدة أجيال ، أى يحدث توسع أفقى ورأسى ٠ وهذه الجماعات الأسرية يصل عدد أفرادها فى بعض الأحيان الى ثمانين أو مائة فرد ٠

وتكثر مثل هذه الجماعات الأسرية فى قرى الوادى وفى المناطق الواقعة بمحاذاة الحدود حيث تضعف الأحوال الأمنية لسبب أو لآخر ٠ ولهذه العائلات الكبيرة تنظيم محكم ، وعلى رأسها سيد العائلة أوكبيرها ، ولها أيضا قواعد ثابتة صارمة فيما يتعلق بشئون الحياة ٠ وقد تحمل لقبا واحدا أو عدة ألقاب ٠

ومنذ بداية القرن العشرين بدأ ينقرض هذا النوع من الجماعات الأسرية بحيث أن العائلات فى القرى ، فى الوقت الحالى ، يمكن أن تتألف من ثلاثة أجيال بينما فى المدن تنخفض الى جيلين فحسب ٠ الا أنه يتم الحفاظ على الصلات والروابط الوثيقة بين العائلات التى ترتبط بأصل واحد ٠ وهذا أمر لا تتميز به فحسب القرى حيث تعيش العائلات عادة فى جماعات فى الضواحى ، ولكنه يحدث أيضا فى المدن ، وعلى الأخص فى المدن الصغيرة حيث بدأت عمليات تفتت العائلات واقامة علاقات مـع آخرين لا تربطهم بالمرء قرابة ، ولكنها لم تتطور الى درجة كبيرة ٠ ويلتزم الأقارب برعاية الأرامل والأطفال اليتامى ٠ وهناك أيضا التزامات تجاه أفراد العائلات التى يذهب رجالها للعمل خارج البلاد ٠

وتحتفظ القرية بأشكال بدائية من التنظيم ، وهى الى عهد قريب كانت تمثل وحدة اقتصادية واجتماعية متميزة ٠ وكانت تمتلك بعض الأشياء التى تؤكده هذه السمة المتميزة ٠ فكل قرية تقريبا كانت لها قطعة مشتركة من الأرض الزراعية أو من أرض الرعى ، وتلك القرى الموجودة فى المناطق الجبلية تمتلك غابة عامة مشتركة ، وفى بعض الأحيان حديقة للزراعة وطاحونة مائية مشتركة وما الى ذلك ٠

٥ ـ الأقليات القومية :

عبر التاريخ المقدونى كان المقدونيون على اتصال حميم بالقوميـات الأخرى التى كانت تعيش على الأرض المقدونية ٠ وقد اشتركوا جميعا فى النضال من أجل الحصول على الاستقلال ومن أجل بناء حياة أفضل تقوم على التفاهم والمحبة ٠ وكانوا جميعا يفكرون فى مقدونية المستقلة باعتبار أنها ستعبر عن مشاعرهم القومية وعن حقوقهم الشرعية وستكفلها لهم ، ولهذا فلم يبخلوا عليها بالغالى والرخيص من أجل أن تحصل على حريتها واستقلالها ٠

وبعد الاستقلال طالب الألبان والأتراك بكل الحقوق والفرص اللازمة من أجل تقدمهم القومى ، فحصلوا عـلى التعليم المدرسى بلغـاتهم القومية

وأبدعوا أدبا خاصا بهم وأقاموا المؤسسات الخاصة بهم · وفيما بعد تم التأكيد على ذلك فى الدستورين اليوغسلافى والمقدونى · ومواد الدستور لم تمنح الأقليات القومية حقوقها وواجباتها مرة واحدة دون تغييرها فيما بعد ، بل كانت تزداد زيادة اطرادية وتكتسب معنى وأبعادا جديدة كلما تطورت الديمقراطية الاشتراكية فى يوغسلافيا · **والمساواة بين أفراد الشعب اليوغسلافى وبين أفراد القوميات الأخرى الموجودة بيوغسلافيا تعد حقيقة تاريخية لا تقبل الجدل ·**

ولا شك أن التغيرات الثقافية والتعليمية التى جرت بمقدونية قد أثرت أيضا فى الأقليات القومية الموجودة بمقدونية · وحققت أيضا الكثير فى كل المجالات فى الفترة التى تلت الاستقلال · وأصبحت حياتهم أكثر فعالية وتقدما ، بل وأكثر بهجة وسرورا منذ أن ألقوا بالماضى وراء ظهورهم ومنذ أن أصبح هناك أمن وأمان وأمل كبير فى الحاضر وفى المستقبل · والظروف الحالية بمقدونية تقدم لكل انسان الفرصة لأن يتقدم وينمى مواهبه وقدراته ومهاراته ولأن يزيد من عطائه ·

وكما أن الانسان المقدونى بدأ كثيرا من الأمور من الصفر فقد كان أيضا على أفراد الأقليات القومية التى تعيش فى مقدونية أن ينطلقوا من البداية · وحينما بدأ التعليم المدرسى باللغتين التركية والألبانية فى مقدونية وعندما تم فتح المؤسسات التعليمية المعادلة للجامعة كان أفراد هذه الأقليات القومية يعيشون نهضة مطردة ، وهكذا حصلوا فى الوقت المناسب على الخريجين الجامعيين من أبنائهم · وتلاشت الأمية التى كانت من قبل ملازمة لأفراد الأقليات القومية نظرا لأنهم كانوا لا يستطيعون دراسة أى شىء بلغتهم القومية · وكان هذا بشيرا بالقضاء قضاء مبرما على هذا العبء الثقيل ، أى الأمية ·

والمدرسون الذين علموا الأجيال الأولى من صغار الألبان والأتراك كان يمكنهم بالفعل أن يشعروا بالفخر لأن تلاميذهم قد أنهوا منذ فترة طويلة تعليمهم ودراستهم وأصبحوا الآن مثقفين ، وهم الآن يعملون فى مجالات التدريس أو الصحافة أو الأدب وينشرون مؤلفاتهم بلغاتهم ، ويقومون أيضا بمهمة رئاسة تحرير المجلات والصحف التى يتم طبعها ونشرها باللغتين التركية والألبانية ، أو يعملون بالتمثيل فى المسرح الألبانى او التركى ·

وبذلك تمت اتاحة الفرصة لهم للعمل فى مختلف المجالات وتأدية مختلف المهام والاشتراك بنشاط فى الحياة العامة بمقدونية أو فى الحياة السياسية والنيابية والاقتصادية ، وعلى هذا النحو ساهم أفراد الأقليات

القومية فى تطوير النظام الاشتراكى القائم على التسيير الذاتى ، وهو النظام الذى منحهم التدعيم الثقافى والتحرر الاجتماعى ·

وتتسع شبكة المدارس والمؤسسات التعليمية الألبانية والتركية ، وبذلك يتم خلق الظروف الملائمة من أجل تكثيف التعليم وتحسين المستوى الثقافى لأفراد الأقليات القومية · ويدل على ذلك العدد الكبير من الطلبة الألبان والأتراك من أفراد الأجيال الجديدة · ويتغير بشكل مستمر الهيكل الاجتماعى والمهنى لهؤلاء السكان ، ويظهر من أفراد هذه الأقليات حرفيون مهرة وعمال أكفاء ، وبوجه عام أشخاص يساهمون مساهمة كبيرة فى ثراء النشاط الثقافى والفنى المتنوع الجارى فى مقدونية · كما سجل أفراد هذه الأقليات انجازات جديدة لها صفة الدوام ، وعلى الأخص فى مجالات الثقافة والفن والأدب · ومن المؤكد أن هذه تعد اضافة الى الثقافة المقدونية بوجه عام ·

وبالاضافة الى الصحف والمجلات الخاصة بالصغار والكبار والى طبع الكتب بلغات هذه الأقليات فانه توجد أيضا مكتبات ومؤسسات ثقافية أخرى خاصة بها · واذاعة وتليفزيون « سكوبلى » يبثان يوميا برامج اذاعية وتليفزيونية من أجلهم ، ونفس الأمر تفعله المحطات الاذاعية المحلية · وكل هذا يدعم هويتهم القومية ويزيد من فرص تقدمهم ·

الفصل الرابع

جولة بين المدن المقدونية وآثارها

أتيحت لى فرصة زيارة مقدونية ثلاث مرات فى سنوات متقاربة · ولم تكن هذه زيارات سائح محب للاستطلاع يريد أن يستمتع بوقته بمشاهدة الطريف والمثير ، وانما كانت زيارات بحث ودراسة من أجل اكتشاف الجديد والتنقيب عن المفيد فى مقدونية · وفى كل زيارة كنت أتجول بين المدن والقرى المقدونية وبين ربوعها الجميلة ومناظرها الخلابة وبين آثارها العريقة · وفى كل مرة كانت معارفى ومعلوماتى تتزايد حتى ولو كررت الزيارة لنفس المكان ·

وقد سجلت العديد من انطباعاتى ويومياتى عن هذه الزيارات وعن هذه الجولات ، وكتبت معلومات وفيرة ، ومن حصيلة هذه الانطباعات وهذه المعلومات جاءت هذه الصفحات التى ساصحبك فيها عزيزى القارىء فى جولة سريعة نتعرف فيها على مقدونية من خلال مدنها وآثارها · وأرجو أن تسنح لك الفرصة لكى تشاهد بنفسك مفاتنها الطبيعية وبحيراتها ومروجها الفاتنة ولكى تجرب بنفسك كرم ضيافة أهلها وبشاشتهم وحفاوتهم ·

يمكنك أن تصل الى **سكوبلى** ، عاصمة مقدونية ، بثلاثة طرق مختلفة : بالطائرة وبالقطار وبالسيارة · وهى تقع على الطريق الرئيسى للمواصلات لنهرى « فاردار » و « مورافا » · وهى مدينة حديثة تم تشييدها من جديد بعد الزلزال المريع الذى تعرضت له فى السادس والعشرين من يوليو عام ١٩٦٣ ، والذى سوى مبانيها بالأرض وأودى بحياة العديد من السكان (حوالى ١٠٢٩ شخصا) ·

ولم يترك الشعر الشعبى هذه الفرصة فصور هذه المأساة المريعة وهذه المصيبة الفظيعة بأبياته الرمزية الحزينة فقال :

اهتزت الأرض
ذات صباح حزين
وانتزعت الابنة سكوبلى
من حضن أمها ·
لاتبك أيتها الشقيقة صربيا ،
وأنتن أيتها الأخوات الأخريات ،
مازالت مقدونية حية
وستولد سكوبلى جديدة !

وبالرغم من هذه الصورة الحزينة الا أن الشاعر الشعبى يعرب عن أمله وتفاؤله فى اعادة بناء المدينة من جديد والعيش فيها مرة أخرى · وهذا هو ما حدث بالفعل ·

ومن الغريب أن القصائد الشعبية تصور « سكوبلى » بصورتين مختلفتين · « سكوبلى » فى الصورة الأولى مكان للغنى وللبركة والحياة الجميلة · و «سكوبلى » فى الصورة الثانية تتعرض للكوارث الكبيرة مثل الفياضانات والزلازل والأمراض المعدية مثل الطاعون والكوليرا · والحقيقة أن الصورة الثانية مطابقة للواقع وللوقائع التاريخية ·

ويذكر « سكوبلى » لأول مرة « بطليموس » فى القرن الثانى الميلادى ، وفى القرن الثالث كانت مسجلة على خريطة الطرق الخاصة بالامبراطورية الرومانية فى ذلك الحين · ونظرا لأن المنطقة السكنية المسماة باسم « سكوبى » كانت تعد قاعدة للفيلق الرومانى السابع فقد وصلت بشكل مبكر نسبيا الى درجة كبيرة من الازدهار ، الا أنه توقف تماما فى عام ٥١٨ نتيجة للزلزال المريع الذى تعرضت له « سكوبلى » آنذاك ·

أما السكان الذين فروا بحياتهم من هذا الزلزال فلم يعيدوا بناء المنطقة السكنية القديمة بل أقاموا منطقة سكنية جديدة فى الجنوب الشرقى بمحاذاة نهر « فاردار » · وبلغت هذه المنطقة السكنية فى فترة وجيزة ثراء وازدهار المنطقة القديمة ، بل أصبحت مدينة كثيرة السكان وذات تنظيم جيد · وعلى الأخص فى عهد الامبراطور البيزنطى جوستنيان (٥٢٧ ـ ٥٦٥ م) ·

وفى نهاية القرن السادس وخلال القرن السابع هاجم السلاف المدينة عدة مرات الى أن احتلوها نهائيا فى عام ٦٩٥ وأطلقوا عليها اسم « سكوبلى » وغيرها من الأسماء المشتقة من نفس الاسم (اسكوبى ، سكوبيا ، اسكيب ، سكوبليا ، أو سكوبلى ، سكوبه) ورغم أنها لم تكن عاصمة امبراطورية « صمويل » ، الا أن « سكوبلى » فى ذلك الحين نمت وتطورت الى أن أصبحت أحد المراكز التجارية الكبرى وعقدت الصلات مع المدن الواقعة على شاطىء بحر الأدرياتيك • وفى أعقاب انهيار امبراطورية « صمويل » تحولت « سكوبلى » تحت التأثير الثقافى والاقتصادى القوى لبيزنطة الى مركز اقتصادى وادارى استراتيجى هام يتحدث عنه « الادريسى » ، عالم الجغرافيا العربى ، فى القرن الثانى عشر •

وفى نهاية القرن الثالث عشر (فى عام ١٢٨٢) دخلت « سكوبلى » فى اطار الدولة الصربية فى القرون الوسطى وظلت تابعة لها فترة تربو على مائة عام • وفى المدينة العلوية (فى المكان الحالى للقلعة) كان يوجد مقر الادارة والأعيان ورجال الدين والادارة الحكومية وقيادة الجيش ، وفى المدينة المنخفضة يوجد التجار وأصحاب الحرف وغيرهم • وكانت « سكوبلى » باعتبارها مركزا تجاريا مزدهرا لها أسواقها المتقدمة (سوقها فى يوم القديس أرانجيل كان يستمر ثمانية أيام) تجذب اليها التجار من جميع أنحاء شبه جزيرة البلقان • وهكذا انتقل اليها العديد من عائلات التجار ، ومن بينها كثير من العائلات من « دوبروفنيك » •

وفى عام ١٣٩٢ وقعت « سكوبلى » تحت سيطرة الأتراك العثمانيين ، وظلوا بها لمدة تزيد عن الخمسمائة عام الى وقت نشوب الحروب البلقانية فى عام ١٩١٢ • وغير العثمانيون اسمها الى « أوسكوب » ، وبدأوا منذ وقت مبكر يضفون على المدينة الطابع الشرقى التركى ، فقسموا المدينة الى أحياء مختلفة وجعلوا السوق والمنطقة التجارية الرئيسية فى وسط المدينة ، وبالتحديد وسط المناطق السكنية • وتوجد فى السوق المحلات ودكاكين أصحاب الحرف وأماكن الضيافة وأماكن العبادة وما شابهها • واتسمت المدينة بأزقتها الضيقة الملتوية ومنازلها ذات الواجهات المطلة على الفناء وذات الجدران العالية المطلة على الشارع وبمساجدها الكثيرة •

وفى القرنين السادس عشر والسابع عشر بلغت « سكوبلى » بموقعها فى عمق المؤخرة بعيدا عن جبهات القتال وفى الجزء الأوسط من المنطقة الأوروبية التابعة للامبراطورية العثمانية ـ ذروة تطورها الاقتصادى وازدهارها ، وعلى الأخص بعد التغلب على الصعاب التى أثارها الزلزال فى عام ١٥٣٥ والحريق فى عام ١٥٩٤ •

وذكر الرحالة الذين زاروها حينذاك أن عدد سكانها بلغ من ٣٠ الى ٤٠ ألف منزل ، وهى أرقام ينبغى التحفظ عند استخدامها • الا ان الحقيقة المؤكدة أن « سكوبلى » فى ذلك الحين كانت ثانى مدينة كبيرة متقدمة بعد القسطنطينية فى المنطقة الأوروبية من الامبراطورية العثمانية • وكانت مزدهرة بها ازدهارا كبيرا تجارة الجلود والشمع والغلال والأخشاب • وكانت الحرف متقدمة تقدما كبيرا الأمر الذى خلق ظروفا مناسبة للاستيطان وبذلك اتسع نطاق المدينة •

ووفقا لما دونه الرحالة التركى « اكسيليا شلبى » فى عام ١٦٦١ كانت المدينة ممتدة على ضفتى نهر « فاردار » وبها حوالى سبعين ضاحية وما يربو على عشرة آلاف منزل ، منها العالى ومنها المنخفض ، وهى مشيدة بمادة صلبة ومكسوة بقوالب الآجر • وتفيد المعلومات الخاصة بالسوق أنه كان يشمل ما يزيد على ألفى دكان • ومما يدل على التطور الاقتصادى للمدينة وتقدمها الحقيقة القائلة بانه فى منتصف القرن السابع عشر كانت النقود تسك بها وبانه كان يوجد بها حوالى سبعمائة من صناع الجلود الذين كانوا يدبغونها فى مجرى نهر « فاردار » من أجل الحصول على الجلود القرطبية الناعمة التى كانت فيما بعد تصدر الى جميع أنحاء العالم •

وتوقف التقدم الاقتصادى للمدينة نتيجة للحرب النمساوية التركية ولهجوم الجيش النمساوى على المنطقة الجنوبية ، بل وحدث تغيير فى نوعية السكان • وفى عام ١٦٨٩ أمر القائد النمساوى « بيكولومينى » بحرق « سكوبلى » خوفا من أن يصاب جيشه بالطاعون الذى كان يجتاح المدينة ، وربما فعل ذلك لأسباب استراتيجية أخرى • وخلال يومين أتت النار على المدينة كلها ، وكان يوجد فيها فى ذلك الحين ـ وفقا لأقوال « بيكولومينى » نفسه ـ حوالى ٦٠ ألف نسمة • وبسبب الخوف من الطاعون ومن أعمال الانتقام النمساوية هجر السكان المدينة هجرة شبه كاملة • ووصل جزء من سكانها الأتراك الى القسطنطينية حيث أنشأوا حيا باسم « أوسكوب » • وحدثت هجرة كذلك من جانب السكان المقدونيين • وأخذ الأتراك العثمانيون جزءا من السكان معهم ورحل الجزء الآخر بعيدا الى الشمال •

وبعد تلك الأحداث المأساوية فى عام ١٦٨٩ وفى نهاية القرن السابع عشر بدأ سكان مقدونيون جدد يصلون الى المدينة التى تقلصت وافتقرت ، وقدم اليها أيضا سكان مسلمون أغلبهم من الشيبتار القادمين من قرية « لوما » (حاليا فى الجزء الشمالى من ألبانيا) والقادمين من كوسوفو ومن الوادى العلوى لنهر مورافا الجنوبى أو من المناطق الغربية من مقدونية • وفى القرن الثامن عشر كان السكان المسلمون يتركزون فى شمال المدينة

بينما كان السكان المقدونيون يستوطنون الضفة اليسرى من شاطئ نهر « فاردار » ، بحيث أنهم لم يصلوا الى الضفة اليسرى نفسها . أما الضفة اليمنى لنهر « فاردار » فقد ظلت غير مأهولة بالسكان منذ أن هجرها السكان فى عام ١٦٨٩ .

وفى النصف الأول من القرن التاسع عشر كان عدد السكان المقدونيين فى « سكوبلى » فى ازدياد مستمر . وكان هذا هو وقت ضعف السلطة التركية المركزية وتمرد بعض الاقطاعيين والضغط القوى الذى قامت به بعض الجماعات المتمردة من الشيبتار . وفى ظروف عدم توفر الأمن والأمان بالنسبة للأشخاص وللمتاع كان السكان المقدونيون من المناطق المجاورة يندفعون الى « سكوبلى » على أمل أنهم سيجدون فيها الحماية اللازمة وأسباب الحياة الكريمة . وفى منتصف القرن التاسع عشر كان يقطن « سكوبلى » حوالى عشرين ألف نسمة . ونتيجة للحروب التى جرت بين المملكة الصربية وبين الامبراطورية العثمانية فى عامى ١٨٧٦ - ١٨٧٨ ونتيجة للأحداث التى أعقبت ذلك فقد قدم الى « سكوبلى » سكان جدد من مناطق « تيتوفو » و « جوستيفار » . وأدى كل هذا الى التركيز المكثف للسكان على الضفة اليسرى من نهر « فاردار » والى اتساع الأحياء السكنية الموجودة على الضفة اليمنى من نهر « فاردار » .

ولعب الاحتلال النمساوى لمنطقة البوسنه والهرسك فى عام ١٩٧٨ دورا كبيرا فى تغير شكل المدينة . فقد هاجر الى « سكوبلى » واستوطن بها عدد كبير من المسلمين يبلغ حوالى ألفى شخص . وهؤلاء هم الذين يطلق عليهم اسم « المهاجرين » والذين أقامت لهم السلطات العثمانية منازل صغيرة من طابق واحد فى المنطقة الواقعة شرق الحى الجديد ، وعرفت فيما بعد « بزقاق البشانقة » . وعن طريق استمرار قدوم المهاجرين تكون حى « المهاجرين » فى العقد الأول من القرن العشرين . وبعد الحروب البلقانية وبعد الحرب العالمية الأولى هاجر عدد كبير للغاية من المهاجرين الى تركيا بحيث أنه يوجد فى الوقت الحالى عدد قليل للغاية منهم ، واستوطن المقدونيون مكانهم .

واصبحت « سكوبلى » مركزا اداريا واقتصاديا هاما بعد اقامة خطوط للسكك الحديدية (فى عامى ١٨٧٤ ، ١٨٨٨) وبعد نقل مقر ولاية « كوسفو » اليها . ونظرا الى أن هذه الخطوط للسكك الحديدية كانت تمضى عبر الجزء الجنوبى من المدينة على الضفة اليمنى لنهر فارادار والى أنه قد أقيمت هناك محطة للقطارات فقد بدأ وسط المدينة ينتقل الى جانبها ويكتسب مظهرا عصريا . وأصبحت « سكوبلى » مدينة جذب للعمال المغتربين باعتبارها مركزا اداريا واقتصاديا هاما . وفى نهاية القرن التاسع عشر وبداية القرن

العشرين كان يوجد بها حوالى ثلاثة آلاف من العمال المغتربين ومعظمهم قادم من مدن تيتوفو وجوستيفار وكيتشيفسكى وديبار . واستطاع العمال المغتربون بعملهم ان يخلقوا بالتدريج الظروف الملائمة للاستيطان الكامل فى « سكوبلى » ، وساعد على التعجيل بهذا تلك الهجمات المنتظمة التى كانت تقوم بها عصابات قطاع الطرق من الأرناؤوط على المناطق المذكورة : وقد ازداد عدد القادمين من مدينة « ديبار » بحيث أنهم أقاموا ضاحية خاصة بهم فى الجزء الغربى من المدينة .

وكان غزو الأتراك العثمانيين لهذه المناطق مصحوبا باستيطان عديد من اتبـاع القوميات الأخرى التى كانت تعيش فى اطار الامبراطورية العثمانية ، ومنهم اليهود واليونان والغجر وكذلك الأرمن والألبان والشراكسة .

وخلال الحربين العالميتين لم تفقد « سكوبلى » شيئا من مهامها الادارية والاقتصادية ، بل انها ، باعتبارها مركزا لمنطقة « فاردار » ، وسعت دائرة جاذبيتها على كل المنطقة المقدونية المشرفة على نهر « فاردار » وعلى جنوب صربيا وكوسوفو وميتوهيا ، وأدى هذا الى استمرار عملية الاستيطان وزيادة عدد السكان واتساع المدينة .

وفى أبريل عام ١٩٤١ أصبحت « سكوبلى » تحت الاحتلال البلغارى . وفى ذلك الحين هجر المدينة عدد كبير من السكان الصرب ، وحل محله مهاجرون من المناطق الغربية لمقدونية (من مدن تيتوفو وجوستيفار وكيتشفو وديبار وغيرها) . ونتيجة لذلك انخفض عدد السكان انخفاضا ملحوظا .

وبعد الاستقلال أصبحت « سكوبلى » هى العاصمة والمركز السياسى والادارى والاقتصادى والثقافى لجمهورية مقدونية الاشتراكية وسرعان ما تزايد عدد سكانها حتى وصل فى عام ١٩٦٥ الى ٢٢٠ ألف نسمة . وتم فى ضواحى المدينة انشاء مناطق سكنية جديدة مثل « كاربوش » فى الجزء الجنوبى الغربى من المدينة « والاوتوكوماندا » فى الجزء الشرقى الجنوبى ، « وبروليت » « والحادى عشر من أكتوبر » فى الجزء الشرقى من المدينة . وبعد الزلزال المأساوى فى عام ١٩٦٣ تم انشاء عدة مناطق سكنية جاهزة فى أطراف المدينة من أجل اقامة أولئك الذين فقدوا ديارهم . وتمت اعادة بناء المدينة من جديد بفضل مساعدات باقى سكان يوغسلافيا وتضامن الدول الصديقة . وأصبحت « سكوبلى » الآن ثالث مدينة فى يوغسلافيا وبلغ تعداد سكانها حوالى ٤٠٠ ألف نسمة .

وإذا أردنا الاشارة الى التطور الاقتصادى لمدينة « سكوبلى » فلابد من

التنويه الى أنه فى أواخر القرن التاسع عشر والعقد الأول من القرن العشرين كان يوجد بها ثلاث طواحين مائية تستوعب عشرين عاملا وبطاقة قدرها ثلاثون طنا فى اليوم . وفى مجال الانتاج كان العمل موجها تماما لسد احتياجات الجيش . وكان يوجد بها مصنع للحلوى وآخر للبيرة . وفى عام ١٩٠٨ تم انشاء مصنع للجلود بطاقة قدرها ستون ألف كيلو جرام من الجلد الخام ، وانشاء مصنع للطوب مزود بأفران مستديرة : وبوجه عام كانت الصناعة فى بداياتها حينذاك ، وكان اقتصاد المدينة يحمل الطابع التجارى الحرفى . وفى ذلك الحين كان يوجد بها حوالى ثمانين حرفيا يمارسون مختلف الحرف .

وفى اطار جمهورية يوغسلافيا الاشتراكية برزت بروزا خاصا المهام الاقتصادية لمدينة « سكوبلى » . وهكذا يوجد فى « سكوبلى » فى الوقت الحالى حوالى ثلث الطاقات الصناعية لمقدونية . وعن طريق التوزيع الاقليمى للانشطة الصناعية تتحول « سكوبلى » بالتدريج الى مركز صناعى للصناعات المعدنية والتعدينية والكيميائية . والتطور الاقتصادى العام لمدينة « سكوبلى» يصحبه تطور قوى فى مجالات التجارة والفنادق والسياحة وفى المواصلات ومشروعات توليد الطاقة الكهربائية .

ونتيجة لهذه النهضة الاقتصادية ولهذا الدور الريادى الذى تقوم به مدينة « سكوبلى » فقد تحولت الى أكبر مركز ثقافى فى جنوب يوغسلافيا . ويوجد بالمدينة عدة متاحف ومنها المتحف الأثرى والمتحف الانتولوجى ومتحف العلوم الطبيعية ، هذا علاوة على المسرح القومى ومسرح الشباب ومسرح الأقليات القومية وفرقة الأغانى والرقص الشعبى . بالاضافة الى وجود ستوديوهات للاذاعة والتليفزيون وصالة لاقامة معارض لمختلف الفنون والمكتبة القومية والجامعية والجامعة بكلياتها المتعددة وبعض دور النشر وما الى ذلك .

ولم يكتشف علماء الآثار حتى الآن الحجم الأصلى للمدرج الكبير الذى كشفت عنه الحفريات الأثرية بالقرب من المنطقة القديمة « سكوبى » التى تحولت الى أطلال بواسطة زلزال مربع فى عام ٥١٨ م . وتشير بجلاء الى تقدم هذه المنطقة القناة الطويلة الرائعة للمياة التى تم اكتشافها أيضا .

وتوجد أجزاء من قلعة قديمة تقع على ربوة مرتفعة فى وسط المدينة . وهى ترجع الى النصف الأول من القرن السادس ، وذكرها الرحالة التركى « اكسيليا شلبى » فى كتاباته . وقد قام الأتراك العثمانيون بتجديد بعض أجزائها وهذه القلعة عبارة عن مبنى طويل ، ولها كوات فى جدرانها يتم استخدامها لاطلاق النيران من الأسلحة الصغيرة . والقلعة مشيدة من

الأحجار على قاعدة مربعة وأسوارها المتينة السميكة العالية تضفى جوا خاصا على هذا الجزء القديم من المدينة .

وهناك أيضا كنيسة القديس « بانتليمون » المشيدة فى عام ١١٦٤ ، وهى تقع على منحدرات « فودنو » بالقرب من « سكوبلى » . وهى تحتوى على لوحات جصية مرسومة على الجدار وعلى السقوف . وهذه اللوحات ذات قيمة فنية وتاريخية كبيرة ، وهى بلا شك تستحق المشاهدة وتوجد كذلك كنيسة القديس « سباس » التى تم تشييدها فى القرن الثامن عشر ، أما حاجزها الأيقونى فهو مصنوع فى بداية القرن التاسع عشر على يد « بيتار » « وماركو فليبوفسكى » « وماكارى فرتشكو فسكى »، وهم من الحفارين على الخشب . وحفرت على الحاجز الأيقونى مشاهد من الانجيل وكذلك صور نباتية وحيوانية . والقيمة الفنية للحاجز الايقونى تتمثل فى خطوطه الرقيقة وفنونه التشكيلية وصوره الحية . وخلافا لقوانين الكنائس حفر الرسامون صورهم على الحاجز الأيقونى . ويوجد الآن فى ساحة هذه الكنيسة قبر « جوتسه دلتشف » مفكر ومنظم الحركة الثورية المقدونية .

ويوجد فى « سكوبلى » عدد كبير من المساجد والحمامات الشعبية والأضرحة والخانات والآثار التاريخية التى ترجع كلها الى فترة الحكم العثمانى . ومن أقدم آثار العمارة الاسلامية مسجد « هيو متشار » وهو من أوقاف السلطان مرود الثانى (١٤٢١ ـ ١٤٥١) . وبجانب المسجد يوجد برج تعلوه ساعة ، وهو يعطى انطباعا مهيبا لهذا الجزء من المدينة . وهذا البرج من أقدم الأبراج التى تم تشييدها فى العهد العثمانى فى مقدونية .

وكان هذا المسجد من أجمل المساجد فى منطقة البلقان ، ولكن بعد حريق عام ١٥٣٧ تغير شكله الأصلى ، كما أصيب بأضرار أخرى فى حريق عام ١٦٨٩ حينما أشعل القائد النمساوى « ببكولومينى » النار فى « سكوبلى » . ثم جرت به تجديدات فى عام ١٧١٢ بحيث حصل المسجد على شكله الحالى . ولكن من الواضح أنه يلزم الكثير من الجهود والمال من أجل ترميم وتجديد المسجد والبرج وتجميل المنطقة المحيطة بهما .

وبالقرب من السوق « بيت بازار » يقع مسجد « اسحق بك » الذى تم تشييده فى عام ١٤٧٥ . ويطلق عليه أيضا اسم الجامع المزركش أو جامع آلاجا . وقد شيده حاكم « سكوبلى » « اسحق بك » ، وبجانبه شيد مدرسة وخانا وضريحا .

ومسجد غازى عيسى مشيد فى نفس الفترة ، وقبابه المزدوجة تذكرنا بالمسجد الموجود فى بروسه . وتوجد بأرض المسجد مقبرة تثير الاهتمام بشواهدها البارزة ونقوشها المتنوعة المتباينة ، وهى تمتزج امتزاجا كاملا مع أسلوب الروكوك ، وهو أسلوب فى التزيين وفن العمارة يتميز بالزخرفة البالغة واشتهر وانتشر فيما بعد فى النصف الأول من القرن الثامن عشر .

ومن أجمل المساجد الحالية ، وفيما سبق أيضا ، مسجد « مصطفى باشا » المشيد فى عام ١٤٩٢ . وهو مشيد من الأحجار وقوالب الطوب الأمر الذى يعطى منظرا غاية فى الجمال والروعة . وترتفع مئذنته الهيفاء الى حوالى ٤٧ مترا مما يجذب النظر اليها . وللمسجد قيمة ضخمة ورواق مفتوح ومكان للوضوء . ويوجد فى ساحة المسجد الضريح الذى تم به دفن « مصطفى باشا » فى عام ١٥١٩ .

وبالقرب من مسجد « مصطفى باشا » يقع خان « كور شوملى » المشيد فى القرنين الخامس عشر والسادس عشر ، وكان يستخدم كخان ونزل للقوافل وللمسافرين العابرين من هنا ، وكان يمكنهم أن يقضوا به الليل ويوجد به مكان لوضع الخيول . وتوجد به مجموعة من الأحجار المنقوشة وعن طريقها يمكن للمرء دراسة فنون النحت . ومنذ عام ١٨٧٨ وهو يستخدم كسجن . وفى الوقت الحالى يستخدم كمتحف أثرى .

وبالرغم من أن منطقة السوق التجارى ما زالت فى مكانها الا أنها تغيرت كثيرا عما كانت عليه من قبل . وكانت محلات التجارة والحرفيين تصطف فى الشوارع الضيقة المرصوفة بالبلاط الأبيض . وغالبا ما كان يتم تجميع المحلات وفقا لنوع الحرفة . ويمكن القول بحق أن هذه المنطقة هى فى الوقت الحالى القلب التجارى للعاصمة المقدونية ولا يحلو السهر والسمر الا فى هذه المنطقة التى يتجمع فيها الشباب بل والشيوخ ويستمتعون فيها بأوقاتهم بين الجو الشرقى والأطعمة الشرقية والموسيقى المقدونية والأغانى الشعبية المقدونية التى لا تبتعد كثيرا عن هذا الجو الشرقى .

وبالقرب من منطقة السوق التجارى يوجد حمام داود باشا الذى يرجع الى النصف الثانى من القرن الخامس عشر . وفى هذا الحمام يوجد قسم للرجال وآخر منفصل للنساء وبه أيضا نظام لتسخين المياه . وكان هذا الحمام يعمل فى عهد قريب وفى عام ١٩٤٨ تم تحويله الى صالة لعرض اللوحات الفنية ، وهو يضم فى الوقت الحالى بعضا من اللوحات الفنية للرسم المقدونى القديم والمعاصر وغيرها من الأعمال الفنية .

وفى مواجهة حمام « داود باشا » يوجد الجسر الحجرى الواقع على نهر فاردار ، ويرجع الى النصف الأول من القرن الخامس عشر ويربط الجزء القديم بالجزء الحديث من المدينة . ويقال انه تم تشييد هذا الجسر فى عهد السلطان مراد الثانى . وهو مشيد من قطع من الأحجار الضخمة ويستند على أعمدة قوية متصلة ببعضها بأقواس نصف دائرية . والتجديدات التى أجريت عليه لم تغير من شكله الأصلى . وقد تم مؤخرا تجميل المنطقة المحيطة بالجسر بحيث أصبحت متنزها للمواطنين وأصبحت تعد من أجمل مناطق « سكوبلى » .

وفى وسط الجزء الحديث من مدينة « سكوبلى » يقع جزء من محطة السكك الحديدية التى تدمرت ابان الزلزال . وهى مازالت باقية فى موقعها باعتبارها ذكرى فريدة على تلك اللحظة المؤسفة ، وعقربا ساعتها لا يزالان يتوقفان على الساعة الخامسة وسبع عشرة دقيقة ، وهو بالضبط التوقيت الذى وقع فيه الزلزال .

وعلى قمة القلعة يوجد متحف الفن الحديث الذى يحوى مجموعة فريدة من الأعمال الفنية التى أهداها للمتحف الفنانون المقدونيون وعديد من الفنانين الأجانب المتميزين .

ومن أهم المساجد الأخرى فى « سكوبلى » مسجد « يحيى باشا » الذى تم انشاؤه فى عام ١٥٠٤ ، ثم مسجد « اسحق بك » الذى شيد فى عام ١٤٧٥ ، ومسجد « الحاج قاسمو » المشيد فى ١٤٢٠ وغيرها من المساجد والأماكن الأثرية الاسلامية .

ومن « سكوبلى » سنمر عبر وادى نهر « فاردار » الذى يعد أكثر دفئا وهدوءا وهو متجه نحو الجنوب ويتدفق فى تراخ وبطء خلال وادى « ديميركابيا » (أى البوابة الحديدية) فى الطريق الموصل الى بحر ايجه . وعلى بعد خمسين كيلو مترا من « سكوبلى » بالقطار أو بالسيارة يقودنا الطريق الى مدينة منازلها الصغيرة فى صفوف أعلى من بعضها ، وكأنها مقامة على مدرجات .

وهذه هى مدينة « **تيتوف فيليس** » التى تقع على نهر فاردار ويبلغ تعداد سكانها فى الوقت الحالى حوالى خمسين ألف نسمة ، وهى تمتد فى الوادى مع امكانية أن تتسع فى جميع الجهات الأربع . وقديما كانت تسمى هذه المدينة باسم « بيلازورا » . وكانت آنذاك أكبر مدينة فى « بيونيا » ، وأول ذكر لها يرجع الى عهد الملك المقدونى « فيليب الخامس » . ومنذ عام ١٦٨ قبل الميلاد ومدينة « بيلازورا » مع منطقة مقدونية كلها تقع تحت

السيطرة الرومانية ، وفيما بعد وقعت تحت الادارة البيزنطية الى عهد تشكيل الدول السلافية فى شبه جزيرة البلقان حينما حصلت المدينة على اسم « فيليس » ، وهو الاسم الذى ظهرت به منذ بداية القرن الحادى عشر .

وقد استولى البلغار عدة مرات على مدينة « فيليس » من البيزنطيين ، ثم انضمت الى اطار الدولة الصربية فى القرون الوسطى ، فى عام ١٣٢٨ ، ابان حكم الامبراطور « ستيفان ديتشانسكى » ، وأطلق عليها البطريرك « دانيلو الثانى » اسم مدينة « فيليس الشهيرة » . وخلال حكم الملك « دو شان » أقام بها لفترة من الوقت الديكتاتور « يوفان أوليفر » . وبعد موت دوشان انضمت « فيليس » الى دولة الأخوين ديانوفيتش . وفى عام ١٣٩٥ ، أو بعد مصرع « قنسطنطين ديانوفيتش » ، وقعت « فيليس » فى أيدى الأتراك . وطوال معظم فترة الحكم التركى العثمانى كان علاوة على الأتراك يعيش بها مقدونيون أيضـــا ، وكان معظمهم يقيم على الجانب الأيمن من نهر « فاردار » .

والرحالة التركى « اكسيليا شلبى » يذكر هـذه المدينة باسم « كوبرولو » ، وهو بالتركية يعنى المدينة التى تقع على الجسر وذلك لأنها تقع على جانبى نهر « فاردار » ويربطهما جسر خشبى ضخم يوجد بأسفله أربع فتحات . وعلى أحد جانبيه يوجد خان به خمسون دكانا . وكان مبنى المحكمة والحمام العمومى يقعان على الجانب الأيسر من نهر « فاردار » . وكانت توجد بالمدينة جوامع ومدارس اسلامية ومدارس ابتدائية .

وفى نهاية القرن السابع عشر ، فى عام ١٦٨٩ ، وصل النمساويون بجنودهم خلال هجومهم العسكرى الى مدينة « فيليس » وأشعلوا فيها النيران . الا أنه يبدو أن المدينة لم تصب باضرار آنذاك ، وذلك لأن الرحالة الراهب « يروتى راتشانين » وصفها فى عام ١٧٠٤ ابان رحلته الى الشرق الأوسط بانها مدينة كبيرة ، وذكر أن أهلها يزرعون الكروم والقطن حول المدينة .

وبعد تدهور أحوالها قليلا خلال القرن الثامن عشر ، أخذت «فيليس» خلال القرن التاسع عشر تنمو وتتقدم بفضل قدوم السكان المقدونيين اليها من القرى المحيطة وقدوم عائلات ذات أصل رومانى من ألبانيا . ومنذ منتصف القرن التاسع عشر أصبحت « فيليس » من أشهر مراكز التجارة والحرفيين فى مقدونية . وعلاوة على صنع النعال كان يتم هنا اعداد حوالى ٤٠٠ ألف قطعة ممتازة من جلود الماعز ويتم تصديرها الى فيينا ، وكان عدد السكان بها حوالى عشرين ألف نسمة آنذاك .

وفى أثناء حرب كريم (١٨٥٣ - ١٨٥٦) كانت « فيليس » تصدر كميات كبيرة من الحبوب الى « سالونيك » ، وكان يتم نقلها بالقوارب عبر نهر « فاردار » كما كان يتم من قبل فى القـرنين السادس عشر والسابع عشر . وفى نهاية القرن التاسع عشر كان يوجد بها نفس العدد من السكان ، الا أن المقدونيين والسكان ذوى الأصل الرومانى كانوا يشكلون ثلثى السكان بينما كان الأتراك وقليل من الغجر يمثلون الثلث الباقى . وخلال العقود الأولى من القرن العشرين كان سكان « فيليس » مستمرين فى هجرتهم ، وعلى الأخص الى مدن « سكوبلى » و « بلغراد » و « صوفيا » . وبعد الحرب البلقانية والحرب العالمية الأولى هاجر عدد كبير من الأتراك بحيث بلغ عدد سكانها فى عام ١٩٣١ حوالى عشرة آلاف نسمة فحسب .

وتبدأ مدينة « فيليس » فى النمو والازدهار مرة ثانية بعد اقامة خطين للسكك الحديدية الى « شتيب » و « برليب » فى الفترة ما بين الحربين العـالميتين ، وبذلـك أصبحت « فيليس » فى مفترق طـرق المواصلات . وبالاضافة الى ذلك تم انشاء مصانع لانتاج زيت الطعـام والثلج والخزف ، واقامة مطحنة كبـيرة ومحطة لتوليد الكهرباء واعـداد مخازن كثيرة للتبغ والمسلع الأخرى . وفى عام ١٩٤٨ بلغ عدد سكانها ما يربو على خمسة عشر ألف نسمة .

وبعد الاستقلال أطلق عليها « تيتوف فيليس » ، نسبة الى الرئيس تيتو ، وتطورت تطورا كبيرا باعتبارها قلعة من قلاع الصناعة ، بل انها - بعد « سكوبلى » - تعد أكبر مركز صناعى فى مقدونية من حيث عدد المصانع الموجودة بها . وبالاضافة الى المصانع المذكورة من قبل توجد بها مصانع للمعادن وللجير ولبودرة التلك والخزف والحرير ولاعـداد التبغ الخاص بالجزء الجنوبى الشرقى من مقدونية ، وكذلك مصانع المنتجات الغذائية .

وهنا فى « تيتوف فيليس » يشعر المرء بالفعل بجو ومناخ البحر الأبيض المتوسط ويتهيأ للمرء بأن بحر ايجة قريب منها من فوق التل ، وعلى يسارك على الجانب الآخر من الجبل توجد منطقة شرق مقدونية .

وهذه المدينة هى مدينة أشهر رجال الثورة المقدونية وأبطال النهضة المقدونية ، وهى بوجه عام مدينة ذات تراث ثرى . وهنا أيضا اختفت العادات القديمة التى كانت تضفى لونا خاصا على الحياة اليومية بالمدينة . ولا زالت هذه العادات القديمة موجودة فى الجزء القديم من المدينة ، وظل

هذا الجزء على حاله بالرغم من أن الناس الموجودين به تغيروا وفقا للعصر الذى يعيشون فيه .

ومن المنازل القديمة التى يتم الحفاظ عليها وصيانتها حتى وقتنا الحالى منزل الاشتراكى « فاسيل جلافينوف » ، وكذلك منزل الشاعر الثورى « كوتشو راتسين » الذى سنتحدث عنه مفصلا فى الفصل الخاص بالشعر المقدونى . وقد تم اعتبار هذين المنزلين متحفين تابعين لبلدية المدينة ويجىء اليهما الزوار والمحبون من كل مكان .

ويوجد بالمدينة مسجد واحد وامامه هو « أولى درويشوسكى » ، كما يوجد بها مجلس المشيخة الاسلامية الخاص « بتيتوف فيليس » و « كفادارتسي » و « نيجوتين » .

وأقرب مكان الى « تيتوف فليس » هو مدينة « شتيب » ، وهى تقع عند مصب نهر « أوتينى » فى « برجالنيتسا » ويبلغ عدد سكانها فى الوقت الحالى حوالى ثمانية وعشرين ألف نسمة والجزء الرئيسى من المدينة يقع عند اتساع نهر أوتينى بين تلال جرانيتيه بحيث أن بعض أجزاء المدينة يرتفع مع التلال المحيطة وتمتد المدينة صوب الغرب الجنوبى بمحاذاة الوادى الضيق لنهر أوتينى ، وعند مصب هذا النهر ترتبط ضواحى المدينة ببلدة « نوفى سيلو » .

وكان اسمها فيما سبق « أستيبو » ، ثم أطلق عليها اليونانيـون « ستيبون » ، وفيما بعد أطلق عليها السلاف « شتيب » . وفى عام ١٣٣٠ استولى عليها الملك « ستيفان ديتشانسكى » من البيزنطيين . وخلال حكمه وفى بداية حكم « دوشان » كانت « شتيب » تقع ضـمن أملاك الدوق « هرليا » ثم الدوق « يوفان أوليفر » . وبعد وفاة « دوشان » أصبحت تابعة لحكم الأخوين « ديانوفيتش » .

وبعد مصرع « قنسطنطين ديانوفيتش » فى عـام ١٣٩٥ وقعت « شتيب » فى أيدى الأتراك العثمانيين وكانت من المدن الهامة خلال فترة حكمهم . وخلال القرنين السادس عشر والسابع عشر كانت مركزا للحاكم الذى كان آنذاك يوقع باسم أسقف «كراتفو وشتيب» . وفى القرن السابع عشر كانت مركزا لحاكم « نوفى ساد » وذلك لأن الجزء الرئيسى من المدينة كان تابعا باكمله ، أو معظمه ، للامبراطورية العثمانية .

وفى نهاية القرن الثامن عشر كان عدد سكان « شتيب » يتراوح ما بين ثلاثة الى أربعة آلاف نسمة ، ومنذ حوالى عام ١٨١٠ وصل عـدد السكان الى خمسة آلاف نسمة . ووفقا لما كتبه الرحالة « آمى بوييه » فقد

تراوح عدد السكان فى عام ١٨٣٦ ما بين خمسة عشر الف الى عشرين الف نسمة . وهذه الزيادة الكبيرة فى عدد السكان ناجمة عن التطور الجيد لوسائل المواصلات .

وعلاوة على ارتباط مدينة « شتيب » بالجزء الجنوبى من وادى نهر « مورافا وساحل بحر ايجه فقد كانت لها آنذاك علاقات تجارية مع بلغاريا ولكن بعد انشاء الخط الحديدى بين منطقتى « فاردار وكوسوفو » فى عام ١٨٧٣ فقد طريق شتيب أهميته ، وبعد تحرر الجزء الجنوبى من وادى نهر مورافا وبلغاريا فى عام ١٨٧٨ انقطعت العلاقات التجارية لهذه المدينة بهذه المناطق . ومنذ ذلك الحين أصبحت « شتيب » مركزا تجاريا لمنطقتها الواسعة فقد كان تجارها يشرفون على كل التجارة بالغلال والأفيون والأرز التى كانت تصدر من المناطق المحيطة بها ومن مناطق « كوتشان » .

وفى نهاية القرن التاسع عشر بلغ عدد سكانها ما يقرب من واحد وعشرين ألف نسمة ، أغلبهم من المقدونيين ويليهم الأتراك . وبعد حرب البلقان والحرب العالمية الأولى نزحت أعداد كبيرة من الأتراك الى تركيا بحيث وصل عدد سكانها فى عام ١٩٣١ الى اثنى عشر ألف نسمة .

وفى عام ١٩٥٣ أنشىء بها مصنع حديث للمنسوجات ، وفى عام ١٩٥٨ تم انشاء حمام معدنى عند العيون المعدنية الموجودة عند « نوفو سيلو » .

ومن آثارها التاريخية يوجـد حطـام لقلعة « ايساروت » القديمة عند تل هيسار ، وكنيسة « القديس أرانجيل » التى تم تشييدها فى عام ١٣٣٠ بمعرفة الدوق « هرليا » ، وكنيسة « القديس سباس » أسفل تل « كوملاك » التى أقامها « ديمتار » ، قريب « ديانوفيتش » ، فى عام ١٣٦٩ وتوجد كذلك كنيسة « القديس يوفان » التى شيدها الحاكم « ايفانكو » قبل عام ١٣٥٠ .

ومدينة « ستروميتسا » تقع على بعد مسافة بسيطة من « تيتوف فيليس » ، عند قاعدة جبل « بلاسيتسا » الضخم . وفى العهود السحيقة كانت توجد فى هذا المكان مدينة « أسترايوم » وفيمـا بعد مدينـة « تيبريوبوليس » نسبة الى الامبراطور الرومانى « تيبريا » . وفى القرن السابع قام الآفار بتخريبها ، ثم أجريت تجديدات بها بعد هجرة السلاف اليها . وفى منتصف القرن التاسع قام البلغار بتخريبها ثانية .

وخـلال حكم الامبراطور « صمويل » شملت « ستروميتسا » نهضة جديدة ، ومنذ ذلك الحين يتم ذكرها باسمها الحالى . وفى عهد الامبراطور

« صمويل » كان يحكمها الدوق « دراجوموج » الذى استمر فيها حتى السقوط النهائى لدوله « صمويل » فى عام ١٠١٨ . ويحتفظ جبل « بلاسيتسا » بذكرى جنود الامبراطور « صمويل » الذين تم افقادهم لبصرهم واذلالهم بواسطة البيزنطيين .

وفى بداية القرن الثالث عشر كان يحكمها « دراجومير ستريز » فى اطار أملاكه ، وفى البداية كان تابعا للامبراطورية البيزنطية ، ثم بعد ذلك أصبح تابعا للملكة الصربية وذلك حتى وفاته عام ١٢١٤ . وفى عهد الملك الصربى « ستيفان ديتشانسكى » كان يحكمها قائده العسكرى « هرليا » وبعد انهيار امبراطورية « دوشان » وقعت « ستروميتسا » لفترة تحت حكم الأخوين ديانوفيتش اللذين كان نفوذهما يمتد من « ستروميتسا » فى الجنوب وحتى « جيجليجوف » و « فيليبودج » فى الشمال ، ويصل أيضا الى « تيكفيش » و « ماريفو » على الجانب الآخر من نهر « فاردار » .

وبعد مصرع الحاكم « قنسطنطين ديانوفيتش » فى عام ١٣٩٥ وقعت « ستروميتسا » تحت الحكم العثمانى الذى استمر حتى القرن السابع عشر . وكانت مشهورة خلال القرن السابع عشر بسوقها الذى كان يستمر خمسة عشر يوما وينعقد فى أغسطس ويتجمع فيه العديد من التجار من مختلف الجهات ، وبالاضافة الى العدد الكبير من السكان الأتراك كان يوجد بها طوال فترة الحكم التركى العثمانى سكان مقدنيون يشكلون الأغلبية فى النصف الثانى من القرن التاسع عشر .

وبعد الحرب البلقانية فى عام ١٩١٢ مباشرة هبط عدد السكان بسبب الهجرة المتزايدة الى ستة آلاف نسمة . وبعد الحرب العالمية الأولى ووفقا لمعاهدة « نيسكى » فقد أصبحت « ستروميتسا » تابعة ليوغسلافيا .

ويبلغ عدد سكانها فى الوقت الحالى حوالى ٢٤ ألف نسمة وتتلاقى فيها العديد من الطرق البرية . وتوجد بها صناعات حرفية متطورة ومضرب لضرب الأرز ، كما أن سوقها يلاقى رواجا كبيرا وتتم به المتاجرة بالغلال والماشية ومنتجاتها وبالقطن والتبغ والحرير والسمسم .

واذا واصلت رحلتك بمحاذاة نهر « فاردار » فستشعر على الفور بلهيب الشمس المحرقة وسترى الجبال العارية التى تبدو وكأنها ستارة للمسرح يهب عبرها الهواء الساخن . ويرسل نهر « فاردار » نسماته العليلة التى تخفف من هذا القيظ . وفى هذه المنطقة القاحلة يرقد حطام واطلال المدينة الساكنة التى تذكر الزائر بالأيام الخوالى وبصفحات مطوية من كتاب التاريخ .

هذه هى مدينة « ستوبى » القديمة التى تقع عند مصب النهر الأسود فى نهر فاردار . وهى مدينة هامة فى « بيونيا الاليرية » وأكبر مدينة فى شمال مقدونية فى العهد الرومانى ، وتقع فى أهم مفترق للطرق بين سالونيك وسريميسكا ميتروفيتسكا وهرقليا لينكستيدسكا وسرديتسا ونهر الدانوب – وابتداء من عهد « فيليب الثانى » (فى عام ٣٥٩ قبل الميلاد) أصبحت عدة مرات تحت نفوذ مقدونية .

والتاريخ الكامل لهذه المناطق الشاسعة يمتد أمامنا فى الأطلال الخرساء . وهذا المكان يثبت أنه لا شىء يدوم على الاطلاق . وعلى هذه الأرض كانت تجرى المناوشات ويحدث التدمير وتندلع الحرائق وتقع الزلازل ، كل هذا فى دائرة مفرغة قاسية لا هدف لها ولا غاية . ولم تبق الا هذه الأطلال كشاهد وحيد على ما حدث فى الأزمنة الغابرة . وأثناء السير فى الشوارع الضيقة لهذه المدينة العتيقة يفكر المرء تفكيرا حتميا فى « فيليب المقدونى » وهو يمر من هنا مع جنوده ، ويسمع الانسان صليل سيوفهم وأصداء أسلحتهم . وتتجول خلال المدينة وتكتشف آثار الماضى وترى تحت قدميك جمال الصور المرسومة بالفسيفساء التى تحجبها وتغطيها الرمال فى انتظار المسافر والرحالة التائه الشارد .

وقد وقعت « ستوبى » تحت سيطرة الرومان فى عهد الجمهورية بمعرفة الامبراطور « أغسطس » و « ستوبى » تصك نقودها بنفسها منذ عهد الامبراطور الرومانى « فسبازيان » (٦٩ – ٧٩ م) . وحتى عهد الامبراطور « الاجابل » (٢١٨ – ٢٢٢ م .) . ومنذ عام ٣٨٦ وهى عاصمة لمقدونية التابعة للامبراطور « سالوتاريس الثانى » . وفى أواخر القرن الرابع أصيبت بزلزال وهاجمها البربر ، وفى عام ٤٧٩ قام القوط التابعون للامبراطور « تيودوريكا الأكبر » بغزوها ونهبها .

وبعد ذلك قام الامبراطور « تيودوسيا الثانى » باحاطة المدينة بعد تجديدها بالأسوار . وفى عام ٥١٨ أصيبت ثانية بزلزال ، وفى القرن السابع استوطنها السلاف ، وأصابها الخراب بعد أن استولى عليها « باسيل الثانى » فى عام ١٠١٤ بعد حربه مع الامبراطور صمويل وفى عهد الامبراطور « دوشان » تم استغلال مواد البناء الموجودة فى مدينة «ستوبى» عند انشاء كنيسة فى « درينوف » .

وقد بدأ التنقيب عن مدينة « ستوبى » فى الفترة من ١٨٦١ وحتى ١٨٦٣ ثم فى عام ١٩٠٢ . وفى أثناء الحرب العالمية الأولى تم اكتشاف الدير والمقبرة وكنيسة الأسقف . ومنذ عام ١٩٢٤ وحتى ١٩٤٠ تجرى بانتظام اعمال الحفر والتنقيب باشراف المتحف القومى فى بلغراد . وفى

الفترة من عام ١٩٥٤ وحتى عام ١٩٥٦ قام متحف الآثار فى « سكوبلى » بالفحوص الخاصة بطبقات الأرض . وأثبتت مثل هذه الفحوص أن الحضارة مستمرة فى مدينة « ستوبى » منذ ما قبل التاريخ وحتى قدوم السلاف اليها . ويفحص طبقات الأرض فى المنطقة الممتدة بين الكنيسة وبيت المعمودية وما يسمى بالمعبد اليهودى تم التأكيد من تتابع طبقات الحضارات من بيزنطية ورومانية واغريقية وغيرها .

والأجزاء التى تم اكتشافها من مدينة « ستوبى »حتى الآن تعطى صورة للمدينة فى شكلها الأخير قبيل قدوم السلاف اليها . ويوجد من العهدين الاغريقى والرومانى الكثير من التماثيل والنقوش البارزة والكتابات الباقية التى تشير الى الطابع الاغريقى الواضح للمدينة فى العهد الرومانى . وكان جزء كبير من هذه التماثيل يستخدم استخداما ثانويا وعلى الأخص فى القصر الكبير الذى يوجد به بهو معمد وحمام للسباحة . ومن المرجح أن هذا القصر كان يستخدم لاقامة الامبراطور « تيودوسيا الأول » الذى كان يصدر المراسيم هنا . وتبرز هنا آلهة الساطير الاغريقية والأدوات البرونزية الصغيرة الأخرى ورقصات قديمة بارزة للحوريات وتماثيل لمختلف الآلهة . وفى حمامات المياه الساخنة تم العثور على تماثيل للوجوه من عهد «بوبيون» وعلى تماثيل نصفية لسيدات ذات مقام اجتماعى رفيع . وعلى قدر كبير من الأهمية تلك النقوش اللاتينية على المسرح الذى يرجع الى القرن الثالث الميلادى . ومعظم النقوش الأخرى ذات الطابع التقديسى أو الطابع التشريفى أو الموجودة على المقابر مكتوبة باللغة اللاتينية ، وبنفس اللغة تمت كتابة عدد كبير من الاسماء على الكراسى الرخامية للمسرح مع وضع شارة القبيلة . ويتم الحفاظ على عدد كبير من الأعمال الفنية الهامة فى المتحف القومى فى بلغراد وفى المتحف الأثرى بسكوبلى .

ومن المبانى المعمارية الباقية بالمنطقة ينبغى أن نبرز : بقايا أسوار المدينة والبوابة الغربية التى من عندها يمتد شارع بالأروقة والأعمدة ، ثم يوجد ميدان نصف دائرى يرجع الى القرنين الثالث والرابع ، وهو يقع أمام الكنيسة الأسقفية التى تم بناؤها فيما بعد . ويوجد فى قبو مذبح الكنيسة قبو آخر تحت الأرض باق من البناء السابق ، أما مقاعد القساوسة الموجودة فى الجزء المخصص لهم بالكنيسة فهى ترجع الى مرحلة تالية . وفى شمال الكنيسة توجد مجموعة من المبانى التى كان يمكن ضمها الى مكان اقامة القساوسة . والسلم الضخم ذو الممر والمقاعد نصف الدائرية يقود الى القاعة التى تم العثور بها على طبقة ثرية من الجبس مستخدمة كزخرفة تشكيلية من القرن الخامس .

وفى الغرب ، من الناحية الأخرى للشارع ، كان يوجد قصر له قبة مزينة بالكوات ، وفى المرحلة التالية تم تحويل القصر الى مصنع للنسيج وذلك وفقا للآثار التى تم العثور عليها . وفى شرق مكان الاقامة تم اكتشاف مبنى له صالة قبوية ، وتم العثور فيها على مكان لتناول الطعام مصنوع من المرمر ، وكذلك على حمام للسباحة وعلى ممرات أرضيتها من الفسيفساء .

وفى الشمال من مكان الاقامة توجد بقايا مبنى وتم العثور فيه على نقوش تتعلق « بارتميدا لوهيا » وقساوستها . ومن الطريف أنه تم العثور على تمثال « لديانا » وعلى رأس من المرمر « لأبولون » . وتوجد بجوار هذا المبنى مجموعة من القصور الكبيرة .

ومن المفروض أن ما يسمى بقصر « بارتنيف » مقسم فى الحقيقة الى قسمين ومشيد على مرحلتين ، فالجزء ذو البهو المعمد وحمام السباحة والحجرات المحيطة يعود الى القرن الرابع . أما الجزء الذى يوجد به حمام السباحة الصغيرة والبهو المعمد والمخازن فكله يعود الى القرن الخامس .

ويوجد أيضا بقصر « بريسترى » ، وقد جاء الاسم وفقا للنقوش المكتوبة على الفسيفساء فى الجزء القبوى ، حمام للسباحة له بهو معمد وقسم للاستحمام . والدراسات التالية التى أجراها متحف « سكوبلى » أثبتت أنه توجد طبقة هيلينية فى مكان البهو المعمد . وعبر الطريق يوجد حمام عمومى يحتوى على أجهزة للتدفئة المركزية وبه أقسام للتبريد والتسخين . وتم العثور هنا على تمثال لأحد المواطنين .

وفى كل المكان المكتشف توجد أجهزة للمياه وللصرف . وتوجد على النهر الأسود بقايا لجسر قديم . وتوجد أيضا آثار للبناء على الشاطىء الأيسر لنهر « فاردار » . ومكان المدينة التى تحميها الحصون يبلغ حوالى خمسة وعشرين هكتار . وأكبر بناية هى المسرح الذى تم اكتشافه تدريجيا . « وستوبى » لم تكشف بعد عن كل ثرواتها وكنوزها ولم تبح بعد بكل مكنوناتها وأسرارها . ويقول علماء الآثار المقدونيون ان هذه المدينة ستصبح « بومبى المقدونية » عند استكمال اعمال الحفر والتنقيب والانتهاء من الاكتشافات .

وربما تفضل فى هذه الجولة بين المدن المقدونية أن تستمر فى الاتجاه نحو الجنوب صوب مدينتى « جيفجيليا » و « دويران » . ومدينة « جيفجيليا » تقع على الضفة اليمنى لنهر « فاردار » ، وهى محطة الحدود

على الخط الحديدى بين سالونيك وبلغراد ، وهذه المنطقة السكنية القديمة لم تتطور كمدينة الا منذ النصف الثانى من القرن الماضى حينما أصبحت مركزا لتربية دود القز فى سهل «جيفجيليا» . وفى عام ١٨٦٣ كان بها سبعة مصانع كبيرة لانتاج الحرير أقامها تجار « سالونيك » .

وبعد تشييد خط السكة الحديدية المعـــروف باسم « فاردار ـ كوسوفو » فى عام ١٨٧٣ ونتيجـــة لتدفق الســـكان من « فيليس » و « دويران » ولاستيطان اللاجئين من الأتراك والشركس ، وبعد تحرير بلغاريا فى عام ١٨٧٨ زاد عدد سكانها الى حوالى أربعة آلاف نسمة ، وبعد الحرب العالمية الأولى وبسبب آثار الحرب انخفض عدد السكان . وبعد الاستقلال أنشىء بها مصنع لغزل الحرير ومعهد للحرير ومشتل لبراعم التوت وذلك من أجل نشر تربية دود القز فى مقدونية .

ومن « جيفجيليا » يمكنك أن تتجه صوب بحيرة « دويران » التى تبدو فى أبهى صورها وأجمل أشكالها فى شهري ابريل ومايو . وقد ظلت مستمرة هنا لعدة آلاف من السنين عادة صيد الاسماك بواسطة الطيور . وقد ذكرها فى كتاباته « هيرودوت » ، أبو التاريخ ، حينما زار هذه البحيرة ومدينتها الصغيرة التى تحمل نفس الاسم .

ومدينة « دويران » تشتهر بصيد الأسماك وسكانها من أشهر صيادى السمك . وكان بها سكان أتراك يشتغلون بالتجارة والحـرف اليدوية . والمنطقة الخاصة بالمقدونيين كانت تمتد بمحاذاة البحيرة حيث كانت منطقة السوق التجارى . وكان الموسم الرئيسى لصيد الاسماك يقع فى فصل الشتاء ، ويكون السمك فى ذلك الحين غـاية فى النشاط . ويأتى التجار من المدن المجاورة لكى يشتروا منها الأسماك .

وبسبب قربها من « جبهـة سالونيك » ابان الحرب العالمية الأولى احتلها البلغار والألمان فى عام ١٩١٦ ، ثم أصابها الدمار خلال الحرب بسبب القاء القنابل عليها . وفى عام ١٩١٨ عاد اليها السكان وأنشأوا « دويران الجديدة » على الشاطىء الشمالى الغربى للبحيرة بالقرب من مدينة « دويران » القديمة التى ترجع الى القرون الوسطى . وازدهر فيها صيد الأسماك وتجارتها .

واذا لم تذهب الى « جيفجيليا » فلابد وأن تتجه الى مدينة « برليب » والطريق اليها يمر بهضبة « بليتفار » التى من فوقها تستطيع أن تنعم النظر فى الامتداد الواسع الفسيح لسهل « برليب » . ويتم ذكر مدينة « برليب » لأول مرة فى عام ١٠١٤ حينما استولى عليها البيزنطيون من الامبراطور « صمويل » ، وفى عام ١٠١٨ أيضا حينما كانت تابعة لأسقفية

« بيتولا » . وفى القرن الثالث عشر اكتسبت أهمية تجارية ، وفى عام ١٢٤٠ يتم لأول مرة ذكر قلعة « برليب » . واشتهرت بتجارتها المتقدمة وهى فى اطار الدولة الصربية فى القرون الوسطى بعد أن استولى عليها الامبراطور « دوشان » من البيزنطيين . وبعد انهيار الامبراطورية الصربية أصبحت المدينة عاصمة للملك « فوكاشيين » ، وفيما بعد أصبحت أيضا عاصمة لابنه الملك « ماركو كرال » الذى بعد وفاته فى عام ١٣٩٥ وقعت المدينة فى يد العثمانيين .

وعند اقترابك من مدينة « برليب » ستكتشف أولا القلاع التى كانت فى حين من الأحيان مسكنا للبطل الملك « ماركو كرال » . وبالرغم من أنه كان تابعا للأتراك العثمانيين الا أن الأساطير والخرافات والحكايات والقصائد الشعبية ، كما سنبين فيما بعد ، صورته على أنه بطل يصعب قهره ، ويمتطى صهوة حصانه « شاراتس » الذى كان بقفزة واحدة يعبر تسعة جبال ، ويحارب الأعداء ، ويصارع البطل العربى الأسود ، ويقاوم الأتراك العثمانيين وجميع الغزاة الآخرين .

وفى بداية الحكم العثمانى بدأت تنشأ منطقة سكنية جديدة فى السهل على مسافة غير بعيدة من المدينة القديمة التى حصلت على اسم « فاروش » خلافا للمنطقة السكنية الجديدة التى سميت أيضا «برليب» . ولم يعرف أى شىء عن تاريخ هذه المدينة فى العصر العثمانى الا فى القرن السابع عشر وفقا لما كتبه الرحالة الأتراك ومنهم « اكسيليا شلبى » الذى زارها فى حوالى عام ١٦٦٠ . ووفقا لما ذكره فان القلعة ، أى « برليب » القديمة ، كانت خارج المنطقة السكنية . ووفقـا لما ذكره الرحـالة « ف. بوكوفيل » فى عام ١٨٠٧ فقد كان يوجد فى « برليب » آنذاك من ألف الى ألف ومائة منزل وكانت تتاجر بالقمح والصوف والماشية ، وعلى الأخص الغنم .

وانخفضت التجارة فى « برليب » بسبب حصول بلغاريا عـلى استقلالها واحتلال البوسنه والهرسك فى عام ١٨٧٨ . ونتيجة لانخفاض التجارة والحرف اليدوية وزراعة الكروم تزايدت زراعة التبغ . وأصبحت « برليب » ، قبيل الحرب العالمية الأولى ، أكبر مركز لانتاج التبغ فى منطقة مقدونية المشرفة على نهر « فاردار » . ومن أجل ذلك تم انشاء معهد للتبغ ومصنع لانتاج الدخان .

وعند مشارف مدينة « برليب » ستلمح على الفور أكاليل الزهـور والأوراق الصفراء التى تفوح منها رائحة التبغ الجاف وأريجه . ويمكنك أن ترى التبغ المقدونى الشهير فى كل مكان بها . وهو يهيمن على كل

أنشطتها ، فالناس يشتغلون به طوال النهار والليل . وهم يجمعون أوراق التبغ ويشبتونها فى أكاليل ويعتنون بأمرها وهكذا دواليك . الا أن كل هذه الأعمال الشاقة جعلت من هذه المدينة مركزا صناعيا كبيرا ومدينة من أغنى المدن اليوغسلافية .

ورغم أن أغلبية السكان فى « برليب » كانت – لفترة طويلة – من الأتراك ، الا أنه فىأواخر القرن التاسع عشر أصبحت الأغلبية بها للسكان المقدونيين . ففى عام ١٩٠٠ كان عدد سكانها ٢٤ر٥٤٠ نسمة ، منهم ١٦ر٩٠٠ من المقدونيين . وبالتدريج حصلت « برليب » على شكل المدينة العصرية بعد زيادة حركة العمران بها . وقد أقام سكانها بأيديهم العاملة النشطة مدينة حديثة مزدهرة بها حوالى ستين ألف نسمة . وهى من حيث عدد السكان تعد ثالث مدينة فى مقدونية بعد « سكوبلى » و « بيتولا » . وتتدفق بها حركة المواصلات ، خاصة وأنها تقع على خط السكة الحديدى الذى يربطها عند « تيتوف فريس » بوادى نهر « فاردار » ويربطها « بسالونيك » عن طريق « بيتولا » . وهى تزدحم بالناس وعلى الأخص فى يوم السوق . وتتزين المدينة فى كل نواحيها بالتماثيل المنحوتة من المرمر الأبيض . وكان النحاتون يأتون للعمل فى هذه المدينة فى مجموعات فنية ويتركون هذه التماثيل للذكرى .

وحتى اذا كنت فى عجلة من أمرك فى هذه الجولة الطريفة فانتظر برهة لكى تشاهد « مقابر الذين لا يقهرون » . وهذا مكان بهيج للنفس يمكن فيه للانسان المقدونى أن يستغرق فى التأمل فى المعارك والبطولات التى قام بها هؤلاء الأشخاص الذين لم يستسلموا وثاروا فى هذه المدينة فى الحادى عشر من اكتوبر فى عام ١٩٤١ . وعند « فاتاشا » يوجد نصب تذكارى للأطفال وللشباب الذين تم قتلهم بواسطة البلغار الفاشيين بالرغم من براءتهم وعدم قيامهم بأية أضرار . وفى هذه المنطقة أيضا تم اكتشاف مقبرة كبيرة للسلاف ترجع الى الوقت الذى كان فيه السلاف يقطنون بهذه المنطقة .

ويتم انتاج الخمور المقدونية الممتازة فى المنطقة المجاورة ، فى سهل « تيكفيش » حيث يزرع الكروم الممتاز وحيث تقع مدينة «**كافادارتسى**» التى نشأت بعد فشل الهجوم النمساوى على منطقة البلقان فى عام ١٦٨٩ . وفى ذلك الحين توغل الكثير من السكان الألبانيين فى الأراضى المقدونية ودمروا القرى الواقعة فى سهل « تيكفيش » . واضطر المسلمون المقدونيون الهاربون من هذه القرى الى اللجوء الى قلعة قديمة تقع أسفل دير « القديس ديميتريا » . وكان هذا الملجأ يسمى فى البداية « فيلخان »

(أى الخان الكبير) ثم أطلق عليه فيما بعد « كافادارتسى » ، ثم اتسعت المدينة بقدوم لاجئين آخرين من مسلمين ومسيحيين .

وفى بداية القرن التاسع عشر اتخذت « كافادارتسى » طابع المدينة الصغيرة ، وكان سكانها يتزودون بالسلع عن طريق القوافل القادمة من سالونيك وبرليب وسيريز ونيفروكروب . وكان سكانها يشتغلون بالزراعة وانتاج الكروم علاوة على اشتغالهم بالحرف اليدوية . ومنذ عام ١٨٧٥ بدأت فى مدينة « كافادارتسى » والمنطقة المحيطة بها زراعة الأفيون من أجل الاستخدامات الطبية والعلمية . وأصبحت المدينة سوقا هاما لا فحسب للكروم والخمور بل وللأفيون ولزيت الخشخاش والسمسم . وكان لربط المدينة بشبكة خطوط السكك الحديدية فى عام ١٨٨٨ تأثير طيب على التطور الاقتصادى للمدينة وللقرى المجاورة .

الا أن مدينة « **برليب** » تشبه مفترق الطرق . فأحد هذه الطرق يقودك صوب مدينة « **كروشيفو** » المشهورة التى أعلنت بها فى عام ١٩٠٣ « جمهورية كروشيفو » والتى اتخذت فيها « ثورة اليندن » أبعادا واسعة ، وقد تحدثنا عن ذلك فيما سبق . و « كروشيفو » مدينة هادئة وموقعها المرتفع يجعل الهواء البارد يهب عليها من الجبال المجاورة ، و « ميتشكين كامين » نقطة ذات أهمية تاريخية ، ومشيد بها نصب تذكارى يطلق عليه اسم « مقدونيوم » ، وهو اسم ذو مغزى كبير .

والطريق الآخر يقودك الى سهل « **بلاجون** » الذى يعد من أغنى المناطق المقدونية فى زراعة القمح وانتاجه . وما بين سهل « بلاجون » وبحيرة « **برسبا** » يمتد جبل « **بليستر** » ، وهو عبارة عن سلسلة من المرتفعات وأعلى قمة بها هى جبل « بابا » ، وارتفاعه حوالى ٢٦٠٠ مترا . وجبل « بليستر » يجذب عشاق الطبيعة ، وهو معين لا ينضب وكنز مجهول بالنسبة لعلماء الطبيعة ولعلماء النبات والحيوان . ويحاول سكان مدينة « بيتولا » القريبة أن يجعلوا منه مركزا رياضيا وسياحيا فريدا على أحدث مستوى .

وتذكر بعض الكتابات القديمة أن سكان مدينة « بيتولا » كانوا يفضلون فى القرن الماضى التنزه على جبل « بليستر » . وقام بعض العلماء والباحثين بعدة جولات بين دروبه الملتوية . وتغطى جبل « بليستر » فى الوقت الحالى غابة شاسعة من أشجار الصنوبر وغيرها من الأشجار . هذا علاوة على أنه تعيش بها كمية كبيرة من الحيوانات مثل الدببة والظباء والوشق والشمواه والوعول .

ومنذ عام ١٩٤٨ ومنطقة « بليستر » باكملها تقع تحت حمـاية القانون · وتم بها تشييد فندق للزوار ومنتجع للأطفال · ومن الطريف أن الأطفال الذين يقيمون هنا حوالى خمسة عشر يوما يزيد وزنهم خمسة كيلو جرامات وتتحسن صورة الدم لديهم ·

كما أن هذه المنطقة صالحة للغاية لممارسة رياضة التزحلـق على الجليد · ويجرى فى الوقت الحالى انشاء طريق يربط بين مدينتى «بيتولا» و «أوهريد» عن طريق جبل « بليستر » و « جاليتشيتسا » وعند انتهاء هذا الطريق سيتمكن السائحون فى نفس اليوم ، من الاستحمام فى بحيرة « برسبا » وممارسة التزحلق على الجليد على جبل « بليستر » · وذلك لأن الجليد يستمر فى التواجد على جبل « بليستر » حتى شهر يونيو ويستمر فى أماكن أخرى طوال العام ·

وتقع مدينة « بيتولا » عنـد القاعدة الشرقية لجبل « بليستر » · وقد أسسها السلاف بالقرب من دير « بوكوف » ، ولذا فان اسم المدينة مرتبط بالدير ، أو بالعائلة التى انشأته · وهذا يفسر الاسم الثانى الذى كان الأتراك العثمانيون يطلقونه على هذه المدينة وهو « موناستير » ·

وأول ذكر للمدينة باسـمها الحالى يرجع الى عام ١٠١٤ فى عهد الامبراطور « صمويل » حينما كان كرسى بطريركية « بيتولا » يتبـع بطريركية « أوهريد » · والرحالة الصليبى « وليم ترسكى » يذكرها فى عام ١١٦٩ باعتبارها مدينة هامة وثرية فى سهل « بلاجون » · وتظل على هذا النحو طوال فترة القرون الوسطى ، وعلى الأخص خلال فترة حكم الملكين « فوكاشين » و « ماركو » · وقد استولى عليها العثمانيون خلال عامى ١٣٨٢ – ١٣٨٣ فى اثر مصرع الملك « فوكاشين » ، وأصبحت تابعة تماما للادارة العثمانية بعد وفاة الملك « ماركو » فى عام ١٣٩٥ ·

وفى أثناء فترة الحكم التركى كان للمدينة دور تجارى واستراتيجى هام · وعبر مدينة « بيتولا » كانت تمضى القوافل العديدة بين مقدونية ودراتش وليش على بحر الأدرياتيك · وخلافا لذلك كانت « بيتولا » مركزا عسكريا يقوم منه العثمانيون بالهجمات على ألبانيا التى لم يكن قد تم اخضاعها ·

وفى أواخر القرن السادس عشر الميلادى يجرى ذكر مدينة « بيتولا » على أنها مدينة مفتوحة كما كانت من قبل · ووفقا لوصف مبعوث البندقية « أ· برنارد » فى عام ١٥٩١ كانت « بيتولا » فى ذلك الحين مدينة تجارية نامية بها سوق مغطى وخان للقوافل · وكانت تجارتها الرئيسية تشمل الغلال والشمع والصوف والجلود · ويرجع الفضل فى استمرار تقدم

« بيتولا » الى سوقها الواسع والى طرقها الحرة التى حصلت عليها خلال القرن السابع عشر والتى كانت تؤدى الى ألبانيا بعد اخضاعها · ووفقا لما كتبه الرحالة التركى « الحاج خليفة » فان القطن يمثل أهم سلعة فى تجارة « بيتولا » ·

ويذكر الرحالة التركى « اكسيليا شلبى » أنه كان بمدينة «بيتولا» فى القرن السابع عشر ثلاثة آلاف منزل وتسعمائة دكان وأربعون مقهى وسوق مغطى له أبواب حديدية بحيث أنه يشبه القلعة · وكانت المدينة تخص بنت « السلطان أحمد الأول » (١٦٠٤ – ١٦١٧ م·) ومنحتها لحاكم لكى يديرها مقابل عشرين حمولة من المال ·

وكانت « بيتولا » آنذاك من أهم المراكز الدينية للمسلمين · وكان يوجد بها فى أواخر القرن السادس عشر مدرسة عليا للشريعة الاسلامية واصلت نشاطها أيضا خلال القرن السابع عشر ، هذا بالاضافة الى العديد من المدارس الاسلامية · وكانت « بيتولا » آنذاك مركزا الشيخ الاسلام وهو الرئيس الأكبر لأفراد الجماعة الاسلامية · وكانت « بيتولا » فى ذلك الحين مدينة ذات طابع شرقى بها حوالى سبعين مسجدا ومطاعم وقفية ، وكانت تتزين بالأشجار الخضراء والحدائق اليانعة والبساتين الرائعة بداخل المدينة وحولها ، وأجزاء المدينة الواقعة على نهر « دراجو » كانت مرتبطة ببعضها بعشر جسور حجرية وخشبية ·

ولكن الأمن لم يكن مستتبا استتبابا كاملا وقت قمة النفوذ التركى ، فقد كانت المدينة تتعرض لهجوم مستمر من جانب قطاع الطرق الألبانيين الذين كانوا يسلبونها وينهبونها · وحدث أثناء وجود الرحالة التركى « اكسيليا شلبى » شخصيا فى مدينة « بيتولا » أن هاجمها قاطع الطريق « بابا » فى وسط النهار ونهب سوقها ·

وبعد الهزيمة التركية عند فيينا فى عـام ١٦٨٣ وفى اثر فشل الهجوم النمساوى على شبه جزيرة البلقان بدأت « بيتولا » فى الانهيار مثلها فى ذلك مثـل المدن الأخرى الموجودة فى المنطقـة الأوروبية من الامبراطورية العثمانية · وفى القرن الثامن عشر كانت « بيتولا » تعمل بتجارة الصوف والجلود والقطن ، الا أن هذه التجارة كانت أضعف بكثير مما سبق ، وبعد ذلك بدأ السكان يهاجرون منها · وفى نهـاية القرن الثامن عشر كان بها ـ وفقا لما ذكره البارون « بوجور » ـ ١٢ ألف نسمة ، ووفقا لما ذكره « بوكوفيل » كان بها خمسة عشر ألف نسمة ·

ويبدأ التقدم الجديد لمدينة « بيتولا » فى أوائل القرن التاسع عشر حينما قدم اليها عدد كبير من التسنتسار من مدينة « موسكوبوليه » فى

جنوب ألبانيا ، وهى المدينة التى دمرها « على باشا يانيسكى » فى عام ١٧٨٨ . ومع تحسن الأحوال الأمنية فى العقود الأولى من القرن التاسع عشر ونتيجة لقدوم هؤلاء المهاجرين النشطين عادت الحياة الى مدينة « بيتولا » وازدهرت التجارة بها وأصبحت مركزا تجاريا له سوق تجارى واسع ، يشمل كل المناطق الواقعة على الجانب الأيمن من نهر « فاردار » فى جنوب مدينة « فيليس » ، ويشمل فى نفس الوقت الجزء الجبلى من مقدونية المطلة على بحر ايجة وكل منطقة جنوب ألبانيا تقريبا . وهكذا فان الاقتصاد الحى المزدهر جذب المهاجرين الآخرين من ألبانيا ومن مقدونية المطلة على بحر ايجة ومن كروشيفو ومن القرى الأخرى ، وجذب كذلك السكان المقدونيين من الأماكن المحيطة ، وبالتالى أصبحت فى نمو مستمر .

وفى عام ١٨٣٥ أصبحت « بيتولا » مركزا للولاية وفى نفس الوقت مركزا عسكريا . ويذكر « آمى بوبيه » أنه كان يوجد بالمدينة فى السنة المذكورة أربعون ألف نسمة . ولكن فى نفس العام أصابت النار حوالى مائتى منزلا . وفى النصف الثانى من القرن التاسع عشر نمت « بيتولا » واتسعت بسبب قدوم اللاجئين الأتراك من المدن التى تم تحريرها فى صربيا فى حرب عامى ١٨٧٧ – ١٨٧٨ ، وقدوم اللاجئين المسلمين من البوسنة والهرسك .

وكانت محلات « بيتولا » آنذاك حافلة بالبضائع والسلع الجديدة الواردة من فينسيا وفيينا وباريس ولندن . وأصبحت « بيتولا » هى المحطة الأخيرة فى خط السكة الحديدية من « سالونيك » الى « بيتولا » ، وهو الخط الذى تم افتتاحه فى عام ١٨٩٤ ، وقد أثر هذا تأثيرا كبيرا على تطورها الاقتصادى . وكانت تمر بها كل الحركة التجارية من تصدير واستيراد الخاصة بهذه المنطقة .

وكان لكثير من الشركات التجارية فى « بيتولا » فروعها فى سالونيك وفيينا وليبزج وفى المراكز التجارية الهامة الأخرى . وهكذا أصبحت « بيتولا » فى نهاية الحكم العثمانى فى وضع أفضل من « سكوبلى » من حيث الثراء وعدد السكان ، وكذلك من حيث المنازل الجميلة والشوارع النظيفة وفى المظهر العام . ويتبين من الاحصاء الذى أجرى بها فى عام ١٩١٢ بعد زوال الحكم العثمانى أنه كان بها حوالى ثمانية وأربعين ألف نسمة .

والحدود الجديدة بعد حرب البلقان لم توقف فحسب تقدم « بيتولا » بل ساهمت كذلك فى تدهورها ، وأصبح الجزء الأكبر من مجال نشاطها التجارى داخل الحدود اليونانية والألبانية ، وأخذت « سكوبلى » تستقطب

الجزء الباقى . وربطها بشبكة السكك الحديدية لم يحسن من موقفها ، هذا علاوة على هجرة اليونان والأتراك منها .

وحينما كانت جبهة القتال حول المدينة وبداخلها ، ابان الحرب العالمية الأولى ، لقى الكثيرون مصرعهم بسبب القاء القنابل على المدينة بوساطة العدو ، وبالتالى استمر انخفاض عدد السكان بها . وحتى نهاية القرن التاسع عشر كانت توجد بمدينة « بيتولا » أغلبية من السكان الأتراك والمسلمين وذلك برغم الهجرة الكبيرة للسكان المقدونيين اليها . وبعد الحرب البلقانية وبعد هجرة الأتراك الى تركيا أصبح المقدونيون يمثلون الأغلبية بها .

وبعد الاستقلال بدأت المدينة تتطور وتعود الحياة اليها ثانية وتستعيد شهرتها وتنمى قوتها بحيث أصبحت مركزا اقتصاديا . ويوجد بها الآن معهد لبحوث المعادن ومصنعان للنسيج وللمعالجة الجلود ومركز لتوليد الطاقة الكهربائية .

ويبلغ عدد سكان « بيتولا » حوالى سبعين ألف نسمة وتبعد عن الحدود اليونانية بحوالى خمسة عشر كليومترا . وعند دخولك المدينة تلاحظ مسجدا جميلا بلا مئذنة ، وهو مسجد « حيدر قاضى » . وهو نموذج واضح للأسلوب العثمانى فى المعمار . ومع مرور الزمن أصيب بأضرار كثيرة ، ولكن فى عام ١٩٦٠ تم الانتهاء من أعمال الترميم ، وجارى فى الوقت الحالى اتخاذ اللازم لاعداد المسجد لاقامة الشعائر الدينية به .

وفى وسط مدينة « بيتولا » يوجد مسجد اسحاقيا الذى تم تشييده فى القرن الخامس عشر . وبسبب ماس كهربائى احترق سقف المئذنة فى عام ١٩٨٢ . ونظرا الى أن المسجد يعد من الآثار الثقافية الهامة فهو يقع تحت رعاية الدولة . وقد أعدت مصلحة حماية الآثار تصميما جديدا لاعادة بناء المئذنة وسيتكفل المسلمون بالنفقات اللازمة .

وقد تم تحويل مسجد «ينى» الى معرض للفنون تشتمل على مجموعة طريفة وأصيلة . ويوجد بها أيضا مسجد « خاتونى » ومسجد « حسن بابا » ، وكذلك كنيسة « القديس ديمترى » التى ترجع الى القرن الرابع عشر .

وفى طريقك الى مدينة « أوهريد » تمر بمنطقة جبل « بليستر » التى تم تحويلها الى حديقة قومية عامة وتصل الى مدينة « ريسن » التى تبعد عن « بيتولا » بخمسة كيلو مترات . وهى مدينة صغيرة ذات منازل من طابق واحد وشوارعها ضيقة وتشتهر بزراعة التفاح . وبالرغم من

ذلك فسكان هذه المنطقة التى تعرف باسم « بريسبا » يسافرون فى أغلب الأحيان بحثا عن العمل خـارج بلادهم الى جميع أنحاء العالم . وعنـدما يعودون الى موطن رأسهم يشيدون منازل كبيرة ، الأمر الذى يضفى ملامح جديدة على الحياة فى المدينة أو على الحياة فى القرى القريبة .

وعلى مقربة من مدينة « ريسن » تقع بحيرة « بريسبا » التى ترقد فى هدوء وسكون . وهى بمصايفها تسارينا وأوشيفو وبريتور تمثل منطقة سياحية جميلة . وفى قرية « كوربينوفو » القريبـــة توجد كنيســـة « القديس جورج » التى تزين جدرانها صور زيتية رائعة طريفة .

ويمكنك أن تصل الى « أوهريد » بالجو والبر ، فهناك طائرة يومية تصل اليها مباشرة من العاصمة اليوغسلافية « بلغراد » . كما أنه هناك طريق برى واسع قادم من « ريش » يقودك الى « أوهريد » التى تعد من المصايف المشهورة فى يوغسلافيا . وهى تقدم لك مجموعة متنوعة كاملة من الآثار التاريخية التى تصـور وتمثـل مختلف الفترات والأسـاليب المعمارية . ومن الطريف أن عديدا من الشعوب وكثيرا من الحضـارات ترك آثاره فى هذه المدينة وجعل منها « مدينة القرون » . فهنا نجد آثارا للالير واليونان والرومان والبيزنطيين والأتراك العثمانيين وغيرهم . ولذا فقد صدق من قال أن تاريخ الشعب المقدونى قد كتب فى مدينة «أوهريد» .

وهذه المدينة السياحية التاريخية الساحرة تقع فى أقصى جنـوب يوغسلافيا وفى العمق الشمالى الغربى من مقدونية بالقرب من الحـدود الألبانية . كما أنها تطل على الساحل الشمالى الشرقى لبحيرة «أوهريد» . ويصل عدد سكانها الى حوالى أربعين ألف نسمة . وكانت «أوهريد» فى بدايتها محاطة بأسوار ، وهى الآن تمتد خـارج هذه الأسوار وتزحف بمنازلها ومبانيها على التل والسهل وبجانب شواطىء البحيرة .

ومدينة « أوهريد » تذكر لأول مرة فى القرن الثالث الميلادى تحت اسم « ليهندوس » حينما كانت عاصمة لاليريا . وفى هذه المدينة واصل القسيسان « كليمنت وناعوم » ـ تلميذا الأخوين « تشيريلو وميتوديا » ـ نشر الديانة المسيحية والثقافة بين القبائل السلافية . وتكثفت جهودهما فى «مدرسة أوهريد» التى أصبحت مركزا حيويا للثقافة وللأدب السلافيين، وانتشرت منها الثقافة والتعليم الى باقى مناطق السلاف الجنوبيين . وكان لكلمات « كليمنت وناعوم » دوى هائل . ومئات من التلاميذ الذين تخرجوا من مدرسة « أوهريد » أخذوا فيما بعد ينشرون اللغة السلافية المكتوبة فى المناطق النائية . وعلى يد هؤلاء التلاميذ تم انشاء أول جامعة سلافية وكانت تضم حوالى ٣٥٠٠ تلميذ ومعلم .

وفى النصف الثـانى من القرن العاشر أسس القيصر « صـمويل » (٩٧٦ ـ ١٠١٤) الدولة المقدونية الأولى التى استمرت حتى عام ١٠١٨ م. وقد اختيرت مدينة « أوهريد » عاصمة لهذه الدولة وفيها تم تتويج القيصر « صمويل » ، كما أنها كانت مركزا للبطريركية . ومازالت موجودة حتى الآن الأسوار الضخمة العالية لقلعته . وفى عهد الأتراك العثمانيين كانت مركزا للسنجق ومنذ القرن السابع عشر مركزا للقضاء .

وكانت « أوهريد » فى القرون الوسطى سوقا للسمك . وعلاوة على صيد الأسماك كان السكان يقومون بنقل البضائع على الطريق البرى وعبر بحيرة « أوهريد » من مدينة « بيتولا » الى ألبانيا وبالعكس . ووفقا لما كتبه الرحالة « اكسيليا شلبى » فقد كان يوجد بسـوق « أوهريد » فى القرن السابع عشر ١٥٠ دكانا . أما الرحالة « آمى بوبيه » فيرى أن عددهم يصل الى ٢٥٠ دكانا فى عام ١٨٣٦ . وكان صيد الأسماك فى عهد العثمانيين يتم بالايجار ، فقد كان صيادو السمك يستأجرون مسـاحات البحيرة التى سيصيدون فيها . وفى القرن التاسع عشر كان يتم بيع أسماك «أوهريد» الى المدن المجاورة مثل بيتولا وبرليب وسـتروجا وكورتشـا وديبار ، وكيتشفو . وبعد مد خط السكة الحديدى بين بيتولا وسالونيك فى عام ١٨٩٤ كان يتم تصدير أسماك أوهريد الى صربيا وبلغاريا . وكان سكان « أوهريد » يشتغلون أيضا ، ابان فترة الحكم التركى بدبغ الجلود ، وعلى الأخص جلود الحيوانات الوحشية . وبالتالى تطورت حرفة اعـداد فرو هذه الحيوانات ، وعلى الأخص فى منتصف القرن التاسع عشر .

والجزء القديم من المدينة ، وهو الجزء الواقع على التل أسفل القلعة ، محاط بالأسوار وبعد مجيىء الأتراك العثمانيين تم تشييد ضاحية جديدة للمدينة ، عند الجزء المنخفض من المدينة . وحتى القرن السابع عشر كان الأتراك يقطنون الجزء المنخفض من المدينة ، والمقدونيون يعيشون فى الجزء العلوى من المدينة مع بعض الاستثناءات الصغيرة . وفى وسـط هذين المنطقتين ، كالعادة فى المجتمعات العثمانية ، يوجد السوق التجارى بمحلاته الصغيرة وشوارعه الضيقة المرصوفة بالأحجار . وفى القرنين السادس عشر والسابع عشر كانت مساحة « أوهريد » كبيرة نسبيا ، ولكنها صغيرة وفقا لعدد سكانها . والرحالة « اكسيليا شلبى » يشبهها بالمدن الكبيرة فى الامبراطورية العثمانية آنذاك .

ومن كنائسها المشهورة كنيسة القديسة صوفيا والقديس بانتليمون وغيرهما . ويوجد بها حوالى ستة مساجد وتكية ومنها مسـجد « كيز »

ومسجد « كول أوجلو » ومسجد « على باشا » المستدير وتكية « محمد حياتى » .

ومؤسس هذه التكية هو « محمد حياتى بابا » الذى يرجع أصله الى منطقةخور اسان وكان يعيش فى القرن السادس عشر . وقد أتى الى هذه المناطق بناء على توصية من شيخه الذى كان يعيش فى « سيريز » باليونان . وقد قدم « حياتى بابا » أولا الى مدينة « كيتشيفو » حيث أقام أول تكية ونصب عليها شيخا الشيخ أحمد أفندى ، وبعد ذلك اتجه الى « أوهريد » حيث أقام تكية أخرى .

وتاريخ هذه التكية طريف للغاية . ففى أحد الأيام نادى « حياتى بابا » على بعض العمال الأجراء الذين كانوا يتجمعون فى وسط السوق فى انتظار من يستدعيهم للعمل . وحينما سألوه عن العمل الذى سيقومون به عنده . أجابهم بقوله : سنتعلم لا اله الا الله . فذهب العمال معه وتعلموا منه الذكر ، وبعد ذلك دفع لهم « محمد حياتى بابا » أجرا طيبا ودعاهم للحضور عنده فى الغد لكى يقوموا بنفس العمل . وهكذا كان العمال يترددون عليه لفترة طويلة من الوقت وكان يدفع لهم يوميا أجورهم . ثم رفض أحد العمال أن يقبل الأجر قائلا : سأعمل اليوم مجانا . وبعد فترة من الوقت قال بعض العمال أنهم سيقومون بالذكر دون الحصول على أجر ، وهكذا بدأت حلقات الذكر اليومية فى التكية . وغرس « حياتى بابا » شجرة فى وسط « أوهريد » مازالت موجودة حتى يومنا هذا وتعتبر من آثار المدنية التى يجب الحفاظ عليها . وشكل هذه الشجرة غريب فجذعها عريض لدرجة أن خمسة أشخاص لايمكنهم أن يحيطوا به .

وقد صليت فى هذه التكية أكثر مرة خلال زيارتى لمدينة « أوهريد » . وتوجد بهذه التكية حجرة للذكر وحجرة الاستقبال ومكان لاعداد القهوة وحجرات للخلوة . ويصلى بها عدد كبير من المسلمين الصلوات الخمس وصلاة الجمعة وصلاة العيدين والتراويح والنوافل . وهم يصلون عددا كبيرا من الركعات بعد كل فرض ، وتعقد كذلك حلقة الذكر بعد كل صلاة .

أما « **بحيرة أوهريد** » فهى لؤلؤة هذه المدينة ، وقد وصفها أحد الشعراء بانها « دمعة . سماوية جاءت واستقرت بين الجبال العالية » . وهى من أقدم بحيرات العالم ، وهى تعتبر نوعا من المتحف الطبيعى بسبب ما يوجد بها من حيوانات ونباتات من العصور الجيولوجية

السالفة . والحياة النباتية والحيوانية لاتزال موجودة هنا كما كانت منذ آلاف السنين .

وبينما تصطاد سمك السلمون الأوهريدى المشهور ستستمع أمواج هذه البحيرة وهى ترتطم بالشاطىء . والمياه الكريستالية الصافية للبحيرة تغير لونها مع ضوء القمر ومع أشعة الشمس الأمر الذى يسلب لب السائحين ويفتنهم بجمال البحيرة . والتنزه عبر البحيرة سيمنحك لحظات لاتنسى من السعادة والبهجة ، وستشعر بسرور حقيقى عندما تشاهد الالعاب المائية على مياه البحيرة الصافية الدافئة الى ٢٤ درجة . كل هذا جعل من « أوهريد » مركزا ثقافيا وسياحيا ومصيفا يجذب اليه عددا كبيرا من السائحين من جميع أنحاء العالم .

وعلى الشاطىء الجنوبى لبحيرة « أوهريد » ، عند منبع نهر دريم الأسود ، يقع دير « القديس ناعوم » وقبره . ويمكنك الوصول اليه من مدينة « أوهريد » أما عن طريق الباخرة ، واما بالطريق البرى الذى يمضى بمحاذاة الساحل . وقد أسس هذا الدين « ناعوم » مساعد « كليمنت » قبيل وفاته بعدة سنوات .

ووفقا لحفريات رجال الآثار ، التى جرت فى السنوات الأخيرة ، فقد تم الكشف عن أساسات كنيسة « ناعوم » التى كانت تحمل ثلاث قباب ، والكنيسة من الداخل كانت شبه مستديرة . وفيما بعد تم هدم الكنيسة وخلال فترة الحكم العثمانى جرى تشييد الكنيسة الحالية للقديس « ناعوم » على مرحلتين . والأيقونة الموجودة بها ترجع الى عام ١٧١١ ، والصورة ترجع الى عام ١٨٠٦ .

وهذه المدينة هى مسقط رأس الشاعر المقدونى الكبير « جريجور برليتشيف » (١٨٣٠ - ١٨٩٣) الذى سنتحدث مفصلا فى الجزء الخاص بالشعر المقدونى . ويمكن رؤية تمثاله فى الحديقة الواقعة بجانب المنتزه .

وعلى مقربة من مدينة « أوهريد » توجد بلدة « **تريبنيشته** » التى تقع بها مقبرة كبيرة يرجع تاريخها الى القرن السادس قبل الميلاد . وهى تشتهر بأقنعتها الذهبية التى لاتقدر بمال وبحليها ومجوهراتها وآثارها القديمة .

ونواصل رحلتنا بين المدن المقدونية . وبعد مسافة ليست بالبعيدة نصل الى « فينيسيا المقدونية » ، الى مدينة « **ستروجا** » ، مدينة الشعر والجمال . وهى تقع عند ارتباط بحيرة « أوهريد » بنهر دريم الأسود .

واسمها سلافى الأصل ، ويتم ذكرها فى الآثار البيزنطية التى ترجع الى القرن الحادى عشر باعتبارها منطقة سكنية يقطنها صيادو الأسماك . وباعتبارها منطقة لصيد الأسماك يتم ذكرها فى القرن الرابع عشر فى احدى وثائق الامبراطور « دوشان » . وكانت المدينة آنذاك مقسمة الى قسمين ، القسم الأول يعرف باسم « ستروجا فرانيسكا » وذلك نسبة الى قرية « فرانيشته » التى تبعد ثلاث كيلو مترات عن « ستروجا » الحالية . والقسم الثانى هو « ستروجا » الصغيرة . وكان احد هذين القسمين موجودا ، على الأقل ، فى مكان مدينة « ستروجا » الحالية .

وخلال الحكم العثمانى لم تكن « ستروجا » فحسب مكانا لصيد الأسماك بل وسوقا للغلال . ويذكرها الرحالة « برنارد » فى عام ١٥٩٠ على أنها مدينة يوجد بها خان لراحة القوافل ، وكانت القوافل تشترى منها الغلال وتنقلها الى الساحل الألبانى . وقد قابل هذا الرحالة على هذا الطريق القديم بين « تيرانا » و « ألباسن » قافلة بها خمسمائة حصان تحمل الغلال من « ستروجا » . ويذكرها الرحالة التركى «اكسيليا شلبى» فى القرن السابع عشر باسم « أوستروجا » و « أوستروكا » .

وفى نهاية القرن الثامن عشر يعتبرها البارون « بوجور » من بين المدن الصغيرة ، ويشاركه نفس الرأى الرحالة « ف . بوكوفيل » فى بداية القرن التاسع عشر ويذكر أنه كان يعيش بهـا حينذاك حوالى ثلاثة آلاف نسمة . وفى منتصف القرن التاسـع عشر كان يوجد فى « ستروجا » بالاضافة الى السوق الاسبوعى سوقان يقامان خلال أيام السنة ويستمران لمدة خمسة عشر يوما .

وفى ذلك الحين كانت « ستروجا » وسيطا فى التجارة بين مقدونية وألبانيا ، وكانت معظم بضاعتها تذهب الى « الباسن » و « سكادار » حيث كان سكان « ستروجا » لهم جاليتهم فيهـا الى عهد قريب . ورغم أن سوقها فى ذلك الحين لم يكن كبيرا ، وكان به حوالى مائتى دكان ، فقد كان سوقانشطا للغاية حتى خلال أيام السوق الاسبوعية . وكان يوجد بالمدينة حوالى ٦١٠ منزل .

وفى النصف الثانى من القرن التاسع عشر حينما أصـبح الأمن مفقودا على الطرق عبر ألبانيا وجه سكان « ستروجا » أنفسهم للتجارة المحلية وركزوا على صيدهم للسمك الذى كان حتى ذلك الحين احدى حرفهم الرئيسية . وبالاضافة الى الصيد فى البحيرة فقد كانوا يصطادون فى مجرى نهر « دريم » ، أسـفل « ستروجـا » مباشرة ، حيث كانوا يصيدون سمك الأنقليس (أى الجريث أو الثعابين) الذى كان يتـم

تمليحه وتصديره . وفى نفس الوقت كانت « ستروجا » تصـدر طين الخزف .

الا أنه بعد اقامة سد على نهر « دريم » حدثت ظاهرة عجيبة فى علم البيولوجيا فسمك الأنقليس يقضى فترة من حيـاته فى ميـاه بحيرة « أوهريد » وبعد ذلك يتجه الى رحلة طويلة من أجل رغبته فى الحفاظ على النوع ، وكانت هذه الرحلة الشاقة تمضى عبر نهر دريم وتمر بالبحار والمحيطات ، الى أن يصل الى خليج المكسيك حيث يلقى حتفه . ثم تأخذ الأجيال الشابة من هذا النوع من السمك فى العودة فى الاتجاه المضاد وتقطع كل هذه المسافة الطويلة التى تستمر لسنوات من أجل أن تعود الى موطنها الرئيسى فى المياه العذبة لبحيرة « أوهريد » . الا أن اقامة السد أدت الى توقف هذه الرحلة توقفا تاما الى الأبد . وفى الوقت الحالى يتم احضار سمك الأنقليس الى موطنه الأصلى محفوظا فى الثلاجات .

ويشتغل سكان مدينة « ستروجا » فى الوقت الحالى بصيد الأسماك من البحيرة ومن نهر دريم . كما أنه بدأت فى الآونة الأخيرة زراعة التفاح على شاطىء نهر دريم . وبسبب جمال شواطىء البحيرة هنا فقد أصبحت « ستروجا » المصيف الثانى بعد « أوهريد » . ويوجد بها متحف صغير منظم تنظيما جيدا ، كما يوجد بهـا أكثر من مسـجد . وفى قرية « فرانيشته » ، بالقرب من « ستروجا » ، توجد أطلال وبقايا ثلاث كنائس من القرون الوسطى .

وهذه المدينة ذات المائة جسر ، كما كان الرحالة القدماء يسمونها ، هى مسقط رأس الأديبين الأخوين « ميلادينوف » ، وسنفصل الحديث عنهما فى الجزء الخاص بالشعر المقدونى . والاحتفـال بذكـرى هذين الأخوين تحول الى مظاهرة أدبية اكتسبت فى الوقت الحالى طابعا عالميا وأصبحت تسمى « ليالى الشعر بستروجا » ، وسيكون هناك حديث مفصل عن هذا المهرجان أيضا فيما بعد .

ومن مدينة « ستروجا » نمضى فى الطريق الجديد عبر منطقة غرب مقدونية وعبر الوادى الفاتن الرائع لنهر « راديكا » ، ونمر على البحيرات الصناعية الحديثة التى تغير المنظر الطبيعى لهذه المناطق وتزيد من جمالها وفتنتها . وهنا نصـل الى مدينة « ديبار » التى تقع عنـد اتصال نهر راديكا بنهر دريم الأسود . ونجد أول ذكر لها باسم « ديبوروس » على خريطة « بطليموس » فى منتصف القرن الثانى الميلادى . ويتم ذكرها فى ميثاق الامبراطور البيزنطى باسيل الثانى (٩٥٧ – ١٠٢٥) على أنهـا مكان يتبع أسقفية « بيتولا » . واستولى عليها الملك الصربى « ميلوتين »

من البيزنطيين فى عام ١٢٨٣ ، وفى اتفاقية التحالف التى عقدت بين الملكين « ميلوتين » و « كارل » فى عام ١٣٠٨ يتم ذكر « ديبار » على أنها واقعة فى أراضى الملك « ميلوتين » .

وفى وقت مبكر من الحكم العثمانى يتم ذكر مدينة « ديبار » على أنها منطقة سكنية والرحالة « فيلكس بتانتشيتش » يذكرها فى عام ١٥٠٢ باسم مدينة « ديبرى » ، ويذكر أنه يوجد بها كثير من السكان . والرحالة الحاج خليفة يذكرها فى القرن السابع عشر باسم « ديبرى » و « ديبرا » . و « آمى بوبية » يقدر أنه كان يوجد بها حوالى ٤٢٠٠ نسمة فى حوالى ١٨٤٠ ، ووصل عدد سكانها فى عام ١٩٠٠ الى خمسة عشر ألف وخمسمائة نسمة .

واستوطن الشيبتار بمدينة « ديبار » خلال فترة الحكم العثمانى ، وعلى الأخص طوال القرن الثامن عشر وفى العقود الأولى من القرن التاسع عشر . وكان يوجد بها كثير من التجار وأصحاب الحرف علاوة على البكوات الأثرياء خلال فترة القرن التاسع عشر وحتى نهاية الحكم العثمانى . وكانت صناعة البنادق فى أيدى المسلمين فحسب الى وقت نشوب الحرب البلقانية وفيما بعدها ، وكان المقدونيون فى الغالب يمارسون باقى الحرف . وتطورت آنذاك حرف البناء والحفر على الخشب ورسم الأيقونات . وبعد الحرب البلقانية هاجر عدد كبير من المسلمين من « ديبار » الى تركيا وألبانيا . ووفقا لاحصاء عام ١٩٢١ كان يوجد بها ٧٠٦٠ نسمة ، وفى عام ١٩٤٨ كان يوجد بها ٤٦٩٨ نسمة . وفى ١٩٦٧ أصيبت بزلزال وجرت بعد ذلك اعادة بنائها .

وجاءت من قرى « ترسنوتشه » و « جارى » و « بيتوشه » و « جاليتشنيك » و « لازاروبولى » عدة شخصيات هامة اشتركت فى حركة النهضة المقدونية . ونتوقف فى وادى نهر راديكا عند الدير المشهور للقديس « جون بيجورسكى » حيث نجد نماذج رائعة للحفر على الخشب وحيث يمكننا أن نحصل على اللبن الرائب المقدونى المشهور ، وهو نوع من اللبنة السميكة التى تمنح المرء انعاشا مبهجا . والدير نفسه يرجع تاريخه الى أوائل القرن التاسع عشر . ويشتهر هذا الدير بأيقونته المزخرفة التى قام برسمها وصنعها الفنانون المهرة الذين تخرجوا من مدرسة « ديبار » للنقش والحفر على الخشب ، وهذه المدرسة جعلت من هذا الفن فنا حقيقيا فى القرن التاسع عشر .

وقد شيد العثمانيون الكثير من الخانات لاستقبال المسافرين العابرين الذين يريدون المبيت هنا . وكانت هذه الخانات تقع اما بداخل

المدن المقدونية نفسها أو فى أى مكان آخر بمحاذاة طريق السفر وهنا فى هذه المنطقة نجد « **خانات مافرو** » التى تقع فى احدى غابات الصنوبر بأعلى بحيرة « مافرو » . وقد تكونت هذه البحيرة الكبيرة الهادئة منذ عشرين سنة حينما تم انشاء محطة لتوليد الطاقة الكهربائية . ومياه هذه البحيرة تدير محركات محطة توليد الطاقة الكهرومائية فى « مافرو » . كما أن منطقة الغابات الموجودة هنا تعج بالدببة والوشق وحيوانات الصيد الأخرى ، ولذا يتردد على زيارتها هواة الصيد من الأجانب الذين يتوقون الى الاحتفاظ بتذكارات نادرة من رحلات الصيد .

ونستكمل رحلتنا فنتجه الى « **كيتشفو** » التى تقع فى منخفض كيتشفو عند التقاء نهرى « تيمنتسا » و « زايسكا » ، وهما من فروع نهر « تريسكا » ، كما أنها تقع على الخط الحديدى ما بين « أوهريد » و « جوستيفار » .

ويتم ذكرها باسم « كيتسافيس » فى عام ١٠١٨ فى ميثاق الامبراطور « باسيل الثانى » باعتبارها منطقة فى أبرشية « أوهريد » ، وكان اسمها « كيتشافا » فى القرون الوسطى . ووفقا للاتفاق الذى تم عقده بين الملك « ميلوتين » و « كارل » ملك « فالواز » انضمت منطقة « كيتشفو » الى دولة الملك « ميلوتين » . ويتم ذكرها فى القرن السابع عشر تحت اسم « كيرتشوفا » أو « كرتشوفا » ، أما الاسم الثانى « فيرتشوفا » فقد نشأ نتيجة القراءة الخاطئة لحرف الكاف فى الأبجدية التركية القديمة . والاسم التركى للمدينة « كيرتشوفا » أو « كرتشوفا » موجود فى الكتابات السلافية التى ترجع الى القرنين السابع عشر والثامن عشر . ويطلق السكان المحليون عليها فى الوقت الحالى اسم « كيتشافا » ، « كيتشا » و « كيتشفو » .

ومدينة « كيتشفو » تعد نموذجا للقرية الشرقية القديمة . ففى وسط المدينة يوجد السوق التجارى وجميع الشوارع تؤدى اليه . ومنازلها مشيدة بالقرميد والأخشاب ، وشوارعها ضيقة وملتوية . وفى وسط المدينة على التل يوجد حطام قلعة قديمة ، وحولها تقع آثار مناطق سكنية قديمة ، ومن الأرجح أنها من عهد يسبق العصر السلافى . وأغلب سكانها من المقدونيين ، ونزح اليها الشيبتار من ألبانيا خلال القرن الثامن عشر ، أما التسينتسار فقد قدموا فى النصف الأولى من القرن التاسع عشر .

وفى القرن الثامن عشر كانت « كيتشفو » مركزا اداريا . وفى العصر الحديث فتح التسينتسار المحلات وأقاموا سوق « كيتشفو »

الحالى . وفى نهاية القرن التاسع عشر كان يوجد بمدينة « كيتشفو » ٤٨٤٤ نسمة ، وفى عام ١٩٢١ كان بها ٥٩٥٢ نسمة ، وفى ١٩٤٨ كان بها ٧١٠٠ نسمة ، وفى ١٩٥٣ وصل الى ٩٥٦٧ ، وفى بداية السبعينات قفز العدد الى ١٥٣٧٨ نسمة .

وفى ضواحى هذه المدينة تم افتتاح مناجم لاستخراج الحديد الخام وفحم اللجنيت . ومن أجل تصدير المعادن والفحم والأخشاب تم ربط المدينـــة بخط حديدى مع الخط الحديدى الذى يربط بين « بيتولا » و « تيتوف فيليس » . وتوجد بالمدينة كذلك شركة لصناعة الأخشاب ، وعلاوة على انتاجها للاخشاب المصنعة وغيرها المصنعة فهى تنتج أيضا الأثاث المنزلى .

وتوجد فى مدينة « كيتشفو »ثلاثة مساجد وثلاث تكيات ، كمـا يوجد أتباع للطريقة الصوفية المسماة الطريقة الخلوتية نسبة الى مؤسسها هنا الشيخ خلوتى حياتى بابا .

ونواصل الرحلة التى تقودنا الى مدينة « جوستيفار » ، وهى تقع على الساحل الايسر لنهر « فاردار » . وقد جاء من هذه المنطقة الأبطـال المشهورون الذين سعوا الى تحقيق الذات القوميـة أمثـال « جورجى بوليفسكى » ، والأبطال الآخرون الذين كتبوا بانجازاتهم الابداعية أروع صفحات التاريخ الثقافى لمقدونيه .

وفى طريق عودتنا الى « سكوبلى » لابد وأن نمر باحدى المدن الهامة فى مقدونيه ، ألا وهى مدينة « **تيتوفو** » . وهى مدينة كبيرة تقع أسفل جبل « شار » ويجرى ذكرها فى القرون الوسطى باسم قرية « هتيتوفو » نظرا لأنه كان يوجد بها دير « العذراء هتيتوفو » . وعلاوة على ذكرها فى النصف الأول من القرن الثالث عشر يتم ذكرها أيضا فى القرن الرابع عشر فى ميثاقين من مواثيق الملك « دوشان » ، ويتضح منهما أنه كان ينعقد فى المنطقة المجاورة للدير سوق أسبوعى دائم وسوق آخر سنوى ، وكان للدير الحق فى الحصول على كل الايرادات الواردة من دخـول هذين السوقين .

ومنذ القرن الخامس عشر وخـــلال فترة الحكم العثمانى كانت « تيتوفو » تنمو وتتطور باعتبارها مدينة سكنية سواء باسمها الحالى أو باسمها التركى « كالكاندلن » . ومن الحقائق المعروفة أن البـكوات الأتراك والأثرياء كانوا يشيدون فى هذه المدينة فيلاتهم . وكان يوجد بها أيضا سكان مسيحيون بالاضافة الى الأتراك . وفى القرنين السادس

عشر والسابع عشر كانت مركزا لحاكم منطقة « بولوج » . ويبدو أن مدينة « تيتوفو » قد أصيبت بأضرار فى نهاية القرن السابع عشر خلال الحرب النمساوية التركية حينما دخل النمساويون « بولوج » لأنه يجرى ذكرها فى أوائل القرن التاسع عشر على أنها مدينة فقيرة . ومن المؤكد أنها كانت كذلك خلال القرن الثامن عشر ولكن لا توجد أية معلومات من تلك الفترة .

وبدأت « تيتوفو » تتقدم فى العقود الأولى من القرن التاسع عشر حينما كان يحكم منطقة « بولوج » عبـد الرحمن باشا باليوش ، ووفقا لتقديرات « آمى بوييه » كان يوجد بهـا فى عام ١٨٣٦ من أربعة الى خمسة آلاف نسمة . ويقدر أن عدد سكانها وصل الى عشرين الف نسمة فى فترة الانتقال من القرن التاســع عشر الى القرن العشرين . وحتى منتصف القرن التاسع عشر كان السوق التجارى ، فى الغالب ، فى يد الأتراك والشيبتار . ومنذ ذلك الحين بدأ يتزايد عدد السكان المقدونيين فى « تيتوفو » وتزداد قوتهم الاقتصادية . وهكذا انتقلت ، فى نهاية القرن التاسع عشر ، الى أيديهم كل تجارة المدينة . وقد ساهم فى ذلك ، على نحو ، تغير العلاقات التجارية .

وبعد اقامة الطريق البرى فى وادى نهر « فاردار » فى السبعينيات من القرن التاسع عشر وانشاء الخط الحديدى « فاردار – كوسوفو » فى عام ١٨٧٣ تركت « تيتوفو » التجارة مع « سكادار » ، وهو الاتجاه الذى كان لا يتحـرك صوبه الا الشيبتار والأتراك ، واتجهت صـوب « سالونيك » عن طريق « سكوبلى » ، وهو اتجاه كان التحرك فيه مأمونا للغاية . وبالرغم من ذلك فالى وقت نشوب الحرب البلقانية (فى عامى ١٩١٢ – ١٩١٣) كان الأتراك والشيبتار والغجر يشكلون أغلبية سكان مدينة « تيتوفو » . ومع رحيل الأتراك بعد حرب البلقان أصبح المقدونيون يشكلون أغلبية سكان المدينة .

وكثير من المسافرين يذكرون ويصفون « تيتوفو » على أنها مكان غارق فى الخضرة . وهذه الخضرة تأتى فى معظمها من وفرة مياه الآبار والمياه الجارية . وتصل مياه نهر « بينه » الى جميع أنحـاء المدينة . وتوجد محطة لتوليد الكهرباء على نهر « بينه » بأعلى « تيتوفو » ، وهى أقدم محطة كهرومائية فى مقدونية اذ أنه قد تم انشاؤها فى عام ١٩٢٩ . وبعد حرب التحرير الشعبية أقيم فى تيتوفو مصنع لغزل الصوف وآخر لانتاج زيوت الطعام . وأصبحت تيتوفو هى المركز التجارى للمنطقة المنخفضة من « بولوج » .

ولا يمكن أن تكون موجودا بمدينة « تيتوفو » والا تزور ، أو بعبارة أدق ، تصعد الى « **قمة بوبوفا شابكا** » ، وهى قمة على جبل « شار » يصل ارتفاعها الى حوالى ١٨٤٥ مترا . ويمكنك أن تصعد الى هذه القمة اما بالسيارة فى طريق ملتو طويل يبلغ طوله ١٩ كيلو مترا ، أو بالمصعد الكهربائى . والطريق البرى الذى يرتفع تدريجيا يقدم لك مناظر رائعة للمناطق وللقرى المحيطة بهذا الجبل . وفى الشتاء عندما تغطى الثلوج الجبل كله يفد الى هنا هواة التزحلق على الجليد وعشاق الهواء النقى ومحبو الاستجمام والراحة الصحية والنفسية . والثلوج تستمر على الجبل من نوفمبر وحتى شهر ابريل . وتوجد ممرات للتزحلق على الجليد تصل الى ١٢ كيلو مترا وتتصل بعضها بمصاعد ، كما أنه توجد منطقة للقفز على الجليد من ارتفاع ٦٠ مترا .

وتزخر مدينة « تيتوفو » بالعديد من الآثار التاريخية من العهد العثمانى . ولا شك أن الجامع المزركش بها سيبهرك بزخارفه الفنية على واجهته وبألوانه المتعددة من الداخل ويسمى هذا الجامع أيضا « بجامع آلاجا » ، كما يسمى « بجامع الباشا » نسبة الى عبد الرحمن باشا الذى جدده تجديدا شاملا كاملا فى حوالى عامى ١٨٣٣ – ١٨٣٤ . وكان يوجد فى مكانه جامع آخر تحطم تحطيما كاملا . وقام فاعل الخير عبد الرحمن باشا بتجديده وشيد منبره من المرمر وأمر بتلوينه ورسم الرسومات على جدرانه وتزيينها بالزخارف والنقوش العربية .

وعلى مدخل الجامع توجد لوحة مرمرية حجمها ٢ر٢٠ × ٠ر٨٠ سم ومنقوشة عليها أبيات شعرية باللغة التركية . وهى منقوشة على ثمانية وأربعين مساحة مربعة ، والأبيات مكتوبة على أربعة وأربعين مساحة بينما النقوش والزخارف تشغل الأربع مساحات الباقية . ويقال أن الأبيات الشعرية من تاليف درويش محمد مرادى ؛ ونظرا لأن هذا الجامع من أهم آثار العمارة الاسلامية فى يوغسلافيا فهو موضوع تحت حماية مصلحة الآثار .

واذا أراد المرء أن يستعيد جو الشرق فعليه أن يزور التكية الاسلامية ؛ المشهورة باسم تكية «سرسم على بابا» أو تكية «عراباتى بابا» . وكان « سرسم على بابا » أحد الدراويش أتباع الطريقة البكتاشية المشهورة فى القرن الثامن عشر . « وعلى بابا » هذا التمس من السلطان أن يعفيه من المنصب الكبير الذى كان يقوم به . ومن أجل هذا لقبه السلطان بسرسم ، أى الأحمق باللغة التركية .

اما « عراباتى بابا » فهو أحد الأصدقاء الأوفياء « لسرسم » ، وهو ايضا من الصوفيين البكتاشيين . وبعد قدومه الى « تيتوفو » شيد قبرا وفوقه مدفنا فى البقعة التى رأى فيها شمعة مشتعلة وشبحا « لسرسم بابا » . وبعيدا عن المدفن شيد تكية . وفى رواية أخرى أن مشيد هذه التكية هو رجب باشا وابنه عبد الرحمن . وهى تتالف من مجموعة غير مألوفة من المبانى بما فى ذلك مسجد متواضع ودار كبيرة للضيافة مكونة من طابقين ومكان للتعبد وجناح من طابق واحد خاص بباحة الدراويش واستقبال الضيوف ، بالاضافة الى نافورة وعدة مبانى ملحقة ، وكلها محاطة بأسوار عالية بها أبراج وبوابات . وتوجد هنا ايضا أضرحة مشيدى التكية ثم أضرحة باقى الدراويش ، ويصل عددها الى حوالى أربعين أو خمسين ضريحا ؛

وتكية « عراباتى بابا » من أجمل النماذج الباقية للعمارة الاسلامية فى مقدونية . ويتجلى ذلك فى كل مبنى من هذه المجموعة من المبانى ابتداء من باب الدخول الضخم الحصين وانتهاء بالمبانى المبعثرة داخل الفناء الفسيح . وكل المبانى مشيدة وفقا لتصميم جيد ، والنظام الداخلى يناسب تماما احتياجات الانسان . والزخارف الرائعة تقوم على أسلوب الباروك الشرقى ولكن مع الاحتفاظ بالعناصر الشرقية المشهورة لفن العمارة ، وكلها منفذة على الخشب أو بوساطة خليط من المواد . والحقيقة ان كل مبنى من هذه المبانى يمثل بذاته تجربة فنية وذلك بفضل البنائين المهرة الذين تم استدعاؤهم خصيصا لذلك من تركيا وأدرنه والقسطنطينية وغيرها من المدن . وقد تم فى الوقت الحالى تحويل تكية « عراباتى بابا » لكى تكون فندقا ومطعما ومتحفا يجذب العديد من السائحين الأجانب .

ومن آثارها القديمة الشهيرة أيضا ذلك التمثال البرونزى « للمينادة » ، وهى فتاة فاتنة ترقص ، وهذا التمثال يرجع الى القرن الثالث قبل الميلاد . وفى المنطقة المحيطة ، فى قرية « ليشوك » ، توجد أطلال لكنيسة القديس « أثاناسيا » ، التى ترجع الى النصف الأول من القرن الرابع عشر . وتوجد فى نفس القرية كنيسة القديسة العذراء . وبالقرب من دير « ليشوك » يوجد مركز ثقافى جديد به قبر « كيريل بيتشينوف » الأديب المشهور والبطل المعروف للنهضة المقدونية .

ونعود ثانية الى « سكوبلى » عبر نهر « فاردار » الذى يقسم مقدونية الى جزأين . وعلى الخط الحديدى ما بين « سكوبلى » و « نيش » تقع مدينة « **كومانوفو** » التى تعد واقعة فى وادى نهر « كريفا » . وقد بدأت

« كومانوفو » تتطور وتنمو كمنطقة سكنية ابتداء من القرن السابع عشر. ويذكرها لأول مرة الرحالة « اكسيليا شلبى » فى عام ١٦٦٠ . وربما يرجع اسمها الى اسم المنطقة السكنية « كومان » التى كانت موجودة فى القرون الوسطى . ووفقا لما ذكره « اكسيليا شلبى » فقد كان يوجد بمدينة « كومانوفو » ستون منزلا ومسجد وتكية وخان وحمام وعدد كبير من المحلات . وظلت لفترة طويلة تابعة لقضاء « سكوبلى » ، ولذلك كانت تعد منطقة سكنية غير معروفة . وفى العقد الأخير من القرن السابع عشر سجلها الرسام الجغرافى الايطالى « جياكومو كانتلى » على خريطة مقدونية التى أعدها فى عام ١٦٨٩ وأصدرها فى روما .

وفى أثناء هجوم النمساويين على منطقة البلقـــان فى عام ١٦٨٩ أعلن « كاربوش » ، زعيم الثوار فى الجزء الشمالى الشرقى من مقدونية ، نفسه ملكا على « كومانوفو » . وبعد فشل الهجوم العسكرى للنمساويين انخفض عدد سكان « كومانوفو » ، ولكنها بقيت فحسب مركزا اداريا للمنطقة وفى فترة الانتقال من القرن الثامن عشر الى القرن التاسع عشر كانت تعتبر قرية أكثر من اعتبارها مدينـة . وكان يوجد بهـا حوالى ثلثمائة منزل فحسب ، وذكر « آمى بوييه » فى عام ١٨٣٦ أنه يوجد بها حوالى ثلاثة آلاف نسمة ، وفى عام ١٨٥٨ ذكر « ج . ج . هان » أنه يوجد بها ٣٥٠٠ نسمة .

وبعد انشاء الطرق المتعددة فى العقد السابع من القرن الماضى أخذت « كومانوفو » تتقدم بسرعة . وعند ربط خط حديد « فاردار » مع خط حديد « مورافا » فى عام ١٨٨٨ مر الخط بجانب مدينة « كومانونو » ، ولذلك حصلت على محطة للقطارات .

وفى المجال الاقتصادى كانت « كومانوفو » سوقا للتجارة طوال القرن التاسع عشر ، ومنذ بداية القرن العشرين كانت بها محلات دائمة للتجارة وللحرف . وقد أثر على الأحوال الاقتصادية فى « كومانوفو » ــ منذ بداية القرن التاسع عشر ــ قدوم اليونان من « يانينا » والتسينتسار من «كروشيفو » . ويعيش فى « كومانوفو » المقـدونيون والأتـراك والشيبتار والغجر ، وهناك أيضا كثير من المهاجرين الصرب من « فرانيا » و « بيروت » قدموا اليها بعد الحرب البلقانيــة . ومنذ بداية القرن العشرين وأغلبية السكان من المقدونيين ، ووصل عدد سكانها فى أوائل السبعينيات الى ٤٦٤٠٦ نسمة . وبها صناعات للجلود والأجهزة المنزلية والطوب الحرارى والتبغ والخزف والصناعات الغذائية .

ومن الطبيعى أننا فى هذه الجولة بين المدن المقدونية وآثارها لم نتمكن من مشاهدة كثير من المدن المقدونية الأخرى ذات المناظر الطبيعية الخلابة والآثار التاريخية الجميلة . وأملنا أن نكون قد استطعنا بهذه الجولة أن نكون قد قدمنا للقارىء العربى صورة مصغرة مما تحتوى عليه الأرض المقدونية من جمال فاتن ومن آثار فى كل مكان .

الباب الثانى

الفصل الأول ـ اللغة المقدونية

الفصل الثانى ـ الحياة الثقافية

الفصل الثالث ـ الحياة الدينية

الفصل الأول

اللغة المقدونية

اعتقد أنه قبل أن نتحدث عن الحياة الثقافية وعن أى نشاط ثقافى وادبى لابد وأن نتطرق بالحديث عن الوسيلة التى يتم بها التعبير عن هذه الثقافة وعن هذا الأدب ، ألا وهى اللغة المقدونية التى تحولت من مجرد وسيلة للتفاهم والاتصال الى وعاء يستوعب الانسان المقدونى وثقافته وأدبه وحضارته .

وليس من قبيل المبالغة القول بأن اللغة المقدونية هى التى حفظت للشعب المقدونى شخصيته عبر التاريخ ، وربطت أفراد الشعب المقدونى بعضهم الى بعض برباط وثيق ، وهى التى قربت بين أمزجتهم ومشاعرهم وبين أفكارهم وأمالهم وبين عاداتهم وتقاليدهم .

فاللغة المقدونية لها شأن خطير فى تحديد القومية المقدونية ، وهى عامل حاسم فى ظهور القومية المقدونية الى حيز الوجود وذلك لأن كل أمة من الأمم تتميز عن سواها من الأمم بخصائص معينة تتمثل فى عاداتها وتقاليدها وتراثها الروحى وأغانيها الشعبية وأقاصيصها وأساطيرها وأمثالها وأدبها ودعاباتها . وما من شك فى أن اللغة هى التى تعكس كل هذه الخصائص وتعبر عنها ، فهى خلاصة تجارب الشعب الذى يتحدث بها .

كما أنه من المعروف أن أعداء الشعوب وسالبى حريتها يعادون على الدوام أية لغة قومية لأنها تمثل مظهر عزة الشعب وقوته وتميز شخصيته ، ولأنها جزء لا يتجزأ من كيان الشعب ، فاذا أتيح لهم أن يقضوا عليها أصبح من السهل عليهم أن يعبثوا بعقلية الشعب وعواطفه . بيد أن الشعوب ذات اللغات القومية والتاريخ المفعم بالبطولات تفطن لمثل

هذه المكائد وتتمسك بلغتها فى حرص بالغ الى أن يأتى وقت خلاصها ونيلها لحريتها واستقلالها . وهذا هو ، على نحو ما ، ما حدث للغة المقدونية .

ولكى نستوعب مثل هذه الحقائق تمام الاستيعاب ونتعرف على تلك الرسالة المجيدة التى أدتها اللغة المقدونية فى ميدان النهضة القومية للشعب المقدونى فما علينا الا أن نرجع القهقرى الى نشأة هذه اللغة ، ونصطحبها فى رحلة قصيرة جادة عبر مراحل التاريخ لكى ندرك بجلاء كيف أنها ثبتت للاحداث الجسام وكيف أنها ظلت متماسكة الجسد والروح الى أن تحقق لها النصر النهائى على كل أعدائها وعلى الكارهين لاستقلالها .

فى نهاية القرن التاسع عشر بدأ المقدونيون يعرفون التعليم السلافى . وقد ترك النشاط الذى كانت تقوم به مدرسة « أوهريد » التى أسسها « كليمنت » طابعه الدائم المتميز على اللغة التى يتم بها هذا التعليم . وكانت هذه اللغة تتسم ، وعلى الأخص فى مجال المفردات ، بانها استمرار للغة الترجمات السلافية الأولى . وحتى القرن الحادى عشر كان يشيع فى مقدونية استخدام الأبجدية الأولى ، المسماة «بالجلاجولتيسا» . ومن الملاحظ أنه ابتداء من القرن الثانى عشر أخذت اللغة المكتوبة بها النصوص المقدونية تبتعد ابتعادا متزايدا عن اللغة السلافية القديمة . وفى القرن الرابع عشر انتشر استخدام الصيغة الصربية التى كانت لها السيطرة فى التعليم المقدونى حتى القرن الثامن عشر .

وأخذت العناصر الحديثة من اللغة المقدونية الشعبية تتغلغل تدريجيا فى لغة الأدب الدينى ابتداء من القرن السادس عشر . وهذه المرحلة تمثل ، على نحو ما ، بداية لاستخدام اللغة المقدونية الشعبية فى مجال الأدب . وقد تم تحقيق ذلك فى بداية القرن التاسع عشر فى كتابات « يواكيم كرتشوفسكى » و « كيريل بيتشينوفيتش » . وبالرغم من أن اللغة الشعبية كانت مستخدمة فى الكتابة فى النصف الأول من القرن التاسع عشر ، الا أنه لم يظهر حينذاك الوعى بضرورة استخدام لغة أدبية عامة .

وتم ، لأول مرة ، طرح مسالة اللغة المقدونية الأدبية على بساط البحث فى الستينات من القرن التاسع عشر حينما بدأ المقدونيون ، بالاشتراك مع البلغاريين ، فى الكفاح ضد بطريركية القسطنطينية وضد استخدام اللغة اليونانية فى الكنائس والمدارس . وتعد تلك هى بداية النهضة المقدونية . وطرحت آنذاك وجهتان للنظر فيما يتعلق بمسالة

اللغة الأدبية . وترى وجهة النظر الأولى أنه ينبغى اعداد لغة أدبية مشتركة للمقدونيين وللبلغار بحيث يتم فى هذه اللغة تمثيل عناصر اللغتين المقدونية والبلغارية على قدم المساواة .

أما وجهة النظر الثانية فكان يدعو لها من يطلق عليهم « أنصار القومية المقدونية » ، وهم يؤكدون على أنه من واجب المقدونيين ، باعتبارهم شعبا خاصا ، أن يعدوا لغتهم الأدبية الخاصة بهم . والقاسم المشترك بين هذين الرأيين هو معارضتهما لأن يتم فى مقدونية استخدام اللغة المقدونية الأدبية القائمة على اللهجة الشرقية . ومن جراء هذا الموقف قامت حركة لاصدار كتب قراءة خاصة للمدارس المقدونية ، وفى هذه الكتب تم استخدام اللغة التى تسير على نهج التقاليد الأدبية المقدونية السائدة آنذاك .

ولم تسمح الظروف التاريخية غير المواتية بان يتم حينذاك اتخاذ شىء أكثر من ذلك بالنسبة لتدعيم اللغة المقدونية الأدبية الى أن صدر كتاب « **المسالة المقدونية** » الذى ألفه « **كرسته ب . مسيركوف** » فى صوفيا فى عام ١٩٠٣ . وهذا الكتاب يمثل رأيا موجزا للتجربة اللغوية القائمة حتى ذلك الحين . ويشير الكتاب ، من ناحية أخرى ، الى الاتجاهات المستقبلية للتطور الثقافى القومى للشعب المقدونى ، وفى اطار هذا التطور يرى المؤلف أن من الواجبات الأولى تشكيل اللغة المقدونية الأدبية .

لقد كان « مسيركوف » حاميا ومحاميا عن شخصية وذاتية اللغة المقدونية الأدبية وعن الثقافة المقدونية وعن الشعب المقدونى فى وقت كان يتم فيه اهمال واغفال هذه الأمور باقصى درجة ممكنة ، وكان من العسير بمكان كذلك العثور على الأدلة والحجج اللازمة لاظهار واثبات الحق .

وفى الفصل الأخير من كتابه تحت عنوان « **بضع كلمات عن اللغة المقدونية الأدبية** » يهتم « مسيركوف » اهتماما خاصا بمسالة اللغة المقدونية الأدبية باعتبارها عنصرا هاما لخلق الوحدة القومية ولنمو الوعى القومى . ويذكر المؤلف أن اللغة المقدونية ، مثلها مثل لغة كل شعب من شعوب العالم ، مفتتة الى عدة لهجات محلية . واللهجات المجاورة للغةالمقدونية تعتبر انتقالا الى لغتى الشعبين المجاورين : البلغارى والصربى . الا أن اللهجات الرئيسية بخصائصها الجوهرية تختلف عن هاتين اللغتين وتبتعد عنهما ، أما اللهجات المجاورة للغة المقدونية فهى

قريبة منها بشكل كبير أكثر من اقتراب اللهجات الرئيسية من اللغتين البلغارية والصربية .

وتاريخ كل لغة قومية يبين أن كل لهجة محلية يمكن أن تتطور وترتفع الى مرتبة اللغة الأدبية ، ولكن لا تقرر ذلك أسباب جمالية أو نسبية أو غير موضوعية وانما تقرره أسباب ذات طبيعة عملية وأسباب تتعلق بالضرورة الموضوعية وبالظروف الثقافية والتاريخية . وهذه العناصر هى التى ستحدد الأسلوب الذى سيتم به تشكيل وصياغة اللغة المقدونية الأدبية . واللغة الأدبية المبنية على أساس اللهجات الرئيسية بخصائصها المتميزة والتى تم اثراؤها عن طريق ثروة المفردات الموجودة بباقى اللهجات ستبين أوضح بيان ذاتيتها وتميزها فى مواجهة اللغتين البلغارية والصربية ، وستثبت ذاتية وتميز القومية المقدونية وستكون ، فى نفس الوقت ، أنسب وسيلة تمهد للوحدة القومية بين المقدونيين .

وخصص « مسيركوف » اهتماما جادا بمسألة أسلوب كتابة اللغة المقدونية ، وهو يبحث هذه المسألة انطلاقا من قواعد علم الفيلولوجيا ومن وجهة النظر التاريخية الشاملة . ويتجلى تاريخ التطور الثقافى لأى شعب من الشعوب عن طريق بحث الأسلوب الاتيمولوجى لكتابة اللغة (أى عن طريق دراسة أصل الكلمات وتاريخها) أو عن طريق أسلوب تاريخى أو مختلط ، أو أخيرا عن طريق أسلوب يقوم على مبادىء علم الأصوات .

وأسلوب الكتابة الاتيمولوجى يناسب اللغات ذات التطور المتصل المستمر التى تمتلك ثقافة عريقة وتاريخا أدبيا طويل الأمد . وكل تطبيق راديكالى لمبدأ أسلوب الكتابة القائم على مبادىء علم الأصوات – على هذه اللغات يسبب اضطرابا كبيرا ويقيم حاجزا لايمكن تجاوزه بين التقاليد القديمة وبين الحداثة وذلك لان اللغة المكتوبة وأسلوب كتابتها يتضمنان العديد من الصفات التى ليست لها مدلولات حقيقية فى الحالة المعاصرة للغة .

وفيما يتعلق باللغة المقدونية المكتوبة وباسلوب كتابتها أقام التاريخ حاجزا لايمكن تجاوزه . وكان المقدونيون من أوائل السلاف الذين تعلموا القراءة والكتابة ويمتلكون أعرق التقاليد الا أن وقوعهم أكثر من مرة تحت وطأة النفوذ الأجنبى عاق تطور هذا التعليم ونموه بل وتوقف فى بعض الأحيان بسبب ذلك . وهكذا لم يكن من العجيب أن يحدث أن يتخلف المقدونيون ، من حيث تعلمهم ونهضتهم القومية

وتعرفهم على ذاتهم ، عن أولئك الذين أخذوا عنهم التعلم . وهذا دفع الى استخدام أسلوب الكتابة القائم على مبادىء علم الأصوات نظرا لأنه يناسب الروح العامة واحتياجات النهضة المقدونية ، وهذه النهضة تنعكس بالتالى على اللغة الأدبية وعلى أسلوب كتابتها .

ومما لاريب فيه أن « مسيركوف » باختياره لأسلوب الكتابة القائم على مبادىء علم الأصوات تشبه بالمصلح اللغوى « فوك كراجيتش » ، وذكر اصلاحاته فى مجال أسلوب كتابة اللغة الصربية على أنها نموذج للاتجاه التقدمى الحديث .

والآراء التى أعرب عنها « مسيركوف » فى كتابه فيما يتعلق بتشييد اللغة المقدونية الأدبية أخذت تجد سبيلها الى التنفيذ فى الفترة التالية للحرب العالمية الأولى ، وذلك بالرغم من أن الشعب المقدونى – فى اثر الحروب البلقانية – كان مقسما ويعيش داخل حدود ثلاث دول بلقانية . ومن الأمور الحاسمة أن المساعى التحريرية من جانب الشعب المقدونى وجدت آنذاك تأييدا متعدد الجوانب بوساطة الحركة القومية فى يوغسلافيا .

وفى الثلاثينيات من القرن الحالى جرت كتابة الأعمال الأدبية باللغة المقدونية . وتتسم هذه الفترة بالتماسك الوثيق بين أفراد الطبقة المثقفة فى مقدونية فى مجال العمل الثقافى المشترك ، وبذلك تم فى عديد من النواحى تحقيق الاتصال اللغوى الذى يعلو فوق كل اللهجات . واصيبت هذه العملية بالابطاء بعد حظر استخدام اللغة المقدونية فى التعليم والصحافة وفى غيرها من مجالات الحياة العامة . بيد أنه لم يكن من الممكن ايقافها ايقافا تاما ، بل تم الاسراع فى اجرائها خلال سنوات الحرب العالمية عن طريق نشاط حركة التحرير الشعبية .

وفى أثناء فترة الحرب صدرت كمية لا بأس بها من المواد المكتوبة باللغة المقدونية تعد على قدر كبير من الأهمية من حيث حجمها . وفى الأيام الأخيرة من الحرب كانت تصدر بانتظام خصيصا لكتائب التحرير بعض الصحف مثل : طريق البندن ، المناضل الشاب ، مقدونية الجديدة وغيرها من الصحف . ومع أن هذه المواد المكتوبة كانت تفتقد الى الوحدة اللغوية الا أنه تم الاعراب فيها عن السعى الى الكتابة على أسس مشتركة . وكل هذه الأمور كانت تمثل من الناحية النفسية اعدادا هاما وتمهيدا طيبا من أجل تقبل الشكل الموحد للغة الأدبية ، الأمر الذى أعان على سرعة حل هذه المسألة فى الأشهر الأولى التالية للاستقلال حينما كان ينبغى فحسب اجراء توحيد معين للغة الأدبية .

وتم اعلان اللغة المقدونية لغة رسمية لجمهورية مقدونية فى أثناء الحرب خلال الجلسة الأولى للمجلس القومى لمقدونية الذى انعقد فى الثانى من شهر أغسطس عام ١٩٤٤ . وتم قبول الأبجدية والموافقة على كتاب « طريقة كتابة اللغة المقدونية » وفقا لاقتراح اللجنة الخاصة باللغة وأسلوب كتابتها . وفى سنوات الاستقلال تطورت اللغة تطورا سريعا بحيث أصبحت لغة أدبية عصرية كاملة التكوين .

وفى الوقت الحالى يتم التحدث باللغة المقدونية فى جمهورية مقدونية الاشتراكية بيوغسلافيا وكذلك فى تلك الأجزاء من الأراضى المقدونية التى تم ضمها الى اليونان وبلغاريا بعد الحروب البلقانية . وتعد اللغة المقدونية ، فى الوقت الحاضر ، هى اللغة الأم بالنسبة لما يزيد على مليون من المقدونيين . وبالاضافة الى ذلك يستخدمها حوالى ثلثمائة ألف شخص من الألبانيين والأتراك الذين يعيشون فى مقدونية ، وذلك باعتبارها لغة التعامل والحياة اليومية .

ويتم فى ألبانيا كذلك التحدث باللغة المقدونية فى بعض القرى التى يتواجد بها مقدونيون . والى عهد قريب كان يوجد فى شمال اليونان العديد من السكان المقدونيين ، ولكن بالتدريج وتحت ضغوط معينة أخذ وجودهم يتضاءل ويندر فى الآونة الأخيرة لأسباب سياسية معروفة .

واللغة المقدونية الأدبية تضم واحدا وثلاثين حرفا ، وهى تقوم على أساس اللهجة الغربية ، أو بعبارة أدق على أساس اللهجات الغربية التى تنتشر وتسود فى المنطقة الواقعة بين مدينة « فيليس » مرورا بمدينة « برليب » وبين مدينة « بيتولا » . وعادة ما يطلق على هذه اللهجات اسم اللهجات الرئيسية المتوسطة ، وتجمعها خطوط مشتركة مع اللهجة الشرقية الأمر الذى يوسع القاعدة الشعبية للغة المقدونية الأدبية . وفيما عدا ذلك فقد دخلت أيضا الخطوط التى تتميز بها اللهجة الشرقية الى اللغة المقدونية الأدبية .

ويمكننا أن نبسط القول فيما يتعلق باللهجات المحلية للغة المقدونية ونقسمها الى مجموعتين كبيرتين : الأولى وتشمل اللهجات المقدونية الغربية ، والثانية وتشمل اللهجات المقدونية الشرقية . وهذا التقسيم الجغرافى يوافق التقسيم الجغرافى لجمهورية مقدونية التى يقسمها نهر « فاردار » الى منطقتين .

وموضع النبرة وطريقة نطق الحروف المتحركة التى لاتوجد عليها

نبرة هما الميزتان اللغويتان الأساسيتان اللتان تختلف فيهما اللهجتان وتسيطران سيطرة خاصة على الاحساس اللغوى المعاصر للمقدونيين .

ولا نود أن نغلق باب الحديث عن اللغة المقدونية دون أن نتطرق بالحديث الى ظاهرة ستثير دهشة القارىء . فمن الحقائق الهامة التى تبرز أمامنا باستمرار على مر الأيام فى هذا العالم المترامى الأطراف أن اللغة باعتبارها الوسيلة العصرية التى تعارف عليها سكان هذا العالم لاستخدامها فى التفاهم فيما بينهم ـ تتعرض بالتأكيد لمختلف أنواع التأثيرات الخارجية على مر الأزمنة والعصور . ومن أنواع هذه التأثيرات الخارجية هى ظهور الكلمات الأجنبية فى لغة من اللغات .

ولاريب ، بل ربما من المؤكد أن من الأسباب الرئيسية لظهور الكلمات الأجنبية فى لغة من اللغات هو اتصال واختلاط شعبين أو أكثر من الشعوب بأسلوب أو بآخر ، ومن أجل كل هذا قرر علماء اللغة أن العنصر الأجنبى ـ وبالتحديد الكلمات الأجنبية ـ موجود بشكل أو بآخر وبدرجات متفاوتة ومتباينة فى أية لغة من لغات العالم تقريبا ، وذلك لأن أية لغة لايمكنها ، مهما بلغت ، أن تعيش بمعزل عن الاتصال بغيرها من اللغات ، أو أن تعيش بمنأى عن مختلف التأثيرات الخارجية .

ونضيف الى ذلك أنه ليست هناك لغة حية نظيفة مائة بالمائة ، أى لغة خالية خلوا تاما من الكلمات الأجنبية . وقد أصبح الآن من المعروف أن كل لغة متطورة أو كل لغة تريد أن ترتدى ثياب العصرية لابد وأن تستعير من شقيقاتها اللغات الأخرى حسب احتياجاتها ومتطلباتها ، أى حسب احتياجات ومتطلبات عصرها الذى تحيا فيه .

وكما يحدث بالنسبة لانتقال الناس من مكان الى مكان فان الكلمات هى الأخرى تنتقل الى كل مكان ، أو بعبارة أصح من لغة الى أخرى . ولاشك أن هناك العديد من العوامل والعناصر التى تحدد مدى ودرجة تعرض لغة من اللغات الى تأثير اللغات الأخرى عليها . ومن هذه العوامل على سبيل المثال لا الحصر ، تجاور الشعوب واختلاف ثقافتها ، وتعرضها للاحتلال والسيطرة الأجنبية سواء أكانت عسكرية أم ثقافية أم اقتصادية .

ولقد كان الشعب المقدونى على اتصال مستمر ودائم بكثير من الشعوب العربية والاسلامية عبر السنين ، كما بينا من قبل ، وذلك بسبب الوضع الجغرافى لمقدونية فى منطقة البلقان . ولذا فان الشعب المقدونى ، مثله فى ذلك مثل معظم شعوب منطقة البلقان ، تعرض

للتأثيرات العربية التى تتمثل فى الكلمات العربيـة الموجودة فى اللغة المقدونية .

ومن الثابت أن هناك عوامل عدة هى التى شكلت الظروف وخلقت الامكانات اللازمة لتسلل وتغلغل الكلمات العربية فى اللغة المقدونية . ورغم أن الكلمات الشرقية ، أى الكلمات العربية والتركية والفارسية ، قد أخذت تتغلغل باعداد كبيرة فى اللغات البلقانيـة ، وخاصة اللغات السلافية البلقانية ومنها اللغة المقدونية ، مع ظهور الأتراك العثمانيين فى هذه المناطق . الا أنه لايمكننا أن ننكر وجود تأثيرات سابقة على هذه الشعوب البلقانية من جانب الشعوب العربية والاسلامية .

ولقد كان الباحثون فى هذا المجال يؤكدون أن الحكم التركى للشعوب البلقانية ، الذى استمر حوالى خمسة قرون ، هو المسئول أولا وأخيرا عن ظهور الكلمات الأجنبية الشرقيـة ، وعلى الأخص الكلمات العربية فى اللغات السلافية وفى اللغات البلقانية بوجه عام . وباتصال الأتراك العثمانيين بهذه الشعوب البلقانية أخذ تأثيرهم على هذه الشعوب يشتد ، وقد تركت هذه التأثيرات آثارا جلية ملموسة متباينة فى هذه المناطق وفى لغاتها وثقافتها .

وكان علماء اللغة ، الى عهد قريب ، يدرجون الكلمات العربيـة الموجودة باللغات السلافيـة البلقانيـة تحت اسم الكلمات التركية أو الكلمات القديمة المهجورة . ومن المفهوم أن سبب هذا الخطأ هو غياب ونقص الأبحاث المتخصصة والدراسـات العلمية الجادة التى تدرس دراسة علمية محايدة موضوع الكلمات العربيـة فى هذه اللغات وتأثير العرب والاسلام بوجه عام على الشعوب البلقانية . ولايفوتنا هنا أن ننوه الى أنه بدأت فى يوغسلافيا ، فى السنوات الأخيرة فحسب ، تظهر محاولات علمية من جانب مجموعة من الشباب المتحمس للعلم وللحقيقة رغبة منهم فى القاء الأضواء الكاشفة على هذا الموضوع .

الا أننى خلال أبحاثى فى هذاالمضمار برهنت ، كما نوهت من قبل، على أنه كانت هناك على مر القرون وقبل تواجد الأتراك العثمانيين فى هذه المناطق اتصالات عديدة تمت بين الشعوب العربية وبين السلاف الجنوبيين ، ومنهم المقدونيين . ومما لاشك فيه أن هذه الاتصـالات والعلاقات قد تركت آثارها على اللغة أيضا .

وقد أثبت بالدليل القاطع ، خلال أبحاثى ، أن هذه الاتصالات بين العرب وبين الشعوب السلافيـة الجنوبيـة ، ومن بينهـا الشعوب

اليوغسلافية ، بدأت منذ عهد الخلفاء الراشدين ولا شك أن هذه الحقائق الجديدة المدعمة بالأدلة التاريخية تدحض النظريات السابقة .

ونضيف الى ما ذكرناه من قبـل أن الأتراك العثمانيين أتـوا الى الأراضى اليوغسلافية وقد جلبوا معهم نظاما اجتماعيـا واداريا جديدا وأحضروا معهم كذلك عناصر الحضارة والثقافة العربيـة الاسلامية . وقامت الامبراطورية العثمانية ، بالفعل ، بدور الوسيط والناشر لعناصر الثقافة العربية الاسلامية بين السلاف فى منطقة البلقان كلها .

وقام بنقل ونشر هذه العناصر كل شخص تقريبـا مثل الجندى والتاجر وعن طريق رجـال الدين والحجاج ، وكذلك عن طريق الولاة والحكام ورجال القلم بوجه عام . ويمكننا أن نؤكد بمالايدع مجالا للشك أن الأتراك العثمانيين ثبتوا عناصر الحضارة والثقافة العربية والاسلامية التى كانت موجودة قبل قدومهم الى الأراض اليوغسلافية وأضافوا عليها الكثير .

وليس من نافلة القول ، فى هذا المضـمار ، أن ننوه الى أن اللغة العربية كانت هى الناقل الرئيسى للثقافة العربية الاسـلامية ووسيلة التعبير الأساسية عنها . ولذا فان تأثيرها على اللغات السلافية الجنوبية ، وبالتالى على اللغة المقدونية ، انتشر واتسع فى كل مكان تقريبا ، وحتى خارج نطاق الدين .

وقد أشار الأديب والباحث اللغوى « بلاجيه كونسكى » الى وجود مثل هذه الكلمات ، وذلك بعد الانتهاء من اعداد القاموس الكبير للغـة المقدونية . وتم احصاء حوالى ثلاثة آلاف كلمة مأخوذة من اللغات العربية والتركية والفارسية . ويؤكد كونسكى أنها لاتزال تستخدم حتى اليوم. وتأكدت من ذلك شخصـيا فى حديثى مع أفراد الشعب العاديين فى مختلف أنحاء مقدونية .

وينوه الباحث اللغوى « بلاجيه كونسكى » الى أن البيئة المقدونية لم تبد أية مقاومة تجاه استخدام مثل هذه الكلمات ، ولم تظهر أية رغبة فى ازالة مثل هذه الكلمات من الشعر والتراث الشعبى على أساس أنها ليست بالغريبة على الآذان . هذا بالاضافة الى أنه نظرا لتعود عامة الشعب على مثل هذه الكلمات وسط أبيات الشعر الشعبى الذى يحب المقدونيون أن يتغنوا به على الدوام فقد أصبحت هذه الكلمـات كالملح والبهـارات للطعام ، أى أنه لا غنى ولا بديل عنها .

ويشير « كونسكى » أيضا الى ظاهرة أخرى برزت فى السنوات التالية للحرب فقد كان الشعراء يركزون على استخدام مثل هذه الكلمات فى أشعارهم بهدف جعلها أكثر شعبية وقبولا لدى السامع والقارىء .

ولكن ما أن اجتاحت الحيـاة العصرية المجتمع المقدونى حتى تم اعتبار مثل هذه الكلمات قديمة ومهجورة ، وتضاءل عددها فى اللغة المقدونية الأدبية ، الا أن بعضها استمر متواجدا فى اللهجات الشعبية بشكل أوضح . ومن الطبيعى أن مثل هذه الكلمات لم تصمد فى العصر الحديث أمام المنافسة الشديدة من جانب الكلمات ذات الأصل السلافى أو العالمى .

وبالرغم من ذلك فقد بقى عدد لاباس به من الكلمـات التركية والعربية فى اللغة المقدونية . وفيما يلى بعض النماذج والأمثلة للكلمات العربية الموجودة فى اللغة المقدونيـة ، وقد تم استخراجهـا من قاموس اللغة المقدونية (الطبعة الثانية فى سكوبلى ١٩٨٦) .

خبر	ABER
هواء	AVA
عـادة	ADET
ثـروة	AZNO
خير	AIR
أعيـان	AJAN
حيوان	AJVAN
خيرات	AJRAT
عقل	AKAL
اقران (جمع قرين)	AKRAN
حـلال	ALAL
حلوى	ALVA
حبس . سجن	APS
حـرام	ARAM
حرامى . لص	ARAMIJA
اصـلى	ASLI

خاطر	ATER
عشق . عشيق	AVIK
بـايت	BAJAT
بقـال	BAKAL
باطة	BALTA
باميـة	BAMJA
بطـال	BATAL
بازلاء . بسلة	BEZEL
بركـة	BERICET
بلبـل	BULJBULJ
وقت . موعد	VAKAT
وقف	VAKAF
والله !	VALA
غيرة	GAJRET
غـربة	GURBET
دقـة	DIKAT
ديـن	DIN
أولاد	EVLAD
(أرباب . جمع ربيب) ماهر . كفء	ERBAP
أسمر	ESMER
زمان	ZAMAN
ظلم	ZULUM
عنـاد	INAT
إشـارة	IVARET
قادر	KADAR
قاضى	KADIJA
قصـاب	KASAP
قسـوة	KASAVET
كبريت	KIBRIT

مخصوص ٠ عن عمد ٠ عن قصد	MAKSUZ
مـال	MAL
مرض ٠ عجز	MARAZ
(معرفة) مهارة	MARIFET
مقـام ٠ لحن	MEKAM
ناحيـة	NAHIJA
نعنـاع	NANA
برتقـال	PORTOKAL
رعيـة	RAJA
راحـة	RAJAT
رذيـل	REZIL
رزق	RIZIK
سـند	SENET
سمسار	SIMSAR
طبلة	TABLA
تعليم عسكرى ٠ تدريب	TALIM
فـرن	FURNA

الحياة الثقافية

الحياة الثقافية للشعب المقدونى تقوم على روح ابداعية ملهمة تاثرت وتشبعت بالتراث والتقاليد العريقة ٠ وقد تجلى التقدم الثقافى للشعب المقدونى طوال الأحداث المثيرة النابضة بالحياة لتاريخه الطويل ٠ وازدادت الثقافة المقدونية تقدما وتطورا جنبا الى جنب مع نموها وتطورها الداخلى ومع اكتسابها للثراء والتنوع الناجمين عن اتصالها بمصادر الثقافة الخارجية ، وتعددت كذلك جوانب الجمال الفنية فيها واتخذت قيمها طابع الدوام ٠ ومن هنا يمكن القول بأن مقدونية لا تعيش على تاريخها وماضيها فحسب ، وهذا الماضى لا يعوق تقدمها أو يكبله بالأغلال ، وانما يكسب حاضرها المشرق مضمونا عميقا وقيمة جديدة ٠ وعلى هذا الأساس تدخل مقدونية ساحة الثقافة العالمية وهى مزودة باستقلالها ومسلحة بثقافتها الناهضة ٠ ويحضرنى فى هذا المقام القول المأثور للثائر المقدونى المعروف « جوتسه دلتشف » الذى قال : « لا بد أن ينظر الانسان الى العالم على انه ليس الا ميدانا للتنافس الثقافى بين الشعوب » ٠ وهذا هو الخيار الوحيد ، فى الوقت الحالى ، أمام الانسانية اذا أرادت أن تعيش فى سلام مشرف ٠

واضطرت الظروف التاريخية والسياسية والحظ العاثر المقدونيين الى الانطلاق من البداية فى كل مجال ، وذلك بالرغم من انهم يملكون تاريخا ثقافيا عريقا ولهم أعمال فنية عظيمة خالدة تعتبر من أكثر الأعمال تميزا فى تاريخ الحضارة الانسانية ٠ وقد أشرنا من قبل الى ما حدث فى مجال اللغة المقدونية من تناقض تاريخى ، فقد تم استخدام لغة السلاف المقدونيين من أجل وضع حجر الأساس للثقافة المقدونية التى انتشرت فيما بعد بين السلاف المقدونيين الآخرين وبين جيرانهم ، ومع ذلك لم تحصل

اللغة المقدونية على فرصتها فى أن تصبح لغة أدبية معترفا بها الا فى القرن العشرين .

وقد أخذت هذه اللغة تحتل مكانها اللائق بها بين مجموعة اللغات السلافية وأصبح العديد من المتخصصين الأجانب فى اللغات السلافية يهتمون اهتماما كبيرا ببنيتها ومصادرها . فقد سجل الأستاذ الانجليزى « ريجنالد دى براى » فى كتابه الذى طبع فى لندن كل السمات الأساسية للغة المقدونية فى سبعين صفحة . وألف الأستاذ « هوراس لونت » من جامعة هارفارد كتابا فى نحو وقواعد اللغة المقدونية يحوى نصوصا أصلية وقاموسا للكلمات . كما أن الباحث الروسى « بيرنستاين » كتب دراسة عن اللغة المقدونية وعن تطورها . وتم وضع كتب وكتابة أبحاث عن اللغة المقدونية فى عدد من مراكز دراسة اللغات فى فرنسا والاتحاد السوفيتى وبولندا وألمانيا الغربية وبريطانيا والنمسا ورومانيا وايطاليا وتشيكوسلوفاكيا والمجر وغيرها من البلاد . هذا علاوة على نشر عدة قواميس لغوية باللغات الروسية والبولندية والتشيكية والسويدية والصينية واليونانية .

وأقامت جامعات أجنبية عديدة أقساما لتدريس اللغة المقدونية بها ، ومنها معهد اللغات الشرقية بنابلس وجامعة برادفور بانجلترا وجامعة مارتن لوثر فى هال وجامعة كرايوفا فى رومانيا وجامعة موسكو وبراج كما تم الاتفاق على فتح فصول مستديمة لتعليم اللغة المقدونية فى فيينا وبكين واستانبول والسويد والولايات المتحدة الأمريكية وكندا .

وينعكس الاعتراف الرسمى باللغة المقدونية فى انعقاد الحلقة الدراسية للغة المقدونية وللأدب والثقافة المقدونيين ، وهى تنعقد سنويا فى شهر أغسطس فى « سكوبلى » و « أوهريد » وتجمع عددا كبيرا من المهتمين بالعلوم السلافية من مختلف أنحاء العالم . وقد بدأت هذه الحلقة فى عام ١٩٦٧ وحضرها عشرون دارسا من ١٢ دولة . وحينما تشرفت بحضورها فى عام ٨٦ كان يحضرها حوالى ١٤٥ دارسا من حوالى أربع وعشرين دولة .

وتقدم هذه الحلقة الدراسية دروسا فى تعليم اللغة المقدونية للمبتدئين والمتوسطين والمتقدمين ، كما تقدم مجموعة شاملة من المحاضرات المتعلقة بالتطور التاريخى للغة المقدونية وبالأدب المقدونى القديم والحديث وبالأدب المقدونى الشعبى وبتاريخ مقدونية ، كما تقدم محاضرات أخرى عن الفن والأنساب والموسيقى والعمارة وما الى ذلك من موضوعات .

وبعد الاستقلال أصبحت الثقافة المقدونية ثقافة قومية فى ظل ظروف السلام والازدهار وشكلت جزءا لا يتجزأ من ثقافة الشعوب اليوغسلافية .

والانجازات التى تتحقق فى مجال الثقافة المقدونية يوما بعد يوم تثير الاعجاب من حيث تنوعها الكبير ومغزاها التاريخى وجودتها الفنية ، وهى كلها أمور تجعلها تقف على قدم المساواة مع تلك الثقافات الخاصة بأكثر البلدان تقدما .

وفى ظل النهضة الثقافية أصبح التعليم قاعدة ثابتة للانطلاقة القومية المقدونية . وتنفق جمهورية مقدونية من ٦ الى ٨٪ من الدخل القومى على التعليم ، وهى من أعلى النسب على مستوى أوروبا . ولكن النفقات تهون ما دامت تقدم نتائج باهرة . وأصبح التعليم الزاميا ومجانيا لمدة ثمانى سنوات ، وهذا أمر كان يتعذر تخيله على الاطلاق فى الماضى . وتوجد مدارس ثانوية وفنية متعددة ، كما أن بعض المدارس تدرس باللغات الالبانية والتركية والصربية .

وجامعة « سكوبلى » التى أطلق عليها فيما بعد اسم جامعة تشيرينو ميتوديا ، مفتوحة أمام جميع أولئك الذين يرغبون فى تلقى العلم بها . وهى تشمل ٢٩ كلية وعشرة معاهد علمية وتسع مدارس عليا ، ويلتحق بها حوالى تسعة وأربعين الف طالب . وهى تعد من أكبر الجامعات اليوغسلافية وتلى جامعتى بلغراد وزغرب من حيث عدد طلابها . وقد حصل عدد من الأساتذة المصريين على درجة الدكتوراة من كلية الزراعة التابعة لهذه الجامعة .

وفى عام ١٩٧٩ تم انشاء جامعة أخرى فى مدينة « بيتولا » ، وهى تضم تسع كليات ومعاهد علمية . وفى الآونة الأخيرة أصبحت الكليات والمعاهد العلمية التابعة لهاتين الجامعتين مراكز هامة للبحث العلمى المخطط التى تحقق نتائج طيبة فى مجالات الاقتصاد والعلوم والثقافة والصحة وغيرها من المجالات .

وعدد كبير من خريجى هاتين الجامعتين ومن الحاصلين على الدكتوراة تركوا قاعات المحاضرات الجامعية لكى يساهموا فى الحياة العامة فى جمهورية مقدونية ولكى يعملوا فى مجالات البحث العلمى أو التدريس أو الأدب أو الصحافة . وبذلك أخذت قدراتهم المهنية والابداعية تنقل سمعة العلم والثقافة والفن المقدونى الى خارج الحدود المقدونية ، وتقدم انجازات جديرة بالذكر فى العلوم الطبية وفى الرياضيات وفى غيرها من المجالات .

ومن خلال هذه النهضة الثقافية النابعة من احتياجات التطور السريع للمجتمع المقدونى ككل ، أخذ علم التاريخ المقدونى يعود الى الماضى لكى يحلله تحليلا علميا دقيقا ، ونجح فى اعداد تاريخ للشعب المقدونى يكشف

الزيف وينتزع القشور الكاذبة عن تاريخ هذا الشعب . وهى قشور تستخدمها الدعاية الأجنبية فى أنحاء كثيرة من العالم على انها ادلة علمية تثبت بها حق الغير فى الاستحواذ على شعب وعلى منطقه . وتمت ازاحة القشور الزئفة ونفض الغبار بحيث تبزغ وتسطع الحقيقة فى ضوء النهار . ولا شك أن هذا التاريخ يعيد الأهمية الحقيقية الصادقة الى الأحداث والى الشخصيات ، ويبرز من جديد تلك العناصر التى توضح خصائص التميز المقدونى التى تم حجبها وتحريفها وتشويهها .

وفى فبراير من عام ١٩٦٧ تم تاسيس أكاديمية العلوم والفنون التى تشبه أكاديمية البحث العلمى فى مصر من حيث نشاطها وأغراضها . وكان انشاء هذا الجهاز العلمى الريادى نتيجة طبيعية واعترافا ضمنيا بالمستوى المتقدم الذى وصلت اليه العلوم والفنون فى هذه الجمهورية . وبلغ أعضاء الأكاديمية ٦١ عضوا ، وهى تنظم عددا كبيرا من المؤتمرات العلمية والأشكال الأخرى للنشاط العلمى . ويتخذ بعض هذه المؤتمرات والاجتماعات طابعا دوليا ، ولذا فليس من الغريب أن يشترك فيها كثير من العلماء الأجانب البارزين . وتنشغل الأكاديمية فى الوقت الحالى باعداد بحث موسوعى عن مقدونية وتاريخها وثقافتها وتقدمها . وهناك مشروعات أخرى فى مرحلة الاعداد ومنها المصطلحات العلمية والفنية المقدونية وأطلس المفردات والانثروبولوجيا الوصفية للسلاف الجنوبيين والهجرات القبلية وغير ذلك من المشروعات التى سيتم نشرها . وتتبادل الأكاديمية العديد من الأبحاث والدراسات والمطبوعات الأخرى مع الأجهزة والمؤسسات العلمية المماثلة فى البلاد وخارجها .

وعند وضع أسس الثقافة المقدونية الحديثة كان الانسان المقدونى يعبر عن ذاته ويقويها ويعززها ، وكان يقول الحقيقة عن نفسـه بصدق وبصراحة مطلقة معبرا عما تم تجاهله واغفاله بواسطة أولئك الذين تحدثوا عنه فى الماضى . والثقافة القومية المقدونية تتوق الى التعبير عن نفسها وتدعيم ذاتها ، وهى فى هذا المضمار تبدى اصرارا ومثابرة فى التغلب على كل الصعاب من أجل التوصل الى حقائق هذا العصر . وهذه الثقافة تعى نفسها وتثق بمنجزاتها ، وهى فى كل يوم تقدم القيم القومية والعالمية . ونظرا لانفتاحها على الثقافات الأخرى فهى تجد بسهولة طريقها من أجل التقدم السريع .

والأدب المقدونى ظاهرة فذة وفريدة فى نطاق النهضة العامة للثقافة المقدونيـة ، ولذا فاننا سنخصص له بابا منفصلا لعرضه وتحليله . وحسبنا أن نشير هنا الى أن الأدباء المقدونيين ، منذ الحرب العالمية الثانية ،

انتجوا أعمالا أدبية تعبر عن أفـكار الانسـان المقدونى وعن أحاسيسه ومشاعره . وصوروا أيضا التحركات المعاصرة فى بلادهم ونبشوا الماضى لكى يسلطوا الأضواء على الأحداث والشخصيات التاريخية ويمنحوها القدر الصحيح من الأهمية . وتمت ترجمة العديد من هذه المؤلفات الى كثير من اللغات الأجنبية وهذا يدل على أنها تتجاوز الحدود اليوغسلافية وأنها تأخذ مكانها المناسب فى ثقافة الشعوب الأخرى حيث تلقى الاعتراف والتقدير . ويصدق هذا ، الى حد كبير ، على الشعر المقدونى المعاصر الذى توصل الى نوع من الاندماج والتكامل مع الشعر الأوروبى . وهو يبرز الرقة الشديدة للتعبير الشعرى الذى تسيطر عليه اللغة المقدونية ، ويظهر أيضا موهبة الشعراء المقدونيين .

والشعب المقدونى يحب أن تترجم أشعاره الى مختلف لغات العالم . وبالفعل هناك ترجمات لمقتطفات ومختارات من الشعر المقدونى الى اللغات الانجليزية والايطالية والفرنسية والمجرية والروسية والتشيكية والبولندية واليونانية وغيرها من اللغات .

وفى عـام ١٩٨٤ ترجمت الى اللغة العربية « مختـارات من الشعر المقدونى المعاصر » الذى يعد أول كتاب من نوعه فى هذا المجال وصدر عن الهيئة المصرية العامة للكتاب بالقاهرة . وعرضت فيه النماذج الشعرية التى أبدعها خمسة وعشرون شاعرا مقدونيا منذ بداية القرن العشرين وحتى الوقت الحالى ، ابتداء من « كوتشوراتسين » و « بلاجيه كونسكى » و « سلافكو يانيفسـكى » وانتهـاء « بأتاناس فانجيلوف » و « يوردان بلافنش » .

ولا شك أن هـذه المختارات الشعرية تمهد الطريق أمام الشعر العربى ككل للانفتاح على الشعر المقدونى بيوغسلافيا ولتبادل الخبرات والتأثيرات بينهما فى مجال الأفكار والموضوعات . كما أنها تمثل مادة خصبة للدراسات المقارنة بين الأدبين . ولا يمكن أيضا اغفال أن صدور هذه المختارات هو ثمرة من ثمار التعاون البناء بين مصر ويوغسلافيا فى المجالين الأدبى والثقافى . وقد توج هذا التعاون بصدور « مختارات من الشعر المصرى الحديث » الذى طبع فى مقدونية فى عام ١٩٨٤ .

ومن المؤكد أن أفضـل دليل على الجو الأدبى الفريد الذى يسود مقدونية هو أنه تنعقد بها عشرة مهرجانات أدبية وثقافية كل عام . ومن الطريف أن الشعر يحتل مكانا رئيسيا ممتازا فى هذه المهرجانات وعلى رأسها « مهرجان ليالى الشعر بستروجا » الذى ساهم مساهمة عظيمة فى ترجمة وتدعيم الشعر المقدونى واتصاله بالشعر العالمى بوجه عام .

وينعقد هذا المهرجان الشعرى فى أواخر اغسطس من كل عام فى « ستروجا » التى تعد مدينة الشعر والأنغام والأحلام ، وهى تقع فى أقصى الجنوت الغربى من مقدونية ، على الحدود الشمالية ليوغسلافيا . وهى تبعد حوالى مائتى كيلو مترا عن العاصمة المقدونية « سكوبلى » ، وحوالى ٦٠٠ كيلو مترا عن العاصمة اليوغسلافية بلغراد . وقد هيأت الطبيعة « لستروجا » مرابع الجمال فى بحيرتها ونهرها وفى الجبال والمروج والغابات ، وهى بهذا الشكل تثير الخيالات الابداعية وتمنح الالهامات الشاعرية . وتطل « ستروجا » على بحيرة « أوهريد » ذات المياه الصافية الهادئة .

ويحلو لبعض المقدونيين أن يطلقوا على « ستروجا » لقب « فينيسيا المقدونية » أو المدينة ذات المائة جسر كما كان الرحالة القدماء يسمونها . وفى وسطها يتدفق الآن نهر دريم الأسود فى بطء ووقار . والأهم من كل هذا أن « ستروجا » هى مسقط رأس الشاعرين الأخوين «ميلادينوف» اللذين سنتحدث عنهما بالتفصيل فى القسم الخاص بالشعر المقدونى . وفى عام ١٩٦٢ تم عقد أمسية شعرية فى « ستروجا » تكريما للذكرى المئوية لرحيل الأخوين « ميلادينوف » وفى هذه الأمسية تمت قراءة القصيدة المشهورة « لقسطنطين ميلادينوف » : « الحنين الى الجنوب » ثم تلا الشعراء المقدونيون أشعارهم .

ومن هنا تولدت فكرة اقامة مهرجان شعرى سنوى يشترك فيه الشعراء من جميع أنحاء يوغسلافيا احياء وتخليدا لذكرى هذين الشاعرين والمناضلين الكبيرين ، وفى عام ١٩٦٥ بدأ الشعراء من الدول الأخرى يشتركون فى هذا المهرجان الشعرى الذى منذ ذلك الحين اكتسب طابعا دوليا . ويستغرق المهرجان ستة أيام ، أربعة أيام فى « ستروجا » ويوما فى احدى المدن المقدونية واليوم الأخير فى « سكوبلى » حيث ينتهى المهرجان بلقاء شعرى .

وتبدأ مراسم افتتاح المهرجان فى الساعة السادسة من مساء اليوم الأول حيث يتم اشعال الشعلة الموجودة أعلى مبنى « دار الشعر » ويستمر لهيبها مشتعلا طيلة أيام المهرجان . ثم يتم النفخ فى الأبواق ايذانا بافتتاح المهرجان . وفى الحديقة الواسعة التى تقع على يمين المدخل والتى تطل على نهر دريم الأسود يقف الجمهور الكبير الذى جاء لكى يستمع الى كلمات الافتتاح الرسمية والى مقاطع شعرية يقرأها بعض الممثلين والممثلات الذين يحسنون قراءة الشعر .

وبعد ذلك يدخل الجمهور الصالة الأمامية الموجودة « بدار الشعر » حيث يشاهد معرضا لدواوين الشعر بمختلف اللغات العالمية . وقد أصبح فى هذا المعرض عدد كبير من دواوين الشعر العربية وذلك بعد تزايد الاهتمام بهذا المهرجان فى السنوات الاخيرة وبالتالى تزايد مشاركة الشعراء العرب فى هذا المهرجان . وبعد مشاهدة معرض الكتب يدخل الجمهور القاعة الكبيرة حيث يتم بشكل رسمى افتتاح المهرجان بالقاء كلمة من رئيس المهرجان وأخرى من رئيس مدينة « ستروجا » . ثم يتتابع الشعراء الذين يقرأون قصائدهم بلغتهم الأم ثم تقرأ الترجمة .

وفى كل عام يقدم المهرجان ندوة تعالج احدى المشاكل الراهنة والمتميزة فى حقل الشعر . وفى السنوات الماضية قدم المهرجان ندوات عن الشعر والتقاليد ، الشعر ووسائل الاتصال ، امكانيات وأجناس الابداع الشعرى اليوم ، مسئولية الشاعر تجاه نفسه وتجاه العالم ، مستقبل الشعر ، الشعر الملتزم ، الشعر والتجديد ، العودة الى الشعر ، الاتجاهات الحالية فى الشعر ، الشعر أثناء المقاومة والثورة والحرية ، الحركات الحالية فى أشعار الدول المشتركة ، لغة الشعر فى الدفاع عن اللغة الانسانية ، ماذا يستطيع الشعر أن يفعل ؟ ، الشعر بين الريف والحضر ، الشعر والزمن باعتباره حوارا بين الثقافات والحضارات ، وغيرها من الموضوعات التى ان دلت على شىء فانما تدل على جدية الحوار وعلى الفائدة الكبيرة التى تعود من مثل هذه الندوات .

وفى احتفال مهيب بكنيسة القديسة صوفيا فى « أوهريد » يتم الاحتفاء بالفائز بجائزة « الاكليل الذهبى » ، وهى الجائزة التى يتم منحها فى كل عام لأحد الشعراء البارزين فى العالم . وأولا يتم التعريف بالشاعر وبأعماله وشعره ثم يقرأ الشاعر قصائده أمام الجماهير التى تتدفق خصيصا لحضور هذا الاحتفال ، كما يتم نقله على شاشات التليفزيون اما مباشرة أو فيما بعد . ويعقب ذلك حفل موسيقى ثم حفلة لتكريم الشاعر الفائز .

ومن العروض المتميزة بمهرجان « ليالى الشعر بستروجا » اللقاء الشعرى الذى يقام على جسر نهر دريم الأسود ، وعند بداية مصبه فى البحيرة . ويتحول الجسر الى مسرح كبير يزينه ديكور رائع وتسلط عليه الأضواء الكاشفة . ويجلس الشعراء على خشبة المسرح بينما تقف الجماهير فى مواجهة المنصة وعلى ضفتى نهر دريم ، والبعض يقف فى زوارق ملونة يغالب التيار أو يتشبث بالحواف الصخرية للنهر . وتستمر الجماهير على هذا الحال لمدة لا تقل عن ثلاث ساعات دون كلل أو ملل وهم يستمعون

الى قصائد مختلفة للشعراء من مختلف دول العالم . ويتم هنا تسليم **جائزة « الأخوة ميلادينوف » عن أحسن ديوان شعرى مقدونى** .

وجمع المهرجان مجموعة متميزة من الكتب والنشرات والصور والأفلام ، ويتم حفظها كلها فى دار للمحفوظات حيث تكون فى متناول المعجبين بالشعر والدارسين . كما توجد المكتبة الدولية للشعر وهى تحتوى على كتب ودواوين كل المشتركين فى المهرجان . وتتزايد كمية هذه الكتب كل عام لأن المشتركين يقدمون ويهدون مؤلفاتهم الى هذه المكتبة .

وفى عام ١٩٨٤ احتفل المهرجان بالشعر المصرى وخصص له أمسية كاملة . وقد جاءت هذه الأمسية نتيجة لصدور كتاب « الشعر المصرى المعاصر » فى مقدونية ، وهو يحوى قصائد لاثنين وعشرين شاعرا مصريا معاصرا . وقد مثل مصر فى هذه الأمسية : د. عز الدين اسماعيل وسعد درويش وملك عبد العزيز وفاروق شوشه ومحمد أبو سنه وأنا . وقدم لهذه الأمسية الشاعر فلادا أوروشيفيتش الذى تحدث عن عراقة وأصالة الشعر المصرى وعن الجهد المبذول فى الترجمة ، ثم ألقى الشعراء المصريون قصائدهم التى حازت اعجاب المقدونيين .

وبعد مهرجان « ستروجا » مباشرة **ينعقد مؤتمر المترجمين فى مدينة « تيتوفو »** الذى يبحث ويعالج الترجمة ومشاكلها بواسطة مجموعة كبيرة من المترجمين من مختلف أنحاء العالم . وهذا المؤتمر يؤكد أهمية الترجمة كجسر بين ثقافات الشعوب المختلفة . ويقدم هذا المؤتمر عدة جوائز لأفضل الكتب المترجمة فى مقدونية ولأفضل ترجمة من الأدب المقدونى ولأفضل الذين قدموا اسهامات هامة فى التعريف بآداب الشعوب وثقافاتها . وفى عام ١٩٨٦ شرفنى هذا المؤتمر بحصولى على جائزة أفضل ترجمة من الأدب المقدونى عن ترجمتى لديوان « أبو الهول » للشاعر المقدونى ترايان بتروفسكى ، وكان هذا الديوان قد صدر فى أوائل عام ١٩٨٦ عن الهيئة المصرية العامة للكتاب .

ومنذ عام ١٩٦٦ يوجد فى مقدونية مهرجان باسم **«ستروجا الصغيرة»** وفيه يلقى الشعراء الشباب من جميع أنحاء يوغسلافيا قصائدهم أمام جماهير الشباب والكبار أيضا . وفى مدينة « تيتوف فيليس » ينعقد المهرجان الثقافى التقليدى الذى يسمى **« لقاءات راتسين »** نسبة الى رائد الشعر المقدونى « كوتشو راتسين » ، وقد بدأ هذا المهرجان منذ عام ١٩٦٤ . ومنذ عام ١٩٥٣ تستضيف مدينة « أوهريد » مهرجانا مخصصا لأعمال الشاعر المشهور « جريجور برليتشيف » ويطلق عليه اسم **« لغة برليتشيف »** .

ومنذ عام ١٩٦٨ ينعقد فى قرية « رافيش » **« مهرجان كارامانوف »** الذى يحيى ذكرى الشاعر المناضل « الكسندر كارامانوف » . وينعقد فى مدينة « كومانوفو » فى كل عام المهرجان الأدبى باسم **« بودكوزياك »** ، وقد تم تنظيمه لأول مرة فى عام ١٩٦٤ . وتعقد مدينة « كيتشيفو » مهرجان **« كوريرتشه »** . ومنذ عام ١٩٧٥ يتم فى « دويران » عقد **« مهرجان دويران للصداقة »** . ومنذ عام ١٩٦٥ يتم فى اطار المهرجان اليوغسلافى للرواد تنظيم **مهرجان لشعراء الأطفال** كل سنتين .

وما دمنا فى معرض الحديث عن الثقافة والأدب . **فلا بد أن نتطرق بالحديث الى المخطوطات الشرقية الموجودة بدار الكتب القومية وبمكتبة الجامعة « بسكوبلى »** . ونحن نعلم أن هناك عددا لا بأس به من العلماء والأدباء المسلمين اليوغسلاف ألفوا باللغة العربية كتبا فى مختلف الموضوعات والمجالات ومنها علوم القرآن والتفسير والحديث والفقه والعقائد والشريعة والتصوف ومختلف علوم الدين الاسلامى واللغة العربية . ومن المؤسف أن هذه المؤلفات ظلت فى طى النسيان بسبب عدم وجود المتخصصين فى هذا المجال أو المهتمين به .

وقد جاءت هذه المخطوطات فى الوقت الذى كانت فيه الامبراطورية العثمانية مسيطرة على بعض المناطق اليوغسلافية وكانت اللغة العثمانية هى اللغة الرسمية آنذاك بينما كانت اللغة العربية تستخدم . فى الأغلب ، كوسيلة للاتصال العلمى ، هذا علاوة على استخدامها فى الشئون والأغراض الدينية . وفى هذا المضمار استحوذت اللغة العربية على دور ريادى على أساس أنها لغة الاسلام . وكان الأدباء من المسلمين اليوغسلاف يعتبرون أن من أهم واجباتهم أن يعلموا أولادهم ولو قليلا من اللغة العربية حتى يسهل عليهم قراءة الكتب الدينية . وهكذا ظهرت أجيال من المسلمين اليوغسلاف تجيد اللغة العربية ، وبرز منهم فيما بعد علماء وأدباء ألفوا كتبهم باللغات العربية والتركية والفارسية ، وهى اللغات التى يطلقون عليها فى يوغسلافيا اسم « اللغات الشرقية » .

وهذه المجموعة من المخطوطات المكتوبة باللغات الشرقية تعد من أكبر المجموعات الموجودة بالمكتبات اليوغسلافية . **وتمثل المخطوطات المكتوبة باللغة العربية العدد الأكبر من المخطوطات الموجودة بدار الكتب القومية « بسكوبلى »** ، اذ يبلغ عددها حوالى ألف وخمسمائة مخطوطا ، وتليها فى العدد المخطوطات المكتوبة باللغة التركية ، بينما عدد المخطوطات المكتوبة باللغة الفارسية لا يتجاوز العشرة مخطوطات . وعدد وفير غير قليل من بين هذه المخطوطات مكتوب فى الأراضى اليوغسلافية أو منسوخ بها . ويمكن

القول بأن عددا من هذه المخطوطات الأخيرة يعد مخطوطات نادرة أو فريدة .
ونظرا لأن دراسة وتحقيق التراث الأدبى اليوغسلافى المكتوب باللغات الشرقية مازال فى أدواره التمهيدية ، فتحقيق التراث مازال فى مرحلة تسجيل المصادر الأولية بالنسبة لهذا النوع من الأدب ، فاننا نعتقد انه من الضرورى أن نشير الى بعض من هذه المخطوطات الهامة التى تحتفظ بها دار الكتب القومية « بسكوبلى » .

ومن أهم المخطوطات المكتوبة باللغة العربية ذلك المخطوط الذى يحمل عنوان « علم الأصول » ، وقد كتبه الأديب البوسنوى المشهور حسن كافى الأقحصارى (١٥٤٤ – ١٦١٥) . وهو عالم بصير بمسائل الفقه ضليع فى أصوله النحوية والصرفية وله قدم راسخ فى علم أصول الدين . وبالرغم من أنه ليس مخطوطا فريدا الا أنه يمثل نموذجا نادرا لهذا المؤلف . ومن المؤكد أن هذا المخطوط سيساهم فى دراسة أعمال هذا العالم الجليل والأديب المعروف ، خاصة وأن حالة هذه المخطوطة جيدة وبالتالى ستسهل قراءة هذا المؤلف المتعلق بالشريعة الاسلامية .

والمخطوط الثانى كتبه « محمد موستيش الاميك السرائى » (أى من مدينة سرايفو) ، وهو على نحو ما معاصر للأديب «حسن كافى الأقحصارى» اذ أنه قد توفى فى عام ١٦٣٥ . وهو مشهور بمؤلفاته ومعاجمه التى تصف الكتب والمخطوطات وتعرف بها ، واسمه موجود فى أقدم معاجم الامبراطورية العثمانية . وقد توفى هذا العالم فى صدر شبابه بسبب حياته العسيرة ، ومع ذلك فقد نجح فى كتابة العديد من المؤلفات وعلى الأخص فى مجال علم المنطق . ومؤلفه المخطوط والموجود « بسكوبلى » يمثل تعليقا على أحد كتب المنطق ، وهو المجال الذى كان الكاتب يهتم به .

والمخطوط التالى مكتوب فى عام ١٧٤٧ بيد الكاتب «أحمد بن حسين الوستارى » وعنوانه « شرح خطبة مختصر المعانى » ، ويتعلق بعلوم اللغة . أما الكاتب « أبو بكير بن سيف الحق » من مدينة « ترافنيك » فقد كتب مخطوطة كتاب « النور النبوى فى شرح مقدمة الغزناوى » . وكان هذا الكاتب يعيش فى مدينة ترافنيك فى القرن الثامن عشر وكتب مخطوطته الفريدة هذه فى منتصف القرن . والشاعر « أحمد حاتم » كتب تعليقا مطولا باللغة العربية على احدى قصائده الصوفية الطويلة ، ويصل عدد صفحات هذا التعليق الى ٢٣٠ صفحة . وكان من المعروف أنه توجد منه نسخة وحيدة موجودة فى استانبول .

ويوجد أيضا بمكتبة عيسى بك « بسكوبلى » ، وهى فى الوقت الحالى تتبع الجماعة الاسلامية المقدونية ، عدد كبير من المخطوطات باللغة العربية

ينتظر جراة المحققين والناشرين . وعمر بعض هذه المخطوطات يصل الى خمسمائة أو ستمائة سنة ، ومنها – على سبيل المثال لا الحصر – مخطوطة كتبها الجوينى وعنوانها « كتاب النظام فى أركان الاسلام » . وهناك مخطوط آخر لأبى حامد الغزالى بعنوان « كتاب قواعد العقائد » المكتوب فى عام ٥٥٠ هجرية ، ١١١٥ ميلادية . وتوجد مخطوطات مماثلة وعلى الأخص فى مجال العلوم الفقهية .

ومنذ الحرب العالمية والفن المسرحى يحقق فى مقدونية مستوى فنيا وحرفيا رفيعا . من أجله سنفرد فصلا خاصا للحديث عن الأدب المسرحى وعن كتابه وأعمالهم المتميزة التى جعلت المسرح المقدونى يحصل على عديد من الجوائز فى أهم المهرجانات المسرحية فى يوغسلافيا ، ويستحوذ أيضا على كمية من الاطراء خارج يوغسلافيا . وتوجد بمقدونية فى الوقت الحالى عشرة مسارح محترفة . ويوجد بمدينة « سكوبلى » المسرح القومى المقدونى الذى يشمل ثلاث شعب : الدراما والأوبرا والباليه ، والمسرح الدرامى وبه فرقة للشباب ومسرح للعرائس ، ومسرح القوميات الذى يعرض للفرق والمسرحيات باللغتين الألبانية والتركية . كما توجد فرق مسرحية محترفة أخرى فى مدن بيتولا وبرليب وشتيب وستروميتسا وكومانوفو . وقدمت كل المسارح المقدونية المحترفة فى موسم عام ٧٨ – ١٩٧٩ حوالى ٢١٧٤ عرضا مسرحيا أمام متفرجين بلغ عددهم حوالى ٦٩٩ ألف شخص .

وللهواة أيضا أنشطة مسرحية لا بأس بها وهى تتزايد يوما بعد يوم . ويوجد بالمدن مثل تيتوف فيليس وتيتوفو وكفادارتسى ونيجوتينو وغيرها من المدن مسارح للهواة وحوالى ٢٠٠ فرقة مسرحية للهواة . وفى عامى ٧٨ و ١٩٧٩ قدمت مسارح الهواة ١٨٩ حفلة شاهدها أكثر من ٦٣ ألف متفرج .

وغالبا ما تقدم المسارح المقدونية المحترفة المسرحيات التى يكتبها كتاب المسرح المقدونيون وكذلك أفضل المسرحيات التى كتبها الكتاب اليوغسلاف ، وبالاضافة الى ذلك يتم تقديم العديد من المسرحيات الكلاسيكية العالمية لشكسبير وموليير وجوجول وجوركى وشيلر وتشيخوف وشيريدان ودوستويفسكى وشو وميلر وكتايف وأونيل وبريستلى ولوركا وبريخت وبيكيت وأرسطوفان وبولجاكوف وجيلروى وبيرانديلو ووايز وغيرهم من الكتاب .

وعلى خشبة المسرح القومى وحده – وهو من أقدم المسارح فى مقدونية فقد تم تأسيسه فى عام ١٩٤٥ – تم تقديم ما يزيد عن ١٥٠ مسرحية لأول مرة . وبدأ العمل بالمسرح الدرامى منذ عام ١٩٤٦ ، أولا كمسرح

للعرائس يقدم عروضا للصغار وللنشء ثم بدأ يقـــدم عروضا للكبار ، وقدم هذا المسرح فى الثلاثين سنة الأخيرة حوالى ١٦٠ مسرحية ، منها اثنتان وستون مسرحية درامية . كما يتم تقديم المسرحيات الكلاسيكية ومسرحيات اللامعقول .

وقد حصل كل من المسرح القومى والدرامى على الكثير من الجوائز فى « **مهرجان ستريا المسرحى** » الذى يقام فى مدينة نوفى ساد ، وهو أشهر مهرجان مسرحى يوغسلافى . وجميع المسارح المقدونية ، وعلى الأخص المسرح القومى ، حصلت على كثير من التقديرات والاطراء من أجل ماتقدمه من فن رفيع فى جولاتها خارج البلاد وعلى الأخص فى موسكو ولينينجراد وكييف . وكانت هناك زيارات متبادلة بين الفرق المسرحية المقدونية وبين فرق مسرحية من الاتحاد السوفيتى وبولندا وتشيكوسلوفاكيا وتركيا وألبانيا وبلغاريا ، كما تمت استضافة الفرق المسرحية المقدونية فى ايطاليا وفرنسا وفنزويلا وفى دول أخرى .

ولم يكن هـــذا النجاح ممكنا بدون مجموعة كاملة من الممثلين والمخرجين والفنيين وكتـــاب المسرح وكل العاملين الآخرين بالمسرح . ومن أجل رفع شأن الفن المسرحى الدرامى بـدأ عقد **المهرجان المسرحى** « **فويدان تشرنو درينسكى** » فى مدينة « برليب » منذ عام ١٩٦٣ . وهذا الحدث يقدم أفضل مسرحية مقدونية فى العام السابق .

وقد تم انشاء فرقة الأوبرا المقدونية فى عام ١٩٤٨ ، وخلال ثلاثين سنة من انشائها قدمت ما يزيد على خمسين عرضا على خشبة المسرح ، وقد وضع موسيقاها مؤلفون يوغسلاف وأجانب . وهذه العروض تشمل أوبرات لفيردى وبوتشينى وجلوك وموزار وتشايكوفسكى وروسينى وبيزيت ، وتشمل أيضا بعض العروض اليوغسلافية .

وفى عام ١٩٤٨ أيضا تم تأسيس أول فرقة مقدونية للباليه ، وفى السنة التالية قدمت أول عروض لها . ثم قدمت عروضا للباليه من تأليف تشايكوفسكى ، وريمسكى ـ كورساكوف ، بروكييف ، رافيل ، ويبر ، شتراوس وغيرهم من واضعى الموسيقى . وقدمت كذلك عروض باليه يوغسلافية وضع موسيقاها خريستيتش ، لوجار ، سموكفارسكى ، لهوتكا وغيرهم من واضعى الموسيقى .

وفى السنوات القليلة الأخيرة تم عقد منافسات على مستوى جمهورية مقدونية بين المسرحيات الدرامية للهواة ، وتعقد هذه المنافسات فى مدينة « تيتوف فيليس » ويتم تقديم جوائز لأفضل هذه العروض المسرحية .

والموسيقى لها تقاليد عريقة بين المقدونيين فى مجال الفن الشعبى . وهكذا نجد أن المقدونيين من أوفى الأصدقاء وعشاق الأغانى والموسيقى الشعبية سواء فى أوقات المرح أو فى أوقات الترح . ومن يعرف المقدونيين عن قرب سيتأكد أن لديهم موهبة طبيعية لتذوق الموسيقى .

والموسيقى المقدونية ، مثلها مثل الفنون الأخرى ، تعد استمرارا لتلك التقاليد الثرية ، الا أن هذه الموسيقى المعاصرة بلغت ذروتها الفنية بعد تحرير البلاد ، حينما كانت تتشكل الشخصية الابداعية للجيل الأول من المؤلفين الموسيقيين المقدونيين . ونفس هـذا الجيل هو الذى شكل التعليم الموسيقى للأجيال التالية ، وبالتالى هو الذى تولى القيادة والريادة فى المؤسسات الموسيقية المحترفة الأولى ، وهو الذى سعى الى امتداد واتساع الحياة الموسيقية فى مقدونية .

وفى كل عام يتم فى مقدونية اقامة بعض المهرجانات الموسيقية أو الحفلات . **ومن أقدم وأشهر هذه المهرجانات على الاطلاق « مهرجان صيف أوهريد » للموسيقى والدراما** ، فقد انعقد لأول مرة فى عام ١٩٦١ . وهو الآن ينعقد كل عام خلال شهرى يوليو وأغسطس ويستمر برنامجه حوالى خمسة وأربعين يوما ويقدم من ٣٥ الى ٤٠ عرضا مختلفا فى كاتدرائية القديسة صوفيا . ويقوم العازفون والمغنيون والفرق اليوغسلافية والأجنبية المشهورة بتقديم العروض الموسيقية أو الغنائية أو المسرحية أمام خلفية رائعة تتمثل فى المدينة القديمة « أوهريد » بمبانيها الجميلة وآثارها الرائعة والشواطىء الساحرة لبحيرتها المشهورة . وهى بهذا الشكل الفريد تعد تجربة غير قابلة للنسيان .

ولا شك أن هذا المهرجان يعيد الى مدينة « أوهريد » مجدها القديم ويبعث الحياة فى تاريخها الثقافى الغزير ويجعل من حاضرها حدثا ثقافيا فريدا بكل المعايير المعروفة . كما أن هذا المهرجان ينمى العلاقات الثقافية بين مقدونية وبين مختلف بلاد العالم ، فالضيوف الأجانب يتعرفون على الثقافة والفنون المقدونية اليوغسلافية ، ويتعرفون أيضا على القيم الثقافية والفنية العالمية . **وهكذا يحدث ارتباط عضوى بين الثقافة القومية وبين الثقافة العالمية ، الأمر الذى يساهم فى تنمية العلاقات السياسية والثقافية ليوغسلافيا مع دول العـــالم المختلفة** . وقد اشتركت جمهورية مصر العربية فى هذا المهرجان أكثر من مرة .

ومنذ عام ١٩٧٢ ومدينة « سكوبلى » تستضيف « أمسيات الأوبرا » فى شهر مايو من كل عام . وفى هذا المهرجان تقدم فرقتا الأوبرا والباليه

التابعتان للمسرح القومى المقدونى عروضهما ، كما يشترك فيه أشهر المغنيين والفرق وقادة الفرق الموسيقية من جميع أنحاء يوغسلافيا ومن الدول المجاورة مثل بلغاريا وتركيا واليونان ورومانيا .

وينعقد فى مدينة « أوهريد » كل عام « مهرجان البلقان للأغانى والرقصات الشعبية » ، وهو يعد حدثا ثقافيا أصيلا نادرا ، وقد تمت اقامته منذ عام ١٩٦٢ واستمر فى محافظته على هدفه الأساسى وهو تقديم الفنون الشعبية الحقيقية الأصيلة . وقد أخذ مهرجان البلقان على عاتقه مهمة نبيلة سامية تتمثل فى الاحتفاظ والمحافظة على التراث الفولكلورى الشعبى فى عصر التكنولوجيا والصناعة الذى يعيش فيه العالم أجمع حيث تواصل الأغانى والرقصات الشعبية ، وعلى الأخص العادات والتقاليد المصاحبة ، الانقراض والاختفاء بشكل يتعذر اجتنابه . والحقيقة أن مهمة هذا المهرجان ليست يسيرة أو بسيطة خاصة اذا علمنا أنه توجد محاولات متعددة ومتباينة لادخال تغييرات وتعديلات على التراث الفولكلورى الأصيل ، بل وهناك مساعى لايقاف انتشاره ورواجه . ويمكن القول بأن هذه المحاولات التى يتعرض لها التراث الفولكلورى لا تقل خطورة ، بأى شكل من الأشكال ، عن زواله التدريجى الطبيعى من الحياة الاجتماعية والثقافية فى مقدونية .

وخلال الستة والعشرين عاما من عمر مهرجان البلقان كان يثبت مع كل عرض جديد أن الفنون الشعبية لدى الشعوب البلقانية ولدى جيرانها تعد أكثر حيوية وتنوعا مما كان المرء يعتقد . ويتم تقديم هذه العروض البديعة من الأغانى والرقصات الشعبية على خشبة مسرح « أوهريد » الرائع الذى يطلق عليه اسم « دولنى سراى » . وهذه العروض تؤكد تأكيدا مباشرا ومقنعا ان الفنون الشعبية الأصيلة ، وعلى الأخص الأغانى والرقصات الشعبية ، لها وظيفتها ومهمتها ومكانها تحت الشمس فى هذا العالم وفى هذا العصر الحديث الذى لا يدعم أو يساند أو يسهل حياة وابداع الفنون الشعبية . وتبرهن هذه العروض أيضا على أنه كلما زادت وتعددت المحاولات التى تتخذ فى العالم كله والتى تهدف الى تحريف هذا التراث عن طريق اجراء العديد من التعديلات والمعالجات والصياغات كلما زاد الاحترام والتقدير تجاه هذا التراث الأصيل من الفنون الشعبية .

وهنا تجدر الاشارة الى أن مهرجان البلقان حقق نتائج ايجابية وملحوظة فى مجال المحافظة على أصالة الفنون الشعبية والحفاظ عليها . وبفضل الاستجابة التلقائية من جانب كل المشتركين فى هذا المهرجان تم التوصل الى نجاح سريع يتضمن مغزى كبيرا ودلالة عظيمة لهذا المهرجان

باعتباره حدثا ثقافيا وفنيا على مستوى رفيع . وقد اشتركت جميع الدول البلقانية وعدد كبير من الدول الأخرى فى هذا الحدث الثقافى الفنى الرائع البناء الذى ينعقد فى كل عام على شاطىء بحيرة « أوهريد » .

واشترك فى هذا المهرجان ما يزيد على ثمانية عشر ألف مغن وراقصة وعازف من النمسا والبانيا وبلغاريا واليونان وايطاليا وتركيا والمجر ورومانيا وقبرص وفرنسا وهولندا وتشكيوسلوفاكيا وبلجيكا والدانمارك وفنلندا ومن بلاد كثيرة أخرى ومن كل جمهوريات يوغسلافيا ، والأقاليم ذات الحكم الذاتى بها ، وقدموا مواهبهم الفنية العظيمة المثيرة للاعجاب فى عرض الفنون الشعبية الخاصة ببلادهم . وبذلك يعرضون كل السمات الجوهرية وكل نقاط التشابه والاختلاف فى الفنون الشعبية الخاصة بشعوب من مختلف أرجاء العالم . ولا شك أن هذه العروض التى تثير الاعجاب وتحوز الرضى تعتبر على الدوام تجربة فنية جديدة بالنسبة لجمهور المشاهدين ، وكذلك بالنسبة للمتخصصين فى مجال الفنون الشعبية وبالنسبة للضيوف القادمين من جميع أنحاء العالم .

واعتقد أن مهرجان البلقان ، مثله فى ذلك مثل جميع المهرجانات الثقافية التى تنعقد فى مقدونية ، قد أخذ على عاتقه القيام بمهمة أخرى لا تقل أهمية عن مهمته الأولى فبالاضافة الى أنه أصبح معرضا فنيا وثقافيا كبيرا فقد أصبح المهرجان أيضا اجتماعا على درجة كبيرة من الأهمية ، اذ أن عن طريقه يتم عقد الصداقات المخلصة التلقائية بين الشعوب البلقانية وبين شعوب الدول الأخرى . وفى هذا المضمار السياسى والاجتماعى حقق المهرجان أهمية دولية كبيرة وحاز على الكثير من المديح واستحوذ على التقدير من جانب المشتركين فيه ومن الدوائر الثقافية العالمية المتخصصة فى مجال الفنون الشعبية . وكانت النتيجة الحتمية لكل هذا هى الزيادة السريعة للاهتمام العالمى بهذا المهرجان .

وعن طريق الأغنية والرقصة يتم فى هذا الجو الشاعرى الساحر التوصل الى الفهم والتقارب بين أفراد الشعوب المختلفة . وتعد الفنون الشعبية من أفضل الجسور التى تقرب تقريبا جليا بين مختلف البيئات السياسية والاجتماعية . ومن المعروف أن الأغنية والرقصة تعد نوعا من اللغة الدولية ، اللغة التى يفهمها ويدركها كل انسان فى العالم . هذا علاوة على أنه يبدو وكأن « أوهريد » ذات المناظر الخلابة والجمال الطبيعى القديم ، المدينة التى لها قرون طويلة من التقاليد فى مجال الثقافة والتعليم ، قد تم انشاؤها خصيصا لكى تقرب بين الناس وتزيد من التفاهم بينهم وبذلك تزيد من سعادتهم وبهجتهم .

وهناك ايضا « **مهرجان اليندن للاغانى وللرقصات الشعبية** » الذى ينعقد فى مدينة « بيتولا » . وقد انتظم انعقاده منذ عام ١٩٧١ وتحضره جماعات من المهاجرين المقدونيين القادمين من كندا والولايات المتحدة الأمريكية واستراليا وبعض الدول الأخرى . وهناك ايضا حدث فنى ثقافى يستحق الذكر وهو « **مهرجان الخريف للموسيقى** » بمدينة « ستروجا » . وبدأ هذا المهرجان منذ عام ١٩٧٥ ويتم فيه تقديم أحدث الانجازات وأفضل الأعمال فى مجال الموسيقى الشعبية فى السنة السابقة .

وقد ساهمت وسائل الاعلام المسموعة والمرئية فى مقدونية فى النهوض بالمستوى الثقافى للشعب المقدونى وحماية تراثه وثقافته . وبالاضافة الى اذاعة « سكوبلى » يوجد بمقدونية منذ عام ١٩٧٩ خمسة وعشرون محطة اذاعة محلية . والقوة الاجمالية لكل محطات الاذاعة ١٫٥٦٣ كيلو وات ، وهى تبث أكثر من سبعة وثلاثين ألف ساعة من البرامج الاذاعية ، منها واحد وعشرون ألف ساعة من الموسيقى وستة عشر ألف ساعة . من البرامج الكلامية . ومحطات الاذاعة بسبيلها الى زيادة ساعات البث .

وبدأ تليفزيون سكوبلى يبث ارساله فى عام ١٩٦٤ ، وهو يقدم فى الوقت الحالى مجموعة كاملة من الأخبار السياسية والتعليمية وبرامج المنوعات والبرامج الأخرى التى يتم عرضها على شاشة القناة الأولى ، وفى عام ١٩٧٨ تم افتتاح القناة الثانية . ويقدم تليفزيون سكوبلى برامجه باللغات المقدونية والألبانية والتركية . وفى عام ١٩٨٦ كان هناك حوالى ٣٣٥ ألف مشترك يدفعون الاشتراكات عن أجهزة الراديو التى يملكونها ، وكذلك ٢٩٨ ألف مشترك لأجهزة التليفزيون .

كما أنه ليس من نافلة القول التنويه الى أن وسائل الاعلام المقدونية المكتوبة قد اشتركت اشتراكا فعالا فى نضال الشعب المقدونى ودافعت دفاعا مستميتا عن شئونه الثقافية وعلى الأخص عن لغته القومية .

وقد بدأ صدور أول الصحف والمجلات فى مقدونية فى نهاية القرن التاسع عشر وبداية القرن العشرين ، ولكن لم تكن تتم طباعتها باللغة المقدونية ولم تكن أيضا تعكس مصالح أفراد الشعب المقدونى أو تدافع عنها دفاعا واضحا . ويمكن اعتبار صحيفة « **الثورة** » ، وهى صحيفة ذات طابع اشتراكى ، أول صحيفة مقدونية . وجاءت هذه الصحيفة نتيجة لنشاط مجموعة من الاشتراكيين المقدونيين وعلى رأسهم « فاسيل جلافينوف » . وصدرت هذه الصحيفة لأول مرة فى الثامن والعشرين من يونيو عام ١٨٩٥ .

وفى عام ١٨٩٢ اصدر الشباب من المثقفين المقدونيين فى مدينة صوفيا البلغارية مجلة دورية باسم « **لوزا** » لتكون الناطقة بلسان الجماعة الأدبية المقدونية الشابة التى تشكلت آنذاك فى تلك المدينة ، وكان معظم افرادها من المثقفين المقدونيين الذين انتقلوا من بلغراد الى بلغاريا . ومن الواضح أن صدورها فى صوفيا كان يعنى استحالة صدورها بشكل شرعى فى مقدونية نفسها . وكانت رئاسة تحرير المجلة ومحرروها فى الأغلب من المهاجرين المقدونيين . وترأس تحرير المجلة كل من « بيتار بوب ارسوف » و « جورج بلاسيتشيف » . وتمثل البرنامج السياسى للمجلة فى تجميع وتنشيط المقدونيين ذوى الأفكار المتماثلة بحيث يكون بامكانهم أن يمهدوا الأرض للثورة . وعلى صفحات المجلة تم الكشف عن محاولات افقاد الهوية القومية والتنديد بكل الدعايات التى تسللت من الخارج الى البيئة المقدونية . وفى هذا المضمار شددت المجلة تشديدا واضحا على المسائل الهامة المتعلقة بالتطور العلمى والأدبى المقدونى وركزت على تعبير الانفصالية القومية المقدونية ، كما حاولت أن ترفع من قدر اللغة المقدونية .

وكانت هذه المجلة مرتبطة لفترة طويلة بالصحافتين البلغارية والصربية . وفى العددين التاليين من المجلة تم استخدام اللغة البلغارية فحسب وأسلوب الكتابة البلغارية ، وقد حدث هذا نتيجة لتدخل العناصر الرسمية فى صوفيا نظرا لأنها كانت تعارض فكرة الانفصال السياسى وفكرة الانفصال القومى المقدونى .

وهناك ايضا مجلة « **الصوت المقدونى** » التى كانت تصدر فى الفترة من عام ١٩٠٠ وحتى نشوب الحروب البلقانية . وهذه المجلة تحتل مكانا هاما وفريدا ، على الأخص بين تلك المجلات التى كان يتم اصدارها خارج مقدونية . وكانت هذه المجلة هى الناطقة بلسان الطلبة المقدونيين ويتم اصدارها فى « بتروجراد » فى روسيا ، ومنذ عام ١٩١٣ وحتى ١٩١٤ كانت تصدر باللغة الروسية ولكنها فى الواقع كانت مقدونية .

وقد صدر من هذه المجلة أحد عشر عددا ، وعلى صفحات هذه الأعداد تم بشكل متنوع مدعم بالوثائق عرض المشاكل السياسية والقومية المقدونية فى المقام الأول ، عن طريق المؤلفات والتقديرات العلمية الجادة والمقتطفات الأدبية . وقد ترأس تحرير هذه المجلة الطالب المقدونى « ديميتريا د. تشوبوفسكى » ، واشترك فى تحريرها أيضا بعض الروس . وكان أنصارها بوجه عام من المؤيدين لمقدونية المستقلة من أعضاء الجالية

المقدونية فى « بتروجراد » . وكانت المجلة تناصر فكرة حصول مقدونية على الحكم الذاتى داخل اطار اتحاد فيدرالى بلقانى .

وكانت هذه المجلة تعتزم نشر مقالات فى مجالات السياسة والتاريخ والعلوم والفنون والآداب ، بيد أنها لم تنجح الا فى نشر سلسلة من القصائد الوطنية ذات الموضوعات والأفكار العاطفية المقدونية . وأغلبية الشعراء من المقدونيين ، ولم تنشر بها باللغة المقدونية الا القصائد الشعبية الخاصة « بماركو كرال » .

ومن المؤكد أن هذه المجلة تعد ظاهرة هامة للغاية فى الحياة القومية للشعب المقدونى . ونظرا لأنها كانت مجهولة لفترة طويلة على المستوى الجماهيرى فقد قام معهد التاريخ القومى بتحقيقها واصدارها كاملة باللغة المقدونية فى عام ١٩٦٨ مع اضافة التعليقات والهوامش اللازمة . وحتى نتعرف على الخط القومى الواضح لهذه المجلة فلنقرأ معا هذه السطور التى نشرت بها : **نحن مقدونيون ، ونحن لسنا من الصرب أو اليونانيين أو البلغار ، اننا ببساطة مقدونيون . واذا كانوا سيقدمون لنا المساعدات لكى نحصل على حريتنا فسنقدم لهم الشكر على ذلك . ولكن يجب عليهم جميعا أن يعرفوا أن مقدونية تخص المقدونيين وحدهم .**

ولا يفوتنا أن نشير الى مجلة « **فاردار** » التى تعرضت لمصير غريب ، وهى تعد أول مجلة من تلك الفترة تختص بالأدب والعلوم . وتم بشكل دقيق تحديد مضمون وهدف المجلة فى المقال التمهيدى الذى صدر باللغة الروسية ويتمثل فى عرض كل القضايا العلمية والتاريخيـة واللغوية المرتبطة بالقومية المقدونية ، وفى اثبات أسس الحركة الانفصالية القومية المقدونية ، وفى التدليل على أن اللغة المقدونية لغة أصيلة وقادرة على مسايرة الابداع الأدبى . وبذلك يتم وضع حجر الأساس للعلم والأدب المستقلين فى مقدونية .

وتوجد بالخطة المستهدفة للمجلة والتى كانت مرفقة مع الالتماس المقدم للموافقة على اصدار المجلة فى عام ١٩٠٤ أمور محددة فيما يتعلق بالهدف الهام وهو ابداع فنون أدبية باللغة المقدونيـة . وتذكر الخطة أن المجلة ستنشر القصـائد والقصص والروايات والأعمال المسرحية التى تعالج موضوعاتها الحياة المحلية ، وستنشر كذلك الأدب الشعبى الشفاهى وكل ما يتعلق بالتراث الثقافى والأدبى . وكانت كل هذه الآراء موجودة فى كتاب « مسيركوف » « المسألة المقدونية » الذى تم حظره ومصادرته .

وصدرت مجلة « فاردار » لأول مرة فى الفاتح من سبتمبر من عام

١٩٠٥ باعتبارها مجلة شهرية وكانت تحوى اثنتين وثلاثين صفحة . واحتلت مكانا هاما على صفحاتها دراسة « مسيركوف » بعنوان : « ظهور وتطور النظرية البلغارية والصربية عن قومية المقدونيين » . الا أن صدور المجلة توقف بعد صدور أول عدد منها بواسطة العناصر السياسية البلغارية ونتيجة لتهديدات من الجناح المركزى لمنظمة « فمرو » ، وهو الجناح الذى تشكل من المعارضين للقومية المقدونية وللايديولوجية الثقافية .

وتم فى مدينة « بيتولا » فى عام ١٩٠٩ اصدار صحيفة « **شرارة العمال** » ، وفى السنة التالية أصدرت المنظمة الديمقراطية الاشتراكية فى « سكوبلى » صحيفة باسم « **الفجر الاشتراكى** » التى استمرت فى الصدور حتى عام ١٩٢٠ كلسان لحال القيادة الحزبية الاقليمية . وفى الفترة من عام ١٩١٨ وحتى عام ١٩٤١ كانت تصدر فى الجزء المقدونى التابع للمملكة اليوغسلافية صحف ومجلات كثيرة باللغة الصربوكرواتية ، وكانت ذات برامج ومضامين مختلفة وفى غالبيتها سياسية وتتمشى مع العقيدة الحاكمة وكان بعضها ينشر مقالات عن الأدب .

ومن هذه المجلات « **المجلة النقدية الجنوبية** » التى كانت تصدر فى « سكوبلى » فى الفترة من ١٩٢٨ وحتى عام ١٩٣٩ كمجلة للعلوم والآداب ويتم نشر المواد بهـا باللغـة الصربوكرواتيـة وهى لكتاب من المنطقة اليوغسلافية ومنهم كتاب من مقدونية . وتحتوى هذه المجلة على مادة ثرية تتعلق بالماضى الثقافى لمقدونية وعلى معلومات ترتبط بالتاريخ السياسى والاقتصادى والثقافى لمدينة « سكوبلى » وما شابه ذلك .

ومجلة « **الشعلة** » كانت تصدر فى « سكوبلى » فى الفترة من ١٩٣٧ وحتى عام ١٩٣٩ ، وهى مجلة شهرية للقضايا الثقافية والاقتصـادية والاجتماعية وتصدر باللغتين الصربوكرواتية والمقدونية . ووفقا لبرنامج هذه المجلة فقد كانت تهدف الى تجميع مثقفى منطقة الجنوب (المقصود بها منطقة مقدونية) الذين سينمون عند الشعب بكلماتهـم المخلصة الاحساس بالتضامن والوعى الاجتماعى وينمون نشاطه فى جميع المجالات الثقافية والاقتصـادية والاجتمـاعية . ورئاسة تحرير المجلة ، وهى فى الغالب مكونة من المثقفين المقدونيين ، كانت تمنح المجلة سماتها وملامحها المتميزة وتسعى الى أن تكون المجلة منبرا للفكر الثقافى والديمقراطى المعـاصر .

وكانت المجلة تركز فيما تكتبه وفيما ينشر بها على أنه على الأرض المقدونية نشأت أهم الأحداث فى التاريخ الثقافى والسياسى ليوغسلافيا ،

وأنه ينبغى لهذه المنطقة أن تبرز ثانية على المسرح الثقافى وأن تتبوأ المكان الذى تستحقه . كما كانت المجلة تتابع النشاط الأدبى المعاصر فى مقدونية وتنشر أعمال المؤلفين المعاصرين . وتم عرض التيارات السائدة فى مجال الفن الشعرى الذى كان يتخذ طابعا طليعيا حديثا ، والمناقشات البناءة الخاصة بذلك . وكان يتم نشر الأعمال الأدبية ، فى معظمها ، باللغة المقدونية ويتم نشر المناقشات والدراسات باللغة الصربوكرواتية . كما نشرت المجلة عددا كبيرا من القصائد والحكايات الشعبية المقدونية وبعض الدراسات عنها .

أما مجلة « **كلمتنا** » فكانت تحتل مكانا خاصا بين الدوريات المقدونية ، وكانت تصدر فى الفترة من عام ١٩٣٩ وحتى عام ١٩٤١ فى « سكوبلى » كمجلة نصف شهرية وكمنبر مستقل للمسائل الاقتصادية والسياسية والثقافية ، وفى الحقيقة كانت ناطقا شرعيا بلسان اللجنة الاقليمية للحزب الشيوعى اليوغسلافى فى مقدونية . وفى أثناء الموقف المعقد السائد فى الفترة السابقة لنشوب الحرب وقبيل حلول الفاشية كانت المجلة تسلط الأضواء على الأحوال السياسية والاقتصادية الراهنة فى البلاد وفى أوروبا ، وتكشف خطط النازية والنوايا العدوانية وتؤيد توحيد القوى الديمقراطية والتقدمية بالعالم وتفسر التحركات المعاصرة تفسيرا جدليا .

وفى مجال المشاكل المحلية كانت المجلة تناصر المساواة فى الحقوق بين الشعوب فى اطار دولة يوغسلافيا ، وتؤيد العدالة الاجتماعية والحرية والثقافة التقدمية . وجنبا الى جانب مع هذا كانت المجلة تضع حلولا مفصلة فعالة للمشاكل الثقافية وتعارض التصورات الرجعية للفن . واحتل الأدب مكانا خاصا على صفحات هذه المجلة ، وعلى سبيل المثال نشرت بها قصائد الأديب المشهور « كوتشو راتسين » وكذلك مؤلفات الأدباء الشبان . وكانت كل القصائد والأقاصيص تشتمل على مضمون اجتماعى واتجاه ثورى وكلها باللغة المقدونية ولا شك أن كل هذا النشاط الأدبى يمثل فى الحقيقة جزءا من النضال الذى تقوم به المجلة من أجل الحصول على الحقوق القومية والاقتصادية والسياسية الأساسية للشعب المقدونى . وكان هذا هو السبب فى حظر صدور المجلة .

ولم تصدر الصحف بمعناها الحديث الا فى أوائل عام ١٩٤٤ ، ففى مارس من هذا العام صدر العدد الأول من صحيفة « **المناضل الشاب** » التى لا زالت تصدر حتى وقتنا الحالى . وفى التاسع والعشرين من أكتوبر من نفس العام بدأ صدور العدد الأول من الصحيفة اليومية الجديدة

« مقدونية الجديدة » فى « جورنو فرانوفتسى » بالقرب من فيليس . وفى فترة ما بعد الحرب كانت الصحافة لا تقوم فحسب بمهمة نقل المعلومات ولكن تقوم أيضا بمهمة تعليمية وحققت فى هذا المجال نتائج باهرة . وظهر العديد من الصحف والمجلات فى « سكوبلى » وفى غيرها من المدن المقدونية .

وهناك مجلات أدبية كان لها دور كبير فى اثراء الحركة الأدبية وتنويع الأنشطة الأدبية وكانت تنشر على صفحاتها كل ألوان الأدب المقدونى .

ومن هذه المجلات مجلة « **اليوم الجديد** » التى تعد فى الحقيقة أول مجلة أدبية تصدر باللغة المقدونية الأدبية المعاصرة فى جمهورية مقدونية . وهى مجلة شهرية للفنون والعلوم والقضايا الاجتماعية ، وبدأت فى الصدور فى أكتوبر عام ١٩٤٥ فى مدينة « سكوبلى » باعتبارها لسان حال اتحاد الفنانين والعلماء والصحفيين المقدونيين . وكان يترأس تحريرها « فلادو ماليسكى » ، ومنذ عام ١٩٤٨ وهى تعد الصحيفة الرسمية لاتحاد أدباء مقدونية وترأس تحريرها الأديب والشاعر « بلاجيه كونسكى » ، وبعد ذلك تغير رؤساء التحرير عدة مرات .

ولقد لعبت هذه المجلة دورا هاما فى المرحلة الأولى من مراحل تشكل وتطور الأدب المقدونى فى الفترة التالية للحرب . وعلى صفحات هذه المجلة تدعم الجيل القديم من الأدباء المقدونيين المعاصرين الذين نشروا بها باكورة أعمالهم الأدبية ثم فيما بعد مؤلفاتهم المتنوعة التى ارتفع مستوى نضوجها . وغالبا ما كان الناقد « ديميتار ميتريف » هو المسئول عن باب النقد ، فكان يتابع باهتمام وعناية المؤلفات الأولى والكتب الجديدة للأدباء المقدونيين ويحللها ويصدر أحكامه عنها وذلك بالرغم من أن النقد ذاته كان محصورا ومقيدا بالعملية الأدبية وبالقواعد الفكرية والجمالية السائدة وبقدرة الفاحص نفسه ومداركه الشخصية .

وكانت المجلة تنشر دراسات ومقالات عن التراث الثقافى والأدبى المقدونى وعن الأدباء والمجلات الأدبية وتعرض الظواهر الأدبية وتفسرها . ومن حين لآخر كانت تتم متابعة انجازات الأدب اليوغسلافى خاصة والأدب الأوروبى عامة . كما كانت المجلة تنشر لوحات لأعمال الرسامين والنحاتين المقدونيين المعاصرين . وقد أنهت هذه المجلة صدورها فى عام ١٩٥٠ وحلت محلها مجلة « سوفرمنوست » ، ومعناها الحداثة .

وتليها من الناحية الزمنية مجلة « **الأدب الشاب** » وهى مجلة شهرية للأدب والقضايا الثقافية (وفيما بعد للأدب وللفن) . وبدأت فى الصدور

فى مايو ١٩٥١ فى « سكوبلى » باعتبارها الناطقة بلسان نادى الأدباء الشبان فى الجامعة « بسكوبلى » . ومنذ عام ١٩٥٤ وحتى انقطاع صدورها فى عام ١٩٥٧ والمسئول عن اصدارها هو مجلس الجامعة التابع لاتحاد الطلبة اليوغسلاف ، واتسمت هذه المجلة بتصورات جديدة وببرنامج جديد ولذلك سرعان ما أصبحت مجلة جادة وظاهرة هامة فى الحياة الثقافية للبلاد .

وأثرت هذه المجلة بشكل بناء وحاسم على تطور التصورات الابداعية العصرية ومقاومة الحزن الرومانسى والتعبير القومى الخالص فى فترة ما بعد الحرب . ولكن نتيجة للمتغيرات التى كانت تحدث على صعيد الحياة وفى مجال الثقافة والأدب فقد أصبحت هذه المجلة رمزا للسطحية وللسذاجة وغير قادرة على مسايرة زيادة تعقد الموضوعات والأفكار والواقع المعاصر . ولا شك أنه تم من خلال هذه المجلة المفتوحة أمام مختلف المضامين المتنوعة والأشكال الأدبية والحرية المتوفرة فى الأدب المقدونى وضع المنبر الفكرى والجمال الذى قامت عليه فيما بعد مجلة « رازجليدى » ، ومعناها وجهات النظر .

وعلى صفحات هذه المجلة تم نشر الأعمال المتنوعة للأدباء المقدونيين الشباب . وامتلأت صفحات كل أقسام المجلة الخاصة بالأدب المقدونى وآداب باقى الشعوب اليوغسلافية ، وحفل قسم الأدب العالمى بالترجمات والصياغات الشعرية والدراسات الأدبية . وتم عرض الانجازات الأدبية من العصور القديمة وللأدباء القدماء ، وظهر كذلك اهتمام أكثر حيوية بالمبدعين الجدد .

حلت مجلة « **سوفرمنوست** » محل مجلة « اليوم الجديد » ، وصدرت فى عام ١٩٥١ باعتبارها مجلة للأدب والفن وللقضايا الاجتماعية . ووفقا لما أعلنته رئاسة تحرير المجلة فانه بصدور هذه المجلة سيتم الغاء الافتراضات التى تزعم وجود خط رسمى محدد وثابت لاتحاد الأدباء المقدونيين فيما يتعلق بمسائل الابداع الأدبى . ومنذ البداية أعلنت رئاسة تحرير المجلة أن كل اتجاه نحو توحيد الأدب على أساس مدارك وأذواق الأفراد أو بعض الجماعات يعد ضارا ويسلب الابداع الأدبى الفنى قيمه ويعمل على افقاره وهبوط مستواه .

وانطلاقا من هذه المواقف فان المجلس المؤسس لهذه المجلة سعى الى تنفيذ سياسة متساهلة للغاية بالنسبة لموضوعات الأعمال وللاختيارات الفنية للأدباء . وتم تحقيق الجزء الأكبر من هذا البرنامج مع التمسك

بالاتجاهات البنائية للتطور الأدبى المقدونى فى مرحلته التالية وتعميق المعايير الأدبية فى المرحلة التالية من مراحل تطور الأدب المقدونى . وواصل التعاون مع المجلة أفراد الجيلين القديم والوسط ، وتم الاحساس بالتواجد الحى النشط لدائرة واسعة من الأدباء الشباب . وتم تحديد العلاقة تجاه التيارات والاساليب الجديدة فى حدود درجات الانفعال ، أى فى حدود الموقف الابداعى الحقيقى . وفى احدى فترات صدور المجلة تم التركيز ، وفقا لهذا المعنى ، على تميز المذهب الواقعى وأساليبه . وبالتالى دخلت هذه المجلة فى مواجهة مع تصورات وأفكار مجلة « رازجليدى » التى كانت تناصر مذهب الحداثة وأساليبه .

وقدمت هذه المجلة وفقا لنظرة نقدية متميزة النشاط الأدبى المقدونى المعاصر ونشرت دراسات ثرية عن التراث الثقافى ، وساهمت مساهمة جدية فى تطوير وتدعيم الأدب المقدونى . وعن طريق الترجمات والصياغات الشعرية والدراسات الأدبية تمت ، بدرجة كافية ، متابعة آداب باقى الشعوب اليوغسلافية ، والصفحات الخاصة بالأدب العالمى تكمل الاطار العام للمجلة . وجرت أيضا متابعة الحياة الثقافية فى المجالات الأخرى مثل الرسم والموسيقى والمسرح . وكان بعض أعضاء رئاسة التحرير يقومون من آن لآخر باعداد أعداد خاصة من المجلة ، وكان هذا يعنى شكلا مفيدا وطريفا وتجربة متميزة فى تقديم الأدباء واختيار أعمالهم وانجازاتهم وأفكارهم .

ومجلة « **رازجليدى** » مجلة أدبية مقدونية تهتم بالفنون والثقافة والعلوم والقضايا الاجتماعية . وهى مجلة نصف شهرية بدأت فى الصدور منذ عام ١٩٥٤ واستمرت فى الصدور حتى عام ١٩٥٨ فى « سكوبلى » تحت رئاسة تحرير الأديب « فلادو ماليسكى » . ونتيجة لارتباط هذه المجلة بمجلة « الأدب الشاب » وبالمسارات الطليعية فى الفن الحديث بوجه عام أصبحت مجلة نقدية ثرية وهامة ، وفتحت صفحاتها أمام الظواهر الثقافية الواسعة ومجالات الأدب والعلوم والحياة المسرحية والسينمائية والموسيقى والفنون التشكيلية .

وكانت المجلة تشدد بشكل خاص على المستوى العالمى لتطور الأدب المقدونى الحديث وعلى المعايير الرفيعة فى الفكر والأحكام النقدية . وتجمع حول المجلة عدد كبير ، بشكل ملحوظ ، من الأدباء والعلماء ولذا فقد كانت أبواب المجلة متنوعة وطريفة من ناحية الموضوعات . وفى عامى ١٩٥٧ و ١٩٥٨ تقريبا جرت على صفحاتها مواجهة واضحة بينها وبين

مجلة « سوفرمنوست » التى كانت تساير الأسلوب الواقعى وتعارض التجديدات الأدبية المنحرفة .

وفى الفترة من ٥٨ والى ١٩٥٩ ظهرت المجلة فى شكل جديد باعتبارها مجلة شهرية للفن والثقافة وللقضايا الاجتماعية . وترأس تحريرها الأديب « كوله تشاشوله » . وأخذت المجلة تعارض بشكل منظم اقحام الأساليب التقليدية والأفكار العقائدية فى الفكر الابداعى ، وشرعت تؤيد وتدافع عن حرية البناء الفنى وتنوعه وعن الجديد من الموضوعات . وساهمت المجلة بمواقفها وتفسيراتها وانجازاتها الأدبية الجيدة فى التطور السريع الفعال . وفى اثراء الأدب المقدونى المعاصر . وعلى صفحاتها تم التغاضى عن الاقليمية والفولكلورية وعن الشكل الكلاسيكى ، وكانت الأولوية للتصورات العبثية .

لقد تم انجاز الكثير وما زال هناك الكثير لانجازه من أجل تعريف دول العالم بالتراث الثقافى والأدبى المقدونى وبالانجازات الثقافية والأدبية المقدونية . والتعاون الثقافى يحتل مكان الصدارة فى الاتفاقات اليوغسلافية مع الدول الأخرى ، ويقدم العديد من المؤسسات الثقافية المقدونية مساهماته فى هذا المضمار . وفى الآونة الأخيرة أقيمت مهرجانات أسبوعية للثقافة المقدونية فى عديد من المدن فى ايطاليا وتشيكوسلوفاكيا وألمانيا الغربية وألمانيا الشرقية وفرنسا وغيرها من البلدان . وهذا الانتشار الثقافى المتواصل يقوم على تقاليد تاريخية للابداع المتحرر من القيود والأغلال ، وهو يضيف قيما مستديمة للتراث الثقافى المقدونى الثرى بالفعل .

الفصل الثالث

الحياة الدينية

قد يعتقد البعض أن الحديث عن الأديان أو عن الطوائف الدينية فى دولة اشتراكية حديث غير مرغوب فيه وحافل بالأشواك ، ولكن اذا كان هذا هو الحال بالنسبة لبعض الدول الاشتراكية فمن المؤكد ان هذا لا ينطبق على يوغسلافيا على الاطلاق .

ويحضرنى هنا فى هذا المقام ما ذكره الرئيس اليوغسلافى تيتو فى هذا المضمار ، فقد قال : « اننا اعتبرنا منذ بدء كفاحنا فى عام ١٩٤١ أن تكون جميع الأديان متساوية فى الحقوق فى بلادنا فاتخذنا منذ ذلك الحين موقفا صريحا تجاه الأديان أجمعها يجوز التعبير عنه بالفكرة التالية : ألا نمس أحدا فى شعوره الدينى بل أن نكفل حرية العبادة للجميع .

وقد حققنا فكرتنا هذه بقتالنا طيلة فترة الاحتلال ضد العدو وضد معاونيه الخونة ، بل وبمقاومتنا لمن أرادوا افناء أفراد بعض الطوائف الدينية .

وموقفنا اليوم تجاه الدين لم يتغير ، ونود أن تكون لنا أطيب العلاقات مع جميع الطوائف الدينية حيث أننا نعلم أن مثل هذه العلاقات مع جميع الطوائف الدينية صالحة لتقوية وحدة الشعب » .

والحقيقة أنه لكى نتمكن من أن نفهم جيدا العلاقات الحالية القائمة بين المجتمع اليوغسلافى وبين الطوائف الدينية فى يوغسلافيا فمن الحتم علينا أن نضع هذه المسألة فى اطار زمانها ومكانها الصحيح وأن نربطها بالخصائص والسمات التى تتميز بها يوغسلافيا على الصعيدين الاجتماعى والسياسى .

ويعد تاريخ الطوائف الدينية فى يوغسلافيا جزء لا يتجزأ من تاريخ الشعوب اليوغسلافية . ويدين أغلبية المقدونيين (حوالى ٦٤ر٦٪ من عدد السكان) بالديانتين المسيحية الأرثوذكسية والاسلام . ولا يوجد فى يوغسلافيا كلها احصاء رسمى لعدد المنتمين الى كل ديانة ، وذلك لان الاحصائيات الأخيرة لم تأخذ فى اعتبارها معيار الانتماء الدينى وفقا للمبادىء الدستورية التى تنص على أن الدين مسألة شخصية لا تهم الا الشخص نفسه .

ومن المعلوم أن الدستور اليوغسلافى يكفل لجميع المواطنين ، على حد سواء ، كافة الحقوق والحريات الديمقراطية والانسانية ، بما فى ذلك حرية الشخص الذى ينتمى الى ديانة معينة وكذلك حرية اعتقاده الدينى ، على أساس أن هاتين الحريتين لا ينفصمان عن حريات الانسان وحقوقه فى ظل المجتمع اليوغسلافى الاشتراكى .

وكان أول دستور أقرته يوغسلافيا (فى عام ١٩٤٦) قد نص بوضوح على الاختيارات الأساسية تجاه المسألة الدينية . ثم جاءت بعد ذلك التعديلات الدستورية فأكدت الوضع الدستورى للطوائف الدينية ومبادىء حرية الاعتقاد الدينى والديانة والمؤمنين بها .

وتجد فى الفصل الثالث من الدستور اليوغسلافى لعام ١٩٧٤ التفصيلات الخاصة بالأحكام العامة المتعلقة بحريات الانسان وحقوقه وواجباته . فالدستور ينص على أن حرية الاعتقاد الدينى مكفولة لجميع المواطنين ، وعلى أنها مسألة شخصية لا تهم الا الانسان وحده . وهكذا فان الدستور اليوغسلافى ، شأنه فى ذلك شأن اعلان حقوق الانسان ، يكفل لكل شخص الحق فى التمتع بحرية التفكير والاعتقاد الدينى . ويشمل هذا الحق حرية تغيير المعتقد الدينى وحرية التعبير عنه على انفراد أو بالاشتراك مع الآخرين ، بصفة علنية أو خاصة ، وذلك عن طريق التعليم الدينى وأداء الشعائر الدينية واقامة العبادات .

وقد أقر الدستور اليوغسلافى الحرية الكاملة للمعتقد الدينى ، وبذلك أقر حرية المؤسسات الدينية منطلقا من أن الايمان بالدين مسألة شخصية لا تهم الا الانسان وحده . وهذا يعنى أن الانسان حر فى اختيار الايمان أو عدم الايمان بمعزل عن كل اكراه أو ضغط . وتعنى كذلك تحرر الفرد فى مجال الدين من استبداد الدولة والمؤسسات الدينية أو أى فرد آخر أو مجموعة من الأفراد .

وحرية الاعتقاد الدينى فى يوغسلافيا هى حق من حقوق الانسان

وحرياته الشخصية والسياسية ، وهى تتيح للفرد الحرية فى أن يعبر عن قناعته الدينية وأن يمارس شعائره الدينية وحده أو بالاشتراك مع غيره من الناس ، وأن يقوم بذلك بوحى من ضميره .

ويشمل هذا الحق أيضا حرية الانسان فى أن يعتنق الدين الذى يختاره . ولا يجوز أن يتعرض الانسان لأى عمليات قسرية تؤثر فى حرية اختياره أو اتخاذه قراره فى هذا الشأن . ولا يجوز للسلطة أن تحظر الاعتقاد الدينى . وهذا يعنى أن الانسان هو الوحيد صاحب الكلمة الأولى ، وهو الذى يقرر مسألة تقبله أو عدم تقبله للمعتقد الدينى والمشاعر الدينية .

وتقوم حرية الدين على أساس أنه مسألة شخصية لا بوصفه دينا للدولة كما كان من قبل . فلم يعد الدين معيارا فى مجال النشاط السياسى ، وانما أصبح حصيلة قناعات الانسان الداخلية وثمرة لاختياره الذاتى الحر . وهكذا لم يعد الانسان يتخذ موقفا من الدين وكأنه مسألة عامة ، وانما باعتباره مسألة شخصية تعنيه هو بالذات فى أول الأمر وآخره .

وبالاضافة الى ذلك فان لكل مواطن يوغسلافى الحق فى أن يقوم جهاز الدولة المختص بحمايته وحماية حقوقه من أية تصرفات تنتهك حقوقه وحرياته المنصوص عليها فى الدستور أو القانون والمتعلقة بمعتقده الدينى . ويتساوى المواطنون فى الحقوق أمام القانون ، ولا يجوز بسبب الدين التقليل من الحقوق القانونية للمواطنين وكفاءاتهم ، كما لا يجوز أن يكتسبوا امتيازات معينة على ذلك الأساس .

ومن أهم مبادىء الدستور اليوغسلافى ذلك المبدأ الذى ينص على أن الطوائف الدينية منفصلة عن الدولة . ومن جراء ذلك تلغى الدولة مفهوم « دين الدولة » ، ولا تقف من الدين وكأنه مسألة عامة ، وانما تعتبره مسألة خاصة لا تهم الا الانسان وحده . وللمؤسسات الدينية قواعدها وتنظيماتها ، وهى تتمتع بحرية ممارسة النشاط فى مجالها الخاص . وهى تنعم بالاستقلالية ، وليس للدولة الحق فى التدخل فى مجال المقدسات الدينية .

وجميع الديانات متساوية أمام الدستور والقانون ، وهى تنعم بحماية الدولة لها ، وليس لأية ديانة أو منظمة دينية امتيازات من أى نوع كان ، وليست خاضعة لأية قيود خاصة فى أنشطتها .

وينص الدستور اليوغسلافى أيضا على حرية قيام الطوائف الدينية

بوظائفها وشعائرها الدينية . ومبدأ انفصال الطوائف الدينية عن الدولة يكفل لهذه الطوائف أن تقوم بشعائرها الدينية بحرية ودون عوائق ، وأن تقوم باعداد تنظيمها الداخلى على أساس مستقل . وتتمتع الطوائف الدينية بالحق فى ممارسة شعائرها وتقاليدها الدينية والحق فى ممارسة الوظائف الدينية الخاصة بها واقامة علاقات مع المنظمات الدينية فى البلدان الأخرى بشرط أن تقتصر هذه العلاقات على الطابع الدينى .

ولا يجوز للطوائف الدينية أن تقيم الا المدارس الدينية بهدف تأهيل رجال الدين ، وهى التى تضع برامج التعليم فى هذه المدارس وتعد الخطط الخاصة بها . ولها الحق فى امتلاك العقارات وفقا للحدود التى ينص عليها القانون .

والمجتمع اليوغسلافى لا يقيد حرية الطوائف الدينية بشرط الا يتم استغلال الدين والأنشطة الدينية لأغراض سياسية ، ولا يجوز تحويل حرية الدين والنشاط الدينى الى سلاح للصراع من أجل أهداف ومصالح سياسية معينة ، ومن غير المسموح به أيضا تقييد أو الغاء حرية الدين والنشاط الدينى فى سبيل أهداف أو مصالح سياسية .

الكنيسة المقدونية الأرثوذكسية

من المعروف أن الكنيسة الأرثوذكسية لعبت دورا كبيرا وهاما فى نشر التعليم والثقافة بين المقدونيين ، كما أنها اشتركت مع المقدونيين فى كفاحهم من أجل الحصول على الحرية والاستقلال . ومنذ أن استقر السلاف فى منطقة البلقان واعتنقوا الديانة المسيحية والكنيسة تعمل على نشر الأدب والثقافة السلافيتين . وكان من المبشرين الأوائل الأخوان « تشيريلو وميتوديا » .

فقد أرسل الامبراطور البيزنطى فى القرن التاسع الميلادى الأخوين « تشيريلو وميتوديا » لكى يقوما بوضع أبجدية للسلاف ولكى يترجما الى لغتهم الكتب الدينية ولكى يقوما فى الوقت ذاته بالتبشير بالمسيحية بين سكان هذه المنطقة . الا أنه بعد عشرات السنين من العمل الجاد من أجل تعليم أفراد الشعب تم طرد الأخوين « تشيريلو وميتوديا » وذلك لأن الاقطاعيين من الفرنجة ومن رجال الدين الجرمان لم تكن لهم رغبة فى نشر التأثير البيزنطى والمسيحية باللغة السلافية . وتم اتهام الأخوين بأنهما ينشران تعاليم مزيفة وجرى اضطهادهما الى أن توفى « تشيريلو » فى روما فى ٨٦٩ م ، وميتوديا فى مورافيا فى عام ٨٨٥م .

ولم تتوقف هذه البعثة التبشيرية التثقيفية بموت الأخوين ، وانما واصل تلاميذهما وأتباعهما نشاطهما ، وتحت رئاسة « كليمنت الأوهريدى» تكثفت جهودهم فى مدرسة « أوهريد » المقدونية . وكان يعاونه أيضا القساوسة « ناعوم » و « أنجيلار » و « سافا » . وفى عام ٨٩٣ عين القصر البلغارى « كليمنت الأوهريدى » أسقفا سلافيا ، واستمر فى عمله هذا الى أن توفى فى ٩١٦ وتم دفنه فى دير القديس بانتيليمون .

واسقفية « أوهريد » التى تقع حول بحيرتى « أوهريد » و « بريسبا» تعد أول كنيسة سلافية مستقلة . وكان تأسيس هذه الكنيسة نتيجة طبيعية للنشاط التبشيرى « لكليمنت وناعوم » ، وهما من أشهر تلاميذ الأخوين « تشيريلو وميتوديا » . ومنذ عام ٨٩٣ أصبح « كليمنت الأوهريدى » أحد مؤسسى الحضارة والثقافة السلافيتين وأول أسقف سلافى .

وابان حكم الامبراطور « صمويل » ، مؤسس أول دولة اقطاعية كبيرة للسلاف المقدونيين ، تم رفع أسقفية « أوهريد » الى مستوى البطريركية ولم يتم الاحتفاظ بأية أشياء مدونة عن هذا الأمر ، ولكن من المعتقد أنه تم تأسيس هذه البطريركية فى عام ١٠٠١ . وكان ذلك فى الوقت الذى نقل فيه الامبراطور « صمويل » عاصمته من مدينة « بريسبا » الى مدينة « أوهريد » التى كانت آنذاك مركزا هاما للتعليم والثقافة والدين . وعندئذ أعلن نفسه امبراطورا بعد حصوله على موافقة الكنيسة الرومانية .

وبعد سقوط امبراطورية « صمويل » فى عام ١٠١٤ أدرك الامبراطور البيزنطى « باسيل الثانى » (٩٥٧ ـ ١٠٢٥ م) قوة نفوذ وسلطان كنيسة « أوهريد » فاتخذ منها موقفا متسامحا فى البداية . ومع ذلك فقد هيأ فيما بعد الظروف والامكانيات التى يمكن من خلالها نقل مهام الوظائف الكنائسية العليا الى أساقفة الكنيسة البيزنطية . وبعد وفاة الامبراطور « باسيل الثانى » حدث تغير واضح فى العلاقات مع الكنيسة الأرثوذكسية المقدونية . ومنذ عام ١٠٣٧ وما بعدها كان اليونانيون يحتلون المناصب القيادية فى الكنيسة بينما تركوا الرتب المنخفضة للمقدونيين .

وادى هذا الى تكرار نشوب الخلافات بين اليونانيين والمقدونيين وعلى الأخص حينما تعارضت حماية المصالح اليونانية مع التأكيد على هوية الثقافة السلافية . وكانت حدود أسقفية « أوهريد » تتغير باستمرار وفقا للوضع السياسى فى منطقة البلقان ، وطوال فترة تواجدها كان يوجد تحت رعايتها وسلطانها تسع أبرشيات وخمس أسقفيات .

وفى فترة القرون الوسطى بوجه عام كانت الكنائس والاديرة تعد هى المراكز الثقافية والتعليمية القيادية ، وكان رجال الدين المسيحيون يقودون هذه العملية للتنوير والتثقيف . ونظم القساوسة عملية تسجيل ونسخ الكتب الدينية وكتب الطقـوس والصلوات والكتب التعليمية والنصوص الفلسفية والاخلاقية وما شابه ذلك . وكانت الكنائس والاديرة تحفظ الكنوز وتحافظ باخلاص على الكتب والمخطوطات الثمينة الخاصة بالكنيسة السلافية ، التى تكشف النقاب عن الثروة الثقافية للسلاف الموجودين بمنطقة البلقان . وحافظت كذلك على أروع الصور الزيتية فى ذلك الحين وعلى الفريسكات الجميلة والايقونات والمذابح المنقوشة بالكنائس وما الى ذلك .

وفى القرن الثامن عشر كان الرؤساء اليونانيون لأسقفية «أوهريد» يتقبلون الرشاوى ويقومون بالسلب والاضطهاد وبالاشكال الأخرى من التصرفات الاستبدادية التى لم تكن تهدف الا الى اضفاء الطابع الاغريقى على أفراد الشعب المقدونى مهما كلفهم الامر . ومارس اليونانيون ضغوطا قوية على بطريركية القسطنطينية وجعلوا الأتراك العثمانيون يلغون « أسقفية أوهريد » . فقد أصدر الباب العالى مرسوما فى السابع عشر من يناير فى عام ١٧٦٧ بالغاء « أسقفية أوهريد » وترحيل أسقفها « أرسينيا » الى خارج مقدونية واخضاع المنطقة لسلطان بطريركية القسطنطينية . وهذا الامر أثار مشاعر السخط والنقمة والاستياء بين أفراد الشعب المقدونى . وقام الشاعر المقدونى الكبير « جريجور برليتشيف » الحاصل على الجائزة الاولى فى مسابقة عيد الشعراء فى أثينا بوصف هذا الحدث فى احـدى قصائده المشهورة .

واستمر الكفاح من أجل اقامة كنيسة حرة مستقلة جنبا الى جنب مع النضال الذى كان الشعب المقدونى يقوم به بهـدف حصوله على حريته واستقلاله . وكثيرا ما كان أفراد الطبقة البرجوازية يطالبون باحياء أسقفية « أوهريد » وعلى الأخص فى عامى ١٨٦٨ ، ١٨٦٩ حينما صاغوا مطلبهم هذا فى عبارات جلية واضحة .

ومن الواضح أن الكنائس الأجنبية خلال القرن التاسع عشر كانت تحاول الحصول على تأييد لدعاياتها فى مقدونية . وكانت تبحث عن مكان لنفسها وتسعى الى اكتساب حقوق معينة . وكان الدين هو أسهل أساليب التأثير على المشاعر القومية للمقدونيين . وقد بلغت المعركة ذروتها مع الكنيسة من أجل اخضاع مقدونية والمقدونيين وذلك حينما كانت كـل كنيسة من الكنائس البلغارية والصربية واليونانية تثير الشك فيما عداها .

وكان من المالوف ان تصـل الى أغراضها بتقـديم الأمـوال والذهب وبالتهديدات والاغراءات . وكان هذا جليا بشكل خاص حينما سمح الباب العالى فى عام ١٨٧٠ باقامة الكنيسـة البلغاريـة تحت التأثير القوى للبرجوازية البلغارية فى القسطنطينية .

وكان الخيار صعبا وشاقا أمام أفراد الشعب المقـدونى ، فاما أن يختاروا الكنيسة اليونانية واما الكنيسة البلغارية . واختاروا الأخيرة على أمل أنها ستقدر وتحترم المصالح المقدونية وأنها ستكون أقل استبدادية من الكنيسة اليونانية . واثبتت الأحداث التالية أن هذا كان خطا فادحا لأنه اتضح على الفور أن البلغاريين يسعون الى وضع العناصر البلغارية مكان اليونانية فى الكنيسة ، وأن الكنيسة البلغارية لن تحل على الاطلاق محل أسقفية « أوهريد » . واستمرت عمليات افقاد الهوية القومية والضم كما كان يحدث من قبل ، ولكن الهدف وقتئذ كان هـو اضفـاء الطابع البلغارى على أفراد الشعب المقدونى .

وفى عام ١٨٧١ قدم سكان « أوهريـد » احتجاجـا شديـدا الى القسطنطينية بسبب قيام الكنيسة البلغارية بعـدم اشراك القساوسة المقدونيين فى المجمع الكنسى . وتم عندئذ تقديم طلب جديد باعادة نشاط أسقفية أوهريد . وأعيد هذا الطلب عدة مرات دون جدوى ، وعلى الأخص بعد مؤتمر برلين . الا أن أسقف « سكوبلى » ، « تيودوسيا جولوجانوف »، رفض فى الفترة من عام ١٨٩٠ وحتى عام ١٨٩٢ الاعتراف بسلطان ونفوذ الكنيسة البلغارية ، وبدأ مفاوضاته الشخصية مع بطريركية القسطنطينية أولا ، ثم مع كنيسة روما الكاثوليكية بشأن احياء نشـاط أسقفية « أوهريد » . غير أن المحاولة فشلت أمام الاعتراض الجماعى من جانب بلغاريا واليونان وصربيا التى كانت كل دولة منها تحمى مصالحها الخاصة .

واستمر أيضا الكفاح من أجل استئناف نشاط أسقفية « أوهريد » فيما بعد حينما كانت مقدونية مقسمة بين الدول البلقانية المجاورة ، وبالتالى كانت الكنائس المقدونية مقسمة بين الكنائس الثلاث . واستمر هذا الموقف ابان نشوب المعركة التحررية للشعب المقدونى . وفى الخامس عشر من أكتوبر فى عام ١٩٤٣ تم عقد الجلسة الأولى للقساوسة المقدونيين فى المنطقة المستقلة بالقرب من « أوهريد » . واختار الجميع الكنيسـة الحرة المستقلة . وتم تأكيد هذا القرار فيما بعد بوساطة أول مجمع كنسى مقدونى تم عقده فى مارس فى عام ١٩٤٥ فى « سكوبلى » وفى السنة التالية تم تنظيم العلاقات بين الكنيسـة المقدونية الأرثوذكسية وبين الكنيسة الصربية . الا أن الكنيسة الصربية لم توافق على الاتفاق مـع الكنيسة المقدونية .

وفى عام ١٩٥٨ تم عقد اجتماع للمجمع الكنسى فى كنيسة القديسة صوفيا فى « أوهريد » ، وفى شكل رمزى تم اتخاذ قرار باعادة اسقفية « أوهريد » . وتم اختيار الأسقف « دوسيتى ستويكوفسكى » ، أسقف مقدونية وأوهريد وسكوبلى ، لكى يترأس الكنيسة المقدونية الأرثوذكسية . واستمرت الكنيسة الصربية تتجاهل تمام التجاهل المتغيرات السياسية والاجتماعية العميقة التى جرت فى يوغسلافيا ،وظلت مصرة على استمرارية سلطانها على الكنيسة المقدونية . وفى عام ١٩٦٨ تم فى « أوهريد » اعلان استقلال الكنيسة المقدونية وبذلك انتهت مرحلة هامة فى تاريخ انشاء الكنيسة المقدونية المستقلة .

ورحب بهذا الأمر المقدونيون داخل مقدونية وخارجها ، وحدثت نهضة فى الحياة الدينية فى مقدونيـة وبين المقـدونيين الموجودين فى أستراليا وكندا والولايات المتحدة الأمريكية وفى دول غرب أوروبا . وفى عام ١٩٧٧ تم انشاء كلية اللاهوت التى تم عن طريقها حل جميع المشكلات الخاصة بالكوادر اللازمة للكنيسة . وتم تحقيق الكثير فى مجال النشر بحيث توفرت الكتب اللازمة ، وجارى الاعداد لطبع كتاب الانجيل باللغة المقدونية ، وهذا أمر على قدر كبير من الأهمية بالنسبة للمسيحيين فى مقدونية . كما يجرى تشييد العديد من الكنائس داخل البلاد وخارجها .

ويمكن القول بأن العلاقات بين المسيحيين والمسلمين طيبة بوجه عام وهناك تعاون بناء بينهم فى مجالات متعددة . ولكن للأسف هناك من لا يبتهجون بهذه العلاقات الطيبة ولا يسعدون بهذا التعاون البناء فيحاولون تعكير صفو هذه العلاقات وتخريب هذا التعاون .

الطائفة الاسلامية المقدونية

وقعت مقدونية تحت سلطان الأتراك العثمانيين فى النصف الثانى من القرن الرابع عشر ، الأمر الذى أحدث تغيرات فى الحياة الاقتصادية والاجتماعية والدينية والثقافية لهذه المنطقة . وأدخل الأتراك العثمانيون الاسلام الى مقدونية ، ومنذ ذلك الحين والاسلام متواجد فى هذه المنطقة .

وحلت الدولة العثمانية الاسلامية محل الامبراطورية المسيحية فى دور الوسيط والناشر لعناصر الحضارة والثقافة الاسلامية والشرقية بين السلاف فى منطقة البلقان . والخلاف الوحيد بينهما يتمثل فى اتساع مدى التأثيرات الاسلامية والشرقية التى خلفتها الامبراطورية العثمانية وعمقت جذورها بين سكان هذه المنطقة لدرجة أن كثيرا من هذه التأثيرات والعناصر مازال موجودا حتى بعد انحسار وزوال السيطرة العثمانية بل

ويمكن القول بانها موجودة حتى يومنا هذا . والأدلة على ذلك متعددة ومتواجدة فى كل مكان من مقدونية . فنظرة واحدة الى المدن والقرى التى كان يكثر فيها المسلمون المقدونيون خلال الحكم العثمانى تبين لنا تعدد جوانب وعمق التأثيرات الاسلامية والشرقية . وقـد أشرنا الى أنـه لازال هناك الكثير من الكلمات العربية والتركية والفارسية التى انضمت ، عن طريق العثمانيين ، الى قاموس اللغة المقدونية وغيرهـا من لغـات هذه المنطقة .

ولابد أن أنوه على الفور الى قلة الدراسـات والأبحـاث العربية التى تتعمق فى دراسة هذه الظواهر والقاء الأضواء عليها . وأعتقد أن السبب الرئيسى فى ذلك مرجعه الى عدم وجود الباحثين المتخصصين الذين يجيدون اللغة المقدونية اجادة تسمح لهم بالاطلاع على المخطوطات والوثائق التى تسلط الأضواء على تلك الحقبة الهامة من تاريخ مقدونية .

وقد لاحظت فى الآونة الأخيرة اهتماما غير عادى من وسائل الاعلام فى الدول الاسلامية بالمسائل المتعلقة بالاسلام والمسلمين فى يوغسلافيا فى اطار الديمقراطية والاشتراكية والتسيير الذاتى . والحقيقة أن بعض الصحف تكتب كتابات موضوعية علمية واقعية عن الاسلام فى يوغسلافيا وعن الظروف التى يعيش فيها المسلمون اليوغسلاف . ولكن هناك بعض الصحف تكتب ، لأسباب كثيرة ، أمورا لا أساس لها من الصحة ولا تقوم على سند واقعى . وهذه الكتابات تهدف الى تشويه صورة الاسلام فى يوغسلافيا ونشاط الجماعة الاسلامية ، وهى بعيدة عن التحليل الواقعى الموضوعى لنشاط ولعمل المسلمين فى يوغسلافيا .

وبحكم زياراتى المتعددة لكثير من المساجد الموجودة فى أنحاء كثيرة من يوغسلافيا ، وبحكم اقامتى فيها لفترة زمنية طويلة يمكننى أن أقرر بان الاسلام بخير فى يوغسلافيا وأن المسلمين فى يوغسلافيا من أكثر الجماعات تنظيما وانتظاما . ويحق لنا بالفعل نحن المسلمون أن نفتخـر بوجود مثل هؤلاء المسلمين فى يوغسلافيا .

ويتمتع المسلمون فى مقدونية بحرية ممارستهم لشعائرهم الدينية ، فالحرية الدينية مكفولة للجميع ولا تتدخل الحكومة فى أى شان من شئون المسلمين . كما يتلقى الطلبة المسلمون تعليمهم فى المدارس الحكومية فى مختلف مراحل التعليم جنبا الى جنب مع اخـوانهم الطلبـة المقـدونيين بلا تمييز أو تفرقة . وبالاضافة الى ذلك توجد فى كل تجمع للمسـلمين مدرسة خاصة بهم لتعليم أولادهم مبادىء اللغة العربية وتعـاليم الدين الاسلامى .

ومن الحتم التنويه بأن المسلمين فى مقدونية يشتركون اشتراكا صادقا وفعالا فى كل شئون الدولة ويساهمون فى كل أنشطتها وفى كل التدابير المتخذة فى جميع مجالات النشاط والعمل . وأعتقد أن دافعهم الأول فى هذا المضمار أنهم ينعمون بجميع الحقوق التى تمنحها الدولة لمواطنيها فى الحياة السياسية والاقتصادية والاجتماعية والثقافية .

ويشرف على شئون المسلمين فى مقدونية فرع من رئاسة الجماعة الاسلامية . ورئيسه الحالى هو الحاج يعقوب سليموفسكى الذى تولى القيام بهذا العمل فى عام ١٩٨٠ بعد وفاة الرئيس السابق الحاج بدرى حامد . والحاج يعقوب مولود فى مدينة « كيتشفو » فى شهر أكتوبر من عام ١٩٤٦ . وقد أنهى دراسته الابتدائية ببلدته فى عام ١٩٦١ ، وبعد ذلك التحق بمدرسة غازى خسرو بك فى « سرايفو » وأنهى دراسته بها فى عام ١٩٦٦ . وفى عام ١٩٦٧ التحق بجامعة الأزهر المصرية ودرس بها حتى عام ١٩٧٢ . وفى نفس العام التحق بالعمل فى رئاسة الجماعة الاسلامية بمقدونية ، وتقلد فيها مختلف المناصب الى أن تولى العمل مكان الحاج بدرى .

وتعمل رئاسة الجماعة الاسلامية فى مقدونية كجهاز جماعى يقوم على الشورى ويعى التزاماته وواجباته وفقا للائحة الجماعة الاسلامية فى يوغسلافيا وكذلك وفقا للائحة الجماعة الاسلامية فى مقدونية . وتعقد رئاسة الجماعة الاسلامية اجتماعا دوريا كل أربعين يوما تقريبا ، الأمر الذى يوضح النشاط الفعال المنظم لرئاسة الجماعة الاسلامية ومتابعتها الدورية العملية لكل شئون المسلمين فى مقدونية . كما تقدم رئاسة الجماعة الاسلامية عددا من الخدمات فى جميع النواحى العلمية والثقافية والاجتماعية مثل جمع أموال الزكاة والصدقات من المسلمين القادرين وتوجيهها الى مصارفها الشرعية فى الأعمال الخيرية وفى المشروعات المفيدة للمسلمين وللمجتمع ككل .

وقد لمست أن المسلمين يتمسكون بدينهم ويحافظون على شعائره وقيمه وتقاليده ، وهم أكثر التزاما بتعاليم دينهم من العديد من أقرانهم فى دول اسلامية ومن أقرانهم فى دول كثيرة أخرى . كما أنهم يحرصون على أداء الصلوات الخمس فى المساجد ويقوم عدد كبير منهم بأداء فريضة الحج الى بيت الله فى موسم الحج من كل عام .

وهم يحتفلون أيضا طوال شهر ربيع الأول بذكرى المولد النبوى الشريف بتلاوة القرآن ودراسته فى المساجد وبالقاء قصائد فى مدح الرسول . وأتباع الطائفة الاسلامية فى مقدونية يستقبلون ، كغيرهم من

باقى المسلمين فى جميع أنحاء يوغسلافيا ، شهر رمضان استقبالا حافلا لأنهم يعرفون جيدا أنه شهر الصيام والمرحمة والذكر والعبادات وأنه شهر يفيض بالخيرات والبركات أكثر من أى شهر آخر . ولذا فانهم ينشطون فى هذا الشهر الكريم الذى تنفتح فيه جميع أبواب الرحمة والمغفرة أملا فى أن يستفيدوا من تلك الخيرات وتلك البركات التى يمنحهم اياها الله جل شأنه .

ودرجات الحرارة العالية التى تسيطر فى بعض الأحيان على أيام رمضان لا تمنع المسلمين فى مقدونية من تأدية فريضة الصيام حتى ولو كانوا يقومون بأشق الأعمال وحتى لو كانوا يؤدون أعمالهم فى أشد الظروف صعوبة . وهم لا يشعرون بأية مشقة من وراء هذا الصيام لأنهم على وعى كامل بأن كل ما فرضه الله عليهم ليس الا لمصلحتهم ولن يصيبهم على الاطلاق بأية أضرار .

ولم يحد المسلمون فى مقدونية عن سنة نبينا بحيث أن الجوامع تكتظ باعدادهم الغفيرة أكثر من أى وقت آخر . وفى أحوال كثيرة تمتلىء أيضا أفنية المساجد بالمسلمين الذين قدموا لتأدية الصلاة ولسماع الخطبة نظرا لأنه لا يوجد لهم مكان بداخل المسجد . كما أنه يتم فى هذا الشهر المبارك تنظيم محاضرات مختلفة عن الاسلام وعن مبادئه وتعاليمه . وفى « سكوبلى » يتم القاء دروس فى الوعظ ودراسة بعض أجزاء القرآن وانشاد مختلف قصائد المدح النبوى باللغات الألبانية والتركية والمقدونية والصربوكرواتية . كما يتم الاحتفال بليلة القدر بنفس الأسلوب . وسمعت أن بعض أهل القرى المقدونية من المسلمين يبدأون من اليوم الخامس عشر من شهر رمضان المعظم عملية الأفطار المشترك لأهل القرية جميعهم عند أحد سكان القرية أو فى المسجد ، ويستمر هذا الافطار اليومى المشترك الى وقت حلول العيد .

ومن الطبيعى أن العيد هنا لا يحمل طابعه الموجود فى الدول العربية والاسلامية ، وذلك لأنه ليس عطلة رسمية . فالعيد هنا يوم عمل عادى . ويحتفل به المسلمون فى مقدونية بطريقتهم الخاصة ووفقا لظروفهم . ويجهز بعض المسلمين مأدبة كبيرة ويدعون اليها بعض الأصدقاء ، وبذلك تكون سمة متميزة بالاضافة الى تأديتهم لصلاة العيد .

والمسلمون فى مقدونية لا يأكلون لحم الخنزير ولا يشربون الخمور ، ولذلك لا يوجد الكثير من المقاهى والمطاعم التى لا تقدم أى نوع من أنواع الخمور أو لحوم الخنزير . وقد لفت نظرى أن بعض السيدات يلبسن ملابس طويلة مزركشة ويغطين رؤوسهن بالايشارب ، أو يلبسن البالطو

والايشارب والجوارب السميكة . وبالسؤال عرفت أنهن من المسلمات اللاتى يحرصن على ارتداء الملابس المحتشمة .

ومن التقاليد الجميلة التى تنتشر فى البيوت المقدونية بوجه عام عادة خلع الحذاء عند مدخل باب المنزل ، وهو تقليد يلتزم به الجميع تقريبا . ومن المؤكد أن هذه هى احدى العادات الاسلامية . وهذا التقليد نابع فيما يبدو من الحرص على التشدد فى مسألة طهارة المكان خشية أن يلوث الحذاء طهارة البيت ومفروشاته أسوة بالتقاليد التى يلتزم بها المسلمون عند دخولهم المسجد .

وامام المسجد شخصية على قدر كبير من الأهمية فى مجتمع المسلمين فى مقدونية ، فهو يتولى مهنة تعليم مبادىء الدين الاسلامى وتعاليمه ومبادىء اللغة العربية للنشء ، وذلك الى جانب امامة الصلاة والقاء دروس الوعظ وخطبة يوم الجمعة والمحاضرات والدروس الدينية للكبار . وهو يعقد كذلك بعض حلقات الدرس والندوات الدينية فى المساء . ويقوم أيضا بالقاء دروس الوعظ وعقد الندوات فى منازل المسلمين ، وانشاد قصائد المدح النبوى فى المناسبات المختلفة . هذا علاوة على قيامه بعقد القران بالطريقة الاسلامية .

ومما لا شك فيه أن كل هذه الأنشطة والوظائف المتعددة تدر عليه دخلا طيبا ، ومجزيا فى أحيان كثيرة ، خاصة وأن هناك وظيفة تدخل فى اختصاصات الامام ولا يمكنه أن يتحلل منها آلا وهى غسل الموتى ودفنهم . ويسود اعتقاد شائع بأن وجود الامام الى جانب المتوفى فى رحلة انتقاله الى الدار الآخرة وتلاوته آيات القرآن الكريم على روحه تخفف عنه العذاب فى الآخرة . ونظرا الى حساسية هذه المسألة وأهميتها فقد أعدت لها رئاسة الجماعة تسعيرة محددة ومفصلة ، وهى تفرق بين أجر عملية الغسل اذا قام به الامام أو اذا قام به المؤذن الذى يعد مساعدا للامام فى كثير من هذه المهام ، كما تفرق فى الأجر وفقا لجنس المتوفى وعمره . ولكنى أعتقد أن هذه الأمور نسبية .

وكل هذا يزيد من أهمية عمل امام المسجد بل وخطورته ويحمله الكثير من المسئوليات والتبعات ، وهذا بالطبع يجرنا الى الحديث عن الأئمة وعن الكوادر الدينية بوجه عام فى مقدونية . وهناك فى الوقت الحالى ٤٠٢ شخصا يقومون فى مقدونية بمهام الامام ، منهم خمسون فقط حصلوا على مؤهلات عليا ، وعدد كبير من هؤلاء الأئمة أنهى دراسته بالقاهرة بجامعة الأزهر . ومنهم اثنان وثمانون حصلوا على مؤهلات

متوسطة ، ومنهم مائة وأربعون أنهوا الامتحان الخاص بالائمة . والباقون حصلوا على تعليم اقل من المتوسط أو أنهم من الأئمة المحالين الى المعاش :

ولا شك أن هذا العدد من الكوادر الدينية لا يكفى للقيام بمهام الحياة الدينية للمسلمين فى مقدونية . ومن هنا يبرز العديد من المشاكل التى تواجه رئاسة الجماعة الاسلامية فى مقدونية . فهى ترسل عددا من طلبتها لتلقى دراستهم بالمدارس الاسلامية فى « سرايفو » أو « برشتينا » او بكلية الدين فى سرايفو . وهذه أيضا تمثل مشكلة كبيرة بالنسبة للجماعة الاسلامية فى مقدونية ، وذلك لأن تلقى العلم والتعلم فى ظروف مختلفة ومغايرة واكتساب المعارف والتجارب المتنوعة فى هذا العالم المتغير يجعل من الصعب على بعض الدارسين التكيف مع البيئة المقدونية وتقبل النهج الذى وضعته الجماعة الاسلامية هدفا وخطة لها .

ومن هذا المنطلق نبعت فكرة فتح المدرسة الاسلامية فى « سكوبلى » . وهو أهم انجاز من الانجازات التى قامت بها الجماعة الاسلامية فى مقدونية . وقد تم بناء هذه المدرسة على نفقة المسلمين فى جمهورية مقدونية ومن حصيلة التبرعات والزكاة ، وهذا دليل واضح على استعداد المسلمين فى مقدونية لتقديم التضحيات وانكار الذات فى سبيل الله ، ويدل كذلك على وعيهم وادراكهم لأهمية وجود مثل المؤسسة التعليمية فى مقدونية بحيث تسد احتياجات ومتطلبات الحياة الدينية فى مقدونية بالأسلوب الذى يناسب هذه المنطقة المتميزة .

وقد تم فى الرابع من أكتوبر فى عام ١٩٨٤ افتتاح هذه المدرسة الاسلامية فى « سكوبلى » وحضر الاحتفال الحاج نعيم حاج عبدتيش رئيس العلماء ، أى رئيس الطائفة الاسلامية فى يوغسلافيا كلها ، وكبار قيادات المسلمين اليوغسلاف وكبار المسئولين فى مقدونية وممثلين عن الطائفتين المسيحية واليهودية . والمدرسة مشيدة على مساحة أربعة آلاف متر مربع وتشمل ثلاثة مبانى : مبنى للفصول الدراسية والادارة ومكتبة وقاعة للقراءة ومسجد لأداء الصلاة ، والمبنى الثانى يشمل المطعم والمطبخ والمخازن ، والمبنى الثالث للمبيت والعيادة ولنظام التدفئة والتخزين . ويوجد بها أيضا فناء واسع وملعب .

ويوجد بالمدرسة فى الوقت الحالى حوالى ١٣٥ طالبا منتظما ، وحوالى ٤٥ طالبا غير منتظم . وهم يدرسون المواد التالية : القراءة واللغة العربية والعقائد والفقه والأخلاق وتاريخ الاسلام واللغة المقدونية (أو الألبانية أو التركية) واللغة الانجليزية والجغرافيا والتاريخ والطبيعة وتقوم بتدريس

هذه المواد نخبة ممتازة من المدرسين وعلى رأسهم رئيس الجماعة الاسلامية فى مقدونية .

ومن الحتم أن ننوه الى أنه كانت توجد مدرسة اسلامية عليا فى « سكوبلى » فى الفترة من عام ١٩٢٥ وحتى عام ١٩٤١ . وبعد الاحتلال توقفت المدرسة عن العمل ، ففى الأيام الأولى للاحتلال قام البلغار بحرق أرشيف المدرسة ومكتبتها . وكان يدير هذه المدرسة أحمد محمد باشيتش الذى كان يحاضر فى اللغة العربية والتفسير والفقه واللغة الألمانية . وقد اشترك طلبة هذه المدرسة فى حرب التحرير الشعبية ولقى كثير منهم مصرعه فى أثنائها .

ولا شك أن استكمال التعليم فى الكليات فى الدول الاسلامية سيؤدى بالتالى الى تحسن أحوال الكوادر اللازمة للعمل فى مجال الدين الاسلامى . الا أن بعض الخريجين يشترطون عدم العمل فى الامامة والقيام بأى عمل آخر فى أجهزة الجماعة الاسلامية ، وذلك بالرغم من أن الجماعة الاسلامية فى مقدونية فى حاجة شديدة الى عدد من الأئمة . ومع كل هذا فالخريجون من الكليات فى الدول الاسلامية يساهمون بنجـاح فى عمل الجماعة الاسلامية .

ومن المؤكد أن ارتفاع المستوى التعليمى لرجال الدين المسلمين فى مقدونية له صلة مباشرة بعدم اشتراك أى شخص منهم فى المظاهرات العدائية التى وقعت بمنطقة كوسوفو من جانب الانفصاليين أو المتعصبين . وهذا يبين بجلاء أن هؤلاء المسلمين يتمتعون بقدر عال من الوعى القومى وأنهم أوفياء لروح دينهم وقرآنهم الذى يحثهم على التضامن وجمع شمل أفراد الشعب بغض النظر عن جنس أو دين أو قومية .

وعدم انتشار اللغة العربية يخلق صعوبات جمة أمام المسلمين فى مقدونية عند فهم واستيعاب أصول الدين الاسلامى ، كما أن الكتب الاسلامية المكتوبة بلغاتهم والمترجمة اليها محدودة للغاية . وظهرت مؤخـرا كتب لتعليم الصلاة واللغة العربية وعن الأضحية باللغات المقدونية والتركيـة والألبانية ، وجارى فى الوقت الحالى العمل على اصدار مجلة « الهلال » باللغات الثلاث المذكورة بعد اعداد الكوادر اللازمة للكتابة والتحرير .

ومن الأنشطة الرئيسية للجماعة الاسلامية فى مقدونية جمع التبرعات وأموال الزكاة وجلود الأضحيات ، وتزيد حصيلة هذه التبرعات عاما بعد عام . ومن المعلوم أنه تم عن طريق هذه المبالغ تشييد المدرسة الاسلامية « بسكوبلى » وكذلك تعليم الطلبة المسلمين فى المـدارس الاسلامية بيوغسلافيا . وبواسطتها أيضا يتم تمويل المشروعات الخاصة بالمسلمين .

علاوة على ترميم المساجد القديمة وصيانتها واقامة مساجد جديدة فى أنحاء متفرقة من مقدونية .

ومن تلك المساجد الجديدة ذلك المسجد الذى أقيم فى «ديبار» وبلغت مساحته ٢٨ × ١٦ مترا ، وبلغ عدد المصلين به عند صلاة الجمعة حوالى أربعمائة شخص ومع ذلك لم يكن الجامع ممتلئا فهناك متسع لما يزيد على مائة شخص آخرين . والجامع قبة تستند على أربعة أعمدة ، ويوجد أمام الجامع فناء ممتد به صنابير المياه للوضوء وهى مياه آتية من نبع موجود فى فناء الجامع . ومئذنة الجامع بشكلها وأبعادها تنسجم انسجاما كاملا مع شكل الجامع وهندسته . وهناك حوالى ٤٥ نافذة تسمح بدخول القدر الكافى من الضوء الى ساحة الجامع . وجدران الجامع بيضاء ومرصعـة بأسماء الله الحسنى وكذلك أسماء جميع الرسل المذكـورين فى القـرآن الكريم ، ومزينة كذلك بأسماء الملائكة جبريـل واسرائيـل واسرافيـل وميكائيل . وعلاوة على ذلك تم تحت القبة نقش العديد من آيات القرآن . والمحراب والمنبر مزينان برسومات لباقات من الورود أو بورود بارزة .

والحقيقة أن النقوش الموجودة بهذا المسجد كثيرة للغاية ومن المؤكد أنه قد تم انفاق كثير من الأموال عليها ، كما أنها قد تلفت أنظار المصلين وتشتت انتباهم أثناء الصلاة . والمسجد مزين بعديد من الثريات الغالية وساعات الحائط وكلها هدايا من أتباع الجماعة الاسلامية . وأرضية المسجد مغطاة كلها بالموكيت . وقد بدأ تشييد الجامع الجديد فى عـام ١٩٧٤ ، وكان يوجد فى نفس هذا المكان جامع تدمر بسبب الزلزال الذى وقع فى عام ١٩٦٧ :

وفى عام ١٩٨٣ تم افتتاح مسجد جديد فى قرية « ديبريشا » على بعد كيلومترين من مدينة « جوستيفار » . ولم يكن الجامع القديم كافيا لسد احتياجات المصلين ، ولذا نشأت الحاجة الى بناء مسجد آخر فى وسط هذه القرية التى يتزايد فيها عدد المسلمين . وقد استغرق بناء هذا المسجد ما يقرب من السنتين وسـاهم فى انشائه كـل المسلمين بتبرعاتهم ومعاوناتهم ، واشتركت فيه أيضا القرى المجاورة .

وتبلغ مساحة المسجد ١٧ × ١٩ مترا ويصل ارتفاع المئذنة الى حوالى ٣٥ مترا ولها شرفتان . ومكان الوضوء به ما يقرب من ١٢ صنـبورا ، والمسجد من الداخل مزين بالثريات . وعند افتتاح المسجد ردد الحاضرون التكبيرات وازدحم المسجد من داخله وخارجه بالمسلمين الذين جاءوا لكى يستمعوا لتلاوة القرآن التى كان يقوم بها حافظو القرآن الشبـاب من

سكوبلى وجوستيفار وتيتوفو ، ولكى يستمعوا الى المحاضرة والى كلمات التهنئة .

وتشتهر قرية « فرابتشيشته » عند مدينة « جوستيفار » بتقليد حفظ القرآن وختمه ، وهى فى هذا المضمار تعد القرية الأولى فى مقدونية . وبهذه المناسبة يتم عقد امتحان للمتقدمين وغالبا ما يكون سنهم صغيرا . وبعد النجاح فى امتحان حفظ القرآن تتم تلاوة دعاء ختم القرآن فى حضور عدد كبير من المسلمين والأئمة . ويحصل الشخص الذى ختم القرآن ونجح فى هذا الامتحان على لقب « حافظ » .

ومن الملاحظ بوجه عام أنه تم فى الآونة الأخيرة تشييد عدد لا بأس به من المساجد الجديدة واجراء تجديدات شاملة بعدد كبير من المساجد الأخرى . وهذا يرجع ، فى المقام الأول ، الى ارتفاع مستوى معيشة المسلمين فى مقدونية والى رغبتهم فى أن تكون لديهم مساجد جيدة حديثة مجهزة أفضل تجهيز ، هذا علاوة على التبرعات التى يبعث بها المسلمون من خارج مقدونية . وفى هذا المجال تتنافس القرى والمدن بين بعضها فى تشييد المساجد وتجديدها .

وهذه الرغبة العارمة من جانب المسلمين فى مقدونية بتشييد العديد من المساجد الجديدة دعت رئاسة الاسلامية الى وضع مجموعة من القواعد والضوابط لا بد من الالتزام بها عند اتخاذ القرارات الخاصة ببناء الجديد من المساجد . فاذا قدمت مجموعة من المسلمين مبادرة لتشييد مسجد فى أحد الأماكن فلابد أن يوافق على هذه المبادرة المجلس المحلى للجماعة الاسلامية ، واذا حصلت المبادرة على موافقته يتم عرضها ومناقشتها فى لجنة رئاسة الجماعة الاسلامية فى مقدونية . وبعد الحصول على تصريح بالبناء من جهات الاختصاص تصدر اللجنة قرارها النهائى وفقا للوائح المنظمة لهذه الأمور .

وعلى هذا النحو تم تشييد عدد كبير من المساجد فى مقدونية . ويصل عدد هذه المساجد والجوامع فى الوقت الحالى الى حوالى ٤٣٦ جامعا ومسجدا وتكية . وعلى رأس هذه القائمة تقف مدينة « سكوبلى » التى يوجد بها ٨٠ جامعا وتسعة مساجد وتكيتان ، وتليها مدن تيتوفو وجوستيفار وكيتشيفو ، وفى ذيل القائمة تقع أوهريد وريسن .

ويمكن تقسيم المدن المقدونية الى ثلاث مجموعات من حيث كثافة الحياة الدينية ونشاط المسلمين بها : المجموعة الأول وهى تشمل المدن التى يمكن اعتبار الحياة الدينية بها كثيفة مثل مدن سكوبلى وكومانوفو

وتيتونو وجوستيفار . والمجموعة الثانية مثل مدن ديبار وستروجا وأوهريد وكيتشفو وتيتوف فيليس ، وفيها الحياة الدينية مرضية ويمكن أن تكون افضل من ذلك . والمجموعة الثالثة وتشمل مدن ريسن وبيتولا وشتيب والحياة الدينية فيها ضعيفة للغاية .

وغالبية المسلمين فى مقدونية يعتنقون المذهب الحنفى أسوة بالأتراك العثمانيين . ولا زالت الطرق الصوفية موجودة فى مقدونية ، ومن أشهر الطرق الصوفية الموجودة بها الطرق الخلوتية والبكتاشية والقادرية . وأهل السنة لا علاقة لهم بتلك الطرق الصوفية بل ان هناك من أهل السنة من يستنكر أنشطتها وما يتخلل ممارساتها من بدع . وبعض المنتمين الى هذه الطرق ذهبوا بعيدا الى الحد الذى يعتبره أهل السنة خروجا عن الاسلام . ومن اتباع هذه الطرق الصوفية من يكتفى بحلقات الذكر دون تأدية الصلوات . ومن الملاحظ أن أكثر أتباعهذه الطرق الصوفية من كبار السن وبسطاء الناس الذين لا يحسنون معرفة الدين الاسلامى وليست لديهم القنوات الشرعية للحصول على المعارف الصحيحة عن هذا الدين القويم .

وفى شهر نوفمبر من عام ١٩٨٤ قدم تليفزيون « سكوبلى » مسلسلا تليفزيونيا من ثمانى حلقات عن المسلمين فى مقدونية . وعرض هذا المسلسل لكيفية دخول الاسلام الى مقدونية أثناء الحكم العثمانى وما نتج عن ذلك من انشاء مدن وقرى ومناطق سكنية للمسلمين فى مقدونية . وتم تصوير المسلمين المقدونيين الذين يعيشون فى منطقة جورا ، على المنحدرات الشمالية لجبلى شار وكوريتنيك بمنطقة كوسوفو . وهؤلاء هم المسلمون المقدونيون الذين يطلق عليهم اسم « جورانى » ، ويعيشون أيضا فى أجزاء أخرى من يوغسلافيا . وهؤلاء المسلمون المقدونيون يتحدثون بلغة مقدونية نقية وسليمة يحسدهم عليها علماء اللغة .

كما قدم هذا المسلسل حلقة خاصة عن المسلمين المقدونيين الذين يعيشون فى تركيا ويبلغ عددهم فى الوقت الحالى ما يقرب من ١٥٠ ألف مسلم . ومن الطريف أن هؤلاء المسلمين المقدونيين يواصلون فى تركيا اهتمامهم بالتحدث باللغة المقدونية ، بل وتوجد قرى كاملة لا يعيش فيها الا المسلمون المقدونيون . وكثيرا منهم ما زال محتفظا بالعادات والتقاليد المقدونية .

الباب الثالث

الفصل الأول ـ الأدب الشعبى المقدونى

الفصل الثانى ـ الشعر المقدونى

الفصل الثالث ـ الفن القصصى والروائى

الفصل الرابع ـ الأدب المسرحى

الفصل الأول

الأدب الشعبى المقدونى

نقصد بالأدب الشعبى المقدونى تلك الفنون الأدبية المتنوعة ، سواء بالشعر أم بالنثر ، التى لم ترتبط باسم مؤلف معروف . وتعبير «الشعبى» هنا يعنى تبعيتها للشعب كله ، ذلك أن هذا المؤلف المجهول لايعيش حياة ذاتية بعيدة عن مجموع أفراد الشعب ، انما يعيش حياة شعبية بكل ماتحمل هذه الكلمة من معانى . وهذا المؤلف بما يمتلك من نشاط ابداعى خلاق يصيغ الكلمة المعبرة التى سرعان ماتلقى هوى بين أفراد الشعب جميعه لأن فيها تكمن روحه وتجاربه ومشاكله .

وقد انتقلت هذه الفنون الأدبية المقدونية شفاهة سواء بانشادها أو سردها وحكايتها من جيل الى جيل ، ومن مكان لآخر . ومن المعروف أن بدايات هذا التقليد ترجع الى عصور سحيقة ، كما هى الحال لدى أى شعب من الشعوب . وفى وقت لاحق تم – كتابة – تسجيل هذه الفنون ، وهكذا بقيت موجودة حتى أيامنا الحالية . » .

ولا ريب فى أن الشعب المقدونى قد أبدع عبر تاريخه أدبا شعبيا متنوعا يتألف من أشعار غنائية وملحمية ودينية ومن عديد من الحكايات ، ومن كمية وفيرة من الأمثال الشعبية ومن عدد لا بأس به من الألغاز . ولا زال الأدب الشعبى المقدونى يحيا حياة مكثفة نشيطة حتى الوقت الحالى وذلك ، بالطبع ، نظرا لارتباطه بالأحوال السياسية والاجتماعية والاقتصادية والثقافية .

وما أبدع أن نستشف فى الأدب الشعبى المقدونى خلجات المقدونيين النفسية واهتماماتهم الروحية وآمالهم العريضة . ولسنا فى حاجة الى التأكيد على أن الأدب الشعبى المقدونى ، وعلى الأخص الشعر الشعبى ،

كان يتابع بلا انقطاع بعقل واع وبعينين ثاقبتين حياة الانسان المقدونى بحيث أنه يمكننا القول أنه كان بحق صورة شاملة دقيقة ـ الى حد بعيد ـ لتاريخ الشعب المقدونى .

ونظرا لأن الشعب المقدونى ، على مر العصور والأزمان ، كان يعانى من نقص شديد فى الأدب الفنى المكتوب بلغته الشعبية فقد كان الأدب الشعبى المقدونى هو الأسلوب الأساسى الذى كان يتم به التعبير عن رغبات وأفكار المقدونيين ، وعن مشاعرهم الذاتية وعن سعادتهم العامة وعن معاناتهم الشخصية فى عديد من القصائد الغنائية ، والاعراب عن احتجاجهم ضد مختلف ألوان الظلم المستمرة الواقعة عليهم من جانب الاقطاعيين والمستعبدين والأغوات والبكوات وقطاع الطرق واللصوص فى القصائد الغنائية والملحمية ، وكذلك تصوير تحمسهم وشغفهم بكل ما هو غريب وخيالى فى الحكايات الشعبية ، ويتم به التعبير عن آرائهم فى الحياة والناس فى الأمثال الشعبية والألغاز .

وليس من قبيل الاستطراد الاشارة الى أن القصيدة الشعبية المقدونية ، وهى من أهم فروع الأدب الشعبى المقدونى ، نشأت فى موقف انفعالى فريد . وقد ألفها وصاغها شاعر مجهول فى لحظة من اللحظات الالهام الشعرى ، وسرعان ما تهيم هذه القصيدة فى سماء مقدونية ويتقبلها أفراد الشعب المقدونى فى فرح وابتهاج على أنها تصوير لحدث من من الأحداث ، وعلى أنها صيحة جزلة لقلب ولهان ، وعلى أنها تنهيدة مؤثرة لروح معذبة . **وهكذا يتم تقبل هذه القصيدة على أنها أول نص وعلى أنها معلومة أساسية عن احدى لحظات الانفعال التى تعبر عن أمانى ونشاط الانسان .**

وبالرغم من ذلك كان المنشد الشعبى يضيف الى القصيدة ، عبر الأزمان ، من عندياته ويعيش ويتعايش معها بأسلوبه الخاص . وهكذا كانت القصيدة الشعبية تتعرض لتغيرات مختلفة ولتعديلات متباينة ، فقد كان يتم تقصيرها أو اطالتها ويتم تبديل التفاصيل وتنسيق الأفكار . وكل هذا يتم وفقا لروح العصر ولذوق البيئة التى يتم فيها انشاد القصيدة . واستمرت هذه العمليات تجرى وتحدث الى أن قام جامعو الفنون الشعبية بتسجيلها فى الماضى غير البعيد .

وهكذا كانت القصيدة الشعبية تعيش حياة خصبة ثرية كحياة طفل مدلل بين أهله وعشيرته . وفى أثناء دورانها المضطرب السريع فى قرى ومدن مقدونية وبعد الاضافات المتتالية عبر القرون كانت قصائد شعبية كثيرة تتقدم فى العمر وتختفى ويغمرها النسيان مع مضى الأزمان ، بينما

كانت من قبل تتحدث عن أفراد الشعب وتبعث الدفء فى قلوبهم وصدورهم . الا أن اختفاء أو نسيان قصيدة من القصائد أو « احالتها الى الاستيداع » لم يكن يحزن أحدا على الاطلاق ، خاصة وأن الجميع يعلمون أن الشاعر الشعبى لا يكل ولا يمل وأنه يبدع قصائد جديدة تنعكس فيها صورة تلك الأيام الغابرة وصورة هذه الأيام الجديدة .

وحينما كان جامعو القصائد المقدونية ينشرونها فى كتب خاصة ، كانوا يراعون ترتيبها فى أشكال مناسبة مع مراعاة الأساليب التى كان سابقوهم يستخدمونها فى مثل هذه الأحوال . وقد قام « قنسطنطين ميلادينوف » ، بالاشتراك مع بعض زملائه ، بترتيب القصائد الشعبية المقدونية التى جمعها شقيقه « ديمترى » ونشرها ضمن المجموعة التقليدية للقصائد الشعبية المقدونية الخاصة بالأخوين « ميلادينوف » : ثم قسمها الى ثلاثة عشر نوعا وفقا لمضمونها أو فكرتها أو زمنها وما الى ذلك .

وفى مرحلة تالية قسمها « قزمان شاباكاريف » الى أربعة أنواع رئيسية ، وكل نوع له مجموعات فرعية . ويضم النوع الأول القصائد الخاصة بالجن وبالتنين والقصائد الدينية ، ويشمل النوع الثانى قصائد الطقوس . وقصائد النوع الثالث تتعلق بالحياة السياسية ، ويتضمن النوع الرابع قصائد من الحياة الاجتماعية والشخصية . ووفقا لهذا التقسيم الذى قام به وأكده معظم جامعى وناشرى القصائد الشعبية المقدونية يتضح أنه كانت لدى المقدونيين جميع أنواع القصائد الموجودة لدى الشعوب السلافية الجنوبية الأخرى .

والدارس للشعر الشعبى المقدونى يجد أنه يحوى بين جنباته العديد من الأفكار والموضوعات التى تختص وتتميز بها البيئة المقدونية والانسان المقدونى ، ولكنه أيضا يحمل فى طياته العديد من الأفكار والموضوعات المشتركة مع باقى الشعوب السلافية الجنوبية والبلقانية ومع الشعوب الأخرى ، الأمر الذى يدل دلالة قاطعة على أنها تخص الأدب الشعبى العالمى .

كما أن الدارس يلاحظ فى القصائد الشعبية المقدونية تنوعا وتلونا كبيرا وثراء وفيرا فى الأفكار والموضوعات التى تميز حياة الشعب المقدونى . ويرجع ذلك الى أن الشاعر الشعبى كان يصور ويصف فى الشعر حياة المجتمع المقدونى بكل جوانبها والعلاقات السائدة داخل الأسرة وفى المجتمع، ثم يلاحظ مختلف ردود فعل الأفراد تجاه مختلف الظواهر فى الحياة ويصيغ ذلك ثانية بالشعر .

وانطلاقا من الحياة الواقعية والأحداث الفعلية كان الشاعر الشعبى،

وفقا لفهمه وادراكه ، يصور جميع أفراد المجتمع ابتداء من الطفل فى مهده وانتهاء بالعجوز الذى أوشك على الموت ، ويصف جميع تجاربهم ورغباتهم وأفكارهم وتصرفاتهم . وكان لا يميز بين الفقير والغنى ، وبين الراعى والسيد ، وبين القساوسة والحجاج ، وبين الكتبة والأجراء ، وبين الفتيات والسيدات ، فهو باعتباره قاضى القضاة كان يطلق التقديرات ويصـــدر أحكامه على الطيب والسيىء من تصرفات أفراد المجتمع . ولذا فان القصيدة الشعبية تتضمن الكثير من الشخصيات الواقعية المفعمة بالحيوية والنشاط . الا أن الشاعر الشعبى كانت لديه القدرة والمقدرة على تصوير أحلام الشعب وخيالاته وحماسه للمعتقدات والعادات الشعبية ، وصاغ عددا كبيرا من القصائد يحمل هذا المضمون .

وحينما كان الشاعر يرسم الصور الخارقة للطبيعة ويصور التنين والجن والملائكة والقديسـين فى مثل تلك القصـائد الحافلة بالخيال وبالمعتقدات كان ينسب اليهم جميعا صفات وسمات حسنة وسيئة كتلك التى يتصف بها الأشخاص البسطاء الذين يتعرضون للموت . وعلى هذه اللوحة للرسم ، المسماة بالحياة ، كان الشاعر الشعبى يرسم ويعرض العديد من الشخصيات بحسناتها وسيئاتها ، وبأهوائها وكفاحها اليومى ونظرا لنبله وسموه فقد كان الشاعر الشعبى يراعى أن ينتصر الخير فى كل مجابهاته مع الشر ، بيد أن واقعيتـه كانت تدفعه فى بعض الأحوال بانتصار الشر والأشرار .

ولا يمكننا بالطبع فى هذه العجالـة أن نقـدم ونسـتعرض كل الموضـوعات والأفكار التى تتميز بها القصـائد المقدونية أو التى تعد مشتركة بينها وبين القصائد الشعبية الموجودة لدى الشعوب الأخرى ، ولكننا سنشير فحسب الى أكثر هذه الموضوعات تميزا .

وكان **الاختطاف** وسيلة محببة ومفضلة ، بل مألوفة ، من أجل الاستحواذ على المرأة لدى المقدونيين ، كما هو الحال لدى باقى الشعوب الأخرى فى الأزمان السابقة وعلى الأخص فى قرون الاستعباد . وكان اختطاف المرأة والقتال من أهم خصائص العهد الاقطاعى فى مقدونية ، ومن الطبيعى أن هذا قد انعكس على القصائد الملحمية المقدونية وجميع أبطال الشعر الملحمى المقدونى يجدون أنفسهم فى مواقف يختطفون فيها النساء أو يدخلون فى قتال مع مختطفى نسائهم ، سواء أكانت هذه القصائد تحكى عن الأبطال المقدونيين (الدوق مامتشيلو أو بولا دويتشين أو ماركو كرال أو نوفاك) أو عن غيرهم من الأبطال . بل وفى بعض الأحيان كان الفرد العادى يلجأ الى اختطاف المرأة ، ولذا تكرر موضوع الاختطاف فى القصائد الغنائية أيضا . وفى فترات الاستعباد كان يتم اختطاف الفتيات

المقدونيات الجميلات بواسـطة الأتراك والشراكسة والعـرب ، وكذلك بواسطة الألبان واليونان والألمان وغيرهم .

ولم يكن الشاعر الشعبى يهتم اهتماما كبيرا بعملية الاختطاف فى حد ذاتها ، اذ أنه كان يفضل أن يتابع ردود فعل أفراد العائلة والفتاة المختطفة نفسها . وهكذا فقد كان فى عديد من القصائد يصف المعارك الدموية مع المختطفين ويصور المقاومة البطولية التى تبديها الفتاة المختطفة وما تتعرض له من ضغوط وما يعتريها من تغيرات .

وفى القصائد أيضا ، كما فى الحياة ، يقوم المختطف بمقاومة زوج المرأة المختطفة ، ويجرى بينهما قتال يستمر حتى الموت . وتتملك الشجاعة الزوج ، ولكن المختطف تتملكه أيضا البطولة والا لما كان قد جرأ أساسا على الاقدام على عملية الاختطاف . وفى احدى لحظات القتال الجارى عادة ما تساعد المرأة مختطفها ، وبالتالى يتعرض الشاعر لوفاء المرأة أو عـدم وفائها . وقد أنهى « بانوفيتش ستراهينيا » مشكلته بأن غفر لزوجته الخائنة ، بيد أن النهـاية غالبا ما تكون أكثر واقعية لدى المقـدونيين . فالزوج ينجح فى قتل المختطف بالرغم من العون الذى قدمته له زوجته الخائنة ، ثم بعد ذلك يذيق زوجته أشد ألوان العذاب وأفظعها فهو يشعل فيها النار أو يدفنها حية أو يقطع أطرافها أو يقتلها .

واذا ما تتبعنا بالدراسة ما يذكره الشـاعر الشعبى فيمـا يتعلق بتصرفات الأفراد العاديين والسادة حينما يختطفون احدى الفتيات فسنجد أن نفس التصرفات تقوم بها القوى الخارقة للطبيعة والتنين . وعدد كبير من القصائد الغنائية يروى عن عمليات اختطاف مماثلة يصور فيها الشاعر الشعبى ردود فعل الفتاة المختطفة كما فى الحياة العادية .

ومن الموضوعات الموروثة من الأدب الكلاسيكى موضوع المصادفات السيئة التى قد تقود الى الحب الحرام بين الابن وأمه . ويعد هذا الموضوع من الموضوعات الواقعية بالنسبة للبيئة المقدونية ، وعلى الأخص فى قرون الاستعباد والطغيان . فقد كان يتم انتزاع الأبناء من أمهاتهم وارسالهم الى بلاد نائية ، وبعد ذلك يعودون الى بلادهم وقد تغيرت أحوالهم واكتسبوا قوة سياسية واقتصادية وأصبحوا ضحايا لأقدارهم . وفى أحوال أخرى يتم اختطاف الأمهات ويبقى الأبناء فى بلادهم وبعدما يكبرون يأخذون فى البحث عن أمهاتهم ، وتحدث الطامة الكبرى عندما يرتكبون السفاح وهم لا يعرفون أنهم قد عثروا على أمهاتهم . وهناك عدة موضوعات مماثلة فى القصائد الشعبية المقدونية ، ومن المعتقد أن لها أساس واقعى . ومن الطريف أن الشاعر الشعبى المقدونى كان **يجد لمثل هذه الذنوب تبريرا فلسفيا بقوله :**

الحمل الصغير ليس له ذنب ،
والبحر العميق ليس له قرار ،
والشجرة الشاهقة ليس لها ظل ،
والأحجار الصغيرة ليس لها عدد ،
والحقل الواسع ليس له نهاية ،
ولهذا فالفتاة الجميلة ليست لها عائلة .

وفى الأزمنة الغابرة كثيرا ما كانت تجتاح أوروبا كلها ، وعلى الأخص منطقة البلقان ، مختلف الكوارث والأوبئة والطاعون . وكان على الشاعر الشعبى أن يسجل كل هذه المصائب والبلايا التى كانت تبيد الأعزاء من أبناء وآباء . وهناك عشرات من القصائد الشعبية المقدونية تتحدث عن وباء الطاعون وعما فعله بالمقدونيين ، وتحكى عن وباء الطاعون الذى اجتاح « سكوبلى » فانتزع الابن من أمه التى كانت تستريح من عناء السفر عند نافورة المياه فى « سكوبلى » بعد عودتها من العمل خارج البلاد .

وتحدثت القصائد الشعبية المقدونية كذلك عن المتاعب والمضايقات التى كانت تجابه التجار المقدونيين فى أثناء قيامهم بالتجارة مع الدول القريبة والبعيدة وفى أثناء ركوبهم البحر وعبورهم بقوافلهم عبر الجبال والممرات الضيقة غير الآمنة .

ومن الموضوعات الكلاسيكية فى الشعر الشعبى المقدونى موضوع الدخول فى مراهنات مع الشمس ، والشخص الذى يكسب الرهان يحصل على أخت الشمس لكى يتزوج منها . ومن الموضوعات الشائعة أيضا موضوع اجراء مراهنات ومباريات بين الأبطال فى سرعة السير وفى قدرة الاحتمال أثناء اللعب وعند الشراب ، وفى العمل والالتزام ، وفى قدرة تحمل الشاب للرقود بجانب فتاة دون أن يلمسها ، وفى اختبار قوة وفاء المحبوبة وما الى ذلك من موضوعات .

ومن الموضوعات الدخيلة على الشعر الشعبى المقدونى موضوع تحول الأشخاص الى حيوانات متوحشة . ويعالج الشعر الشعبى أيضا موضوع الفتاة الشجاعة التى تحل محل والدها المتقدم فى السن فى قيادة الجيش . وجرت كذلك معالجة الموضوعات العامة المتعلقة بملاحقة المرأة البريئة ، وبالحماة الشريرة ، وبالزوجات الشريرات للأبناء وللأخوة ، وبدفن العروس فى أساسات البناية ، وبالأرواح الطيبة والشريرة ، وبزوجة الأخ العاقلة التى تجعل السلام يسود بين الأخوة .

وبين الشاعر الشعبى المقدونى فى أكثر من قصيدة أنه يعرف أن بعض الناس يتميز عن غيره بأنه يرسم على جبهته وجسده وصدره ويديه علامات خاصة مثل صورة الشمس والقمر والنجوم وما الى ذلك .

أما اذا انتقلنا الى الشعر الغنائى فسنجده من أوفر أنواع الأدب الشعبى المقدونى وأكثره قيمة ، فهو مكتظ بالأحداث المصيرية الشخصية المتنوعة التى جرت صياغتها بأسلوب شعرى فى لحظات مفعمة بالنشوه أو بالحماس والأمل داخل قلب الانسان وفكره . والشعر الغنائى المدونى رائع للغاية وغنى وحافل بالكثير من الأحاسيس الدافئة والرقيقة والمؤثرة .

ولم تفلح على الاطلاق المحاولات التى جرت حتى الآن لتقسيم القصائد الشعبية الغنائية الخاصة بالشعوب السلافية الجنوبية تقسيما دقيقا الى أنواع مختلفة ، وذلك لأنه يمكن وضع القصيدة الواحدة فى اطار نوع أو نوعين أو ثلاثة أنواع بل وربما عدة أنواع بحيث أنه يستحيل اجراء تقسيم دقيق صحيح . وقد لفت النظر الى ذلك فى حينه « فوك كراجيتش » ، أشهر جامع للقصائد الشعبية الصربوكرواتية . وأشار كذلك الى هذه الصعوبة « قنسطنين ميلادينوف » حينما تحدث عن مبررات عدم انهائه لتقسيم القصائد الغنائية الى أنواع . وبالرغم من ذلك فقد قام العديد من الدارسين والباحثين فى مجال القصائد الغنائية للشعوب اليوغسلافية بتقسيم الشعر الغنائى الى أنواع وأقسام مختلفة .

ومما يلفت النظر أن مجموعة القصائد العاطفية هى أكبر مجموعة فى الشعر الشعبى الغنائى بمقدونية ، وهى تعد فى نفس الآونة أحب مجموعة من القصائد الشعبية لأنها فى الحقيقة تفيض بالحياة والحيوية أكثر من غيرها من أنواع الشعر الشعبى . وخلافا للأنواع الأخرى من الشعر الشعبى التى تولد وتموت فان هذه المجموعة هى أكثر المجموعات مقاومة وصمودا فى مواجهة قوى الزمن المدمرة لأنها تجدد دماءها على الدوام بموضوعات جديدة وبأقدار غير مألوفة ، مثلما يظهر الحب دوما من جديد وهو يحفل بين جنباته بالعديد من عناصر الحياة الحديثة . وفى الحقيقة نشأ الجزء الأكبر من الشعر العاطفى وقت جمع القصائد المذكورة فى المدن المقدونية أو مباشرة قبل أن يتم ذلك. وهذا هو السبب الأساسى فى أن هذه القصائد العاطفية المقدونية لا تحوى فحسب التصريحات الغرامية التى تفوه بها العشاق الشباب فى أوهريد وكوكوش وستروجا وشتيب ، بل وتصف الأحوال والظروف التى يعيش فيها هؤلاء الشباب ، وتصور بوجه عام حياة المدن والسكان بمقدونية .

وأغلبية القصائد العاطفية التى ظهرت فى العقود الأولى من القرن التاسع عشر تتخذ الطابع المتميز للمدينة المقدونية من جميع النواحى . وفى تلك الحقبة كانت المدن المقدونية وحياة السكان المقدونيين تتعرض لتحولات هامة وتعيش نهضة اقتصادية وثقافية . واهتمام الشاعر الشعبى لا يغفل عن هذا التغيير فى حياة أفراد الشعب ، وهو يسعى الى أن يصور هذه الحياة صورة أمينة فى الأزمنة والظروف الأخرى . وفى مثل هذه القصائد العاطفية نجد ، بدلا من المناظر الطبيعية الريفية التى تتميز بها القصائد الغنائية الأخرى ، صورا لشوارع المدينة وللأزقة الضيقة ولمحلات التجار والحرفيين .

ونادرا ما تكون شخصيات هذه القصائد من الرعاة أو من أهل القرى ، وانما الشخصيات الرئيسية فى هذه القصائد هم العمال المهرة وصبيانهم والمدمنون للشراب والتلاميذ والفتيات الجميلات وبنات الأثرياء والتجار والقساوسة والباكوات والباشوات . وتسمع فى هـذا الشعر الغنائى ، بدلا من الصور الريفية التى تجدها فى باقى ألوان الشعر ، التصريحات الغرامية التى تقال فى أزقة المدينة المرصوفة . وبدلا من المروج الواسعة والمدن الجبلية الصغيرة يتم فى هذه القصائد تصوير محلات التجار ودكاكين العمال التى يجلس عندها الشباب على أمل أن تنعم عيونهم بالنظر الى احدى الفتيات وهى ذاهبة لاحضار الميـاه أو للقيام بأى عمل آخـر .

كما أن القصيدة العاطفية صورت نهضة المدينة آنذاك حيث كانت تتمتع بنوع من الآمان السياسى والاقتصادى بخلاف ما كان يسود القرية من عدم أمان . وفى هذه القصائد العاطفية كان يتم الاحساس برغبة سكان المدينة فى التمتع بحياة أكثر راحة وتحضرا .

وتحكى احدى القصائد عن مقدونى التقى فى الزقاق الضيق بابنة الباشا وهى عائدة من الحمام وافتتن بجمالها ، وفى مقابل هذا الذنب أمر الباشا بالقبض على هذا الشاب وقتله .

وقصائد الزفاف المقدونية تتغنى بأهم لحظات مراسم الزفاف منذ لحظة قدوم أهل العريس لطلب يد الفتاة وحتى نهاية الاحتفال بالزفاف. والقصائد تمتدح العروس والعريس ووالديهما وأقاربهما وحامل الراية ، ويكون المديح – بالطبع – على قدر أدوارهم فى مراسم الزفاف . وتمتدح القصائد جمال ونظافة ونشاط العروس وأناقة وجـرأة العريس . ويتم تشبيه العروس والعريس بالزهور والطيـور وبالأجسـام السمـاوية وبالمخلوقات الخارقة للطبيعـة . كما أن قصـائد الزفاف مفعمة بالرموز

وبالاستعارات ، والتشبيهات . وهى تتابع كل مسلك وكل حركة من جانب العروسين والمحتفلين ، فنجد أن هناك قصائد تصف كيفية الذهاب لخطبة الفتاة ووضعها لخاتم الخطبة فى أصبعها ، وتصور الأمور التى تحدث فى أثناء اعداد الحلوى وارتداء العروسين لملابسهما وما الى ذلك من أمور . وتتحدث هذه القصائد عن حالة الحزن التى تتملك العروس بسبب تركها لمنزل والديها وابتعادها عن اخوتها وصديقاتها وعن حديقتها وزهورها وعندليبها الذى كانت تتحدث معه فى الحديقة فى أحيان كثيرة . وفى نفس الوقت تصف هذه القصائد حالة الانفعال السار التى تتملك العروس بسبب ذهابها الى منزل زوجها وحالة الحيرة التى تجتاحها بسبب جهلها بالحياة التى تنتظرها هناك فى عش الزوجية الجديد .

ومجموعة القصائد العائلية تتحدث عن الحياة داخل العائلة وعن العلاقات التى تسود بين الزوجين ، وبين الأبوين والأبناء ، وبين الاخوة والأخوات ، وبين العروس وحماتها التى تصورها القصائد على أنها من أعظم الشرور وتسعى دوما الى بث الكراهية بين ابنها وعروسه الى أن يتم الانفصال بينهما ، وهو الأمر الذى تفلح فيه فى كثير من الأحيان ، وكل هذه العلاقات تحفل بالحب والكراهية ، وبالمسرات والأحزان .

ومن بين ما جمعه الأخوان « ميلادينوف » مجموعة خاصة من قصائد الرعاة التى يتم فيها التغنى بحياة الكثير من الرعاة المقدونيين الذين يقومون برعى قطعان الماشية على الجبال المقدونية . وحياة الجبال ، كمـا فى القصائد ، تكتظ بمختلف المحن مثل مكافحة الكوارث الطبيعية والشياطين الشريرة والجن والتنين . والبطـل الرئيسى لهذه القصـائد هو الراعى « بيبا » (أو بيتشو أو بيكو) الذى يتعرض لمختلف الأحداث والمصائب . وفى كثير من القصائد يتم وصف التقاء الراعى بالقوى الخارقة للطبيعة مثل الجن ، والأخوان « ميلادينوف » يسميان هذه القصائد « **بقصائد الجن** » . ويتم فيها الحديث عن مختلف علاقات الناس بالجن والتنين . وفى معظم الأحوال يجرى الحديث عن علاقات حب بين البشر وبين القوى الخارقة . أما التنين فيتسابق مع الناس فى تناول الشراب والمصارعة ورمى الأحجار من على الأكتاف ، وحينما ينهزم التنين يستخدم القوى الخفية الخارقة للطبيعة لكى يسبب للناس أضرارا .

وقد نشأ العالم الخيالى للجن فى العهود الوثنية وانتقل الى المناطق المقدونية عن طريق مختلف القصائد والحكايات التى يتصل فيها البشر بالجن والمردة . ويتم تصوير كل هـذا العالم الخيالى الرمزى بعـلاقاته المختلفة مع البشر : فالجن يتعاونون مع البشر ويساعدون الأبطال عند وقوعهم فى مصائب أو يتخلون عنهم عند الشدائد . وعادة ما يقاومون

الرعاة ويتنافسون معهم فى الألعاب وفى الغناء . والجنيات تفضل سكنى الجبال حيث تجلب « ديمو » المغنى من مدينة « بيتولا » لكى يتنافس معهن ، ولكى يتنافس بشكل خاص مع الجنية « جورجا » . وينتصر « ديمو » ويتزوج من « جورجا » ، ورغم أنها تلد له طفلا الا أنها تستغل اول فرصة لكى تهجر منزل زوجها وتعود الى صاحباتها . وهذا موضوع شائع فى الشعر الشعبى المقدونى وقد اقتبسه الشاعر « قسطنطين ميلادينوف » لتأليف قصيدة عن تسابق الجنية مع البطل (فى قصيدة « التآخى ») .

وفى احدى القصائد تعاقب الجنيات الراعى الذى لعنته أمه . وفى قصيدة أخرى تحب جنية البحر شابا ، غير أنها تقتله بسبب الاهانة التى وجهتها لها أخت الشاب . وفى أحوال كثيرة تقوم الجنيات بفرض جزية وضرائب على أهل القرى ، بيد أنه فى تلك الأحوال يمهلها الشاعر الشعبى الوقت الى أن يتم قتلها . وكان للبطل « ماركو كرال » صلات ود وصداقة ، ولكنه تمكن من قتل الجنية التى سدت كل ممرات الجبال وطلبت منه عينيه فى مقابل حصوله على ابريق من الماء .

وعند المقدونيين أيضا ، كما هو الحال لدى باقى السلافيين الجنوبيين، تقوم الجنيات بتشييد القلاع فوق السحاب وعلى البحيرات وعلى قمم الجبال. وهن يشيدن القلاع من أجساد الناس ويضعون فى أساساتها المتقدمين فى السن ويضعون الأبواب من النساء المتوسطات فى العمر ويستخدمن الشباب فى صنع الأعمدة والفتيات فى صنع الستائر . وفى عدة قصائد تخطف الجنيات ابن « ماركو » لكى يصنعن منه ستارة ويستحلفهن « ماركو » بأن يكن رحيمات تجاه ابنه .

وتصور القصائد العاطفية ، بوجه عام ، الجانب الجميل من حياة الانسان المقدونى . وبالاضافة الى وجود فيض من مشاعر الحب بالقصائد العاطفية الا أننا نجد فيها أيضا صورة للتقدم الاقتصادى للمقدونيين فى النصف الأول من القرن التاسع عشر . وعلاوة على مثل هذه القصائد فقد تغنى الشاعر الشعبى بقصائد عرض فيها للجانب الآخر من حياة الانسان المقدونى . ومن هذه القصائد نعرف كثيرا من التفاصيل عن الظلم وعن جرائم القتل والنهب التى جرى ارتكابها فى مقدونية ، وكذلك عن الهجرة الجماعية من مقدونية وعن رحيل المقدونيين الى الدول البلقانية والأوروبية المجاورة والى الدول غير الأوروبية من أجـل ضمان لقمة العيش وذلك لأنه لم يكن بامكانهم أن يجدوا فى بلادهم عملا وكان يصعب عليهم اطعام أفراد عائلاتهم .

وبهجرتهم عن بلادهم وأرضهم لفترات قصيرة أو طويلة كان المقدونيون يتركون بالمنازل أعزاءهم ، وكانوا يشتاقون الى بعضهم ويصيغون آلامهم وآمالهم فى « **قصائد الاغتراب** » ، وهى تمثل مجموعة من القصائد التى تصف السفر الى الخارج من أجل العمل والحزن عند الفراق وتصور الحزن فى قلوب أولئك الذين يرحلون ، والأكثر من ذلك تعبر عن حزن أولئك الذين يبقون بالمنزل . وتحكى لنا « قصائد الاغتراب » الكثير من الحكايات المحزنة المؤثرة ، ومنها قصة تلك المرأة البائسة التى انتظرت زوجها بفارغ الصبر تسع سنوات كاملة حتى يعود لها من عمله بالخارج ، ولكن بدلا منه عاد حصان الزوج ورسالة منه يقول فيها بأنه لن يعود من غربته وذلك لانه تزوج بأخرى .

ومغترب آخر يتعرض لنهاية محزنة للغاية ، فقد قضى عـدة سنوات بالخارج وتبدل شكله تبدلا كبيرا بحيث أن أهل بلده لم يعرفوه ، وحاول أن يثير الشك فى شرف عائلته بمحاولته اختبار وفاء زوجته الا أنه لقى حتفه بسبب ذلك ، فقد قتلته أمه وزوجته بوصفه رجلا غريبا عنهما . ولقد وقع هذا الحدث بالفعل فى أحد المناطق المحيطة بمدينة « أوهريد » فى منتصف القرن الماضى ويتم التغنى به فى عدة قصائد . وقدمت القصائد الشعبية مادة غزيرة للأديب المقدونى « فاسيل الوسكى » بحيث أنه كتب مسرحية دراماية بعنوان « الشرف » عالج فيها هذه الفكرة . ولا شك أنه توجد بالقصائد الشعبية أحداث أكثر أسفا وحزنا بل وأشد ألما مثلما تتغنى به احدى القصائد عن شاب وفتاة أقسما على الزواج . وأقسمت « يانا » على أن تنتظر حبيبها سبع سنوات الى أن يعود من عمله بالغربة ويتحسن وضعه المالى ، وحينما عاد الحبيب كانت « يانا » تتزوج بآخر ودعى هو لأن يكون أشبينها !

والقصائد الشعبية المسماة « **بالقصائد الهزلية** » تمثل أسلوبا خاصا ومضحكا فى كثير من الأحيان لمعالجة بعض الظواهر فى حياة الناس . وكثيرا ما تكون هذه القصائد مخضبة بالسخرية وبالضحك البرىء ، فهى تسخر من الفتيات والشباب الكسالى ، وتصور عيوبهم ونقائصهم . كما تسخر من ربات البيوت ومن سوء أخلاق الفتيات ، ومن السكارى ومن المتقدمين فى السن الذين يرغبون فى الاستمتاع العاطفى . واحدى هذه القصائد تحكى عن رجل عجوز فتنه جمال الفتيات ، وأردن أن يتخلصن منه فأرسلنه الى الجبال لقضاء أمر من الأمور وهناك لقى مصرعه . وتحتفظ هذه القصيدة بذكرى العادة القديمة التى تقضى بقتل المتقدمين فى السن ، فقد كانت القبيلة تتخلص بهذه الطريقة من أفرادها غير المنتجين . وتصف قصيدة أخرى حزن العروس التى زوجوها لغلام لازال يفضل اللعب فى

التراب ويعتبر زوجته فى مرتبة أمه ، بينما صديقاتها يرافقن أزواجهن فى حفلات الرقص وغيرها من الحفلات .

ونظرة متأنية الى **القصائد الملحمية** ستجد أنها تتألف من القصائد الأسطورية والدينية والتاريخية . وهذه القصائد تشبه الى حد كبير القصائد المماثلة الموجودة بالشعر الشعبى الموجود لدى الشعوب السلافية الجنوبية الأخرى . وقد ركز « قسطنطين ميلادينوف » على الصلات الوطيدة بين الملاحم المكتوبة باللغة الصربوكرواتية وبين الملاحم المقدونية ، وأشار كذلك الى القصائد المتشابهة مع القصائد التى كتبها الألبان والولاش واليونان .

والقصائد الأسطورية تضم القصائد الخاصة بالتنين وبالقوى الأخرى الخارقة للطبيعة كما فى بعض القصائد الغنائية . ويتم فى **القصائد الدينية** عرض بعض الأحداث من حياة أبطال الكنيسة المسيحية ، ويتم كذلك التحدث عن بعض الشخصيات من التوراة والانجيل .

أما **القصائد التاريخية** فهى تتغنى بالشخصيات المعروفة فى التاريخ. وهناك عدة قصائد مقدونية يتم فيها التغنى بالشخصيات الحاكمة من أسرة « نيمانيتش » ، ومنها القيصر دوشان الذى بلغ ذروة نفوذه السياسى حينما كان يسيطر على مقدونية كلها. ومن الشخصيات المشهورة فى الملاحم المقدونية « الموق مومتشيلو » المشهور فى التاريخ المقدونى .

ويعد البطل « ماركو كرال » بأسمائه العديدة المتعددة من الشخصيات الرئيسية فى الملاحم المقدونية ، كما هو الحال أيضا فى الملاحم الشعبية لدى الشعوب اليوغسلافية الأخرى . وفى أكثر من مائة قصيدة مقدونية وكذلك فى عديد من الحكايات والأساطير حاول الشاعر الشعبى المقدونى أن يقدم سيرة رومانسية عن البطل الرومانسى « ماركو » وانطلق، كما كان يفعل على الدوام عند صياغته الشعرية لأى حدث آخر ، من الأحداث الواقعية والشخصيات الملموسة . وفى هذه الحال انطلق من شخصية « ماركو كرال » الحاكم الذى تربع خمسة وعشرين عاما على عرش جزء من مقدونية وكانت عاصمته « برليب » .

وكلما تعمق الباحث فى دراسة شخصية « ماركو كرال » فى الملاحم الشعبية الصربوكرواتية وفى سبر أغوارها ومقارنتها بنفس الشخصية فى الملاحم المقدونية فسيصل الى استنتاج بانه توجد اختلافات بين الشخصيتين. فقد تحولت شخصية « ماركو » فى الملاحم الشعبية الصربوكرواتية الى شخصية مثالية والى رمز للنضال من أجل العدالة والشعب والحرية ، والى شخصية رمزية تحمى حقوق الشعب خلال فترات الاستعباد ، والى

شخصية مثالية تمناها بشوق شديد أفراد الشعب فى خيالهم ، والى بطل مثالى له فضائله وهناك تبريرات لبعض عيوبه .

وعلاوة على اضافة المثالية على شخصية «ماركو» فى الملاحم المقدونية، الا أنه يوجد بها الكثير من السمات الواقعية التى يتم بها التقليل من كمية المثالية . « فماركو » هنا ليس بطلا أسطوريا شجاعا ولا يمتلك كل هذا القدر من الحكمة ولكنه على قدر لا بأس به من المكر . ومن الجلى أن الشاعر المقدونى كان يراعى عند نحته للصورة الملحمية لشخصية « ماركو » العديد من الخصائص الواقعية والجوانب السلبية لهذا الحاكم .

ووفقا لما تذكره القصائد الشعبية المقدونية فيما يتعلق بسيرة « ماركو » نجد أنه يوجد فى كثير من الأحوال عديد من المتناقضات . وهذه ظاهرة شائعة فى الشعر الشعبى بوجه عام ، خاصة حينما يتم تصوير شخصية أحد الأبطال عبر القرون وفى منطقة كبيرة نسبيا . فكل منطقة وكل حقبة زمنية أرادت أن تضمن هذه الشخصية شيئا من عندياتها ، شيئا متميزا مع الارتباط بالظروف والأحوال الراهنة . والشاعر الشعبى المقدونى يجيد التحدث بالتفصيل عن سيرة « ماكو » ، وهو فى كثير من بطولات الأحوال فى غاية التحمس بسبب مآثر « ماركو » ومنجزاته وبطولاته وهو على استعداد لأن يغلفها بغلاف رقيق من السخرية ولأن يستعرض انتصاراته استعراضا واقعيا .

وفى بعض القصائد نجد أن زوجة « ماركو » ترتفع الى مستواه بشكل مشرف وتماثله فى الشجاعة لأنها هى الأخرى تقوم بأعمال بطولية. وفى أحوال كثيرة تقوم بانقاذ « ماركو » من بعض الورطات والمواقف العصيبة ، وتخلصه من الأسر وتساعده فى اللحظات الحرجة على الوصول الى سلاحه الذى يخفيه فى شعر رأس حصانه « شاراتس » أو فى أى مكان آخر بالسرج أو بحقيبته .

بيد أننا نجد أن زوجة « ماركو » ، فى قصائد أخرى ، على درجة سيئة من الخلق وتخون زوجها مع باقى الأبطال والتجار ومختلف الرجال. وتتباين ردود فعل « ماركو » ازاء ذلك ، فهو فى احدى المرات يستدعى اخوتها لكى يتأكدوا من سوء خلقها ، وفى مرة أخرى يقسو على زوجته غاية القسوة فيشعل فيها النار أو يقطع أطرافها أو يقتلها .

ومما يلفت النظر أن الشاعر الشعبى المقدونى كان يصف وصفا واقعيا قتال « ماركو » مع الأبطال المحليين والأجانب ، فكان فى أغلب الأحوال يصوره على أنه ينتصر بالخداع والمكر وبمساعدة غيره من جنيات ونساء ورهبان وشحاذين وغيرهم . ويصور « ماركو » على أنه حامى حمى

الفقراء والبؤساء والضعفاء ، وعلى أنه يدخل فى قتال مع الأتراك والعرب واللاتين والمجر واليهود بمفرده أو بمساعدة غيره من الأبطال ٠ كما أنه يتحدث عن هزائم « ماركو » ، بل انه فى احدى القصائد يصوره على انه غاية فى الجبن ، اذ أنه فى الوقت الذى كان ينبغى أن يظهر فيه « ماركو » قوته أمام البطل العربى الذى اختطف العروس والهدايا يلقى « ماركو » بالهدايا أمام البطل العربى ويولى الفرار على وجه السرعة ٠

وفى قصائد أخرى صور الشعر الشعبى المقدونى « ماركو » على أنه يحب الغناء ويفضل الشراب والنساء ٠ ويصفه على أنه فعلا نموذج للشخص البوهيمى ، ويرافقه مختلف الأبطال ويشاركونه الشراب ويختلقون معه المشاجرات ويشتركون معه فى القتال ٠ و « بولن دويتشين » هو أحد هؤلاء الأبطال ، وكثيرا ما يظهر فى ملاحم الشعوب السلافية الجنوبية ، وقد حصل على شهرته بعد قتاله مع البطل العربى الأسود ونجاحه فى انقاذ شرف أخته ٠

وانها بالفعل ظاهرة تثير الاهتمام على الصعيدين العربى والمقدونى الا وهى ظاهرة تكرار ذكر العرب فى الشعر الشعبى المقدونى وكذلك فى الشعر الشعبى الخاص بالشعوب اليوغسلافية ٠ وقد حاولنا القيام بدراسة تفصيلية لهذه الظاهرة ، ويمكننا أن نوجز ما توصلنا اليه فى أنه يوجد رأيان متباينان يفسران هذه الظـاهرة الفريدة تفسيرا أسطوريا أو تاريخيا ٠ ويرى أصحاب التفسير الأسطورى فى شخصية البطل العربى جذورا للمعتقدات الغابرة ٠ أما ممثلو التفسير التاريخى فيرجعون سبب ظهوره الى أحداث التاريخ القديم ووقائعه ٠

واذا كان لى أن ابدى رايا فى هذا الصدد فاننى أؤكد على أنه ينبغى تفسير ظهور شخصـية البطل العربى فى الشـعر الشـعبى للشـعوب اليوغسلافية عامة تفسيرا أسطوريا وكذا تاريخيا ، ولا يمكن بأى حال من الأحوال فصلهما عن بعضهما ، بل ومن المستحيل تفسير هذه الظاهرة من جانب واحد فحسب لأن التفسير القائم على وجهة نظر واحدة سيقودنا – حتما – الى أخطاء وأوهام لا تغتفر ٠

واستكمالا للظاهرة السابقة **وجدنا انه كثيرا ما يتم وصف البطل بانه أسود اللون فى الشعر الشعبى المقدونى وفى الشعر الشعبى للشعوب اليوغسلافية ٠** ونظرا لتكرار هذا الوصف فى عدة قصائد فانه يحتاج الى وقفة وتمعن ٠ فقد كان يوجد بالمعتقدات القديمة للسـلاف الجنوبيين – وهم أسلاف اليوغسلاف الحاليين – صراع بين الاله الأسـود والاله الأبيض وقد انعكس هذا الصراع فى عدد من ألوان الأدب الشعبى ٠

وبعد ذلك اكتشف السلاف الجنوبيون أن هناك عربا سود البشرة ، ويبدو أن هذا الاكتشاف كان يمثل صدمة نفسية لهم ٠ وقد ازداد عدد العرب منذ أن بدا اختلاط مسلمى أفريقيا والبربر بالعرب ٠ ومن المرجح أن السلاف الجنوبيين عرفوا عربا سود البشرة أكثر من معرفتهم للعرب غير السـود وذلك خلال التعارف التاريخى بين العرب وبين السـلاف الجنوبيين فى المعارك التى جرت بين العرب والبيزنطيين ٠ كما أنه يوجد هنا دور خاص للعباسيين ببشرتهم السوداء وكذلك بعباءتهم السوداء ٠ وقد انطبع لونهم وشكلهم فى ذهن السلاف الجنوبيين وذلك علاوة على التأثير المحتمل لقصص البطولات الشـعبية العربية التى قام ببطولتها عرب سود البشرة مثل عنترة بن شداد والظاهر بيبرس ٠

وقد اختلط كل هذا بمختلف الأفكار الخاطئة المتعلقة بالمصائب التى يجلبها اللون الأسود وبالخرافات المتعلقة بهذا اللون ٠ وأدى كل هذا الى تحول الصراع القديم بين الالهين الأسود والأبيض الى صراع جديد بين العربى الأسود وبين السلافى الجنوبى الأبيض ٠ واستمر هذا الصراع متواجدا عبر القرون وتحول تدريجيا الى أسـطورة تقوم على المعتقـدات الشعبية وعلى الحقائق التاريخية أيضا ٠ واثر احتلال الأتراك العثمانيين للمناطق اليوغسلافية وكتعبير عن مشاعر الجماهير المضطهدة وتنفيسا عن معاناتها نشأ عن كل هذا صراع جديد بين البطل العربى الأسود والبطل اليوغسلافى « ماركو كرال » ٠ **ولا ريب فى أن تصور وانطباع السلاف الجنوبيين عن العرب اختلط ببعض عناصر المعتقـدات والتراث الروحى والواقع الحقيقى ٠**

وقد عالج الشعر الشعبى المقدونى الأحداث التاريخية القريبة علاوة على معالجته للأحداث التاريخية البعيدة ٠ ومن هنا توجد مجموعة كبيرة من القصائد الشعبية عن حرب التحرير الشعبية فى مقدونية ، وتتابع هذه القصائد كل نشاط قام به المناضلون ٠ وفى منتصف عام ١٩٤٣ تم فى مقدونية المتحررة طبع أول مجموعة من قصائد البارتيزان ٠ وهذه المجموعة دفعت الشاعر الشعبى الى صياغة قصائد جديدة يتغنى فيهـا بقيادات حرب التحرير الشعبية وبالمناضلين أنفسهم وبالعمليات العسكرية ضد المحتل وضد معاونيه الخونة ٠

وعند تصويره للحياة الشعبية وفى عرضه لمختلف الأحداث من حياة الأفراد والمجتمع وعند وصفه لمختلف مشاعر الرجال والنساء وتصويره للطبيعة التى تحيط بالناس وتصويره للنبات والحيوان **لم يكن الشاعر الشعبى المقدونى ينظر الى كل هذا بعين باردة ويعرض الحقائق فحسب بل كان يرسم صورة فنية ويجتهد ، ككل خبير وماهر فى عمله ، فى أن**

يستخدم عند الصياغة والتصوير العديد من أشكال التعبير ومن الأساليب التى كان يستخدمها فى كل مكان . وهى تشمل المقارنات والتضادات والرموز والاستعارات والتشبيهات والمبالغات والتجسيدات وغيرها من الأساليب وأشكال التعبير .

أما الحكايات الشعبية المقدونية فهى تقل عن الشعر فى الكم والكيف، وهى تتضمن عديدا من الموضوعات والأفكار الموجودة بالحكايات الشعبية لباقى الشعوب . وهى تعالج ، فى المقام الأول ، الكثير من الموضوعات التى تعالجها حكايات الشعوب السلافية الجنوبية الأخرى . كما أن هناك العديد من الحكايات تم اضفاء الطابع المقدونى عليها من سماء وأرض وأشخاص .

ومن الموضوعات التى وردت فى الحكايات الشعبية المقدونية نجد حكايات عن القط ذى الحذاء ، والذهاب الى عالم الجن ، ومطاردة المرأة البريئة ، والفتاة التى لا تملك يدين ، وعن الرجل الذى باع نفسه للشيطان ، وعن العريس التنين ، وعن العدل والظلم ، ونجد أيضا حكاية على بابا والأربعين لصا ، وحكايات عن المرأة الوفية وعن المرأة التى خدعت زوجها ، وحكاية الفتاة الحكيمة ، وحكاية قتل المتقدمين فى السن وهناك أيضا عدد لا بأس به من الحكايات عن الآلهة والشمس والقمر والنجوم والشياطين والملائكة وغيرهم .

وهناك مجموعة من الحكايات المسلية عن « نصر الدين خوجة » ، وهو النظير الأوروبى لجحا العربى . وهذه الحكايات تتسم بالايجاز المكثف ، ويدور موضوعها حول مشاكل الحياة اليومية وتياراتها العامة وتجاربها الانسانية ، كما تعكس فى الوقت ذاته رأى الجماعة فى الهيئة الاجتماعية والهيئة السياسية . ولهذه الحكايات محور رئيسى واحد وتعمد الى الاخلال المقصود بين التوازن أو التناسب الواجب للموقف أو للصورة ، أو للشخصية ، وتعتمد على المفارقات التى يستحدثها الغباء أو البلادة أو الخدعة أو القول اللاذع أو جوامع الكلم أو الالغاز أو التوريات وما الى ذلك من المغالطات المنطقية أو الحيل البيانية فتنتهى الى موقف مرح . وهذه الحكايات خالية من التعقيد ، وهى نمطية الأبطال والشخوص وتسيطر عليهم الانسانية ، وقلما يظهر فيها العنصر الخارق .

كما أنه توجد حكايات وطرائف عن البطل المقدونى « ايتار بيو » الذى تذكر بعض الحكايات أنه كان تلميذا « لنصر الدين خوجة » .

وقد تميز الأدب الشعبى بلغته الشعبية الخصبة السلسلة ، وبارتفاع قيمته الفنية والابداعية مما جعل جماهير الشعب تقبل عليه وتتعلق به وتنشده أو تحكيه فى مختلف المناسبات . ولا شك أن هذا الأدب الشعبى قد أثر تأثيرا كبيرا على الأدب الفنى المكتوب .

الفصل الثانى
الشعر المقدونى

كان حجم المؤلفات الأدبية باللغة المقدونية فى بداية القرن التاسع عشر متواضعا للغاية ، وكذلك انجازاتها الفعلية . وفى ذلك الحين كان مسيطرا الشعبى الشفاهى الذى تم جمعه خلال النصف الثانى من القرن الثامن عشر . ولا شك أن هذا الأدب الشعبى ، كما عرضناه فيما سبق ، يفوق الى حد كبير الجهود المتواضعة فى مجال التأليف الأدبى ، وهكذا أثر الأدب الشعبى بأشكاله وأجناسه المتباينة تأثيرا كبيرا على نشأة الشعر المقدونى آنذاك بينما كان ضعيفا للغاية دور أدب القرن التاسع عشر فى هـذا المضمار .

وهذا أمر طبيعى اذا أخذنا فى الاعتبار أن الظروف التى كان يعيش فيها الشعب المقدونى لم تكن تمكنه من الاستمرار فى أنشطته الأدبية . وقد كان مضمون الأدب فى النصف الأول من القرن التاسع عشر يعد صدى متأخرا للأدب الدينى الارشادى الخاص بالقرون الوسطى . ولم يظهر الأدب المقدونى الذى يتسم بطابع العالمية الا فى الستينات من القرن التاسع عشر ، بيد أن معظم هذا الأدب كان مكتوبا بأسلوب لغوى سيتم تجاوزه فيما بعد عند اكتمال تكون اللغة المقدونية الأدبية .

الا أن بدايات الأدب المقدونى التى ظهرت فى النصـف الأول من القرن التاسع عشر لها أهميتها من الناحية الثقـافية والتاريخيـة . فقد أبرزت هذه البدايات الأدبية الجوانب الجوهرية فى تطور الشـعب المقدونى ، وشهدت بجهوده التى بذلها من أجل التحرر من التخلف ومن أجل الوصول الى مصاف الشعوب المتحضرة . ومن المهم فى هذا المضمار أن هذه البدايات سجلت كذلك المراحل التى مر بها تطور اللغة المقدونية

المكتوبة ، وهى المراحل التى كان من الحتم اجتيازها حتى يتم التوصل الى شكل عصرى لهذه اللغة .

وسعى أفراد الطبقة المتوسطة فى مقـدونية ، بعـد تزايد قوتهم ونفوذهم الاقتصادى فى النصف الأول من القرن التاسع عشر ، الى اقامة مراكز للنشاط الثقافى والتعليمى . ولم تسمح الظروف الراهنـة فى مقدونية بتشكيل مركز للنشاط الثقـافى يؤثر تأثيرا جليـا على باقى المناطق ، بيد أنه لا ينبغى اغفـال أنه تم التوصل الى درجة معينة من التآلف .

وهناك محاولة لها أهميتها فى هذا المضمار ، وهى تتمثل فى افتتاح مطبعة « تيودوسيا سينايتسكى » فى « سالونيك » فى عام ١٩٣٨ ، بالرغم من أن عمرها كان قصيرا للغـاية . وجرت محـاولة ثانية فى « سالونيك » أيضا لانشاء مطبعة تقوم بطبع الكتب المدرسية . وقد جاءت هذه المحاولة فيما بعـــد ، فى عام ١٨٦٠ ، بمبـادرة من « بارتينى زوجرافسكى » الذى كان يعمل فى مجال الأدب وأسقفا لمدينة «كوكوش» حينذاك . الا أن هـذه المحاولة لم تسفر عن أية نتائج ملموسة لأنهـا واجهت مقاومة عنيفة من الجانب اليونانى . وبالتالى فقد كان يمكن فى مقدونية نشر عدد ضئيل فحســب من الكتب بينما كان يتم طبع أغلب الكتب المقدونية فى مطابع أجنبية ، وعلى الأكثر فى القسطنطينية .

ولا شك أن بداية الأدب المقدونى ، المكتوب بلغة الشعب ، ترتبط بالكاتبين **يواكيم كرتشوفسكى** (المتوفى فى حوالى عام ١٨٢٠) **وكيريل بيتشينوف** (حوالى ١٧٧٠ ـ ١٨٤٥) . **ونشاط هذين الأديبين يعد تكملة للمسيرة التى بدأت من قبل (فى القرنين السابع عشر والثامن عشر) وتهدف الى كتابة المؤلفات الأدبية بلغة الشعب .** ونشاطهما فى هذا المضمار يمثل أول نتيجـة هامة لهذه المســيرة . وقد طبـع « كرتشوفسكى » ، فى الفترة من ١٨١٤ وحتى عام ١٨١٩ ، بعضا من كتبه الدينية فى بودابست ، وبنفس المطبعة طبع « كيريل » ديوانه الأول « المرآة » ، وبعدها بربع قرن تقريبا خرج كتابه الثانى الى النور فى مطبعة « تيودوسيا » .

ومما يلفت النظر أن الكتب الأولى للأدباء المقـدونيين كانت ، من حيث مضمونها الفكرى ، تحاكى الأدب الارشادى الدينى بالقرون الوسطى. وبالرغم من ذلك فهى طريفة فى التفصيلات التى تشتمل عليها . وهـذه التفاصيل ، وعلى الأخص فى كتب « كيريل » ، كثيرا ما تسلط الأضواء الحية على بعض جوانب الحياة وعلى مفاهيم الفلاح المقدونى آنذاك . والحقيقة أن « كيريل » كان موهوبا فى نقله لأسلوب التعبير الشعبى . فهو ابن

الفلاح ، ثم ترهب واكتسب بعضا من المعـــارف من الكتب السلافية الدينية ، غير أن معارفه لم تكن واسعة بحيث تخلصه من الخطوط المتميزة لأفكار بيئته شبه البدائية . وسحر الفن البدائى لكتاباته وكلماته يفتن المرء بنفس الطريقة التى يتم بها الاستمتاع ببراءة الرسوم الدينية البدائية فى ذلك الحين .

وإذا أمعنا النظر فسنجد أن الحقيقة الأكثر أهمية فى هذا المضمار هى أن الأدباء كانوا يكتبون باللغة التى هى ، فى أساسها ، لغة الشعب بيد أنه كان يغلب عليها العنصر السلافى الدينى . والأمر هنا يتعلق باتصال فريد بين اللغة السلافية الدينية ـ باعتبارها لغة الثقافةالعليا ـ وبين اللغة المقدونية الشعبية التى كانت لا تزال تحـاول أن تنمى من قدرتها وكفاءتها لكى يتم استخدامها فى كتابة المؤلفات الأدبية . وكما هو معلوم فان مثل هذا الاتصال ضرورى ويعد عنصرا هاما للغاية فى تشكيل اللغة الأدبية الحديثة . وعلاوة على الكتب المطبـــوعة ظهر فى النصف الأول من القرن التاسع عشر عدد كبير من المجموعات الأدبيـــة المخطوطة بمختلف اللهجات المقدونية . وفيما بعد ستتقارب اللهجات من بعضها وتزول الاختلافات فيما بينهـا لاشتداد التأثير السلافى عليها آنذاك .

وبالنسبة لأدباء ومترجمى النصوص الارشادية الدينية حينذاك لم تكن كتابة المؤلفات الأدبية بلغة الشعب ترتبط بالهدف المحدد المطروح إلا وهو بناء لغة أدبية موحدة . وقد فهموا الكتابة بلغة الشعب على أنها فى المقام الأول ، أسلوب أدبى يواجه الأسلوب الأعلى الذى كانت تمثله اللغة السلافية الدينية . وقد شبه أحد الأدباء حينذاك اللغـة السلافية الدينية بأنها مفتاح من ذهب وفضة ، ووصف اللغة الشعبية بأنها مفتاح من حديد وصلب يفتح قلب الانسان البسيط . وفيما بعد ، وعلى الأخص فى فترة الستينات ، تم طرح مسألة تكوين لغة أدبية موحدة .

وفى العقدين الخامس والسادس من القرن التاسع عشر برزت ظواهر عديدة فى الحياة الثقافية المقدونية ، وهى ظواهر ستمهد الأرض لكى يصبح الأدب المقدونى أدبا عالميا ففى هذه الحقبة ، أولا وقبل كل شىء ، زاد عدد المدارس الدينية التى يتم فيها تدريس التاريخ والجغرافيا وقواعد النحو والحساب . وكثر ذهاب الشباب المقدونى الى اليونان وروسيا لتلقى العلم فى المدارس العليا . وهكذا تم ، بالتدريج ، تكوين طبقة المثقفين ، ورغم قلة عدد أفرادها ورغم اضطرارهم فى كثير من الأحوال الى ترك بلادهم بسبب الظروف الصعبة للحياة فانهم ساهموا مساهمة فعالة فى ابراز قضايا التطور الثقافى للشعب المقدونى والعمل على وضع حلول لها .

وساعد التعرف على آداب الشعوب الأخرى على التخلص من أشكال الأدب الارشادى الدينى . وانتشر تأثير الأدب اليـــونانى عن طريق المدارس اليونانية التى كانت موجودة فى ذلك الحين فى بعض المدن المقدونية . هذا بالاضافة الى الاحساس بوجود تأثير للأدب العربى ، ففى المدارس كان يتم تدريس بعض مؤلفات أدباء صربيا وكان الشعر العربى معروفا كذلك فى مقدونية . وفيما بعد سيظهر تأثير الأدب الروسى .

وتتسم الفترة التى ظهرت فيها بدايات الأدب المقدونى ببروز أول الأنشطة الهـامة للمقدونيين فى مجال الحيـاة السياسية والاجتماعية ، الا وهو محاربتهم لسلطة بطريركية القسطنطينية ومكافحتهم لاستخدام اللغة اليونانية فى الكنائس والمدارس . وهذا النشاط يحمل فى طياته الخصائص المتميزة للمرحلة الأولى من الحركة القومية فى مقدونية . وكانت بطريركية القسطنطينية تســاعد على نشر وانتشار التأثير اليونانى فى مقدونية ، وهو أمر يعرقل مساعى وآمال الشعب المقدونى فى أن يدعم وضعه الاقتصادى والثقافى وقد أجمعت الآراء المطروحة فيما يتعلق باللغة الأدبية على رفض استخدام اللغة البلغارية التى كانت تجابه مقاومة تلقائية قوية فى مقدونية .

وظهرت كل هذه الظواهر المتعلقة بفترة الصراع الدينى ظهورا جليا أو بشكل ضمنى فى الأدب المقـدونى آنذاك . ومن المـلاحظ أن مواقف بعض العاملين فى المجالين الأدبى والثقافى اتسمت ـ فى كثير من الأحيان ـ بالتردد وعدم الالتزام ، وهى أمور تبدو طبيعية فى مثل هـــذه المواقف التاريخية فى المرحلة الأولى من التيقظ القومى .

وهنا أرى من الحتم أن أشير الى ثلاثة شعراء من هذه الحقبة ترتبط أسماؤهم بأفضل انجازات الأدب المقدونى وتطوره فى القرن التاســع عشر ، وأعمالهم الأدبية تتسم بروح الرومانسية القومية . ويتميز هؤلاء الشعراء باهتمامهم البالغ بكل ما يتعلق بتقدم الشــعب وبمشاركته أحاسيسه بطريقة فعالة . ومن النقاط البارزة فى أشعارهم دورهم الفعال فى محاولة ايقاظ وتوعية أفراد الشعب المقـدونى الذى كان يعيش فى ظروف غير ملائمة ، والنهوض بمستوى البيئة المتخلفة . بيد أنه كانت هناك عقبات كأداء تتمثل فى الظروف الشاقة للحياة ولذا فاننا نحس فى أشعارهم بنبرات حزينة ناجمة عن الوحدة والعجز ، وهذه النبرة ترن وتدوى فى كل قصائدهم .

وقصائد الشاعر « **قنسطنطين ميلادينوف** » **(١٨٣٠ ـ ١٨٦٢)** تعبر عن طبيعة رقيقة وحساسة ، كما أن أسلوبه الشـعرى قادر على ترجمة

إحاسيس الشعب وانفعالاته من خلال صور غنائية أصيلة . وأشعاره وإن كانت تواصل ، فيما يتعلق بمضامينها تقاليد الشعر الشعبى الا انه تبرز منها التجربة الذاتية التى تتخضب بنغمة شخصية متميزة .

وقد درس هذا الشاعر فى كلية الآداب بأثينا وتعلم فى مدرسة دير « زوجراف » اللغة والآداب السلافية القديمة ، الأمر الذى يتضمن أهمية كبيرة بالنسبة لاتجاهاته وأنشطته فيما بعد . واشتغل بالتدريس حتى عام ١٨٥٦ وأصبح معاونا ممتازا لشقيقه الاكبر « ديمترى » الذى كان قد بدأ ، بشكل منظم ، الكفاح ضد استخدام اللغة اليونانية فى المناطق المقدونية ، وظل معه على رأس حركة النهضة المقدونية . واشتركا معا فى جمع القصائد والابداعات الشعبية ، وكان الهدف من وراء ذلك هو اثبات تميز روح الشعب المقدونى عن غيره من الشعوب . وكانت هذه الابداعات الشعبية تخدمه فى برنامجه التحررى الثقافى للنهضة المقدونية وفقا لروح الرومانسية .

ثم ذهب « قنسطنطين » للدراسة فى روسيا فى خريف عام ١٨٥٧ وشرع فى دراسة الفيلولوجيا السلافية . وفى منتصف عام ١٨٦٠ اتجه الى فيينا حيث اتصل بالأسقف « شتروسماير » الذى عاونه ماديا وأدبيا فى نشر مجموعة من القصائد والعادات الشعبية المقدونية مع اضافة عدد من القصائد البلغارية فى زغرب فى عام ١٨٦١ . ولكن من الغريب أن الكتاب كان يحمل عنوان « القصائد الشعبية البلغارية » .

وقد تم القبض على أخيه « ديميترى » وسجنه بالقسطنطينية ، وبعد أن علم بذلك توجه الى القسطنطينية للتدخل فى الأمر واطلاق سراح أخيه . بيد أنه تم القبض عليه هو الآخر وتوفى هو وشقيقه فى السجن .

وقد بدأ يكتب الشعر وهو فى موسكو . ورغم أنه كان على علم بالأدب الروسى الا أن آثار هذه المعرفة لم تظهر فى شعره . وقد برز وتطور باعتباره شاعرا غنائيا ، ولم يترك وراءه الا خمس عشرة قصيدة تواصل تقاليد الشعر الشعبى من ناحية المضمون ، فهو يستخدم موضوعاته واستعاراته وعروضه . ولكن هذا الشعر يتضمن التجربة الذاتية التى تتولد عنها القصيدة وتخضبها بنغمة شخصية متميزة .

وفى هذا المضمار يعد « قنسطنطين ميلادينوف » من أوائل المبدعين فى الشعر المقدونى . وأفضل قصيدة له وأكثر قصائده شعبية هى قصيدة « **الحنين الى الجنوب** » . وهى قصيدة جيدة تتضمنها معظم كتب المختارات من الشعر المقدونى ، بل وصدر فى ١٩٨٦ كتاب يحوى كل ترجمات هذه القصيدة باللغات العالمية الأمر الذى يدل على أهميتها

وجودتها . وهذه القصيدة تسجل ، من ناحية الشكل ، خطوة متقدمة هامة فى تأليف شعر فنى باللغة المقدونية .

والقصيدة عبارة عن أنشودة لشاب مريض بالسل ، رقيق وحساس مثل الشاعر « قنسطنطين » ، تخنقه الحياة فى الغربة وهو بائس وحيد . وهناك فكرة واحدة تسيطر على هذا الشاب وتجذبه اليها بقوة لا تقاوم ، وتتمثل هذه الفكرة فى عودته من البلاد الشمالية الباردة الى مسقط رأسه المشمس فى الجنوب ، على أمل أن يكون هذا هو عزاءه قبل وفاته . لقد كان شوقه وحنينه الى وطنه فظيعا وهو فى روسيا فيقول :

كيف أضع جناحى نسر
لكى أصل الى بلادى
لكى أرى مكاننا العريق
لكى أذهب الى كوكوش واستانبول
لكى أرى هل الشمس هناك أيضا
يغمرها الظلام كما هو الحال هنا .
واذا التقت بى الشمس كما هو الحال هنا
واذا غمر الظلام الشمس أيضا
فسأرحل فى رحلة طويلة
وأشاهد بلاد أخرى
حيث تشرق الشمس الساطعة
وحيث النجوم ترصع السماء .
العتمة هنا والظلام يلفنى
والضباب القاتم يغطى الأرض
والصقيع والثلوج والأتربة
والرياح الشديدة والعواصف الثلجية
وتجتاح الصدر برودة وأفكار قاتمة .
لا ، لا يمكننى أن أبقى هنا
لاأستطيع ان أشاهد الثلوج
أعطونى جناحين لكى أضعهما لنفسى
لكى أصل الى بلادى

لكى أبلغ بلدتى
لكى أرى أوهريد وستروجا .

فالفجر هناك يدفىء النفس
والشمس الساطعة تشرق من وراء التل
وهناك العديد من نفحات الطبيعة
المنتشرة فى كل مكان بوفرة .
وترى البحيرة الصافية بيضاء
ويتعتم لونها بشدة عند هبوب الرياح
تنظر الى الحقول والجبل
وها هو الجمال الالهى منثور فى العالم .

وهناك أنفخ فى المزمار حتى يتسع قلبى
لكى تشرق الشمس وأموت أنا .

أما الشاعر « **رايكو جينزيفوف** » (١٨٣٩ – ١٨٧٧) فقد تعددت أنشطته الأدبية ، فكتب فى مجالات الشعر والأقصوصة وقدم العديد من الترجمات . واشتغل « رايكو » بالتدريس فى مقدونية ثم درس فى روسيا الفيلولوجيا السلافية وعمل أستاذا فى موسكو حيث كان يشتغل أيضا بالصحافة رغبة منه فى أن يعرف الرأى العام الروسى بالأحداث التى تجرى فى بلاده وبواقعها المرير القاسى . وكان يتحرك فى دائرة المؤيدين للقومية السلافية ولذا فان تأثيرهم على مواقفه كان واضحا جليا .

وقد ألف « رايكو » عددا كبيرا من القصائد التى تعد انعكاسا طريفا لموقف القلة الضئيلة من المثقفين المقدونيين الذين شاءوا أن يهبوا ويكرسوا قوتهم ونشاطهم من أجل تقدم شعوبهم . ولكن من الملاحظ أن الروح الغنائية لا تظهر لديه بنفس القدر ربما بسبب غرابة اللغة التى استخدمها ، وذلك لأنه كان من المتمسكين بتكوين لغة وسط بين اللغتين البلغارية والمقدونية ، الأمر الذى يعد عقبة كؤود أمام الاستمتاع التلقائى بشعره . وكان فى الوقت نفسه يضمن شعره روح التعاليم والارشادات المألوفة لدى من يلقون خطبا على الشعب ، وفى أحيان أخرى كان يكتب شعره بلغة حزينة من أجل التعبير عن اعترافات مريرة وهزائم منكرة . ولذا فان قصائده تمثل فى نفس الآونة أقوى اعترافات مدونة فى الشعر المقدونى .

وفى قصيدة له بعنوان « **الصوت** » يعبر « **رايكو** » **عن حنينه لوطنه قائلا :**

بعيدا عن أهلى وعن وطنى
فى بلد غريب على .
وعبر الأراضى الواسعة المزخرفة
وعبر الوديان الخضراء
أتمشى وقت الظهيرة بمفردى تحت الأغصان
أتمشى ولكننى أشعر داخل نفسى بالتعاسة
وبداخل نفسى تتصارع الأفكار العسيرة
وأشعر حينا بالدفء وحينا آخر بالبرودة
ومشاعرى تخبو حينا وتتوهج حينا آخر .

اننى أبحث عن الظل .
وأبحث عن الهواء المنعش
اننى أبحث عن هدوئى الروحى .

ولعلنا نلحظ اشتراك قصيدتى « الحنين الى الجنوب » و « الصوت » فى فكرة الحنين والشوق الى الوطن الذى كان كلا الشاعرين بعيدين عنه .

وكتب « رايكو » قصيدة « **القميص الدامى** » فى عام ١٨٧٠ تحت تأثير القصائد الأوكرانية للشاعر « تراس شفتشنك » . ويصور لنا فيها حدثا حقيقيا ، فالأم التى قتل الأتراك وحيدها أحضرت قميصه المخضب بالدم الى المدينة لكى يراه الناس وتشتعل فى قلوبهم الكراهية نحو الغزاة .

وصب « رايكو » جام غضبه على الأثرياء وعلى رجال الدين اليونان الذين كانوا يستغلون الشعب المقدونى بأشد الوسائل قسوة ووحشية . وعبر « رايكو » عن آرائه فيما يتعلق بالمسائل الراهنة خلال فترة كفاح الشعب ضد المرتشين من رجال الكنيسة بالقسطنطينية ، الأمر الذى جعله يعيش كالمهاجر المضطر الى أن يقضى جل حياته بعيدا عن بلده فى الغربة . لقد كانت هذه حياة محزنة لرجل عليل تعذبه أيضا فكرة أنه فى حقيقة الأمر لم يصل الى مستوى عال من المساهمة الفعلية فى الحياة ، الى المستوى الذى تمناه لنفسه .

وقصائد « رايكو » تختلف عن بعضها فى قيمتها الفنية ، وأسلوبه الأشبه بالأسلوب الصحفى يضع ، فى كثير من الأحيان ، التجربة الفنية فى المكان الأخير وهو يستخدم الأسلوب الرومانسى المتميز فى معالجته لتاريخ الشعب وماضيه ومجده القديم . وكان يفهم تعبير « روح الشعب »

على أنه حب للقومية السلافية اعتقادا منه بأن الأسلوب الشعبى للحياة والعادات وكذلك المؤلفات الشعبية هى التى ستضمن مستقبل الشعب ، وايمانا منه بأن الشعر الشعبى وسيلة قوية للربط الروحى بين أفراد الشعب وايقاظهم ، ولهذا فقد جعل « رايكو » أشعاره صورة صادقة للحياة الواقعية للشعب المقدونى آنذاك . وها هو يثير حماس بنى وطنه ويحثهم على الاستيقاظ والعمل فى صورة تعبر عن الحياة العسيرة للفلاح المقدونى بقوله :

سمعت صوتا خافتا خفيا يقول :

أعد المحراث للأرض المهملة

لأن الوقت قريب واللحظة حانت

انهض وامسك المهماز فى يدك واعمل وانتج

ليلا ونهارا بجهدك وعرقك

واقتلع الأشواك وانزع الأعشاب الضارة

وانته من حرثك حتى تثمر الأرض غير المثمرة .

والشاعر « **جريجور برليتشيف** » (١٨٣٠ – ١٨٩٣) درس الطب فى أثينا واشتغل بالتدريس والصحافة وعمل فى المكتبات . وأجمع النقاد على أنه الشخصية ذات الطاقة الكبرى فى الأدب المقدونى فى تلك الحقبة . الا أن موهبته الحقيقية لم تظهر بشكلها الكامل وذلك يرجع ، أولا وقبل كل شىء ، الى الامكانيات المحدودة للغاية فى مجال النشاط الأدبى فى مقدونية آنذاك . ومن بين أقواله المأثورة : « لم يكن لى ميدان أناضل فيه ، وهذه الكلمات الموجزة تعبر أفضل تعبير عن مصير شاعر مبدع فى بيئة متخلفة وفى ظروف لا تكفل له حتى الحد الأدنى من الحرية .

وقصيدة « **السردار** » هى أفضل ما أبدعه « جريجور » ، وقد كتبها باللغة اليونانية وهو لا يزال طالبا بكلية الطب فى أثينا وحصل بها على الجائزة الأولى فى مسابقة « عيد الشعراء » فى أثينـا فى عام ١٨٦٠ ، وحصل كذلك على لقب « هوميروس الثانى » . وتعبر هذه القصيدة عن بعض الظواهر ذات الأهمية الجوهرية فى حياة الشعب المقدونى فى القرن التاسع عشر .

وموضوع القصيدة مستوحى من القصيدة الشعبية المقـدونية عن البطل « قزمان قابيدان » ، وهى تقدم لنا صورة عن القتال ضد الطغـاة الألبان فى مدينتى أوهريد وديبار . ولكن من الملاحظ أنه ألف قصيدته بشكل مستقل عن القصيدة الشعبية وبروح رومانسية . وخلافا للقصيدة

الشعبية اقام جريجور فكرته على مصرع « قزمان » وعلى صدى مصرعه لدى اقرانه ولدى افراد الشعب فيقول :

انه قزمان البطل المشهور

الذى خر صريعا فى حومة الوغى

لقد قتل هذا السردار الشهير بيد « جيج »

والآن سيطا هذا اللص جبالنا ومروجنا

فمن سيحمينا اذن ولم يعد قزمان موجودا .

لقد أصبح البطل قزمان حاميا لحمى الشـعب والمدافع عن أرضه ومروجه ، ويتجلى هذا فى البيت الأخير من القصيدة . وبعد ذلك يصور لنا فى صورة محزنة صراخ النسوة وعويلهن وشدهن لشعورهن حزنا على البطل قزمان الذى لقى مصرعه بيد الغدر . ثم يصـور لنا الشاعر الموقف الشجاع لوالدة « قزمان » التى تحملت ضربة القدر بصبر وعزيمة ، وجابهت المجرمين بفعلتهم وأقسمت لهم أنها ستقتفى آثارهم الى أن تسحقهم أو أن تلقى حتفها .

وأعرب الشاعر فى هذه القصيدة عن حالة الثورة التى تجتاح بنى وطنه ، وأشار الى أن الطريق المؤدى الى الحرية لابد وأن يمر بالنضـال المسلح . ومن هنا يمكن القول بأن الفكرة الأساسية التى تشتمل عليها هذه القصيدة هى أن التضحية فى الكفاح ضد الطغيان وفى سبيل الحرية ليست عبثا وأنه لا يمكن اخفاء أو اغفال بطولات الشجعان وانجازاتهم . انه فى هذه القصيدة يرثى البطولة والحرية وهى لذلك تشبه الملاحم .

وانتهى الشاعر «جريجور» من كتابة «**سيرته الذاتية**» فى عام ١٨٨٥ ، الا أنه لم يتم نشرها الا بعد وفاته . وهو مؤلف طريف للغاية صور فيه بكلمات جريئة حقبة من الزمن ، وصور مصير شخصيته الموهوبة ، وأجاد فى تركيزه على الأمور الجوهرية وعلى الوصف الحى المثير . ويكشف لنـا فيه عن انطباعه وملاحظاته التى انبثقت عنها قصيدة « السردار » .

بيد أن العديد من قصائد « جريجور برليتشيف » لا يزال مجهـولا وذلك لأنه أنشد أروعها باللغة اليونانية ثم ترجمها الى اللغة المقدونية ، كما أنه ارتكب فيما بعد خطأ الكتابة باللغة المشتركة التى ابتدعها لكى تكون صالحة لجميع الشعوب السلافية . غير أن هذا لا ينقص كثيرا من قدر هذا الشاعر وذلك لأن قوة أشعاره جعلت منه رائدا لمدرسة الشعر المقدونى فى القرن التاسع عشر .

ولقد كان « جريجور » فى بداية نشاطه الأدبى محبا للثقافة الهيلينية وواقعا تحت وطأة التأثير الشديد للأدب اليونانى · ولكن فى وقت تدفق قصائده اشتدت حدة المقاومة تجاه كل ما هو يونانى فى مقدونية · وهنا وقف « جريجور » على الفور فى صف شعبه وندم على أنه الف شعرا باليونانية · وهجر أثينا بالرغم من الوظائف المغرية التى كانوا يعرضونها عليه ، وعاد الى مدينة « أوهريد » حيث قضى بقية حياته · وقد بغضه رجال الدين اليونان بسبب تدخله فى الصراع الدينى وما لبثوا أن استغلوا أول فرصة للافتراء عليه أمام السلطات التركية ، مما أدى الى سجنه بضع أيام فى عام ١٨٤٨ ·

ومما لا ريب فيه أن جريجور كان منعزلا بلغته التى اختارها واعترف بهزيمته وفشله فى هذا المضمار · اذ أنه دخل فى تجربة لغوية خاصة به ، فقد كان يعتقد أنه من الممكن صياغة لغة أدبية يشترك فيها جميع السلاف على أساس اللغة السلافية · وكان يعلم أن هذا ضرب من الخيال ولكنه ارتأى أن حدوث ذلك من الأمور الحتمية · ومن المؤكد أن اللغة اليونانية التى كان يجيدها اجادة تامة وكتب بها بعضا من أشعاره أثرت على موقفه بشأن الرجوع الى القديم فيما يتعلق باللغة الأدبية ·

وذهب الباحثون الى التأكيد بان العراقيل والصعاب التى جابهت الشعب المقدونى وعاقته عن نيل حريته الوطنية واستقلاله القومى فى الوقت الذى تمكنت فيه سائر الشعوب المجاورة من الحصول عليهما — كانت بالتالى حجر عثرة أمام الشعر المقدونى فى سبيل بلوغه ، تدريجيا ، تحرره النهائى الكامل · ولا ريب أنه كان لهذه المؤثرات التاريخية أعمق الأثر على مصير تجارب هؤلاء الشعراء الأوائل ، ومن ثم فلم تكتمل محاولاتهم واجتهاداتهم الفردية فى هذا المضمار ، واكتظت قصائدهم باحساسهم بالغبن وبالعذاب وبالحزن وبالتيه تعبيرا عما يكتبونه فى صدورهم ·

ولم يعبر الشعر المقدونى آنذاك عن تيارات أدبية معينة ، ولكنه كان يعبر عن المحاولات الفردية المتباينة ، والغامضة فى أغلب الأحوال ، وذلك لأن الأسلوب الشعرى حينذاك كان يتأرجح بلا هوادة ما بين الدعاية لنشر المعارف الانسانية وما بين الأساليب الرومانسية ، وما بين الأسلوب العلمى والمشاعر الانسانية العاطفية وبين الرغبة فى الاعراب عن حالات الوعى المتأججة وعن ظلمات النفس الحائرة ·

وشهد الأدب المقدونى نهضة واضحة فى الستينات والسبعينيات من القرن التاسع عشر · الا أن ظروف التطور التالى للأدب لم تكن ملاءمة على

الاطلاق · والانهيار الاقتصادى الذى حل بالمدن المقدونية وكان ملحوظا بدءا من السبعينات خلق صعابا جديدة أمام التقدم الثقافى للشعب المقدونى ، كما زادت عملية هجرة المثقفين المقدونيين ·

ولقد قام جيل الشعراء الأوائل (ميلادينوف وجينزيفوف وبرليتشيف) فى تلك الظروف بكل ما استطاع · وطرح هذا الجيل من الشعراء بعض المسائل الجوهرية فيما يتعلق بتقدم الشعب المقدونى ، ولكنه نجح نجاحا أقل بكثير فى حل هذه المسائل حلا حقيقيا بحيث أنها فيما بعد انضمت الى المجموعة المتشابكة من العلاقات والاتجاهات التى اطلق عليها اسم « المسالة المقدونية » ·

وبالرغم من أن هؤلاء الشعراء الرواد اتفقوا على هدف واحد جعلوه نصب اعينهم ، الا وهو رغبتهم المشتركة فى تنوير شعبهم وتزويده بالعلوم من أجل أن تكون لبنى وطنهم لغة أدبية مناسبة — الا أننا استطعنا أن نتبين بعض الاختلافات الأساسية بين هؤلاء الشعراء الأوائل من خلال مؤلفاتهم المتواضعة التى تعرضنا لها بالحديث ·

ومن المؤكد أن من أهم العراقيل التى واجهت هؤلاء الشعراء الأوائل خلال محاولاتهم التعبير عن نزعاتهم الشعرية كانت صعوبة تمييزهم بين اللغة العامية الدارجة وبين اللغة الأدبية الراقية · ويلاحظ النقاد ، فى هذا الصدد ، أن « قنسطنطين ميلادينوف » بدأ يقرض الشعر باللغة الشعبية ، أى بلغة القصائد الشعبية ، ولذا فهو يعد رائدا للشعر المقدونى المعاصر بينما ظل « رايكو جنزيفوف » يناصر حتى النهاية فكرة حل المشكلة اللغوية عن طريق خلق لغة أدبية تجمع ما بين اللغتين البلغارية والمقدونية · أما « جريجور برايتشيف » فقد كانت له محاولاته الشخصية فى المجال اللغوى ، وكان يرى أنه من الحتم وضع لغة أدبية تصلح لجميع الشعوب السلافية وتنطلق فى أساسها من اللغة السلافية القديمة ·

من أجل كل هذا فان دور هؤلاء الشعراء الرواد يعد بمثابة مرحلة تاريخية غاية فى الأهمية فى تاريخ الأدب المقدونى ، ويتعين اعتبار كل محاولة قام بها هؤلاء الشعراء الرواد — سواء عن طريق أفعالهم أو أحاسيسهم أو مدوناتهم — بمثابة شهادة واقعية ووثيقة تاريخية تصور تلك الصعاب والعقبات التى واجهها الشعب المقدونى فى فترة انهيار الامبراطورية العثمانية ·

واتسم النشاط السياسى الرئيسى لهذه الحقبة بالنضال من أجل الاستقلال الثقافى والدينى ، الا أن انشاء الكنيسة المستقلة لم يقدم الحلول

الملائمة للخلافات الدينية . وظلت مسالة اللغة الأدبية كذلك دون حل ، وستتخذ شكلا أكثر وضوحا وحدة كما طرحها فيما بعد « **مسيركوف** » فى كتابه الهام : « **المسالة المقدونية** » . وفى كتابه هذا وضع على عاتق الحركة الثورية مهمة عاجلة تتمثل فى ضرورة خلق لغة مقدونية أدبية .

ويمكن القول بانه فى الفترة ما بين ظهور الشعراء الأوائل المذكورين وحتى ظهور الشعر المقدونى المعاصر على يد الشاعر « كوتشو راتسين » اختفى الأدب المقدونى المنظوم لفترة طويلة قد تزيد على نصف قرن من الزمان ، الا أن هذا لم يمنع استمرار المحاولات الأدبية بالرغم من انها لم تسفر عن أى نشاط أدبى مرموق . والواقع أن المصير التاريخى السىء الذى كبل مقدونية بالقيود حال دون بزوغ أى فكر خلاق بناء فى حين كانت أوروبا فى نفس هذه الحقبة تشهد انتفاضات ثقافية وأدبية غاية فى النجاح .

وفى فترة ما قبل الحرب والثورة ظهرت أول مجموعة من الشعراء المقدونيين وعلى رأسهم « كوتشو راتسين » ، وبدأ أفراد هذه المجموعة يتحسسون امكانيات اللغة الشعرية الحديثة ممهدين بذلك السبيل أمام الموجة الجديدة من الشعراء المقدونيين بعد الاستقلال .

ولا شك فى أن « **كوتشو راتسين** » (١٩٠٩ ـ ١٩٤٣) هو أول شاعر مقدونى معاصر يكشف عبر الكلمات الشعرية الحية المتحمسة عن صبر الشعب المقدونى الذى لا يجزع ولا يتزعزع ويهاجم فى أحلك فترات النضال قوى الظلم تعبيرا عن طموحه العنيد تجاه الحرية وعن حبه للحياة وعن رغبته فى الابداع وتاكيدا لكيانه وذاته .

وكان راتسين أحد أولئك الذين فتحوا الصفحات الجديدة فى الأدب المقدونى المعاصر . وكان يدرك بضرورة تحديد الأنشطة الأدبية ودورها وأهميتها ، لا فحسب من حيث نتائجها الفنية المتميزة ، بل وأيضا من حيث مهمتها الاجتماعية المباشرة . وفى هذا المضمار استوعب « راتسين » وضعه ودوره وبالتالى مهمته فى تكوين وبناء الأدب المقدونى المعاصر . وتجلى هذا فى الفترة الأخيرة من فترات نضوجه ، وبالتحديد منذ عام ١٩٣٦ حينما قام بنشر أول قصيدة له باللغة المقدونية .

وفى مقال له بعنوان « **تطور أدبنا الجديد وأهميته** » كتب «راتسين» فى عام ١٩٤٠ عن صعوبة وسوء وتعقد الظروف الموضوعية التى يعمل ويعيش فيها الأديب المعاصر فى وادى نهر فاردار فى ذلك الحين . وأشار الى الجهود المضاعفة التى يضطر الأديب الى تحملها من أجل أن يبدع أدبا جديدا . وأكد أن الثروة الشعرية الضخمة التى لا تنضب لوادى

نهر فاردار ومثاليات الشعب المقدونى والثمار الفكرية لمعاناته ونضاله عبر القرون ستجد ان آجلا وان عاجلا من يدافعون عنها دفاعا صادقا ويرفعونها الى مستوى أدب الشعب . وتقع على عاهل الأفراد الذين يتحملون المسئولية الاجتماعية الضخمة أن يحققوا هذه المهمة بشرف . والنشاط الذى بدأه الرعيل الأول من الأدباء من قبل تم تحويله الى طريق آخر نتيجة لحتميات التاريخ ، والآن لابد وان يعود الى مساره الأصلى وسيجد أتباعه الشرفاء .

ومن المؤكد أن هذه الكلمات الموجزة تتضمن الحقائق التاريخية الجوهرية الملحة فى مجال الثقافة القومية المقدونية ، وهى الحقائق التى كانت تجابه جيل « راتسين » والتى حاول تحقيقها ونجح فى ذلك نجاحا تاما . وكان « راتسين » يفهم دوره فى هذا المضمار ويقبل معه كل تعقيدات المشاكل الأساسية للابداع ، ويحدد هذا الدور وفقا لهذه الحقائق التاريخية الجوهرية المتعلقة بظهور الأدب المقدونى المعاصر .

وتحدث « راتسين » ، بايجاز كامل ، فى المقال المنوه عنه عن الوضع السائد فى الأدب المقدونى فى السنوات التى سبقت الحرب العالمية الثانية فذكر ان المؤلفات الأدبية المنشورة للأدباء قد أثارت اهتماما كبيرا لدى جماهير الشعب التى رأت فيها عودة لظهور أدبها الشعبى ، وأثارت كذلك اهتمامها بالمحاولات الجديدة المماثلة . وخلال هذه الفترة برز بشكل جلى اتجاه نحو تجديد التقاليد الأدبية والحياة الثقافية ونحو تدعيم اللغة واستقلال الثقافة المقدونية القومية . والفترة من عام ١٩٣٦ وحتى عام ١٩٤١ تمثل فترة هامة فى تاريخ الثقافة المقدونية قبيل استقلال مقدونية. ففى هذه الفترة تم وضع أسس الأدب المقدونى المعاصر . وقد مضى قبلها ثلاثون عاما من الفراغ الأدبى الذى نتج عن الظروف السياسية والقومية العسيرة التى كان يعيش فيها الشعب المقدونى .

ولا شك أن الأحداث الاجتماعية الراهنة والتغيرات التى حدثت فى يوغسلافيا ككل ، وفى مقدونية بشكل خاص ؛ هى التى دفعت الى هذا الاحياء الكبير للنشاط الأدبى فى الفترة المذكورة والذى كانت نتيجته فتح صفحة جديدة فى تاريخ الأدب المقدونى . وقد أصبح صراع الشعب المقدونى من أجل الحرية والاستقلال هو فى الوقت نفسه جزء من نضال القوى التقدمية فى يوغسلافيا الملكية السابقة ، تلك القوى التقدمية التى بدأت فى هذه السنين نشاطا موسعا من أجل الحل النهائى للمشكلة القومية المقدونية . وهذه الأحداث الجارية على الصعيد السياسى انعكست انعكاسا مباشرا على التطور التالى للثقافة المقدونية . والمسألة المقدونية التى كانت مطروحة فى جدول الأعمال تضمنت بين حناياها ـ وهذا أمر منطقى للغاية ـ مسألة التطور الحر والمستقل للثقافة المقدونية . واحتل نشاط الأديب

« كوتشو راتسين » مكان الريادة في كل ما يحدث في الحياة الأدبية بعد عام ١٩٣٦ في القطونية .

وأخذ « راتسين » [illegible] يكتب مؤلفاته الأدبية باللغة [illegible] الأمر الذي أدى به تأثيرا جليا ملموسا على مواقف [illegible] شيئا يمثل حقا وصدقا قويا للشباب والجماهير الذين [illegible] عن تأثيرهم في الأدب واتفقوا لاستخدام اللغة الأدبية [illegible] حتى يتمكنوا من التعبير عن [illegible] بمصير الأمة .

ولابد من الإشارة هنا إلى ظهور العديد من [illegible] وهي [illegible] القضايا والسياسية في الوقت الذي [illegible] سعى أصحابها إلى تحسين اللغة القطونية الأدبية [illegible] القطونية الفصحى [illegible] التي جعلت موجة الكتابة باللغة القطونية [illegible]

وإذا نظرنا إلى « كوتشو راتسين » في هذا الإطار فسنجد أنه ليس ظاهرة وحيدة فريدة ، إنه وليد الحركة الواسعة التي استهدفت [illegible] النهائي للثقافة القطونية ، وبهذا المعنى بالذات تم فهم ديوانه « الفجر الأبيض » (في عام ١٩٣٦) . والعديد من النقاد [illegible] معاصريه تمضي في هذا الاتجاه في هذا الإطار ، مع التركيز تركيزا خاصا على الحقيقة القائلة بأن القصائد القطونية التي أبدعها « راتسين » هي نموذج بالغ القوة التعبيرية للغة القطونية ، وأنها في الوقت نفسه تعبير عن أدب جديد لم يكن معروفا [illegible] حتى ذلك الحين .

ومن المهم أن نفهم أسباب الصدى الكبير لظهور هذا الديوان في إطار هذه الظروف السياسية والتاريخية والثقافية . ومن جهة أخرى فإن هذا الصدى الكبير دليل على أهمية ظهور هذا الديوان . ولا يمكننا أن نغفل أن ظهور هذا الديوان إلى النور ، وهو مكتوب باللغة القطونية التي كانت الجهات الرسمية تنكرها تمام الإنكار ، هو أمر على قدر ضخم من الأهمية والطاقة من أجل تدعيم الشعب القطوني . وأثارت هذه الحقيقة [illegible] الذي خارج الإطارات القومية . وأدركها على الفور وعمل على إبرازها كل أولئك المهتمين بالتطور الثقافي والسياسي للشعب القطوني سواء من موقع تأييد وتحبيذ هذا الأسلوب للتطور ، أو من موقع السعي [illegible] إلى منع وإعاقة هذا التطور .

وتم عرض ديوان « راتسين » في عديد من المجلات الرائجة ، وكذلك في بعض الصحف . وكانت اتجاهات هذه المجلات والصحف متباينة من

الناحية الثقافية والسياسية ، فمنها اليسارية ومنها اليمينية ومنها المحلية . وسواء أكان رأيها مؤيدا أم معارضا فإن ضخامة عدد هذه الصحف والمجلات يدل بشكل جلي على أن هذه الظاهرة لا تمثل حدثا أدبيا عابرا .

ومن المؤكد أن ديوان « الفجر الأبيض » يحوي بين طياته كثيرا من الأمور ويطرح عديدا من المسائل الهامة التي لا يمكن المرور عليها مرورا عابرا ، والدليل على ذلك هو إحساس أولئك الذين كانوا يفضلون الصمت عنه وإغفاله بضرورة التحدث عن هذا الديوان حديثا مفصلا . ويعرض « راتسين » في ديوانه ، أولا وقبل كل شيء ، سلسلة من الجوانب المثيرة للواقع القطوني آنذاك مع الإشارة الجلية غير المترددة إلى الأحوال السياسية والاجتماعية غير الوردية التي يعيش فيها الشعب القطوني .

ولا شك أن كل ناقد سيوافق ، من وجهة النظر الحالية ، على الكلمات التي سجلتها مجلة « الثقافة الشابة » والتي قدرت فيها تقديرا صحيحا الأهمية السياسية والتاريخية لظهور قصائد « راتسين » . ومن بين ما كتبته هذه المجلة عن ظهور هذا الديوان أنه جدير بالاهتمام لأنه يمثل إحدى المحاولات الأولى لتأليف شعر فني باللغة القطونية ، وأنه يوقظ الشعب المتخلف ثقافيا حتى ينهض من سباته ويبني ثقافته القومية .

وهذا الديوان الصغير يأتي كرد طبيعي على مختلف الادعاءات التي تهدف إلى نكران وجود الشعب القطوني ولغته . وكل هذه الأمور تعد على قدر كبير من الأهمية عند الحكم على نشاط « راتسين » وإثبات دوره في تشكيل الأدب القطوني المعاصر ، وذلك لأن مولد الأدب القطوني المعاصر مرتبط ارتباطا لا ينفصم باسم « كوتشو راتسين » وبظهور ديوان « الفجر الأبيض » . ومن المؤكد أنه مؤسس هذا الأدب والسائر على درب أفضل تقاليد الأدباء القطونيين من القرن التاسع عشر وبداية القرن العشرين .

وكانت مشكلة اللغة الأدبية هي إحدى المشاكل والقضايا الجوهرية التي كان « راتسين » مضطرا إلى حلها في ديوانه هذا . وكانت الحياة السياسية والقومية والثقافية للشعب القطوني تتطور في ظروف معقدة ومتناقضة وغير ملائمة ، الأمر الذي وضع الأدباء القطونيين آنذاك في وضع لا يحسدون عليه في كل مجال ، وعلى الأخص فيما يتعلق باللغة الأدبية . وهذا الحال أدى إلى كثير من المتاهات وإلى تخلف رهيب في مجال الإبداع الأدبي .

وكانت مسألة اللغة الأدبية حاسمة بالنسبة لبعض الأدباء ، وكان لها عليهم انعكاس غاية فى السلبية . ووجدت الأجيال الجديدة الصاعدة نفسها فى وضع يلزمها بالشروع فى كل شىء من البداية . وقبل ظهور « كوتشو راتسين » ، كان على الأديب المقدونى ان يبذل جهودا رهيبة من أجل حل المسألة الجوهرية للتعبير الأدبى ، وهى تتمثل فى كفاحه من أجل الحصول على حقه فى الكتابة بلغته الأم .

ومن الطبيعى أنه حينما تنشأ الآداب القومية أو حينما تستأنف نشاطها بعد فترة طويلة من التوقف يكون اتجاهها الأساسى ، فى الفترات الأولى لتطورها ، موجها نحو مصادر الابداع الشعبى . وكما هو معلوم من تاريخ بعض الآداب القومية فى المواقف المشابهة أنه عادة ما يتم استخدام واستغلال الوسائل اللغوية والتعبيرية للشعر الشعبى استغلالا هائلا ومتنوعا لفترة طويلة . وكان هذا هو الحال بالنسبة للشعر الفنى المقدونى فى فترة تجدد نشاطه وبداية عهده المعاصر . وهذا هو ما يتجلى لدى « كوتشو راتسين » ولدى جميع الأدباء الآخرين الممثلين لهذه الفترة .

وديوانه « الفجر الأبيض » ، الذى يرجع تاريخه الى عام ١٩٣٦ والذى تم نشره فى ١٩٣٩ ، يمثل ذروة ابداعه . ان هذا الديوان يحتل مكان الصدارة فى أعمال « راتسين » ويعد محورها باعتباره ظاهرة فى الظروف التاريخية آنذاك وبوصفه انجازا فنيا . وله أيضا مكان الريادة فى جميع الأحداث فى الأدب المقدونى المعاصر . وفى هذا الديوان تبرز جميع مزايا الشاعر « كوتشو راتسين » وجميع أهدافه الفنية والفكرية ، ونجد فيه « راتسين » الشاعر الثورى الاجتماعى الحقيقى ، « وراتسين » واضع أسس الشعر المقدونى الحديث .

وعبر « راتسين » بأقوى أسلوب فى هذا الديوان عن المشاكل الاجتماعية للواقع المقدونى الراهن . واهتمام قصائد « راتسين » بالجوهر الاجتماعى وسيطرة المشاكل الاجتماعية عليها تجعل هذه القصائد تحتل مكانا خاصا فى الشعر المقدونى . وقصائد « راتسين » تعنى تحولا جديدا من ناحية ثراء موضوعاتها وتنوعها وهى تمثل خطوة جريئة فى تجاوز المحتويات النضالية القومية ذات الخصائص الرومانسية فى معظمها .

وكان « راتسين » أحد أولئك الذين جددوا التقاليد المتوقفة للشعر الفنى المقدونى ووجهوه فى الوقت نفسه الى مسارات جديدة . « وراتسين » لم يقلد الشعر الشعبى تقليدا تاما ، بل نجح فى أن يستغل بشكل ابداعى جديد الامكانيات التعبيرية للشعر الشعبى وأن يحقق تعبيره الذاتى النموذجى . وفى بعض قصائده وصل الى الأسلوب الحر الحديث .

ويمكن ان نؤكد بحق أن « راتسين » هو اهم شاعر شق الطريق ومهده امام العهد الجديد للشعر المقدونى ، كما أن قصائده تمثل مرحلة تالية فى تطور هذا الشعر .

وحصلت يوغسلافيا بعد الحرب العالمية الثانية على استقلالها ونالت شعوبها حريتها ، وبالتالى حصل الشعب المقدونى على حريته ودبت الحياة والنشاط فى التراث الأدبى المقدونى وذلك بعد فترات متقطعة من الركود نتيجة لتعاقب الأحداث التاريخية الشائكة . وانطلق الشعب المقدونى فى مرحلة من النمو المتحمس الخلاق . وتمكن الشعراء المقدونيون من التعجيل بتحقيق التحرر النهائى الشامل لشعرهم ، وساهمت فى ذلك أكبر مساهمة الاتصالات الحية مع المراكز الأدبية فى يوغسلافيا وفى أوروبا وفى العالم .

واستحوذ الباعث الالهامى على مكانة متميزة فى الشعر ، وذلك لأن الشعر ، من حيث مفهومه الأصلى ، كان أنسب الأشكال الأدبية للتعبير عن توتره العصبى وهو يخطو خطوات وئيدة تجاه المستقبل والواقع الجديد الذى سرعان ما دخل الانسان المقدونى فى صراع معه . ومضى الشعر المقدونى فى مسيرته فى نفس الوقت الذى ظهرت فيه اللغة المقدونية الأدبية . وبرز الشعر المقدونى بشكل سريع مؤكدا الحقيقة التى آمن بها أفراد الشعب المقدونى منذ أقدم العصور ، وهى الحقيقة القائلة بأن الشعر يقف على قمة الأجناس الأدبية كلها ، وعلى نغماته تفيق الأمم من سباتها العميق لتكشف قدراتها وتبرز مواهبها وتعبر من خلال كلماته الفنية البديعة عن صلابتها وقوتها .

وخلال فترة التطور المستقل لم يشق الشعر المقدونى طريقه غير الممهد بيسر ، فتاريخ نضوجه وتحرره السريع حافل بالابتكارات الحية وبالأفكار الجديدة التى مكنته من المضى قدما حتى يعلو شأنه ويتجاوز القديم . وهيمنت هذه المحاولات الدائبة وسيطر هذا الطموح المتجدد لبلوغ آفاق جديدة على الثقافة المقدونية بأسرها فى فترة ما بعد الاستقلال ، وخاض الشعر المقدونى مراحل مختلفة عبر العديد من التجارب .

ولعل من المكمل لهذا العرض السريع أن نذكر أن **نشأة الأدب المقدونى المعاصر تأثرت تأثرا مباشرا باللغة الأدبية الجديدة وباختلافها عن اللغة السائدة من قبل** . وكان هذا هو الأساس الذى انطلق منه الشعر المقدونى المعاصر تجاه تطوره التلقائى السريع . ونهل هذا الشعر من ينابيع الشعر الشعبى الغزيرة وتدعم بالتجارب اللغوية التى صاغها الشعراء قبل الاستقلال ، وفى السنوات الأولى التالية لاستقلال مقدونية تشبع بجميع المحاولات الخلاقة . وفى نهاية المطاف أصبح من أكثر المجالات

الأدبية التزاما وانتشارا . بل واخذ هذا الشعر يجتذب اهتمام العالم الخارجي وتستحوذ قصائده على مساحات لا بأس بها في المجلات الشعرية المتخصصة التي أصبحت تنشر مقتطفات عديدة منه وتترجمها بلغات مختلفة لانه ، أي الشعر المقدوني المعاصر ، أصبح ظاهرة تستدعي الدراسة من وجهة نظر بعض ادباء أوروبا والأمريكيين والمنطقة العربية .

ويذهب النقاد الى ان تطور الشعر المقدوني تميز بالقفزات المتكررة والتغيرات الحاسمة فتعددت اجيال الشعراء وتتابعت مراحل تطوره . ورغم ان لي تحفظاتي الشديدة على التحديدات الزمنية في مجال الأدب بوجه عام ، الا انني اذا حاولت ان اتتبع ، في ايجاز ، هذه المراحل من تطور الشعر المقدوني فيمكنني القول بان المرحلة الأولى في تطوره المعاصر بدأت في حوالي عام ١٩٤٤ وانتهت في حوالي ١٩٥٠ . ففي عام ١٩٤٤ ظهرت قصائد « اتسو شوبوف » ، وهو اول ديوان شعر مقدوني يظهر في مقدونية بعد الحرب ، وهو يحدد ظهور اول جيل من الشعراء بعد الحرب . ومن ابرز شعرائه سلافكو يانيفسكي وبلاجيه كونسكي واتسو شوبوف .

ومن المؤكد ان « سلافكو يانيفسكي » لا يقف فحسب في صف الشعراء الموهوبين ، بل وفي صف العالمين بالأمور علما جيدا . ومع ذلك فمن العسير القول بانه استخدم اية نظرية من نظريات علم الجمال كصيغة يقتنعها او توجيه في صياغة اساليبه الشعرية الخاصة . وهو من الشعراء الذين ينظرون الى الزمن ولكن الزمن ينظر اليهم ايضا ، ويعبرون ، كل يوم ومن خلال قصائدهم التي تعبر عن جوهر الانسان ، على السبل المؤدية الى تكثيف الأحاسيس تجاه كل أشكال الحياة . ولا شك في أن شعر « يانيفسكي » يتحرك في مجال واسع لا نهائي من الموضوعات والأفكار .

ومن اشعار « بلاجيه كونسكي » يمكننا ان نستكشف ثلاثة موضوعات رئيسية . الموضوع الأول مرتبط بمقدونية كوطن له وبماضيها وتاريخها النضالي ، وهذا الموضوع يسيطر على كثير من قصائده . والموضوع الثاني يتعلق بحرب التحرير الشعبية باعتبارها نقطة التحول الثورية في الكفاح الدامي للشعب المقدوني الذي انتزع لأول مرة حريته الاجتماعية والقومية . وعبر كلمات هذا الشعر تتم اعادة صياغة مصير الشاعر ومصير شعبه المقدوني . ويبرز الشاعر المصير السيء الكئيب لشعبه والمهالك التي خاضها وذاق مرارتها الى أن وصل الى الحرب التي سيخرج منها منتصرا لترى شمس الحرية تشرق في سماء وطنه .

ويتعلق الموضوع الثالث ، وهو صاحب النصيب الأكبر من قصائده ، بالمشاكل العاطفية وآلامها وشكوكها . وكان « كونسكي » يعطي تدريجيا

الاولوية لهذه الموضوعات الأخيرة . الا ان شعره من الناحية الجوهرية لا يقوم أساسا على الموضوعات والأفكار وانما يقوم على المعايشة الأليفة المتناسقة للانسان ولوجوده على هذه الأرض .

وتسيطر على القصائد الأولى « **لاتسو شوبوف** » (١٩٢٣ ـ ١٩٨٢) ثلاثة موضوعات هي النضال والحب والموت . والثورة في شعره هي اكتشاف راديكالي ، ليس على الصعيد التاريخي والاجتماعي فحسب ، بل وعلى الصعيد البشري . ويعد شعره انعكاسا لجيل الشباب المتحمس . فالدعوة الى الثورة ايقظت كل هؤلاء الشباب الذين يتواجدون في كل مكان باعتبارهم محاربين ومتفوقين في اعمالهم ، وبصفتهم ساسة وعمالا وحكاما وشعراء ايضا . انهم متواجدون في كل مكان وقد حل زمانهم ، زمن الشباب وعدم الصبر والشرود والحماس ، ومشاعرهم في كل مكان معهم . وهم أثناء الليل يحررون الأجزاء المغتصبة والمحتلة من وطنهم ، ويشقون ايضا الأنفاق ويشيدون المدن والجسور ويعقدون الاجتماعات ويتبادلون مشاعر الحب والكراهية بلا حدود . وهنا لا يتم تقييم أي شيء بالعقل والفكر ، وانما يتم تقييم كل شيء بالقلب والاحساس .

ويمكننا ان نلحظ ان هموم الشعر ومشاغله في هذه المرحلة جماعية ، وانه كان يركز على تذكر الماضي القريب والبعيد ، وعلى المباهج والانتصارات ، وعلى الحماس الذي ساد في أيام الاستقلال الأولى ، وعلى انطلاقة التجديد والتعمير . وكانت تصاحب الانتشار القوي للشعر الغنائي الوطني ، وهذا أمر طبيعي للغاية ، رومانسية قومية طاغية . وكان مما يثقل على الشعر في هذه المرحلة محاولته السيطرة ، بشكل مركب وعصبي ، على التخلف النسبي الموجود وعلى فقر التعابير الشعرية ، وسعيه الى التحرر من قيود الأسلوب الفولكلوري الذي لا يتناسب مع المضامين والمفاهيم الجديدة .

ورغم ضآلة النتائج التي تم التوصل اليها فقد أثمرت السنوات الأولى بعد الاستقلال عددا لا بأس به من القصائد ذات الالهام الوطني الأصيل . وبرزت في هذه المرحلة البشائر الأولى للموضوعات الشخصية في الشعر ، ولكنها كانت لا تزال تتأرجح فيما بين الأحاسيس الشخصية والمضامين الوطنية .

وفي الخمس سنوات التالية (١٩٥٠ ـ ١٩٥٥) تلمع شعراء جيل الوسط مثل سربو ايفانوفسكي وجانه تودوروفسكي وماتيا ماتيفسكي وأنته بوبوفسكي . وقد توصلوا بالفعل الى منجزات شعرية هادفة فيما بعد ذلك بعدة سنوات .

« **وسربو ايفانوفسكى** » **شاعر غنائى ينظم نفسه** ويروض طباعه ، وهو كذلك شاعر الصور الهادئة المنتقاة . وأحاسيسه ومجازاته لا تفيض خارج الموضوع المطروح أمامه . وتتشابك فى شعره الغنائى الخيوط التاريخية ، ومن خلال منظور الحاضر يستعرض الشاعر أمامه شريط الماضى بأحداثه وانفعالاته . ولذا فان شعره مفعم بالعلامات والرموز ، منها ما يتصل بالحيوانات وعاداتها ، ومنها ما هو مرتبط بالعناصر المادية . وبالاضافة الى ذلك فان « سربو ايفانوفسكى » يضفى الشكل العصرى على استعاراته ، وتسيطر على قاموس شفرته الشعرية كلمات السر والمنبع والحلم وغيرها من الكلمات .

ويقوم شعر « **جانه تودوروفسكى** » ، فى أساسه ، على الثقة بالتاريخ وبالحاضر وبالعالم من حوله . ويرى هذا الشاعر أن الانسان مخلوق يعقد الصلات مع العالم عن طريق الكلمات ، ولا تنقطع على الاطلاق العلاقة بين الشخص الحساس وحواسه المتنبهة وبين الأمور التى تشكل الواقع . وهذه التراكيب الشعرية الغنائية تذكر بمسارات الشعر الأوروبى .

ويتضوع شعر « جانه تودوروفسكى » الغنائى العاطفى بالجمال الذى لا يبهر بغرابته . وتكمن قيمة هذا الشعر فى مقدرة الشاعر وقوته على أن يكشف عن الثغرات التى من خلالها تتسرب اشعاعات الشعر المعاصر حيث الكلمة الشعرية لا تمتلك فحسب بهجتها ورنينها ، بل وتملك أيضا نقل معناها الغامض . ويرى النقاد أن أفضل قصائده هى التى كتبها فى اللحظات التى تتكشف فيها الاتصالات .

أما شعر « **ماتيا ماتيفسكى** » فيتميز باستغلاله للتقاليد الفولكلورية الموروثة ، الا انه بالرغم من ذلك ظل متفتحا على العالم بآفاقه الرحبة دون الارتباط على الاطلاق بأرض مولده ، ومن المعروف أن هذا الارتباط يعوق تحليق مثل هذا الشعر الى المجالات العالمية . غير أن هذا لا يعنى أن هذا الشعر لا يحوى بين سطوره وبين ثنايا كلماته وأفكاره على علامات جوهرية ترتبط ارتباطا أصيلا بمسقط رأسه ، وهذه العلامات مبثوثة بعمق وفطنة بحيث يصعب على المرء التعرف عليها . وهذا الشاعر يتبع حركة التجديد بمعناها الواسع وشعره يسمى بالشعر الحر الذى لا يلتزم بأية قيود أو قوالب معروفة ثابتة . وقصائده ليست قصائد شعر وانما سلسلة من الأفكار المتراصة .

والشاعر « **أنته بوبوفسكى** » ، ككل أفراد جيله ، ظهر فى فترة متميزة من تاريخ مقدونية حينما بدأت أشباح الماضى ترقص رقصة متشائمة حول مقدونية وحول استقلالها ، وحينما انبعث فى روح كل مقدونى

الاحساس بالخطر المقدونى . ولذا فان الشاعر يعبر عن الوطن بشكل رومانسى ، فالوطن بالنسبة له ليس الا الهاما وموضوعا شعريا أكثر من كونه موضوعا ملموسا . ومن هنا فالوطن يملأ أحلامه ووجوده ودمه وقلبه وماضيه وحاضره ومستقبله وشعره كله .

والدواوين الأولى لبعض شعراء هذا الجيل لا تختلف تقريبا عن الشكل العام لشعر الجيل السابق من حيث الموضوعات والأفكار الشعرية . وفى هذا المجال نجد تشابكا بين الجيلين واختلاطا بينهما ، وهذا سيكون فيما بعد أكثر تكرارا وبروزا ووضوحا . والقفزة النوعية التى تمت فى هذه المرحلة التالية من الشعر المقدونى بعد الحرب جاءت نتيجة للجهود المشتركة من جانب شعراء الجيلين القديم والوسط .

ورغم أنه كانت هناك من قبل اشارات الى الاتجاه نحو الذات الشعرية ، الا أن التحول الى الموضوعات الذاتية الشخصية كان متعجلا وسريعا . **وقد ظهر هذا بشكل قوى فى عام ١٩٥٢** . وحدث هذا التحول حينما تملك الشاعر الزهو نتيجة لادراكه بحقه فى أن يتحدث باسمه وعن نفسه . واتسم الكثير من القصائد بدفء الشباب وبداهته وسرعان ما تم التعبير عن كل انعكاسات هذا الشعر الذاتى تعبيرا كاملا .

ثم سيطرت القصائد الحزينة والمضامين السوداوية والاحساس بالاحباط محل قصائد التفاؤل التى كانت سائدة من قبل . وبرزت ، بشكل متزايد ، ضرورة اجراء عمليات تشريح لمشاعر الحزن والسرور واللقاء والفراق . وتزايد الشوق والحنين الى سنوات الشباب الذى ولى ، واشتدت الحيرة فى مواجهة القلق القادم . بيد أنه كانت تغمر كل هذا موجة عالية من الرومانسية الساذجة العاطفية . الا أن مرحلة الذاتية كانت تعنى بالرغم من كل التحفظات تقريب الشعر المقدونى من المجالات الحقيقية للشعر الغنائى ، وتعنى كذلك أنه تم ، على نحو ما ، تحقيق زيادة نقاء تعبيراته .

وعلى أية حال فهذه الفترة لها الفضل فى أنها ساهمت فى بدء **المرحلة الثالثة من مراحل تطور الشعر المقدونى المعاصر خلال الفترة من ١٩٥٥ والى ١٩٥٨** . وقد جرت أحداث هامة فى الفترة التى امتدت ثلاث أو أربع سنوات . ففى هذه الفترة ظهرت طائفة من الدواوين الجديدة أشارت ، بما لا يدع مجالا للشك ، الى شعراء من الجيلين القديم والوسط ظلوا على حيويتهم الفنية ، وتميزت دواوينهم بالنضوج وبالالهامات الغنائية الأصلية دون تدخل من الخارج واتسمت بالسمات الذاتية لمؤلفيها .

وتشهد الدواوين الجديدة لشعراء الجيلين القديم والوسط ، التى ظهرت فى هذه المرحلة ، وكذلك الأشعار التى أبدعها ممثلو الجيل الجديد من الشعراء تشهد بحدوث تحول حاسم فى التصورات الشعرية ، وهو تحول متعدد الطبقات والجوانب . وبرزت مقاومة حادة تجاه أسلوب الاعترافات وتلاشت الذاتية ، واتسعت الآفاق الأدبية والحياتية وتزايد امتدادها . وأخذت تجارب الشعر الأوروبى الحديث والتقدمى تتغلغل بشكل لا يقاوم فى نسيج الكلمة الشعرية المقدونية .

وأثار الشعر اللامعقول الاضطراب على سطح التعابير الشعرية المقدونية ، التى كانت تسوده الواقعية . ومما لا شك أن استخدام أساليب اللامعقول والتأثر بها أثمر ثماره الطيبة بالنسبة لبعض شعراء جيل الوسط ، وخاصة بالنسبة للشعراء الجدد ، وذلك بالرغم من أنه لا يمكن التحدث عن وجود الشعر اللامعقول فى مقدونية : ورافق كل هذا تغير مكثف فى هيكل القصيدة من حيث ترتيب كلماتها ومجازاتها الحرة المرتبطة بتداعى الخواطر . وتغيرت الحقيقة الخاصة بالارتباط بين الشخصيات وبين المجتمع ، وفى هذا الاطار تغير مفهوم العلاقة مع التاريخ ومع التقاليد .

وأظهرت المرحلة الثالثة من مراحل تطور الشعر المقدونى المعاصر أنها سجلت انجازات يتزايد نضوجها ، الأمر الذى أدى الى تغيرات حاسمة فى مجال التصورات الشعرية ودفع الى وضع أسس نوعية جديدة لهذه التصورات فى الشعر المقدونى . وهذه الحالة بمعناها العام ، ومع بعض الاختلافات الطفيفة ، امتدت الى المرحلة التالية وانتهت بعقد لقاء بين جيل الشعراء الشباب وبين شعراء الجيلين السابقين على طريق الاستمرارية الحتمية فى مجال التشبع الابداعى .

والمرحلة الرابعة من مراحل تطور الشعر المقدونى استمرت خمس سنوات تقريبا ، أى منذ عام ١٩٥٨ وحتى عام ١٩٦٢ ، واتسمت باتساع دائرة الظهور النابض للشباب من الشعراء الذين أعربوا عن اهتمامهم المكثف بالتقاليد وبتاريخ بلادهم وبماضيها وبأساطيرها وبخرافاتها ، وكذلك بالاستمتاع المتزايد بوجودهم على أرض وطنهم وتحت سمائه وبين مناظره الطبيعية الخلابة . وتجد أيضا الاهتمام بالموضوعات والأفكار الاجتماعية ، وعلى الأخص من جانب الشعراء الذين نشأوا فى القرى ولم يتمكنوا من التخلص من مخاوف الجوع والفقر فى طفولتهم المبكرة .

وكان الشعراء الشباب يتجهون الى كل هذه الأفكار بكثير من المأساوية والحساسية الشديدة ، وبالافراط فى حماسهم نحو وطنهم . وكثير من

الصور والخصائص المميزة للأرض المقدونية وجدت أصدق تعبير وأكمله لدى شعراء هذا الجيل ، فبالنسبة للشعراء أمثال ف. أوروسيفيتش وب. أندريفسكى وى. كوتسكى وب. بوشكوفسكى كان الأدب الشعبى المقدونى الساحر بمثابة الشغل الشاغل لهم . وقد أجاد هؤلاء الشعراء استغلال هذا الأدب الشعبى فى مجال التعبيرات والموضوعات والأفكار ، وهو ذلك الأدب الشعبى الذى يستند الى الانجزات الشعرية لبعض الشعراء الرواد أمثال « قنسطنطين ميلادينوف » و « كوتشو راتسين » .

وقد خلق الشاعر « **فلادا أوروشيفيتش** » من العناصر اليومية غير الشعرية عالما شعريا خاصا ، وكشف عن نوع جديد من الشعر لم يصدق أحد بوجوده من قبل . وذلك لأنه يحكى فى أشعاره حكاية مألوفة أو يصف صورة لحدث من الأحداث ، ولكنها ليست حكاية وليست صورة بل هو شعر . وشعره أشبه بالعالم الذى يتم فيه طرح العديد من التساؤلات ، ولكنها تظل دون جواب . واذا ما ظهر فى هذا الشعر أشخاص فانهم يتحدثون ودون أن ينتظروا جوابا لا يكتشفون أكثر من الأمور التى استحقوا أن يكتشفوها .

وشعر « **بيتره أندريفسكى** » يحمل تراث التعابير الشعبية ويتضمن فيضانا من الكلمات المقدونية الحديثة التى يعبر بها الشاعر عن ابتهاجه بالحياة فى هذا العالم . وشعره متعدد الدوائر والمراكز ويعطى انطباعا بانه لغة شعرية مفتوحة . والشاعر يتعمق بمنتهى اليسر فى عالم القصائد الشعبية برموزها ذات المضامين والمعانى المتعددة المركبة وبقوانينها الخاصة بتوزيع الأصوات والايقاعات . وعلى الجانب الآخر يترك الشاعر لنفسه العنان والحرية فى اختراق خندق الأساليب العصرية المتجددة دون أن يقيد نفسه بها ، ويتغلغل الى واقع الحياة اليومية دون استخدام مفاتيح رمزية .

أما الشعر الغنائى « **ليوفان كوتسكى** » فهو بمثابة اعلان عن العملية الابداعية وتجديد لها ، وذلك بالنسبة لأولئك الذين يقدرون الالهام — فى أصله — كسبيل أساسى لقرض الشعر بلا موقف وبلا قناع ، أى الشعر الذى ليس هوسا أو بدعة شعرية . ومن ديوان الى ديوان يتدعم هذا الشاعر الغنائى كشخصية ابداعية أصيلة عند معالجته للمضامين الحيوية الخاصة بتجربته الأصلية المباشرة . وهذا الشاعر يعيد الايمان بالشعر باعتباره وسيلة للتعبير عن النفس ، ويعيد الثقة بالشعراء باعتبارهم مبدعين يحصلون على الهاماتهم من المصادر الأصيلة .

ويرتبط شعر « **بوشكوفسكى** » ارتباطا وثيقا بالأساطير ، ويتم

التعرف من ثنايا كثير من ابيات شعره على الخطوط العريضة للأساطير المعروفة أو ما شابهها . وغالبا ما يتمكن الشاعر عن طريق هذه الأساطير من اجادة تصويره لتجاربه الحياتية والعاطفية . ولابد من التنوية بان الصور المتعددة الطبقات والدرجات التى رسمها « بوشكوفسكى » لتجاربه ليست نقلا مباشرا من الأدب الشعبى ، وليست رموزا فولكلورية وانما تظهر فيها أيضا شخصية « بوشكوفسكى » وقلمه .

ورغم ذلك فان شعراء هذا الجيل لم يستهلكوا تماما كل المضامين عند اهتمامهم بالموضوعات غير الذاتية الخاصة بالجماعة . وبمرور الزمن تفرقت السبل بشعراء هذا الجيل ، وزادوا من توجيه الأنظار اليهم وصوب مشاكلهم الوجودية ، ومن هؤلاء الشعراء بيتره أندريفسكى ورادوفان بافلوفسكى وبوجوميل جوزيل .

وتتمثل عصرية « **رادوفان بافلوفسكى** » ، فى المقام الأول ، فى لغته الشعرية التى تقوم على استغلاله للصور الفورية التى يثير بها مواقف ديناميكية ويلقى عليها الضوء من عدة زوايا ، وعلى تكثيف الانطباعات النابعة من مجالات حسية مختلفة . الا ان ما يهم الشاعر غاية الاهتمام هى الظواهر التى لا تمت بأية صلة الى الزمن الحالى سوى بانها تسبقه . وهو يودع بانفعال ذلك الزمن الذى كان يتمتع فيه بخيال طفولى متطور ، ذلك الزمن الذى كان الشاعر نفسه متواجدا فيه باعتباره مخلوقا قويا ومتحكما فى قوى الطبيعة . وهذه الطفولة تحتل الأماكن البارزة فى وعى الشاعر ومداركه . وتتمثل قدرته وكفاءته فى تمكنه من تركيزها وتكثيف انطباعاتها ، الأمر الذى يثير على الدوام حواسنا ومشاركتنا الوجدانية .

والأشعار الأولى « **لبوجوميل جوزيل** » تعكس خبرته وتجاربه فى وطنه فى السنوات التالية للحرب ، وهى تبين مدى تأثره بشعراء الغرب. والطابع العام لشعره هو الرثاء وحب الوطن ، وتعبيراته الشعرية تدخل فى نطاق التعبيرات المثقفة التى تحصر نفسها فى التركيز على الأفكار ، وفى بعض الأحيان تجور الأفكار على الهدف الأساسى للقصيدة . ولذا فان تعابيره الفلسفية تترك انطباعا بانها مكشوفة وأنها موجودة هنا لذاتها فحسب .

ومع رسوخ اقدام جيل الشباب من الشعراء ظل الشعراء من الأجيال السابقة فى دائرة الاهتمام بقصائدهم الحديثة أو بدواوينهم الكاملة التى بلغت ذروتها حينذاك ولفتت الأنظار اليها . كما أنهم استمروا فى تدعيم انفسهم ، وعلى أساس من النضوج الخلاق يرسمون حدود قممهم بشكل

أكثر كمالا ودقة ويحققون ابعادا حديثة فى المفاهيم والموضوعات ، وفى صياغتها وتشكيلها .

فالشاعر « **ترايان بتروفسكى** » يكتب الشعر الاجتماعى الذى يصور فيه هجرة الفلاحين الى المدن ، وهجرة أهل وطنه الى البلاد البعيدة عبر المحيطات ، وفقدانهم التدريجى لروابطهم مع الوطن الأم . ويعالج كذلك فى شعره ارتباط الانسان بالأرض مع التركيز على ضرورة تقدير كل الأمور ذات القيمة الكبيرة . وهو يركز على تلك القيم التى تتلاشى بسرعة بالغة بالرغم من أهميتها بالنسبة لذاتية وشخصية أى شعب من الشعوب .

وقد استغل هذا الشاعر المقدونى فترة وجوده فى القاهرة فى القراءة عن مصر الفرعونية قراءة مفصلة وزيارة معالمها التاريخية الفرعونية والاسلامية ، وألهمه الفراعنة مجموعة شعرية باسم « أبى الهول » مزج فيها الأفكار الفرعونية بأفكار العصر الحديث مما أضفى عليها لونا جديدا فى مجال الكلمة الشعرية .

و « **ميخائيل رنجوف** » شاعر غنائى يمثل الأسلوب الجديد الحساس فى الشعر المقدونى المعاصر . وقد أعرب فى معظم دواوينه عن درجة عالية من الفن ومن النضج الابداعى والقدرة على التفكير لمدة طويلة فى تحقيق انجاز شعرى ضخم من خلال تأليفه لبعض دواوينه . وأدخل « ميخائيل رنجوف » فى الشعر المقدونى بعض عناصر التقاليد الأوروبية الغربية التى مهد لها مذهب الرمزية والتيارات التى نبعت عنه أو تشابكت معه وتطورت بأساليب مختلفة .

ومن المميزات الأساسية لشعر « **سفيتلانا خريستوفا يوتسيتش** » الشفافية وسهولة ربط الصور والروح العاطفية والميل الشديد تجاه الكمال وتناسق الملاحظات والاتجاه الى تغيير شكل القصيدة . وتعبيرها الشعرى ثابت بالرغم من أنه تهدده على الدوام خطورة التحول الى العاطفية . وهذه الشاعرة تختار موضوعاتها بعناية فائقة .

أما شعر « **أفتيم كلتينكوف** » فيتحرك فى عالم موضوعى للغاية وخارق للطبيعة ، ولذا فان هذا العالم يعد نوعا من الأسطورة الشعرية الفريدة . وتمثل هذه الأسطورة ، فى جوهرها ، الحياة فى شكل أسطورة . وهى حقيقة ثابتة بخيالاتها أكثر مما تكون بأفكارها الأسطورية ، وهذه الخيالات تخلق باستمرار تراكيبا جديدة غير متوقعة وغير عادية فى ظاهرها . والصور هنا ليست صورا بالمعنى المألوف للكلمة ، وليست صورا ترتبط احداها بالأخرى ، وانما هى حكايات عادية أو تاريخية موجزة قد تذكرنا بأساطير القرون الوسطى .

وتسيطر على شعر « **أتاناس فانجيلوف** » ، كلمات مثل الزهرة والنار والكلمة والسر ، ويمكنها ان تشكل قائمة بموضوعات شعره . والطبيعة ككل تظهر كمصدر عالمى فى شعره ، ومنها يخلق وعى الشاعر الصيغ والقيم . والشاعر يتحرك تجاه الطبيعة وكأنه يتحرك تجاه امه الأولى ، تجاه حارسته وتجاه سره .

وليست هناك اجابات عن الأسئلة التى يطرحها « فانجيلوف » فى شعره ، لأن هذا الشعر لا يقدم اجابات على الاسئلة بل انه فحسب يجعل هذه الأسئلة تحصل على مضمونها . وتبرز فى قصائده التخيلات الفولكلورية والميل الى عكس التصورات الصبيانية للناس . ومن هذه القاعدة ينطلق هذا الشعر فى مجال فسيح ابتداء من البراءة العاطفية وعبر الهياكل الفنية وانتهاء بالأصداء الرثائية .

واذا أردنا ، فى ختام هذا العرض السريع ، أن نوجز السمات الأساسية للشعر المقدونى المعاصر فيمكننا أن نشير ، اولا وقبل كل شىء **الى الرؤية الانسانية التى تسيطر على كل الشعر بغض النظر** عن الزمن الذى صيغت فيه وعن **تبعيتها للنوع الغنائى من الشعر** .

والشعر فى ادراك الشعراء المقدونيين المعاصرين ليس فحسب لعبة جمالية او هوسا عابرا أو مهارة فردية . **ومن بين الأساليب العديدة للتعبير عن المواقف الفلسفية والجمالية والأخلاقية وغيرها من المواقف ارتأى الشعراء المقدونيون أنه يمكنهم ، عن طريق الشعر ، أن ينفذوا الى مضمون الوجود والى تعبيراته المتعددة .**

وهذه هى السمة المشتركة التى تنعكس فى شعر الشعراء الذين يركزون على الموضوعات الاجتماعية كجميع تلك القصائد التى ألفها مؤسس الشعر المقدونى المعاصر « كوتشو راتسين » وكبعض قصائد « بلاجيه كونسكى » و « ايفانوفسكى » وغيرهم . وهى تنعكس كذلك لدى الشعراء الذين يركزون على الشعر الغنائى الذاتى (مثل « أتسو شوبوف ») .

ومثل هذه الرؤية تتجلى لدى الشعراء الذين يعتنون بالوصف الرمزى ويجتهدون الى اضافة الشاعرية على كل العالم المحيط بهم وعلى العالم الذاتى للانسان (مثل رادوفان بافلوفسكى وماتيا ماتيفسكى وأنته بوبوفسكى وفلادا أوروشيفيتش وبوجوميل جوزيل وبيتره أندريفسكى وميخائيل رنجوف) .

والسمة التالية للشعر المقدونى المعاصر تمثل الربط المتكرر بين أنواع الشعر من غنائى وتأملى ووصفى . والقصيدة المقدونية تحقق على

الدوام استخدام أحد عنصرين : رد الفعل الصافى أو الوصف ، وفى بعض الأحيان يتم التعبير عنهما معا . ومع استخدام الانجازات العصرية للتعبيرات الشعرية المعاصرة أخذ الشعراء المقدونيون يهتمون ، على حد سواء ، بالعناصر الخاصة بالشكل وبالمحتوى . وهم يحاولون اتخاذ أشكال شعرية جديدة ، ويستخدمون أساليب الشعر الحر وعناصر اللامعقول والرمزية ، ويؤلفون الأساطير . كما أنهم حاولوا فى السنوات الأخيرة محاكاة الأدب الانجليزى السوفيتى المعاصرين .

ولازالت الأرض المقدونية تنبت كل يوم شعراء جددا . وبالحكم على احدث مؤلفاتهم يمكن القول بانهم سيواصلون نفس النجاح فى الرحلة الأبدية للشعر المقدونى بحثا عن الأسرار الشعرية الجديدة فى الأرض المقدونية .

الفصل الثالث

الفن القصصى الروائى

من الجلى أن الشعر المقدونى بدأ رحلة حياته قبل القصة والرواية بفترة طويلة ، وذلك بسبب وجود تقاليد هامة وتراث وفير وفولكلور ثرى. وفى بداية الابداع استغل الشعراء المقدونيون الأوائل الوسائل الثابتة المستخدمة بالفعل فى الشعر الشعبى . وهكذا كانت البداية بالنسبة لجميع الشعراء ، وهى تشبه بدايات الشعر عند الشعوب السلافية الأخرى التى بلغت نهضتها القومية فى القرن التاسع عشر . والشعر الشعبى يمثل أساسا يتميز بالثبات والدوام أكثر من الشعر الفنى للشعراء ، ويرجع ذلك الى أسلوب معالجة الموضوعات والى ثراء المضامين التى ترتفع الى المستوى العالمى .

ومن المؤكد أن الحكايات الشعبية لم تكن فى حالة تسمح لها بتقديم أى شىء هام بالنسبة للابداع فى مجال النثر الفنى بالرغم من ثرائها اللغوى وذلك بسبب قدم مضمونها . ولذا فلم يكن بامكان الأدباء الا أن يستغلوا ثروتها المعجمية وأشكالها الأساسية .

ومن أجل هذا فليس من قبيل المصادفة أن المسرحية المقدونية الشعبية سبقت النثر والشعر بفترة زمنية طويلة . ويرجع السبب فى ذلك الى سيطرة لغة التخاطب المباشر على المسرحية ، وكذلك الى شعبية موضوعاتها وثراء تراثها بالعناصر الفولكلورية ، وهذا لايجعل هناك تلك الصعوبات التى لا بد وأن يلتزم الكاتب القصصى بالسيطرة عليها ، وخاصة اذا كان يريد أن يكون معاصرا من ناحية السرد والمضمون . **ولذا فان كتاب القصة المقدونية أفقر من الشعراء ومن كتاب المسرحيات فى مجال التراث والتقاليد .** هذا بالاضافة الى العناصر التاريخية المعروفة

غير الملائمة . وكل هذا يفسر ، فى المقام الأول ، تأخر تطور فن القصة المقدونية . وهذا التأخر يرجع أساسا الى الصعاب الموضوعية بالنسبة **لتطور اللغة الأدبية المقدونية والى الافتقار الى التراث القديم والى** الرواد الأوائل .

ولا شك أن الفن القصصى المقدونى وليد الحياة الحرة ، وخلافا للشعر فان النثر يسجل بداياته فى السنوات الأولى بعد الاستقلال . فقد أخذ القصاصون يعبرون ، بحساسية مرهفة ، فى مؤلفاتهم القصصية عن انطباعاتهم المباشرة فى أيام الحرب والاحتلال ، ويعربون فى حماس عن ابتهاجهم بالحياة فى ظل الحرية .

وفى القصص المقدونية الأولى ينتعش الاحساس الوطنى وينطلق بلا عوائق ، وفيها تلتقى الرومانسية التلقائية بالواقعية المباشرة . وموضوعات هذه القصص قريبة الى النفوس ، وكذلك المواقف التى تعبر عنها ، واتجاهاتها تقود حتما الى مواجهات غاية فى الحدة ، فالظلام الحالك والعبودية فى الزمن الماضى تقفان فى مواجهة النور والانتصار فى الحاضر والمستقبل .

وتحفل جميع النصوص القصصية الأولى بالرومانسية الناجمة عن حماس الحرية وعن الابتهاج بها . وأصبحت هذه القصص شكلا لاعلان وابراز رسالة اجتماعية سهلة الفهم والقبول ، وتتمثل هذه الرسالة فى أن يقوم الأديب بتصوير الحياة والتعبير عن تحولاتها السارة . وبالرغم من أن القصص المقدونية الأولى كانت غير واثقة من نفسها ولا تؤدى وظيفتها القصصية على خير وجه فانها تعبر عن بهجتها باستخدام اللغة المقدونية فى الابداع الأدبى .

ومن أوائل أدباء هذه الفترة القصاص « **جورجى أباجييف** » (١٩١٠ - ١٩٦٣) الذى بدأ نشاطه الأدبى فى الوقت الذى كان فيه مهاجرا الى بلغاريا . وقد عمل سكرتيرا للجنة القومية المقدونية ورئيسا لتحرير صحيفة « الراية المقدونية » ، وليس هناك أدنى شك من أن ممارسته لهذه الأعمال مكنته من أن يلاحظ عن قرب الوعى الذاتى القومى وانبعاث الآمال فى بلوغ التحرر النهائى لجميع المقدونيين .

وكان « أباجييف » شديد الاهتمام بمسائل التاريخ القومى ومشاكله ، وكان لهذا الاهتمام تأثير حاسم على نشاطه الأدبى . ومنذ تلك الأيام والى حين عودته الى وطنه فى عام ١٩٤٨ وحتى نهاية حياته كان التاريخ بلا انقطاع هو شغله الشاغل . وظاهرة التاريخ لها مكان

مرموق فى كل أعماله ، وعلى الأخص فى قصصه القصيرة . ومن أجل هذا فانه يعتبر بحق كاتب قصص تاريخية بالرغم من أن هذه الصفة لا تنطبق على كل مؤلفاته .

وبالرغم من قلة كتاباته الا أنه شخصية فريدة فى الأدب المقدونى المعاصر وذلك لتكريسه جل اهتمامه للقصة التاريخية . الا أن المؤرخ ليس على الدوام كاتبا للتاريخ ، وهذا يتجلى فى قصتيه « وكر المجرمين » و « الصحراء » . وفى قصصه الأخرى نجد أن العنصرين التاريخى والواقعى يمتزجان فى هيكل واحد . وفى هذا المضمار يمكن القول بأن التاريخ كاذب يواجه ، فى بعض الأماكن من قصص « أباجييف » ، التاريخ كتسجيل جاف للوقائع . ومع ذلك فاذا أمعن القارىء فى قراءة قصصه بعناية سيلاحظ المجهود الذى بذله القصاص حتى يتجنب « الفخاخ غير الأدبية » .

ويتميز موضوعان من بين موضوعاته المتعددة : الخروج على القانون والحرية . والمقصود بتعبير الخروج على القانون المقاومة الأبدية والخوف واستنزاف المحتل . والحرية هى أسمى مبدأ فى الحياة لدى أغلبية أبطال قصصه التاريخى .

وكان القصــاص « جورجى أباجييف » ، باعتباره أديبا مفتونا بشخصية المناضل « جوتسه دلتشف » الذى يعد من أكبر شخصيات التاريخ المقدونى ، وعلى هذا الأساس دخلت شخصية « دلتشف » كتب الشعر الشعبى والشعر المنظوم وتراث أدباء القصة . وانبثقت عن اسمه أسطورة شعبية ، فالناس يقتسمون معه الخير والشر ، وهو موجود فى أعياد الميلاد وفى حفلات الزواج . وكان المناضلون المقدونيون يقاتلون فى عام ١٩٠٣ ويتعرضون للقتل واسمه على أطراف ألسنتهم ، وألهمت روحه المقاتلين فى عام ١٩٤١ .

ويوجد هناك العديد من الحكايات التى ترتبط باسـمه وبحياته وبكفاحه . ومن بعض هذه الحكايات غزل « أباجييف » قصصه وأجاد نسجها . وقد خصص لهـذه الشخصية مجموعة من القصص القصيرة ونجح فى أن يصور فيها بطريقة تنبض بالحياة شخصية « دلتشف » ، وفى بعض الأحيان يصورها بشكل عابر من خلال احدى الحكايات ، وفى أحيان أخرى يعرض للشخصية من خلال أحداث حقيقية مستمدة من التاريخ ومن سيرة هذا المناضل .

وفى عام ١٩٦١ نشر « أباجييف » قصة قصيرة باسم « الصحراء » ، وهى آخر ما ألفه هذا الأديب . وتنقب هـذه القصة العصرية الواقعية

النفسية وتتعمق بالبحث فى الأحوال النفسية والداخلية للبطل الرئيسى « أرسو » . ونجد أن الحماس المفرط يصاحب كل أفكار « أرسو » وكل أحلامه المروعة ، ويرافق الاضطراب والارتباك اللذين يسيطران على نفسه . وكلمات هذا الأديب تشتمل أيضا على حماس مفرط ، ويحدث نفس الأمر بالنسبة لتأملاته فيما يتعلق بالأبطال وبالنسبة للحوار الطويل ذى الانفعال الشديد . وتحدث مصادمات متهورة بين الشخصيات وأقدارها ومثالياتها الفاشلة وآمالها المدمرة .

وعلى هذه الجزيرة النائية بسمائها الساكنة الضاربة الى الزرقة يتلالأ وجه « آنا » فى ومضات وجيزة ، ويزداد يأس السجين وتتضاءل قيمة الانسان . وهذا هو الذى جعل « أرسو » يقول الى رفيقه فى الوقت الذى لم يكن لديه فيه القوة الكافية لأن يحرر نفسه من الخوف : « حرر نفسك من الخوف ، فالخوف يجعلك تحنى هامتك . والعبودية لا توجد الا لأن الناس يرتعدون من أجل حياتهم البائسة ، ومن أجل أن تستمر حياتهم ولو فى الوحل . ماذا تريد بمثل هذه الحياة التى تعد أشبه بموت الشهيد . انك ستعيش طالما أن جماعة الطغـاة تحتاج الى حيـاتك . والطغاة يزدادون ثراء من خوفك ومن خوف الآخرين . ان الذئاب والغنم تختلط ببعضها ، وتتواجد هنا كل الذئاب الصغيرة التى لم تثبت نجاحها بالخارج . وهنا أصبح الجبناء طغاة ، وأصبح الموقف مشابها لما هو بالخارج فالذئاب تأكل الغنم ! » .

وهذه القصة قوية من الناحية الجمالية ومثيرة للعواطف وللذكريات . وهناك انسجام واضح بين تقنية السرد وبين أسلوب التعبير والحوار الداخلى والبنيه الأساسية . وقد تمكن الكاتب من أن يحقق طفرة كبيرة فى أسلوب السرد وفى الربط بين الأجزاء الداخلية للقصة واجراء تشريح لنفسية الانسان يكشف به عن المساحات التى لم يتم اختبارها فيها . انها قصة الزمان والمناخ ، وهى كذلك قصة مأساة الوجود الانسانى عند اجتيازه للحدود الضيقة .

ومن الأدباء المهمين فى هذه الفترة « فلادو ماليسكى » الذى كتب حينذاك عدة قصص ترجع أهميتها وطرافتها الى كونها تعبيرا مباشرا عن اشتراك الأديب شخصيا فى النضـال من أجل تحرير بلاده . ومن أهم ما يتميز به « ماليسكى » هو نضارة وأصالة تعبيره والمعرفة الممتازة بكيفية استخدام الملكات المناسبة فى مكانها المناسب ، وكذلك اقتناعه بأن الأدب يمكن أن يعجل بتطور ونمو اللغة المقدونية .

ومن المؤكد أنه ليس من قبيل المصادفة ان كلمة « سننتصر » تتكرر

في جميع قصص « ماليسكي » ، فهذه الكلمة تعرب بايجاز وبشكل مثير عن أمل كل الشعب المقدوني في تحقيق انتصاره . ومن المعروف أن الشعب المقدوني عانى مختلف ألوان العذاب والمعاناة من أجل أن يتحقق له هذا الأمل ، وكان هذا هو الاحساس المسيطر على نفوس جميع المناضلين وعلى نفوس أعوانهم ، وكان هذا الاحساس هو القوة التي تحرك جميع انشطة الأبطال الرئيسيين في قصص « ماليسكي » .

واستطاع هذا القصاص أن يتخلص من سمات الحزن الاجتماعي التي تميزت بها تلك الفترة . وهو في قصصه لا يفرق بين الأمور التي تخص المجتمع وتلك التي تخص الأفراد . وفي هذا المضمار تتميز تميزا خاصا قصة « **الأمسية الأولى** » التي يضحي فيها شاب وفتاة من أهل القرية بليلة زفافهما وذلك لأن العريس ينبغي في هذه الليلة أن يجتاز الحدود بمجموعة من المناضلين متجها الى اليونان . وهكذا يتم ابراز دور النضال في الحياة الشخصية للفلاحين البسطاء وتصوير طابعه الشعبي الصادق .

وفي القصص الأخرى يتم تصوير ذلك بصورة أكثر اقناعا وبلا اجبار او فرض ، وذلك حينما يصور المؤلف ردود فعل الشخصيات النسائية أي الأمهات من الفلاحات البسيطات اللاتي بعثن باعز أبنائهن الى ساحة الحرب . ومن المؤكد أنه تبقى عالقة بذهن القارئ شخصيات الأمهات اللاتي تحملن ببطولة وشجاعة أعظم التضحيات الشخصية واشقها على النفس ، واستطعن تجاوز الآلام بالتضحية بالنفس وبالروح حتى النهاية ، أي الى أن تم تحقيق النصر .

ونجح « ماليسكي » في قصصه في تصوير الشخصيات النسائية بصدق وعن تجربة وخبرة واقعية . وهذا يكشف دوره الهام في ابداعه شخصيات نسائية لا يمكن نسيانها . وبالرغم من تعقد الموضوع الذي يحكي عنه « ماليسكي » في روايته « **ما كان سماء** » (في ١٩٥٨) فان أجمل صفحات هذه الرواية هي تلك الصفحات التي يحكي فيها عن الأم المقدونية التي يصعب عليها ادراك التغيرات القائمة في نفس ابنها . ومن هنا يصدق الاستنتاج القائل بان « ماليسكي » كان روائيا وقصاصا أصيلا وله دور ريادي في القصة المقدونية المعاصرة .

لقد كانت جميع المحاولات ، الناجحة والفاشلة ، متساوية في قيمتها آنذاك ، أي عند ظهور بدايات القصة المقدونية المعاصرة . وكان رأي جميع الأدباء حينذاك انه من المهم أن يبدءوا باى شكل وباى ثمن فذلك أفضل من أن يزداد تاخرهم وتخلفهم في هذا المضمار . وقد صور النقاد جهود الأدباء القصصيين في تلك الفترة بانها عبارة عن تاريخ منفعل للواقع

الجديد ولسبيل بلوغ النصر والحصول على الاستقلال . حقا ، لقد كان من العسير على الأدباء أن يصمتوا أمام مثل هذه الأحداث المصيرية الجسام التي تجري على ارضهم .

ومن ناحية أخرى كان الأدباء المقدونيون ينظرون بعيون ملؤها القلق الى التطور النامي في فروع الأدب اليوغسلافي والى حصول بعض الأدباء اليوغسلاف على اهمية لا يستهان بها على الصعيد الأوروبي . ومنحهم هذا القلق دفعة قوية الى الأمام فلم يكن احد منهم يريد أن يكون مصيره مصير رجل فقير يجاور جارا ثريا . وكان هذا من حسن حظ الأدب القصصي المقدوني الذي أسرع أدباؤه في تطويره وتنميته وتحديثه .

وتعتبر فترة الخمسينات في تطور الفن الروائي المقدوني هي فترة الصراع الديناميكي بين التقليديين وبين أنصار مذهب الحداثة ، وهي كذلك فترة التغيرات الراديكالية للنماذج الأدبية لدى كل فريق . ومن حسن حظ الأدب القصصي المقدوني كذلك انه نشات في تلك الفترة ضرورة اعادة تقييم عامة على المستوى الجمالي ، وقد أدى هذا الى التركيز على السمات الفنية المتميزة للعمل الأدبي .

وكانت هذه الوقفة بالنسبة لأدب ناشئ مثل الأدب المقدوني تمثل ضمانا أكيدا لاستمرار التطور الأدبي المألوف ، وأكسبته هذه الوقفة حصانة في مواجهة أية تحديدات تعوق مسار الأدب وبالتالي تم توجيه كل الجهود نحو النشاط الابداعي واغفال ما عداه من المشاكل الفنية . وأثبتت هذه الوقفة أنها بداية لعهد جديد في تطور الأدب المقدوني المعاصر ، وأصبح واضحا كل الوضوح أمام المبدعين في مقدونيا أنه لا يكتب الاستمرار الا لما أبدع على أنه أدب . وبمرور الأعوام ظهرت نتائج السيطرة على الصفات المتميزة للأدب وازداد التعبير تهذبا وتم التعمق في مشاكل الحياة الخاصة بالمواطن العادي .

وفي عام ١٩٥٠ ظهرت أول قصة للأديب والشاعر « **سلافكو يانيفسكي** » بعنوان « الشارع » ، وصور فيها مدينة سكوبلي في الفترة السابقة للحرب . وفي عام ١٩٥٣ ظهرت روايته « القرية الواقعة وراء أشجار الدردار السبعة » ، وهي أول رواية مقدونية تعالج موضوع اعادة البناء الاشتراكي للقرية المقدونية . وفي عام ١٩٥٥ ظهرت مجموعته القصصية « المهرجون والناس » التي كشف فيها عن ثراء التراث الأدبي المقدوني . وعالج في روايتيه « امرأتان باسم ماريا » (في ١٩٥٦) و « الحالم » (في ١٩٥٩) مشكلة وحدة الانسان وعدم وجود هدف للحياة

من وجهة نظر الوجودية . أما روايته « الألم والغضب » (فى ١٩٦٤) فهى رواية شاعرية مثيرة عن الانسان والشعب خلال فترة الثورة .

ومن هذا الانتـاج الأدبى تتجلى سيطرة « يانيفسكى » على جميع الأجناس النثرية الأدبية من أبسطها الى أعقدها . وبعد صدور قصصه الأول حصل « يانيفسكى » على اعتراف النقاد بأنه قصاص موهوب . ولا ترجع شهرة « يانيفسكى » الأدبية الى غزارة انتاجه فحسب وانما ترجع أساسا الى تعدد مواهبه الأدبية ، فهـو سريع الخاطر يملك خيالا ابداعيا حيا وقدرة باهرة على الوصف الحيوى المرن وعلى استخدام المجازات الثرية . وتبرز من مؤلفـاته رغبته الأكيدة فى تكوين عادات جديدة ومتنوعة ، من ناحية الموضوعات ، لدى القارىء واستخدام تعبيرات أكثر حداثة وجراة .

وقد لوحظت فى هذا المضمار ميوله الواضحة نحو استيعاب كل ما هو أجنبى وتبدل قدراته على استيعاب التأثيرات الخارجية ، اذ ان هذا الأديب بدأ حياته الأدبية سائرا على درب مذهب الواقعية وفقا للروح الرومانسية للأديب الروسى « مكسيم جوركى » ، وواصل نشاطه على درب الواقعية متأسيا بالأديبين « شولوهوف ولينوف » . وفجأة اتجه « يانيفسكى » الى الأجنـاس المتطرفة من السرد الروائى . ونجد عنده انتقالات مفاجئة من الوصف الروائى الى التأمل المرتبط بتداعى المعانى والخواطر ، ومن الوصف الشعرى الى استعادة الأحداث العاطفية الشخصية التى يتشابك فيها الحاضر مع الماضى .

وقد يبدو أن اهتمام أديب واحد بكل هذه الأساليب المتباينة وتقلباته السريعة تمثـل عائقا أمامه من أجل التوصل الى شىء متكامل . الا أن الدافع الرئيسى لدى « يانيفسكى » هو معارضة التمسك بالتقاليد بجميع أشكالها ، وهدفه الأساسى هو مسايرة أحدث الأهداف العصرية فى مجال الأشكال بغض النظر عن الانحرافات فى هذا المجال .

ويتميز « يانيفسكى » بأنه كاتب مشغول أشـد الانشغال بالبحث عن مجالات جديدة ، ولكنه فى خضم هذه الاكتشافات الابداعية لا يضيع أية تجارب سابقة ، ولم يضيع كذلك السبل الابداعية المستخدمة من قبل . وتتضح وضوحا خاصا هذه الصلة المشتركة للأفكار بين القديم والجديد ، بين دائرتين ابداعيتين أو حتى بين شكلين ايقـاعيين لنفس الدائرة ، فى المجموعتين القصصيتين « الهواء الدافىء » و « الخزانة » .

و « يانيفسكى » يغير من حين لآخر زاوية ملاحظته ، فهو مرة ينظر

من الواقع الخارجى ومرة ينظر من العالم الداخلى للانسان . ويستخدم بدون حكم مسبق أو انحياز ، التجارب الخاصـة بالتقاليد الشعبية المقدونية ، ويستثير عالمه الخاص من الأفكار عن طريق تقديم قوى دافعة مأخوذة من حركات أدبيـة معينة . وبذلك تم تجديد المذهب الواقعى وتحديثه وتزويده بالحيوية الداخلية ، ومن هنا دخلت الواقعية فى صراع ابداعى ونظرى مستمر ، الأمر الذى وسـع دائرة الواقعيـة وزاد من امكانياتها ومعانيها .

وفى القصص الموجودة بمجموعته القصصية « الخزانة » نجد أن الكاتب قد نقل تفاصيل الحياة من الواقع المباشر ، أو أن الوصف يقف فيها عند الحد الفاصل بين السرد الذى يتحدث عن الماضى وبين التخيلات الحديثة ، أو أننا نجد الحقيقة والأسطورة يشكلان نسيجا واحدا . وواقع الحياة وموقف الانسان أو صورته الجانبية لا يتلاشون تحت سطح الخيال الذى عند اكتشافه لأسرار العوالم المجهولة يسجل النغمات وأشباهها بالوسائل التى يتم بها تصوير المصير الانسانى على أنه فكرة أصلية وهدف نهائى . وفى هذا المضمار تبرز بعض القصص بسبب تشابهها مع شكل المقالة باعتبارها هيكلا عقائديا وفنيا للقصة .

وبهذه المجموعة القصصية يبرز « يانيفسكى » ثانية على أنه كاتب حديث ، وترجع حداثته الى بساطة نظراته المثيرة والى الطبيعة المصقولة لأسلوبه والى تطبيقه للأسلوب القصصى الذى يمتزج فيه الأسلوب الغنائى بأسلوب المقالة ويتحركان فى المجالات الواسعة بين الأحلام والواقع ، وبين الأساطير والخرافات ، وبين الماضى والحاضر . وهكذا زاد ثراء الأدب القصصى المقدونى بعشر قصص قصيرة بها اختلافات طفيفة فى الموضوع والأسلوب ، وتتشابك النواحى الجمالية مع الجوانب الشاعرية تشابكا ديناميكيا .

وفى عام ١٩٨٤ حصـل الأديب « سلافكو يانيفسكى » على جائزة تقدير على ثلاثيته التى تحمل عنوان « غرائب الفزع » . وتتألف هـذه الثلاثية من ثلاث روايات : فيالق القديس أدوفونيس ، عذاب الكلب ، وفى انتظار الطاعون . وتتضمن هـذه الثلاثيـة التاريخية حوالى ٢٢٩ شخصية ، وتغطى مساحة تاريخية عريضة تبدأ من القرن الرابع عشر وتنتهى بالقرن الثامن عشر . ويواصل المؤلف عزفه فى هذه الثلاثية على أن يقتطع من النسيج الحى للمعانى القديمة ذلك الذى يبدو أنه من التراكيب الحديثة المتعددة الطبقات . وقد رحب النقاد بهـذه المأساة الاسـطورية الواقعية التى تقدم تعريفا تاريخيا ميتافيزيقيا للزمن .

وحينما ظهرت القصص الأولى للشاعر « بلاجيه كونسكى » لم يكن

الاقناع المكثف الذى أثاره لدى القراء يمثل مفاجأة لأى أحد . والأمر الوحيد المفاجىء أنه أول شاعر يتبرأ من المعالجة الشعرية فى النثر المقدونى ، فهو أول قصاص هادىء مطمئن يكتب بموضوعية قصصا متحررة من الميلودرامية والرومانسية .

ونجده فى قصصه يعبر عن اهتمامه الكبير بالانسان ويقيم رباطا وثيقا بين التجربة والواقع الشخصى . ومعظم قصصه تعالج موضوعات جمالية وتصنع شخصياتها طبقا لنظام داخلى ذاتى وتقيم مقارنة بين البيئة المقدونية قبل الحرب وواقع مقدونية أثناء وقوعها تحت وطأة الاحتلال الأجنبى .

ومن الملاحظ أن جميع القصص التى تتضمنها مجموعته القصصية « مزرعة الكروم » لا تنطلق الا من التجارب القائمة على أساس المعلومات الحياتية الصادقة المذكورة بالملاحظة الدقيقة بدون اللجوء الى الفلسفة النفسية . وكما أجمع النقاد والقراء على قبولهم له كشاعر مجدد متجدد فقد أجمعوا كذلك على قبوله ككاتب قصصى ، وأجمعوا أيضا على أن هذه المجموعة القصصية تمثل بداية لنضوج الأدب القصصى المقدونى ككل .

وبالسعى الى تحديث التعبير حصلت عملية التحديث فى مجال الأدب على مكسب كبير . وقد تحققت نتائج أكثر كمالا فى مجال الشعر بيد أن النثر لم يتوقف عن البحث والمحاولة ، وكانت تعنى الكثير محاولة اجراء تجارب بمختلف الطرق وبمؤثرات متباينة . وكان من الضرورى تحقيق تجارب تشتمل على درجات متفاوتة من الجودة ، ومن الواجب أن تتم ، فى هذا المضمار ، ملاحظة ما هى الرغبة الجوفاء وما هى القدرة الحقيقية ، وما يمكن وما لا يمكن أن يبقى باعتباره عصريا .

وكان بعض الأدباء ينقادون وراء حماس النصوص المدرسية ويكتبون على نحو ما يقرأون ، والبعض الآخر أخذ ينهل من تلك المنابع التى تم التوقف منذ فترة طويلة على النهل منها ، وأخذت مجموعة ثالثة من الأدباء تكتب بأية طريقة وبأى أسلوب حتى ولو كان أعتق الأساليب ولم يمنعهم ذلك من أن يعلنوا عن أنفسهم أنهم من أتباع الطليعة الأدبية آنذاك . وكان جليا أمام بعض الأدباء أن الحداثة تبدو أكثر فعالية حينما تكون مرتبطة بتنوع جوهر ذاتها . وهكذا كان يتم على الدوام وبدرجة متساوية وفى أى اتجاه وبأية كثافة التعبير عن تطلع الأدب المقدونى الى الاشتراك فى مسيرة الحداثة التى استمرت حوالى عشر سنوات .

وكان للاتجاهات نحو التحديث ، كما يحدث فى الأمور الطبيعية ،

وكما كان على الدوام ، صدى سريعا لدى الأدباء الشبان الذين أخذ عددهم يتزايد باستمرار . وكانت بالفعل ظاهرة طيبة أن تبرز عدة أسماء جديدة فى كل عام بانتاجها الغزير وبقيمها الجديدة المتجددة . وساهم الكتاب الجدد فى اضافة المرونة والثراء على الكلمة المقدونية . ولوحظ كذلك خلال فترة استمرار اتجاهات التجديد ظهور انتعاش واضح فى مؤلفات عدد كبير من الأدباء القدامى الذين لم يتوقفوا أيضا ، بل أخذوا يبحثون عن الجديد سواء فى الفكرة أو فى أسلوب التعبير .

وتعد رواية « المندهش » (فى ١٩٨١) للروائى « كوله تشاشوله » مثالا جيدا وطيبا للروائيين المقدونيين الذين يحاولون أن يحرروا أنفسهم من العبودية لما يسمى بالموضوعات الكبيرة الضخمة ، فموضوع هذه الرواية فريد ومتميز . فها هى السيارة المرسيدس الفاخرة تصل الى مدينة « برازدا » ، وهى مدينة خيالية غير موجودة فى الواقع . ويتم التركيز على أهمية هذا الحدث عن طريق تقديم معلومة بأن هذه السيارة الفاخرة وصلت الى المدينة بطريق الخطأ . ولكى نوضح دور الروائى فى هذه الرواية فعلينا أن نربط بين هذه المعلومة وبين ما ذكره المؤلف فى الصفحة الأخيرة من الرواية بقوله : « اذا ضللت طريقك فهذا سبب جيد لأن تهتم بنفسك » . وعبارة « تهتم بنفسك » التى شدد عليها المؤلف هى التى تحدد عمله فى هذه الرواية .

ويقيم المؤلف علاقة خاصة مع الماضى عن طريق ابداء مثل هذه الملاحظات . وفى بعض الأماكن يتم عرض الحقائق التى تتعلق بفترة تاريخية معينة . فالمؤلف يعود الى الزمن الماضى من أجل استرجاع الأحداث الماضية ، وفى الختام يعود الى الأحداث الحالية فى انقياده لمنطق الأحداث . ولكن يسود انطباع عام بأن الحقائق المعروفة الملموسة فى هذه الرواية لا تعطى بعدا تسجيليا للرواية . ولم يكن المؤلف يهدف الى أن يحدد الخط التاريخى الذى سيطر على كل أعماله السابقة ، أو يحاول توضيح الصراعات التاريخية والقومية المقدونية ، بل كان هدفه هو تقديم تاريخ لحياة ولمصائر الشخصيات التى تم ضبطها فى لحظة زمنية معينة وهى فى حالة عدم استعداد . وعن طريق مزج التفاصيل المتعلقة بحياة هذه الشخصيات بالواقع يتم تقديم مجموعة من الشخصيات الحقيقية المفعمة بالحيوية .

وفى الواقع تعد رواية « المندهش » هى رواية الشخصيات التى تم نقلها من الحياة اليومية المألوفة ، ويتم النظر اليها من جانبها الفكه المضحك . وتثبت هذه الرواية وتبين بجلاء الامكانيات والقدرات الابداعية

للمؤلف ، وهى تمثل من ناحية أخرى تفوقه فى مجال الموضوع والأسلوب والتعبير .

أما فى رواية « **الغثيان** » (فى ١٩٨٢) فقد حقق المؤلف رؤية ملحمية ايحائية لأحد الأزمنة الذى تشكل فيه الوعى الخاص بحتمية تغيير الظروف المتعلقة بالحياة الانسانية . ومما لا شك فيه أن لهذه الرواية دوافع غاية فى التعقد والعمق والشجاعة . لقد وجد الناس أنفسهم فى مفترق طرق خطير ، وظهرت شخصيات تتباين فى اختياراتها وتتميز فى أهوائها وطباعها وطموحاتها . لقد وجد هؤلاء الناس انفسهم على أعتاب الحرب العالمية الثانية أمام فوضى هائلة ودولة منهارة . والخوف والحيرة يسيطران على كثير منهم . لقد أخذوا جميعا يفرون فزعا وجزعا ، فالعدو قادم للهجوم عليهم من كل صوب وحدب ، والموت يتابع كل خطواته . وعلى الانسان فى مثل هذا الجو الفظيع أن يحسن التصرف وأن يتم ايقاظ روح الشعب والبحث عن سند فى الحياة والتقدم فى طريق مضمون أكيد .

لقد قدم هذا الكاتب فى روايته عدة صور غاية فى الابداع وحقق ذلك عن طريق خطين أساسيين ، فقد قدم صورة للسنة الأولى من الحرب وللصدمات العسكرية الأولى من تدمير لمدينة بلغراد ومن هروب للسكان ومصرع كثير منهم ، ثم تغلغل جنود العدو تغلغلا عميقا فى جميع أنحاء البلاد وحدوث اتصال بين الأوساط اليوغسلافية وبين قوات العدو الألمانى، وتنفيذ العديد من الخطط العسكرية والسياسية . وهكذا يحصل المرء على انطباع مؤثر وغريب من ذلك القطار الذى يتقدم دون موعد متحركا من بلغراد صوب « سكوبلى » واليونان . ويشعر ركابه بأنهم فى جحيم ، أما هو فانه أشبه بالشبح المريع يعلن بضجيجه وصفيره عن نشوب الحرب وعن انهيار الحياة .

لقد ركز الكاتب فى تصويره على الحرب وعلى غاياتها المدمرة وعلى فظائعها ، وحذر فى بداية روايته من أن ما يحدث فى يوغسلافيا ليس فحسب حربا ضد عدو وضد مغير ، وانما هى ثورة تعنى تغيير الحياة كلها . وفى الحقيقة كان الأديب يهدف الى اثبات أن الحرب لم تات صدفة وأنها لم تكن مفاجئة بالنسبة لسكان يوغسلافيا . وبالرغم من أن الحرب كانت متوقعة الا أنها جلبت معها الخوف والاضطراب والفزع والاحساس بالحيرة ، ولكنها أيضا أثارت فى القلب الحاجة الى الاعراب عن المقاومة وابدائها .

وصور الكاتب مشقة ومأساوية كفاح الثوار من أجل حصولهم على حريتهم . وصور المخاطر التى كانت تنتظرهم والمحن التى كانت

تجاربهم ، واشار المؤلف الى انقسام الناس والى تباين أهوائهم الفكرية والسياسية ، والى تفاوت أحلامهم وآمالهم . وكان يتابع ، باعتباره فنانا مبدعا ، كل هذه الاختلافات ، وينقل بأصالة ودون تحيز تعدد الأهداف والاختيارات .

وقد يعتقد بعض القراء أن هناك ستارا من العقائدية يشمل هذه الرواية ، ولكنها فى الواقع ليست كذلك . اذ أن الاتجاه الأساسى للرواية هو حصول الانسان على حريته والتحكم فيها . وفى هذا المضمار سعى المؤلف ، فى المقام الأول ، الى ابراز فكرة النضال ضد الظلم الواضح . وتم تجسيد هذه الفكرة فى السعى الى أن يحقق الشعب عن طريق النضال العادل هويته القومية التى تتحد مع الأهداف الثورية لكل الشعوب اليوغسلافية .

ويحصل القارئ من هذه الرواية على انطباع بأنها كتاب مركز متكامل مكتوب بلغة ايحائية متفجرة ، تتدرج فيها الأفكار والأحاسيس ، وبأنها كتاب منفتح تجاه العالم والزمان والناس . ويثير فى وعى القارئ ، بايحائيته الفنية ، خبرات وتجارب فنية ثرية من الحياة .

والأديب « **ديمتار سوليف** » يتبع الجيل الأوسط من الكتاب المقدونيين بعد الحرب ، ويحتل مكانا بارزا فى الأدب المقدونى نظرا لأنه شخصية ابداعية متعددة الجوانب . ومن أهم مجموعاته القصصية : « الثلوج الذائبة » (فى ١٩٥٦) ، « بمحاذاة النهر وفى مواجهته » (في ١٩٦٠) ، « القواقع » (في ١٩٧٥) « المرآة السوداء » (في ١٩٨٥). ومن أشهر رواياته : « تحت السماء الحارقة » (فى ١٩٥٧) ، « الربيع القصير لساموئيك » (فى ١٩٦٤) ، « درين » (فى ١٩٨٠) ، « فجر بلا ركن » (فى ١٩٨٤) . كما كتب العديد من التمثيليات الاذاعية والمقالات النقدية والدراسات الأدبية .

وبعد ما نتصفح مجموعته القصصية « **الثلوج الذائبة** » سنجد أن **التجربة المسيطرة على مضامينها هى تجربة الحرب بأهوالها وفظائعها ، ومن الواضح أن هذه التجربة المريرة قد تركت آثارا لا تنمحى على طفولة وشباب الأديب « ديمتار سوليف »** . وهذه الآثار العميقة التى ظلت عالقة بذهنه وبذاكرته خلال فترة الحرب تسعى بشتى الأساليب الى الظهور فى كل صفحة تقريبا من صفحات هذه المجموعة القصصية . ونتبين على صفحات هذه المجموعة القصصية أن عناصر الحرب مختلطة بالطفولة العارية وبالعينين المفعمتين بالخوف ، ولكن هناك لهب يضئ ويشتعل آنا بعد آن ، وهذا اللهب يمثل الاحساس بالأمل فى أن حياة

المواطنين لن تضيع هباء أبدا وأنه لابد فى حين من الأحيـــان من تراجع القوى الوحشية التى تدمر حياة الناس ٠ والانسان هنا يتعرض لضغوط متباينة منها الطيارات التى تحوم فى السماء محاولة التخلص من حمولتها الميتة ، ومنها المناداة الهيستيرية على أسماء المواطنين لمعرفة عدد المفقودين منهم فى الحرب ، وما شابه ذلك من ضغوط ٠

ومما لا شك فيه أن الانسان هنا عاجز تماما عن أن يثبت لنفسه أنه انسان وفقا للمبادىء المعروفة من علم الوراثة ٠ ان انطلاق صـفارات الانذار يثير الضيق والقلق ، وصوت محركات الطائرات يجمد الدماء فى العروق ويسلب الانسان وعيه ويخرجه عن طوره ويصـيبه بالارتباك كطائر بائس تم الامساك به ، وبالرغم من أنه يرتعـد فى قرارة نفسه الا أن وعيه يتمرد عند معرفته بأنه أمام هاوية من الاغراءات التى وقع الانسان بين براثنها والتهب بنيرانها حتى انصهر وخرج انسانا آخر أكثر انسانية ٠

أما مجموعته القصصية « **القواقع** » فتتميز بتنوع مضامينها وأفكارها المستوحاة من الحياة المعاصرة ، ويتم فيها استعراض مختلف البيئـات : مدينة « سكوبلى » القديمة والجديدة ، والمدن الصغيرة والقرى وغيرها . ويعرض علينا المؤلف نماذج من الشخصيات الموجودة بمختلف المناطق ، فهناك السكان الأصليون ، وهناك القادمون الجدد الذين لم تحتويهم بعد جدران المنازل ٠ وتتسلل الى صفحات هذه المجموعة القصصية شخصيات من سكان المدن الصغيرة ومن القرى باعتبارها شخصيات تمثل نماذج من الزمن الغابر فشلت فى محاولاتها التكيف مع الظروف الحتمية الراهنة .

ويسعى الأديب « سوليف » الى أن تنبض قصصه هذه ، كلما أمكن ، بأكبر قدر ممكن من رحابة الحياة المعاصرة وعمقها ، والى أن تتنوع فيهـا نظراته الى الحياة من مختلف الزوايا والجوانب ٠ ويحاول أن يمسـك ويثبت تلك الأمور الحياتية التى تتمكن من الافلات والانسياب من بين أيدينا ٠ وهكذا عرض علينا المؤلف صورة للحياة بكل ألوانها ، من بدايتها وحتى نهايتها ٠

وخلافا لقصصه السابقة فقد صور الكاتب فى هـــذه المجمـوعة القصصية الحياة المعاصرة آنذاك ، الأمر الذى يؤكد أن المؤلف قد دخل مرحلة جديدة من مراحل تطوره الأدبى ٠ وليست الموضوعات هى التى تحدد دخوله هذه المرحلة الجديدة ، وانما الأهم من ذلك بكثير هو كيفية معالجته لهذه المجموعة من الموضوعات ٠ وقد صمم المؤلف على استخدام العرض الحقيقى الكامل لواقع الحياة المعاصرة بكل مظاهرها وأشكالها ،

وهذا التصميم مسيطر عليه وعلى فكره وقلمه تمام السيطرة ٠ ومن هنا فقد ألقى بنفسه فى دوامة الحياة اليومية بأنهارها الواسعة المتدفقة ، وأخذ يتأملها فى كل ما تشتمل عليه من تلون وتنوع ، ولم يقاوم ضغوط تنوع المادة التى تقدمها له الحياة اليومية ٠ وكأنه لم يشأ على الدوام أن يقـوم بعملية انتقاء بين تلك الجوانب الجوهرية وبين الجوانب العارضة التافهة ٠

واذا أردنا أن نشـير الى القيم الكبرى التى تتضـمنها المجمـوعة القصصية « القواقع » من ناحية أفكارها ومضامينها ومحصلاتها النهائية ، خاصة اذا نظرنا اليها وسط سياق اتجاهات الفن القصصى المقـدونى ، فلابد من أن ننوه الى أن « سوليف » سمح لنفسه باللجوء – فى بعض الأحوال – الى تغلغل التسجيل التاريخى الوثائقى فى المقام الأول ، وذلك دون خوف من أن ينسخ الحياة على حالها ورغبة منه فى أن يرتبط أشـد الارتباط وبأى ثمن بالحداثة ٠ ويحدث أن بعض صفحات هذه المجموعة القصصية يتجاوز الحد الفاصل بين القصة الحقيقية والقصة التسجيلية ٠

بيد أن المؤلف نجح نجاحا كاملا ، للنهاية وبشكل مقنع من الناحية الفنية ، فى تحقيق فكرته الجلية التى أراد بها أن يبرهن على أنه لا يمكن أن يحدث صدام مباشر بين النقل الابداعى وبين المادة اليومية المعاصرة غير المنتقاة ٠ وكأن هذا المؤلف أراد بهذا الأسلوب أن يجابه أحد اتجاهات الفن القصصى المقدونى وأن يعارض آراء بعض النقاد الذين يفضلون – على حد التعبير – اضفاء الطابع الأدبى على المعلومات الحياتية ٠

والخبرة الثرية للمؤلف تجد تأكيدا لا يدحض على كثير من صفحات هذه المجموعة القصصية ، ومن ناحية أخرى يصور « سوليف » بمهـارة بالغة طباع أبطاله وأبعادهم ٠ وهو يحسن استخدام المعالجة الساخرة ، كما أنه ليس بالغريب عليه الميل الى المفارقات المضحكة ٠ وليس من النادر كذلك أن يطلق العنان لشاعريته وغنائيته ويوظفهما فى عمليـــة السرد الهادىء الواقعى المتوازن ٠

وبرواية « **درين** » حصــل هذا الأديب فى عام ١٩٨٠ على جائزة الأديب « راتسين » وهى جائزة أدبية يتم منحها كل عام لأفضل عمل أدبى يتم نشره فى مقدونية ٠ **وتعد رواية « درين » من روايات السيرة الذاتية ، وهى تصور القصة الحقيقية لمصير الثائر المقدونى « فاسيل انتفسكى درين » الذى حكم عليه الفاشيون البلغار بالاعدام بعد المحاكمة التى اجريت له فى « سكوبلى » مع بعض رفاقه من المقاتلين البارتيزان** ، وفى نفس العام تم شنقه فى سجن صوفيا ٠

وتشتمل هذه الرواية على مبادىء ومسلمات القصة التسـجيلية ،

وتحمل بين طياتها عبير وجو فترة تاريخية معينة . ومن خلال عرض حياة هذا الثائر المقدونى ـ بطل الرواية ـ يتم طرح السؤال الأساسى عن مغزى استمرار حياة الانسان .

وتعد رواية « **فجر بلا ركن** » (فى ١٩٨٤) رواية واقعية تجريبية جديدة . والفجر هو اسم مقهى من المقاهى القديمة المشهورة بمدينة « سكوبلى » ، وفى شرفتها العالية وضع ابن صاحب المقهى منظاره المكبر وأخذ يراقب ويضبط ، أى يسجل كل ما يحدث داخل المقهى وعلى موائدها .

ويستحق ، بالفعل ، اهتمام الروائى كل ما يسجله هذا الجهاز المصنوع من مرايا محطمة وقطع كرتونية صلبة . ويقوم ابن صاحب المقهى بدور القصاص ويستنتج أنه لا يحدث أى شىء مثير وهام داخل مقهى الفجر . فهذا المقهى يمثل عالم المحالين الى المعاش والمحققين والمجرمين السابقين واللاحقين والفنانين الفاشلين وغيرهم . انها بلا شك رواية الأحوال والشخصيات ، وتشتمل على التزام أدبى واجتماعى معاصر . وهى تمثل صورة تضاريسية للواقع المقدونى فى السنوات الأولى التالية لتحرير البلاد .

وقد ذكر بعض النقاد أن هذه الرواية ، من حيث بنائها ، أقرب الى المجموعة القصصية منها الى الرواية . وذلك لأنها تمثل مجموعة من الأحداث التى لا ترتبط فيما بينها الا فيما يتعلق بمكان سردها ، وهو مكان المراقبة من شرفة مقهى « الفجر » ، وترتبط بالقصاص الذى يسردها وهو ابن صاحب المقهى . والحقيقة أن هذه المجموعة من الحكايات التى تصور مدينة « سكوبلى » قبل أن تتعرض للزلزال ترتبط بخيط مشترك من ناحية موضوعاتها ، وهناك أيضا ارتباط بين شخصيات هذه الحكايات . ويوجد اطار زمنى ومكانى عام لكل الأحداث ، الا أن كل حدث يمثل حكاية منفردة لذاتها .

ومقهى « الفجر » يمثل كونا صغيرا يحدث فيه العديد من التفاصيل الخاصة بمصائر الناس . ويرى الغلام هذه التفاصيل من خلال منظاره المكبر الموجود بالشرفة ، ثم يحكيها لنا . ونجد أن الشخصيات عند النظر اليها من خلال منظور عدسة المنظار ليست قريبة فحسب بل وأكثر انكشافا ووضوحا ، وتكتسب بساطة هذه الشخصيات مغزى ومعنى آخر .

وبالنسبة لمؤلف يتبع مذهب الحداثة مثل « **ديمتار سوليف** » فان هذه الرواية تعد كتابة تقليدية . الا أن هذه المعالجة الواقعية تخفى الكثير

من المفاجآت ، وعلى الأخص فيما يتعلق بالملاحظات المرتبطة بتداعى الخواطر ، التى تضفى على هذا الكتاب انطباعا أكثر عمقا .

وتتألف مجموعته القصصية بعنوان « **المرآة السوداء** » (فى ١٩٨٥) من سبع قصص طويلة ، وهى تختلف عن كتبه السابقة التى من حيث نوعيتها وجودتها تتربع على قمة انجازات الفن القصصى المقدونى . **ومعظم هذه القصص تصور مقدونية فى الفترة التالية للحرب ، وتعالج الموضوعات الخاصة بحرب التحرير الشعبية وبالثورة** . كما تتحدث قصص هذه المجموعة بأكثر الأساليب الأدبية فعالية عن مكان الفنان ودوره ومصيره فى جميع الأزمان والأماكن ، وعن التضحية من أجل مثاليات العدالة والحرية ، وعن وضع المبادىء الخاصة مكان المبادىء العامة . ويرى النقاد أن مستوى هذه المجموعة القصصية متوسط بالنسبة لما سبق من مؤلفات هذا الأديب .

وقد رحب النقد الأدبى وكذلك القراء بهذا الأديب ، وكتب النقاد عنه ـ وهم على حق فى ذلك ـ أنه كاتب يحسن قياس الكلمات ، وأنه على علم جيد بالأدبين العالمى والأوروبى ، وأنه ساهم مساهمة ايجابية فى تقدم الأدب المقدونى المعاصر نحو مسارات الأدب الأوروبى .

وعملت مؤلفات « **بوريس فيشينسكى** » ، من حيث بنائها وسماتها ومن حيث معانيها وأهدافها ، على توجيه فن القصة المقدونية صوب التحول العصرى . والحقيقة أن « فيشينسكى » قد وضع قدراته الابداعية فى خدمة تحديث الأدب الذى ينتمى اليه ، وليس هذا فى مجال الموضوعات والأفكار بقدر ما هو فى مجال تطبيق أساليب ابداعية جديدة ، وفى المقام الأول فى مجال تقديم تصورات جديدة لعالمى الواقع والخيال . ويعتبر « فيشينسكى » فنه الأدبى ، أولا وقبل كل شىء ، عملا مثيرا للخيال حتى ولو كان قد استوحى الهامه المباشر من الواقع الملموس .

وأشهر رواياته هى : « الظلال والعطش » (فى ١٩٥٨) ، « الطيف » (فى ١٩٧٢) ، « التيهور » (فى ١٩٧٨) و « الجرف » (فى ١٩٨٣) . ومن أهم مجموعاته القصصية : « الشواطىء العتيقة » (فى ١٩٧٤) و « باربارا » (فى ١٩٨٣) .

وقد ذكر « فيشينسكى » فى أحد أحاديثه الصحفية أنه كان يتوجه على الدوام ، فى الأعمال الأدبية التى يؤلفها ، الى البحث ، وكان يكرس للوصف النفسى اهتماما أكبر من اهتمامه بالأوصاف الخارجية أو بوصف الطبيعة ، وذلك لأنه يمكن التعبير عن العالم الداخلى للشخصية وعن قلقها من خلال الوعى الذى لا يشتمل على زمن متتابع . ومن أعماق الوعى

الخيالى يمكن فحسب أن ينبثق أمام أعيننا واقع جديد يحمل كل التفاصيل السابقة وهكذا تكتسب لعبة الابداع جودة جديدة .

وخلال فترة طويلة من ممارسة الابداع الأدبى والاشتغال بكتابة الأعمال القصصية ظل « بوريس فيشينسكى » ملتزما الى حد كبير بعدد معين من الاختيارات الجمالية والشاعرية والابداعية . ولم تتعرض اختياراته الشاعرية والجمالية لأية تغيرات هامة ، الا أن اختياراته الابداعية ازدادت ثراء وتغيرت تغيرا جوهريا وفقا للطاقات الابداعية للكاتب . وهناك تقدم واضح من عمل الى آخر اذا أخذنا فى الاعتبار أن « فيشينسكى » قد استمر على بقائه فى نفس المكان وفى نفس مجال الموضوعات والأفكار ، وكانت الموضوعات المسيطرة على أعماله هى الثورة والانســان فى خضم الثورة .

وكل رواية من الروايات الأربع لهـذا الأديب تتميز بمجموعة من الخصائص الداخلية والخارجية المتميزة ، ولهذا قسمها النقاد الى مجموعتين : المجموعة الأولى تمثلها روايته الأولى « الظلال والعطش » ، أما المجموعة الثانية فتتألف من روايات « الطيف » و « التيهور » و « الجرف » . ومثل هذا التقسيم ضرورى لأن الروايات الثلاث الأخيرة تسلط الأضواء على بعضها وتفسر بعضها بعضا ، وترتبط كذلك بمجموعة من الصلات الظاهرة وغير الظاهرة . ولا شك أن وضعها فى مجموعة خاصة يسـهل تسهيلا كبيرا متابعة وتطور الروائى « فيشينسكى » فى مراحل نموه .

وهناك ترتيب آخر يقوم به النقاد حينما يكون الأمر متعلقا بالتقييم الأدبى الجمالى لروايات « فيشينسكى » ، وهناك اتفاق كامل حول هـذا الترتيب اذا كان الأمر متعلقا بتقييم الأعمال الأدبية للمؤلف ككل ، أما اذا كان التقييم فى اطار الأدب المقدونى فان درجة الاتفاق تقل .

ويعتقد النقاد بلا استثناء أن « فيشينسكى » قد أظهر فى رواية « التيهور » درجة عالية من القدرة الابداعية ، وأبرز معظمهم أنها تمثل أكثر من كونها نموذجا لهذا النوع من الروايات فى الأدب المقدونى . وتأتى فى المرتبة الثانية رواية « الطيف » التى نبأت عن نوعية جديدة ، بينما تحتل المكان الثالث رواية « الجرف » وهى رواية استعارية . والنقاد على حق فى وضعهم روايته الأولى « الظلال والعطش » فى المرتبة الأخيرة لأنها لا تحتوى الا على أقل قدر من الأمور الجديدة ولأن رواياته الأخرى التى لاقت نجاحا أكثر دفعتها ، الى حد ما ، الى الظل .

وقد عالج « فيشينسكى » فى رواية « **التيهـور** » بعض المشاكل النفسية والتاريخية والاجتماعية المعقدة للغاية . وهى رواية مستلهمة من

أحداث الثورة ومن الكفاح غير الشرعى لحركة المقاومة اليوغسلافية خلال الحرب العالمية الثانية ، وتتغلغل تغلغلا عميقا فى عالم الوعى والبـاطن وتقف على الحد الفاصل بين الواقعى واللاواقعى . وهى رواية الانجازات الجمالية العالية والمثاليات السامية ، وهى أيضا رواية الجرأة والأمل .

وعمد المؤلف هنا الى تقسيم الشخصية الى عدة شخصيات أو الى تجميع عدة شخصيات فى شخصية واحدة . والشخصيات الرئيسية أو الشخصية الرئيسية لروايته هو « مارتين » أو المحقق أو « أرتستا » أو الطبيب أو « آنا » أو تلك العجوز التى ستظهر للحظة فحسب لكى تحرك الأحداث وتدفعها الى التطور . الا أن جميع الشخصيات بوجه عام أبطال للحظة فريدة ولموقف متوتر ولحالة غير عادية . وكل الشخصيات تجد المبررات لتصرفاتها الشخصية ، وهى لا تتعرض للمشكلات بشكل متكافىء ، وهذا أمر طبيعى فى مثل هذه المواقف ، وربما الشىء الوحيد الذى يوحد هذه الشخصيات أنها تعيش معا تحت سماء واحدة .

والقصة بذاتها مثيرة وتجرى أحداثها فى جو من الخوف والحذر الكامل والمسئولية ، وهى ترتبط بالمواقف الراهنة التى تتغير باستمرار . ولكن فى مثل هذه الحالة من التوتر يمكن أن يحدث العديد من المشاكل ويصعب فى مثل هذه المواقف الحكم عما اذا كانت المشـكلة قد حدثت بسبب عدم الالتزام أو التعب أو الرغبة فى البقاء ، أم بسبب الجبن أو عدم الاكتراث أو هربا من الخطر والمسئولية ، أم أن المشكلة كانت فحسب ظاهرية أو مصادفة غير خطيرة أو خدعة ستتسبب فى حدوث نتائج مؤسفة بسبب المبالغة فى الاحساس بالمسئولية والواجب ؟! .

وأحداث هذه الرواية تجرى فى حالة توتر مستمرة عبر تحولات درامية وتجارب مؤثرة بيد أن الأحداث والتجارب تعطى انطباعا واقعيا أكثر من الانطباع بأنها من نتاج الخيال . وفى هذا بالذات يكمن مفتـاح فهم العالم الذى يكشفه لنا « بوريس فيشينسكى » .

ونشر الكاتب « **تاشكو جيورجيفسكى** » أول قصة له فى عام ١٩٥٢ ، وهى قصة عن رحيله من اليونان وعن جده الذى مكث فى مسقط رأسه . الا أن نشاطه الأدبى المستمر بدأ فى عام ١٩٥٦ عندما تمكن فى خلال عدة أشهر فحسب من أن يكتب جميع القصص التى تم نشرها فى مجموعته القصصية « نحن وراء الحاجز » . وعلاوة على هذه المجموعة كتب مجموعتين قصصيتين أخريتين : « الرياح الجافة » (فى ١٩٦٥) و « الأمطـار » (١٩٦٩) . ومن رواياته : « النـاس والذئاب » (فى ١٩٦٠) و « الجدران » (١٩٦٢) و « البذرة السوداء » (فى ١٩٦٧) و « الحصان

الأحمر » (فى ١٩٧٥) . كما كتب عدة تمثيليات اذاعية وحصل على عديد من الجوائز الأدبية الهامة .

وقد أدخل الأديب « تاشكو » الى الأدب المقدونى عالما جديدا وحالة نفسية بشرية مصابة بالجروح وبالفقر ، وهذا العالم هو المنطقة المقدونية الواقعة على بحر ايجه . والجرح ناتج عن المأساة التى عاشها المقدونيون هناك خلال الحرب العالمية الثانية وبعد الحرب الأهلية التى جرت فى الفترة من ١٩٤٥ – ١٩٤٩ . وهذه المأساة تسيطر على الأديب « تاشكو » تمام السيطرة ، وهى حية بداخل نفسه بكل ما تنطوى عليها من فظاعة وبشاعة بحيث يصعب عليه أن يتخلص منها الا عن طريق التجسيد الابداعى . ولكن لكى يجسدها وضعها فى مواجهة تلك الأمور التى تعد أكثر قوة واستمرارية من كل مأساة ، بل ومن هذه المأساة . وهذا هو الانسان وتلك هى قدرته على التجديد والبناء والنســيان ، وهذه هى الحيــاة الخالدة .

وقصص الأديب « تاشكو » منسوجة من الخيوط الدقيقــة للحزن والألم . ويتم عرض هذا الحزن وهذا الألم على سطح ضيق عبر حجــاب الذكريات الممزقة . ويغلب على كتاباته التعبير الغنائى النقى ، ونجد ميزة جديدة للغاية بالنسبة للفن الروائى المقدونى ألا وهى ابتعاده الراديكالى عن بناء الجملة المألوف وعن قواعد الكتابة الموجودة آنذاك . واستخدامه المتميز لعلامات الكتابة والتنقيط يناسب تماما أسلوبه التعبيرى والرمزى . ولذا فقد كان النقاد على حق حينما سجلوا ، قبل ظهور رواية « الجدران » بعامين ، أن « تاشكو » يمثل مرحلة جديدة تماما فى تطور النثر المقدونى الحديث . ولكن بعد ظهور رواية « البذرة السوداء » يمكن التأكيد بشكل قاطع بأنه لن ينفصل أو يبتعد عن موضــوعه الأساسى وأنه سيواصل تشكيله لتصوره ولرؤيته للحرية ولعدم الحرية وللحياة وللموت .

والشخصية الرئيسية فى رواية « **الجدران** » هى شخصية العجوز « أجى جوجو » . وتعليقات المؤلف تتشابه بل وتتداخل مع مناجاة العجوز لنفسه . ومن العسير معرفة أين تنتهى تعليقات المؤلف وأين تبدأ مناجاة العجوز لنفسه وبالعكس .

واذا أردنا أن نوجز مضمون هذه الرواية المثيرة فيمكننا القــول بأنها **تحــكى عن انتهاء الحرب وعن عودة جميع الفلاحين الى منازلهم .** وكان من بين العائدين « أجى جوجو » وزوجته وحماره على الرغم من أن داره قد تحولت الى رماد وحطام . انه فى الحقيقة يعــود الى دار آبائه وأجداده . لقد عاد بالرغم من كل شىء ، عاد لكى يشيد كوخا آخر ولكى

يشعل فيه نارا أخرى ولكى يجمع رفات أسلافه وأجداده ويضــعها فى بنايات جدران كوخه الجديد – وفقا للأسطورة المذكورة فى القصــائد الشعبية – حتى تكون هــذه الجدران أشــد تحملا وصلابة من الجدران السابقة ، وحتى لا تخمد أبدا النيران بين جدرانها .

والرمز فى هذه الرواية واضح للغاية ، فهو متمثل فى معنى الاعتقاد فى الحياة . والحياة نفسها دار بلا أساس اذا لم تكن تســتند الى ماضى وتاريخ . وهكذا ، عن طريق عرض الفلسفة الحياتية للعجوز يوضح لنا الكاتب بتحفظ وحذر رسالته الجلية التى تفيد بأنه قد حقق على نحو ما حلمه المتعلق بالمستقبل وبعدم الاستسلام وبالخــلود عن طريق تواجده بجوار أسلافه (فى جدران الكوخ) .

ورواية « **الحصان الأحمر** » مكثفة للغاية . وموضوعها درامى واقعى ومعانيها رمزية معبرة . **ويصور لنا المؤلف فيها الأحداث التى وقعت فى ختام الحرب الأهلية فى اليونان** ، ويجعل انهيار المقاومة فى المنطقة المقدونية المطلة على بحر ايجه وهروب باقى المناضلين الى البانيا ثم رحيلهم عن طريق البواخر الروسية عبر البحرين الأسود وقزوين الى طشقند . ويتمثل محور الرواية وأساسها الفكرى فى هذا الانفصال عن أرض البلد والذهاب الى المجهول ، وفى هذا البقاء بلا وطن ، وفى فقدان الآمال ، وفى حصول فكرة الكفاح من أجل الحرية على مغزاها .

ولم يكن الأديب « تاشكو » يهدف الى تأليف رؤية ملحمية خاصة بل أراد أن يحلل موقفا انسانيا دراميا تنعكس فيه العمليات التاريخية والأخلاقية والاجتماعية لأحد الأزمنة وتتبدل فيه مختلف أقدار البشر . وبهذا المعنى صب المؤلف جل اهتمام روايته على الفــلاح « بوريس توشيف » ، وهو شخصية معقدة مركبة ، الذى وجد نفسه وسط مجموعة من المتمردين الهاربين ويتعرض للمصير المأساوى لانســان لا وطن له ولا عائلة ولا تسنح له الظروف الأساسية لكى يعيش حياته البسيطة .

ولكى يضفى المؤلف الاقناع والايحائية على بطله فى مأساته فقــد تكلم بلسان حال هذا البطل . وفى الحقيقة كان « بوريس توشيف » يحكى عن مسيرة حياته وعن الحياة التى تتشكل حوله وعن الطرق الشاقة التى تتفتح داخل نفسه وفى التاريخ ، وعن مثابرته فيها . وعلى الجانب العائلى يصور الفلاح قريته وفلاحيه ، ويصور كذلك حياته السيئة فى الغربة .

فقد قدم الى طشقند وانضم الى حياتها وهو شخص غريب وتكيف مع جوها وشكل أسرة جديدة واكتسب أصدقاء ورفاقا ، الأمر الذى ملأ

نفسه بمضمون جديد . وبدا وكأن « توشيف » قد تكيف تمام التكيف فى بيئته الجديدة الا أن دودة القلق وعدم تقبله للوضع الذى وجد فيه نفسه كانت تنخر بداخل نفسه وفى وحدته . وبرزت من داخله فكرة أن هذا العالم ليس عالمه ، وأن هذه ليست سماءه ، وأن كل هذا مخالف لما يريده ولا يمكن أن تتآلف معه روحه . وفى أعماق نفسه كان يعيش وطنه القديم ، ويرى قريته الأولى فى كل شئ حوله ، وتشعر فى نفسه بشمسه الجنوبية وبسمائه التى تبرز بروزا صاخبا فى وعيه وتناديه وتفعم وجدانه بالحنين الى الوطن وتدعوه للعودة الى بلده .

وبعد خمسة عشر عاما قضاها فى الغربة ، فى هدوء مختلف متباينة ، يعود الى بلده القديم وقد حطمه الحزن وضحى بمثالياته الشخصية عند توقيعه على اقرار بأنه لم يكن منضما الى الحزب الشيوعى وحرية ينشغل بالشيوعية . وفى الحقيقة أخمد فى نفسه قناعاته حتى يتخلص من الحنين المزعج لوطنه . وبعدما تحقق الحلم ولما عاد الى بلدته أدرك أن وضعه النفسى لم يتغير تغيرا جوهريا لأنه أصبح فى بيئته انسانا لا يحتاج اليه أحد ولا حتى أطفاله . وعندما تأكد من ذلك أصابه انهيار داخلى وأخذت المشاعر المريرة تحاصره وتسيطر عليه ، ولكنه رجل له مبادىء ثابتة قوية ولذا يواصل حياته ويقضيها فى بلده وينهيها فيه .

والأسلوب الذى حكى به « بوريس توشيف » رحلة حياته يعد أسلوبا ايحائيا للغاية ، وهذا السرد أشبه بالأساطير ، وذلك لأن هذه الشخصية لم تحك عن مأساتها فحسب بل شبكت نفسها مع الزمن فى حكايات تاريخية . لقد كان بوريس يحكى حكايته بقلب مفتوح لا تعوقه الحواجز وبنفس عليلة ، ولم يستسلم أمام مرارة الأحداث ولا أمام هجمات الحنين الى الوطن . انه لم يستسلم أمام أى شىء وقص علينا كل شىء . ونعتقد أن المؤلف قام بخطوة فنية فريدة فى اعدادها باختياره لأسلوب الحوار الداخلى كى يحدثنا عن الموقف الروحى والأخلاقى لأحد الأشخاص فى كل أحواله وتقلباته ، ذلك لأن هذا الأسلوب يعد أفضل الأساليب من أجل أن يتغلغل ويتعمق فى جوهر شخصية الانسان .

ورواية « الحصان الأحمر » مكتوبة بلغة أدبية حافلة بالالهام وبناءها عصرى ، وهى تؤكد فى كل عبارة من عباراتها أن المؤلف يمتلك حاسة قوية وانه قادر على السرد بمهارة . وبأسلوبه النابض بالالهام استطاع أن يشرك القارىء معه فى تعاون مبدع ، فالقارىء أمام هذه الرواية لا يمكنه أن يظل بلا اكتراث أو اهتمام .

وتظهر قصص « **جيفكو تشينجو** » اتجاها عميق الجذور نحو السعى

الى رسم العلاقات الانسانية الاجتماعية على نحو ساخر ، والى توضيح تلك التفاصيل الدقيقة فى العلاقة بين الانسان والمجتمع وبالعكس . وكان واضحا منذ البداية أن مجموعته القصصية « **باسكوليا** » (فى ١٩٦٢) أتت بنوع أصيل من القصص الى الأدب المقدونى المعاصر . وكان هذا النوع من القصص حتى ذلك الحين مجرد هاجس وانعكاس يصعب وجوده على الاطلاق فى كتابات الأدباء السابقين .

وهذه القصص تهتم اهتماما متحمسا بنقد العلاقات الاجتماعية فى السنوات الأولى التالية للحرب فى مدينة خيالية خاصة بالمؤلف . وبالرغم من أن مدينة باسكوليا هذه تذكرنا بالمدن الخيالية الموجودة فى مختلف القصص الأخرى ، الا أن هذه المدينة الخيالية تحمل طابعها القومى والتاريخى والعقائدى والاجتماعى والأدبى والجمالى . و « باسكوليا » هذه قرية أو منطقة فى جنوب مقدونية ، انها قرية ومنطقة لا وجود لها على الخرائط الجغرافية الرسمية ، ولا وجود لها بالكرة الأرضية على الاطلاق .

وبعد هذه المجموعة القصصية تقدم « تشينجو » للانضمام الى الصفوف الأولى من كتاب القصة فى مقدونية . وبدا وكأن الجميع كانوا ينتظرون مثل هذا الصوت الجديد وهذه البنية الجديدة لجمله المتألقة المفعمة بالخيال والفولكلور . ورحب النقاد بهذه المجموعة القصصية ترحيبا شديدا بالرغم من أن قصصها تاريخية ولا تحتوى على تحليلات نفسية عميقة لتلك التمردات التى تعتمل داخل نفس الانسان فى السنوات الأولى التالية للثورة بل وخلال الثورة ذاتها ، وبالرغم من وجود فراغات فى مضمونها الجمالى والتاريخى .

والحقيقة أن الأديب « تشينجو » كان يملك ما يكفى من الحساسية المرهفة لكى يشعر بقوة ثورة الجماهير ولكى يكثف هذه الثورة وما يعانيه الانسان من جرائها ويخبرنا بكل هذا بأسلوبه القصصى المتميز . واتخاذه لبعض الكتاب الروس البارزين (أمثال بابل وليسكوف وريمينزوف) نماذج له يعد ضرورة مرحلية وقتية من جانب القصاص الشاب الذى أراد أن يستند على الأساليب القصصية لسابقيه من الأدباء .

أما مجموعته القصصية الثانية بعنوان « **باسكوليا الجديدة** » (فى ١٩٦٥) فهى مصطبغة بالوان من الكوميديا السوداء . ويمكن القول بأن هذه المجموعة القصصية الثانية تمنح الجماهير فرصة أكبر للظهور وذلك عن طريق عرض وابراز أنشطتها وحركاتها مما يؤدى الى زيادة التأثير على القراء ، وذلك اذا سلمنا بأنه كان يريد بمجموعته الأولى أن

يقتحم بعض المشاكل الاجتماعية فى السنوات الانتقالية فى الريف المقدونى وأن يعرض ملاحظاته فى هذا الصدد .

ويعد « **يوجين بافلوفسكى** » أحد الأدباء المقدونيين الأوائل ، الذين تمكنوا فى فترة زمنية وجيزة نسبيا ، من تقديم أنفسهم كمبدعين دائبين على البحث ، وهو يعرض نوعية تقدمية عند معالجته للواقع ومحاولته عرضه وتغييره . وقد ظهر « بافلوفسكى » فى مجال الأدب فى عام ١٩٦٢ بعد حصوله على الجائزة الأولى فى احدى المسابقات الأدبية . ورحب النقاد بروايته الأولى « اللعب بحب » وبمجموعته القصصية « الحالمون » . كما حصل فى عام ١٩٦٧ على جائزة صحيفة « الشباب » عن روايته « فى الصين » . وحملت له روايته « فندق دوفا » جائزة « ميلادين راتسـين » الأدبية فى عام ١٩٧٣ .

وفى رواية « **غرب استراليا** » (فى ١٩٧٧) يصور لنا «بافلوفسكى» العالم الكامل للمغتربين من مقدونيـة وكذلك للمغتربين من الجنسيات الأخرى . وقد استقر هؤلاء المغتربون فى جزيرة مجاورة لاستراليا حيث تتنازعهم شتى الأهواء . ويمنح الكاتب مناظره أكبر قدر من التفاصيل ويعرضها بصورة صادقة رائعة وكأنه ينحتها على الحجر ، أو ينقشها نقشا بارزا على الخشب .

ان هؤلاء المغتربين يكافحون من أجل تحسين معيشة عائلاتهم كفاحا روتينيا آليا . لقد تركوا عائلاتهم ومنازلهم فى وطنهم البعيد ، ولكنهم لا يجسرون على ترك أعمالهم ، اذ أن اندماجهم فى أعمالهم الشاقة وضغوط التقاليد عليهم أقوى من رغبتهم فى ترك الجزيرة .

ويعود المغتربون فى بعض الأحيان الى وطنهم اما لكى يبقوا به ، واما لكى يرحلوا عنه فى فرصة أخرى . وهكذا تبرز مأساتهم الحقيقية ، فهاهو وطنهم لا يتقبلهم ، ومن هنا يشعرون بألم مرير من أجل احساسهم بالاغتراب . ومن العسير عليهم فى مثل هذه الظروف أن يحتفظوا بذاتيتهم، أو أن يتكيفوا مع مجتمعهم بأى شكل من الأشكال .

ومما يلفت النظر أن هذه الرواية تغطى مجموعة من الأحداث المتصلة التى تقيم الروابط بين مختلف الشخصيات داخل الحدود الواسعة للمنطقة التى يقطنها المغتربون . ويجمع هذه الأحداث خط واحد ، فهى تعرض كل السبل الممكنة التى تسلكها التغيرات العصرية الطارئة على شخصية البطل الضال .

وهذه الرواية مكتظة بالمغـامرات والخلافات والحب ، والاجتماعات

واللقاءات . وتقوم على الملاحظات الثابتة وعلى التجارب الواقعية . وقد سافر المؤلف آلاف الأميال عبر العالم ، ولمدة ما يقرب من الأربعة أعوام ، لكى يلاحظ حياة هؤلاء الأشخاص الذين استؤصلت جذورهم ، ولكى يصور مغامراتهم ومآسيهم ، وآمالهم ومعاركهم .

وتختلف روايته الجديدة « **المنافق الأحمر** » (فى ١٩٨٥) اختلافا جذريا عن رواياته السابقة من حيث المضمون ومن حيث الاطارات الفكرية . وفى **هذه المرة تحول المؤلف الى المشاكل المقدونية المعـاصرة** ، كما أنه ابتعد عن الموضوعات الخاصة بالعمال المغتربين من مقدونية والموجودين فى انحاء مختلفة من العالم .

وبطل الرواية ، « ايفانوف » ، يعمل مديرا لمطبعة تجارية صغيرة خاسرة ، بينما يعيش هو حياة سعيدة ، اذ أنه يمتلك فيلا عند البحيرة ومنزلا فى القرية وشقة بالمدينة وله أملاك أخرى . وفى مطبعته يدبرون له المكائد وتتراكم الديون عليه ويفقد ثقة كل من حوله . ويتم فرض الاشراف الاجبارى على المطبعة . ويلاحظ « ايفانوف » انهيـار الأخلاق حوله .

ويكشف لنا الكاتب هنا عن جو مشوه قبيح من الناحية الخلقية ، يتعامل الناس فيه بالأكاذيب والنفاق والكلام المعسول . وسرعان مايتسلل هذا الانهيار اليه هو شخصيا والى منزله فتتفكك أسرته بعد فقدان الثقة وضياع الحب وسيادة الحقد والخوف .

ولم يحدد المؤلف ــ عن عمد ــ زمان ومكان الرواية ، ولكن يمكن للقارىء الفطن ان يتعرف على البيئة المقدونية وعلى المدينة المقدونية ، وقد تكون العاصمة « سكوبلى » هى مكان الأحداث . أما عن الزمان ، فمن المؤكد أنه ليس الزمن الماضى ، بل قد تكون الأحداث قد جرت فى الوقت الحاضر ، ولكن الاحتمال الأرجح أنها ستحدث فى المستقبل .

وقد انطلق «بافلوفسكى» من الحقيقة القائلة بانفتاح المجتمع المقدونى انفتاحا ديمقراطيا ، وبان كل انسان فيه حر يناضل من أجل الحصول على حقوقه ، الا أن هذه الحرية لا تعطى لأى انسان الحق فى أن يخضع الآخرين وأن يعيش على حساب الغير .

ومن ناحية أخرى توجه هذه الرواية الجريئة نقـدا حادا الى كل اغتصاب للحقوق والى الاحتكارات . ومن هنا فان هذه الرواية حافلة بالضربات النقدية العنيفة ومشحونة بالصراعات بين المتناقضات ، وقد أراد الكاتب بهذه الرواية أن يدخل فى مواجهة وفى صراع مبـاشر مع

الأخلاق الزائفة ومع أولئك الذين يدعون للتجديد بأى شكل من الأشكال . وقد أثارت هذه الرواية العديد من التعليقات والتفسيرات والانتقادات . ومن المؤكد أن هذه الرواية ستترك بصمات مؤثرة على الأدب وعلى المجتمع ككل .

وهكذا نرى أن القصة المقدونية المعاصرة تعالج ، بالاضافة الى الموضوعات التاريخية ، موضوعات من حرب التحرير الشعبية وموضوعات متعلقة بالثورة وبحياة القرية والمدينة فى مقدونية ، وتعالج كذلك موضوعات تتعلق بالوجود القومى وتدعيمه . والقصة المعاصرة تتغلغل فى جميع جوانب الحياة الماضية واليومية ، وتقدم تسجيلا شاملا للمشاكل الحياتية التى ترسم صورة حقيقية واقعية لما يجرى على الأرض المقدونية فى ماضيها وحاضرها .

وبالاضافة الى عنايتها بالسرد الواقعى الكلاسيكى فالقصة المقدونية المعاصرة تعتنى بالتعبيرات الحديثة وتقوم بأبحاث مستفيضة ، وتبحث عن أسلوبها الخاص بها . وتدخل كذلك عالم الخيال والمفارقات المضحكة ، وتبحث فى مجالات الرمز والمجاز من خلال الحالة النفسية للشخصية المقدونية وتتوقف للحظة فى مفترق الطرق بين الواقعى واللاواقعى . وهى لا تغفل ولا ترفض كل التجارب الجديدة المعروفة بالفعل والمقبولة ، وتستند بدرجة كبيرة الى أصالتها وهى تشيد بنيتها الأسلوبية والتعبيرية .

ان التاريخ العاصف المرير للقصة المقدونية ، بدءا من أيامها الأولى الشاقة وحتى مرحلة ازدهارها المستمر ، يثير فى الذهن العديد من التساؤلات والقضايا الخاصة بتطور الثقافة المعاصرة ، ويؤكد الحقيقة المعروفة منذ زمن بعيد عن القوة اللانهائية للكلمة المكتوبة . وخلال تاريخها غير المديد قدمت القصة صورة شاملة للحياة المقدونية ، وشاركت فى الاتجاهات الأدبية المعاصرة وأثارت الانتباه الى نفسها بلغتها الأصلية وبأسلوبها المتطور ، وهى اليوم تمثل كنزا ضخما للغتها القومية . ومن الطبيعى أنه لا تزال أمامها مجالات عديدة مجهولة تستحق البحث والاكتشاف ، كما أنها هى نفسها ستظل مجالا متجددا للباحثين الجدد . وها هى تتغلغل ، فى هدوء وبالتدريج ، فى جميع أنحاء العالم من خلال الترجمات العديدة ، وبذلك تزيد الحواجز اللغوية وتمحو الأوهام الأدبية فيما يتعلق بثقافات الشعوب الصغيرة .

الفصل الرابع

الأدب المسرحى

الأدب المسرحى المقدونى له تقاليده القديمة . وقد نشأت البدايات الأولى لهذا النشاط الأدبى فى نفس الوقت الذى نشأت فيه لدى باقى الشعوب اليوغسلافية . فبينما كان هواة المسرح من منطقة « فويفودينا » ، بالاشتراك مع « يواكيم فويتش » صاحب المسرح الصربى ، يضعون أسس النشاط المسرحى المستمر لدى الصرب وبينما تشكلت فى زغرب « الجمعية المسرحية الوطنية » باعتبارها حافزا قويا لبناء المسرح الكرواتى كان يوجد فى مقدونية مدرس متواضع يدعى « **يوردان حاج قنسطنطينوف جينوت** » يقوم بوضع اللبنات الأولى للأدب المسرحى وللمسرح فى مقدونية .

وفى حوالى ١٨٥٣ بعد انشاء مدرسة العذراء فى « سكوبلى » بدأ « جينوت » (١٨١٨ - ١٨٨٢) مع تلاميذه اعداد بعض العروض المسرحية فى هذه المدرسة . ويعد « جينوت » فى نفس الآونة أول كاتب مسرحى فى مقدونية يكتب صيغ الحوار باللغة المقدونية لكى يقدمها فيما بعد فى شكل عروض مسرحية . والحقيقة أن كل ما كتبه « جينوت » فى صيغة حوار يعد غاية فى التواضع من حيث حجمه ومن حيث قيمته الأدبية ، هذا اذا كان من الممكن على الاطلاق أن يتم ادراج تلك الصفحات من كتاباته الأخلاقية التعليمية تحت اسم الأدب المسرحى .

الا أن هذه النصوص المسرحية لها أهمية أكبر باعتبارها مبادرة من جانب مدرس على قدر كبير من النشاط . بيد أنه لم يكن يعرف معرفة جيدة التأثير الذى يحدثه العرض المسرحى فى تربية أفراد الشعب ، وعلى الأخص الشباب منهم . ومع كل هذا ، فلا بد من الاشارة الى أن جميع النصوص المسرحية التى صاغها « جينوت » لم تكن أصيلة فى أفكارها أو

موضوعاتها ، بل هى فى حقيقتها ترجمات ، أو بعبارة أدق ، اعداد مسرحى باللغة المقدونية لبعض الموضوعات والأفكار المعروفة او غير المعروفة لبعض القصص المشهورة آنذاك .

وكان الهدف الأساسى من هذه المسرحيات الساذجة هو العمل على وقف الدعاية اليونانية التى يقوم بها رجال الدين اليونان ، كما كانت تهدف الى رفع الاحساس والتيقظ القومى لدى أفراد الشعب المقدونى .

وبالرغم من ان « جينوت » أبدى فى المجالات الأخرى من الأنشطة التعليمية والأدبية اهتماما حيا بجهود باقى الشعوب اليوغسلافية فى مجالى الأدب والثقافة الا أنه لم يجهل الجهود الرامية الى ابداع الكلمة المسرحية والى اقامة مسرح . ومن هنا فان نشاط « جينوت » فى هذا المضمار – حتى وان كان ضئيلا – الا أنه مرتبط أشد الارتباط بالتراث المسرحى اليوغسلافى الذى بدأ قبل ذلك بمائة عام .

بيد أن النشاط المسرحى الذى بدأه « جينوت » وغرس بذوره سرعان ما توقف على نحو ما عن النمو لفترة طويلة . وفى الحقبة التالية ، وعلى الأخص فى النصف الثانى من القرن التاسع عشر ، لا توجد فى مجال الأدب المسرحى أية محاولات حتى نهاية القرن التاسع عشر على عكس الأنشطة الهامة التى قام بها جامعوا الابداعات الشعبية (مثل « قنسطنطين ميلادينوف » و « رايكو جينزيفوف ») وتوجوها فيما بعد بابداعاتهم الشعرية . وتولى « **فويدان تشرنودرينسكى** » (١٨٧٥ – ١٩٥١) مهمة استئناف وتجديد الأنشطة التى بدأها « جينوت » .

وفى الفترة التالية من أواخر القرن التاسع عشر وبداية القرن العشرين كانت تزور مقدونية فى أحيان كثيرة مختلف الفرق المسرحية ، وعلى الأخص الفرق الصربية والبلغارية التى قدمت لأول مرة برامج من العروض المسرحية التى تحمل الطابع الأوروبى وذلك بعرضها مسرحيات تقوم على نصوص مسرحية معروفة ومكتوبة بشكل يختلف عن القراقوز التركى وعن مختلف العروض المسرحية المرتجلة وعن تلك العروض المسرحية التى تحمل الطابع الشرقى . وفى ذلك الحين تم فى مقدونية تشييد أول المسارح ، وذلك فى مدن سالونيك وبيتولا وسكوبلى . ودفعت استضافة هذه الفرق المسرحية المنظمة الثورية « فمرو » الى تكريس اهتمام أكبر للمسرح باعتباره عنصرا من عناصر التربية الفكرية .

ونتيجة للتأثير الذى أثارته هذه المسرحيات لدى المشاهدين فقد حاول المدرس « فويدان تشرنودرينسكى » بالاشتراك مع المماثلين له فى التفكير ومع تلاميذه وزملائه من المدرسين انشاء فرق مسرحية محلية . وبصفته

مهاجرا فى صوفيا فقد شكل فى عام ١٨٩٤ فرقة مسرحية مقدونية من صفوف المهاجرين المقدونيين الموجودين فى بلغاريا ، وقدم أول عرض مسرحى له فى عام ١٨٩٥ وكان مكونا من مسرحيتين من تأليفه .

وهكذا فبالاضافة الى الأهمية الضخمة لنشاط « تشرنودرينسكى » فى مجال المسرح فقد كان فى نفس الوقت كاتبا مسرحيا غزير الانتاج كتب العديد من النصوص لفرقته المسرحية بلغتين : بلغة مقدونية ثرية غاية فى السلاسة يجرى استخدامها – تقريبا – حتى وقتنا الحالى ، وكذلك باللغة البلغارية .

وقد سيطرت مسرحيات « تشرنودرينسكى » على البرنامج الكامل لفرقه المسرحية . وكانت المسرحيات أو المشاهد الحوارية الصغيرة والمسرحيات ذات الفصل الواحد تعرض لحياة المقدونيين فى عهد الأتراك العثمانيين وتعالج الموضوعات التاريخية . وهى بوجه عام تتضمن قيمة أدبية معينة ، الأمر الذى يشير الى أن مؤلفها كان يمتلك الاحساس والفهم اللازمين للقيام بأعمال أدبية أكثر جدية .

ومن المؤكد أن أحد هذه الأعمال الأدبية هو مسرحيته المشهورة « **حفل الزفاف المقدونى الدامى** » التى كتبها فى عام ١٩٠٠ . وفى نفس العام تم نشر الطبعة الأولى من هذه المسرحية فى كتاب خاص ، وجرى عرضها على خشبة المسارح فى صوفيا وفى المدن البلغارية الأخرى ، واسفرت هذه المسرحية عن تيقظ الوعى لدى المقدونيين . ثم طبعت هذه المسرحية مرتين فيما بعد فى عامى ١٩٠٧ ، ١٩٢٧ ، وتم عرضها بالمسارح عديدا من المرات .

ولم يجر عرض هذه المسرحية فحسب فى بلغاريا ومقدونية حيث امتد بوجه عام نشاط تشرنودرينسكى » وزملائه ، بل اهتم بمشاهدتها أيضا المهاجرون والعمال المغتربون المقدونيون فى البلاد النائية عبر المحيطات . وكانوا قد وجهوا الدعوة أكثر من مرة لفرقة «تشرنودرينسكى» من أجل تقديم عروضها أمامهم ، غير أن هذه الرحلة لم تتم . وبالرغم من ذلك فان هذه المسرحية أصبحت ، فى كثير من الأحوال فى الماضى وكذلك فى الوقت الحاضر ، مادة للاهتمام الحى وللمحاولات المسرحية من جانب الهواة المقدونيين الذين يعيشون بعيدا عن وطنهم . وعرضت الفرقة المسرحية التى أنشأها « تشرنودرينسكى » هذه المسرحية أمام جميع المشاهدين من مدن بلغراد وكراجو يفاتس ونيش وفى بعض المدن الأخرى فى صربيا حينما تمت استضافة هذه الفرقة فى صربيا فى ديسمبر ١٩٠٣ .

وتوصلت بعرضها المسرحى الى احداث تأثير سياسى وثقافى فى غاية فى الروعة .

ومضمون هذه المسرحية مستوحى ومنقول نقلا مباشرا من حياة الشعب المقدونى فى عهد الأتراك العثمانيين . ويقول المؤلف فى هذا المضمار : « ماذا كتبت ؟ اننى لم أكتب شيئا لقد نقلت من التاريخ المقدونى غير المسجل ما سيقرأه القارىء ويشاهده المتفرج فى المسرح » . وربما كان هذا الأسلوب فى النقل المباشر من الواقع هو أكثر ما ساهم فى ترحيب جمهور المشاهدين بالمسرحية ترحيبا غير عادى .

بيد أن المسرحية ساذجة ومفتعلة الأحداث من ناحية مضمونها ، ولكى يزيد المؤلف من التأثير العاطفى لدى جمهور المشاهدين فقد شدد من حدة الصراع الرئيسى فى المسرحية الى أقصى حد ممكن بحيث أنه فى بعض المشاهد يتم الحصول على انطباع بالافتقاد الى التسامح القومى والدينى بيد أن الأمر قد يزداد ايضاحا اذا أخذنا فى الاعتبار أن المؤلف كان يهدف من وراء كتاباته الى تقديم العون الى أفراد شعبه واثارة يقظته القومية وحثه على تحرير نفسه . وبعض المناظر العاطفية الناجحة المستوحاة من الحياة الشعبية واللغة الحافلة بالثراء الفولكلورى وتعوض نقط الضعف الرئيسية فى هذا النص الدرامى المقدونى المشهور من بدايات الأدب المسرحى المقدونى .

وقبل هذه المسرحية وبعدها كتب « تشرنودرينسكى » مسرحيات أخرى ، ولكن لم يصل أى نص مسرحى الى القيمة الأدبية لهذه المسرحية والى شعبيتها . ومجهوداته ليست فريدة أو وحيدة فى مجال الكتابة المسرحية . فقد قام زملاءه من الفرق المسرحية بمحاولات مماثلة .

ومن بين هذه المحاولات نشير الى مسرحية « **الثائر** » من تأليف « **ديمتار حاج دينيف** » المخرج والممثل بالفرقة . وكانت هذه المسرحية موجودة أيضا ضمن برنامج عروض الفرقة . وقام « **ماركو تسبنكوف** » ، المشهور بجمعه لألوان الابداع الشعبى ، بتأليف مسرحية آنذاك عن المتمرد « **سبيرو** » . وموضوع هذه المسرحية مستوحى من موضوعات القصائد الشعبية . بيد أنه من غير المعروف ما اذا كان قد تم عرضها على خشبة المسرح أم لا . والمعروف فحسب أنه قد تم نشر جزء منها فى صحيفة « مقدونية ذات الحكم الذاتى » التى كانت تصدر فى صوفيا .

وفى الفترة من ١٩٠٣ وحتى عام ١٩١٢ تواجد فى مقدونية العديد من الجماعات المسرحية للهواة التى عرضت برنامجا متنوعا من العروض المسرحية بدءا بالمسرحيات العاطفية الميلو درامية وانتهاء بالمسرحيات الروسية

والفرنسية الكلاسيكية . وتم تقديم نفس برنامج العروض المسرحية فى مدينتى « بيتولا » و « وسكوبلى » الى أن قام الأتراك العثمانيون بمنع تقديم هذه العروض منعا تاما بعد سقوط رجال السلطة التابعين « لتركيا الفتاة » .

وفى عام ١٩١٣ تم تأسيس مسرح دائم فى مقدونية وتم تعيين الكاتب المسرحى الكبير « برانيسلاف نوشيتش » مديرا للمسرح القومى الصربى فى « سكوبلى » . وتم افتتاح هذا المسرح فى عام ١٩١٤ بتقديم مسرحية تاريخية مأساوية ، وبعد ذلك بشهرين اشتعلت النيران فى المسرح . وخلال الحرب العالمية الأولى تمت فى « سكوبلى » استضافة المسرح القومى البلغارى من صوفيا .

والحقيقة أن الحرب العالمية الأولى أوقفت تقريبا كل نشاط ثقافى فى مقدونية ، وبالتالى فى مجال المسرح والكتابة المسرحية . فقد تم تقسيم مقدونية بالقوة وتلاشت بذلك امكانية توحيد الجهود فى مجال الادب . وفى جميع المناطق التى كان المقدونيون يعيشون بها تم تضييق الخناق حول اللغة التى يتحدثون بها ويحاولون استخدامها فى الكتابة . وبالرغم من كل الحواجز والعقبات فقد ظهرت جهود جديدة فى مجال الابداع المسرحى . اذ أنه لم تكن نادرة المحاولات التى قام بها المهاجرون المقدونيون فى بلغاريا من أجل كتابة ونشر أعمال مسرحية باللغة المقدونية ، الأمر الذى كان يهدف فى المقام الأول الى تدعيم الاحساس القومى ، وربما يرمى — ولكن بشكل أقل — الى خلق ابداع أدبى جاد . وتبرز أهمية مثل هذا الجهود بين صفوف شباب المثقفين المقدونيين الذين كانوا يعيشون فى الجزء الرئيسى من مقدونية .

وبعد الحرب العالمية الأولى قام المسرح القومى الصربى بتقديم عروضه مرة أخرى باللغة الصربية ، فى صالة مطعم « زينسكى » . وبالطبع كان برنامج العروض المسرحية متأثرا الى حد بعيد بواجبات ومهام النظام الملكى فى مملكة يوغسلافيا القديمة . ولعدة سنوات ظل المسرح فى ازمة بسبب السياسية غير الحكيمة التى كانت تتبعها فى ذلك الحين الادارة المفروضة بمعرفة النظام الذى لا يستند الى حكم الشعب . وتم خفض عدد العناوين وقصر برنامج العروض على المسرحيات غير الجيدة من الناحية الفنية .

وفى عام ١٩٢٨ تم الانتهاء من تشييد مسرح جديد يقع على شاطىء نهر فاردارا ، وبعد افتتاحه تم — بشكل غير متوقع — فى الموسم المسرحى لعام ١٩٢٧ — ١٩٢٨ للمسرح القومى الصربى فى « سكوبلى » تقديم اول عمل مسرحى باللغة المقدونية (أو باللغة المحلية كما كانت ادارة المسرح حينذاك تسميها) للمؤلف « **فاسيل الوسكى** » ، وهو مدرس ثانوى ، مع

تغير عنوان المسرحية الى « الهاربة » بغرض احداث تأثير أكبر لدى جمهور المشاهدين .

وهذه المسرحية الأولى لهذا الكاتب المقدونى تحمل بوجه عام السمات المتميزة للمسرحية الفولكلورية ، ولكن توجد بها أيضا بعض عناصر السخرية التى تضفى عليها لونا اجتماعيا معينا . وذلك بالرغم من ان عقدتها الأساسية تتألف من قصة حب مألوفة ومن خلالها يتطور الصراع فى مجال أوسع فى احدى المدن فى بداية القرن الحالى .

والفكرة الاساسية لهذه المسرحية معروفة وتمت معالجتها عدة مرات فى قصص ومسرحيات الشعوب السلافية الجنوبية الأخرى . وهى تحكى عن متاعب الحب بين شاب وفتاة يواجهان المشاكل والصعاب بسبب الوضع الاجتماعى المتباين . فالحرفى الشاب الفقير الشريف يحب ابنة تاجر غنى ، والفتاة تبادله الحب ، ولكن والد الفتاة يعارض هذا الحب ويطالب بزوج لابنته يليق به وبوضعه الاجتماعى .

وحيث أنه لا توجد فرصة للحصول على موافقة التاجر الأنانى القاسى فقد قرر الاثنان – الشاب والفتاة – القيام بخطوة تمثل تحطيما فظا للتقاليد الثابتة ، خطوة تتطلب من الفتاة قدرا كبيرا من القوة الداخلية لكى تضحى بحب والديها والهرب مع حبيبها . وهذه الخطوة تعد هجوما صارخا على قدسية حقوق الوالدين فيما يتعلق بمستقبل أولادهما . وهذا القرار الذى يعتبر فى البيئة التى يصفها « الوسكى » عملا غير أخلاقى يمكن أن يكون موضوعا لطاقة درامية أكبر . الا أن المؤلف لا يتتبع فى هذه المسرحية الرنين المأساوى للدوافع وراء اتخاذ مثل هذا القرار ، وانما يفك عقدة المسرحية بنهاية سعيدة وذلك لأن المؤلف فى المقام الأول متوجه نحو الكوميديا .

وفيما عدا ذلك فالمسرحية مكتوبة بشكل مؤثر من الناحية الدرامية . ومن أجل زيادة التأثير والجاذبية استخدم المؤلف بعض الوسائل الدرامية الفعالة المعروفة بالاضافة الى مزيج من الفولكلور الثرى . وتم تجسيد بعض الشخصيات تجسيدا واضحا على أساس أنها تحمل على كاهلها عقدة المسرحية وحبكتها ، وذلك وفقا لنماذج الشخصيات من الأدب المسرحى القديم .

وبالرغم من أن الجماهير استقبلتها استقبالا حماسيا شديدا الا أنه سرعان ما تم الغاء المسرحية من برنامج العروض المسرحية ، وهذا يعد درسا جليا على أنه قد تم التعجل بالقيام بمثل هذه الشطحات المسرحية التى لا يرغب فيها النظام الحاكم .

وفى أواخر الثلاثينيات نجح مدير المسرح القومى الصربى فى عرض مسرحية « فى المعسكر » للأديب الكرواتى « ميروسلاف كرليجا » ، وكان عرض هذه المسرحية ممنوعا فى يوغسلافيا منذ عام ١٩٢٠ . وتتميز هذه الفترة بأنه عمل بهذا المسرح العديد من الفنانين اليوغسلاف المشهورين .

وفى ربيع عام ١٩٣٦ تم عرض مسرحية « العاملون بالخارج » للكاتب المقدونى الشاب « أنطون بانوف » . وكما هو واضح من عنوانها فهذه المسرحية تتحدث عن الاغتراب ، وهذه الفكرة وجدت لها تجسيدا دراميا من خلال قصة محزنة فى أول مسرحية كتبها هذا الكاتب المسرحى الشاب . ومن المعلوم أن الاغتراب من أجل الحصول على عمل وتلك الهجرة الجماعية للمقدونيين الى أنحاء العالم بحثا عن لقمة العيش تعد من أكثر الجوانب مأساوية فى حياة الانسان المقدونى .

وفى هذه المسرحية « لأنطون بانوف » توجد لمحات من الاحتجاج والثورة . والشخصيات الرئيسية فى المسرحية ، وهم الأشخاص الذين اجتازوا هذا الطريق الشاق فى سبيل الذهاب من أجل العمل بالخارج ، تدرك تمام الادراك أن هذا السبيل يعد ظلما اجتماعيا كبيرا . وقد أعرب عن هذا الاحتجاج الشاب « كوستادين » ، وهو الشخصية الرئيسية فى المسرحية ، الذى يعارض معارضة شديدة التقاليد المألوفة ويرفض تلك الضرورة الاجتماعية التى تبعد الناس عن أوطانهم لكى يرحلوا الى عالم غريب عليهم . ولكن بسبب التنظيم الظالم السائد فى الحياة لا بد وأن يشترك هو الآخر فى رحلة العذاب هذه وأن يذهب للعمل بالخارج .

وبالرغم من أن لفكرة هذه المسرحية أبعادا واسعة الا أنها ضيقت من قاعدتها الاجتماعية واقتصرت على كونها مأساة تقع فيها احدى العائلات . و « كوستادين » الذى يريد ألا يعترف بالتقاليد يصبح هو نفسه ضحية للتقاليد والعادات . ولكن يبرز الصراع الاجتماعى والصراع بين طبقتين اجتماعيتين مختلفتين من خلال المأساة الشخصية للبطل ، وكذلك من خلال مأساة الانسان الذى ذهب للعمل بالخارج من أجل أن يدفع فدية الفتاة التى تزوجت فى ظروف لا انسانية .

وفى موسم عام ٣٦ – ١٩٣٧ تم عرض المسرحية الأولى « لفاسيل الوسكى » مرة أخرى ، ثم عرضت مسرحيته الثانية المكتوبة باللغة المقدونية بعنوان « الثرى تيودوس » . وفيها أيضا يعمق المؤلف معالجته الكوميدية لموضوع مشابه للموضوع الذى عرضه فى مسرحيته السابقة . وتقوم عقدة المسرحية على الصراع بين المفاهيم القديمة وبين التقاليد والعادات فى بيئة

مشابهة تماما لتلك البيئة التى صورها فى المسرحية السابقة ٠ الا أنه فى هذه المرة اشتدت حدة السخرية ٠

وتعد هذه المسرحية نموذجا لكوميديا المواقف ، وسعى المؤلف فيها الى اضفاء سمات خاصة على بعض الشخصيات والى تصوير وتجسيد طبقة اجتماعية كاملة ممثلة فى شخصية «تيودوس» ، وهو الشخصية الرئيسية فى المسرحية ، الذى يوقعه المؤلف فى مواقف تجعل منه موضعا للسخرية والضحك بسبب نقائصه وعيوبه وغروره الاجتماعى ٠

والثرى « تيودوس » شخصية ديكتاتورية طاغية يثير ضجة هائلة اذا وجد عدة شعيرات على معطفه ، وهو رجعى الى حد التزمت تجاه أقرب الناس اليه حينما يتعلق الأمر بمن هو أدنى منه فى الطبقة ، أى بأولئك الأشخاص الذين يقلون عنه ثراء ويقفون أسفل منه فى التسلسل الهرمى الاجتماعى ٠ وبسبب تعاليه هذا سيرفض أن يزوج ابنته من صانع السروج حتى لا يختلط بمن هو أقل منه فى المركز والثراء ٠ وهذا الأمر بالذات يصبح مادة للسخرية والضحك فى المسرحية ٠

واستوحى المؤلف ، كأســاس لعقدة مسرحيته ، عادة شـعبية تفرض اتخاذ أول عابر ســبيل يمر على المولود الجديد ، أى أول شـخص يمر من المكان الذى تم ترك الطفل المولود فيه ، أبا له فى العماد ٠ ويقوم البقال « أرسا » ، الواقع تحت طائلة الديون من جانب تيودوس ، باستغلال هذه العادة الشـعبية من أجل تدبير مكيدة مضحكة للسيد « تيودوس » تدفعه للوقوع فى موقف يائس ، اذ أنه أصبح مضطرا لأن يكون قريبا لشخص من الغجر مر على طفله وبذلك أصبح أباه فى العماد ٠

ومن سمات هذه المسرحية مواقفها الكوميدية الحية واتجاهها الاجتماعى الواضح وتجسيدها المتميز للشخصيات الرئيسية ٠ وقد ســاهمت هذه السمات فى حصول المسرحية على شعبية كبيرة لدى الجماهير ٠

ومن المؤكد أن نجاح المسرحيات التى كتبها كل من «فاسيل ايوسكى» « وانطون بانوف » شجع الأدباء المسرحيين المبتدئين فى ذلك الحين على الكتابة بنفس الطريقة ٠ ومن المرجح أن الدوافع التى مكنت من تقديم مسرحيات باللغة المقدونية على المسرح تكمن فى الجهود الرامية الى جذب جماهير المشاهدين الى المسرح الذى كان من الواضح أن السكان يبدون نحوه نوعا من الرفض والمقاومة ٠

بيد أن تاريخ الأدب المقدونى يهمه مجرد تقـديم هـذه النصوص المسرحية والتأثير غير المتوقع الذى احـدثته ٠ ولم يتمـكن حتى أشد

المعارضين للمسرحيات المكتوبة باللهجة المحلية من عدم الاعتراف بأن هذه المسرحيات لاقت ترحيبا طيبا ٠ وبالفعل ، جذبت هذه المسرحيات جمهورا جديدا غير مألوف الى دخول المسرح ، الا أن هذا الجمهور كان يعرب فى هذه العروض المسرحية عن بعض انطباعاته السياسية ، بالرغم من أنها كانت ـ فى ظاهرها ـ عروضا مسرحية فولكلورية بريئة ٠

ورغم ذلك فان هذا لا ينقص من قيمة الأدب المسرحى المقدونى فى فترة ما بين الحربين العالميتين ٠ ومما لا شك فيه أنها تمثل فترة تمت فيها الكتابة المسرحية بالمعنى الحديث لهذه الكلمة ، أى أصبحت المسرحيات مكتوبة بلغة أكثر تطورا وتميزا مع أنها مرتبطة بنفس منابع ومصادر الالهام الفولكلورية ، وأصبحت كذلك كتابة درامية على اطـلاع بقوانين وقواعد الابداع المسرحى وتهدف الى صياغة عرض أدبى أكثر عمقا عـلى أساس المضمون المستوحى من حياة الانسان المقدونى سواء فى الماضى أو فى الواقع القريب ٠

واذا مادرسنا دراسة تفصيلية مضمون المسرحيات التى ظهرت فى تلك الحقبة فسنلاحظ سعيها الى النقل المباشر لمواقف الحياة ، ولكن مع وجود رغبة واضحة فى اضفاء الطابع الأدبى عليها ٠ **ومن الأمور الأكثر أهمية بالنسبة لتطور الأدب المسرحى المقدونى نلاحظ انه نجرى فى هذه النصوص المسرحية محاولة واضحة لتجاوز الاطارات الفولكلورية ولعرض أصداء المشاكل الاجتماعية والقومية الخاصة بالانسان المقدونى ٠ ويمكن القول بانها أعمال مسرحية متكاملة اذا أخذنا فى الاعتبار درجة تطور اللغة الأدبية ونمو الأدب المسرحى الذى لا يملك تراثا كبيرا ٠ ومن المهم بمكان أن نشير الى أن الشعر الشعبى قد أثرى الى حد كبير لغة الأدب المسرحى المقدونى فى فترة ما بين الحربين ٠**

ولا بد من التنويه الى أن كتابة الشعر باللغة المقدونية حصلت فى ذلك الحين ـ كمــا أشرت من قبل ـ على تدعيم وتعضيد كاملين نتيجة لظهور « كوتشو راتسين » والشعراء المقدونيين الآخرين بحيث أن وجود الأدب المقدونى أصبح حقيقة واقعة ٠

وفى عام ١٩٣٨ نشرت الصحف خبرا مثيرا مفاده بان أحد صانعى الأحذية من بلدة « ستروجا » كتب مسرحية بعنوان « **المال هو القتل** » ، وأنه سلم النص الى ادارة المسرح القومى فى « سكوبلى » ٠ وكان مؤلف المسرحية وصانع الأحذية هو « **ريستو كرله** » الذى كان مجهولا حتى ذلك الحين ، ولكنه أقدم على اختبار قلمه فى الكتابة المسرحية ٠

وبالرغم من أن هذه المسرحية فى مجملها تتحدث عن حياة العمال المغتربين وعن اللعنة التى تصيب العاملين بالخارج ، الا أنها لم تقدم لنا الصورة الواقعية لهذه الحياة ولم تصور العمل بالخارج على أنه مشكلة اجتماعية . وكما يوحى عنوان المسرحية نفسها فهى تشدد وتركز ، بشكل جمال وعظى تعليمى ، على اللعنة التى يجلبها المال .

وقد استوحى مؤلف هذه المسرحية فكرة وردت بالشعر الشعبى فى صيغ مختلفة بنفس الأسلوب الوعظى الأخلاقى . وتقوم هذه الفكرة أساسا على عدم تعرف الوالدين على ابنهما بعد عودته من العمل بالخارج ، ثم يقتلانه بعد ن أغواهما وأعماهما بريق المال . الا أن المؤلف يؤكد فى انطباعاته أن مسرحيته تقوم على حادث وقع بالفعل . ولكن بالرغم من هذا نجد أن معالجته للموضوع تحمل الطابع الجمالى الذى يتسم به الشعر الشعبى المقدونى وتتسم به المفاهيم الأخلاقية للانسان المقدونى ، وبذلك تبتعد معالجته للفكرة عن تفاهة وبساطة الحدث العادى .

وقد تشجع المؤلف بنجاح مسرحيته الأولى وقدم مسرحية ثانية بعنوان « مليون من المعذبين » ، غير أن هذه المسرحية اضطرت الى الانتظار فترة طويلة حتى يتم عرضها على خشبة المسرح بسبب المواقف التحررية التى عالجها فيها . وفى هذه الأثناء تم عرض مسرحيته التالية فى تلك الفترة ، وكان عنوانها « أنتيسما » .

وهى مسرحية رومانسية فولكلورية تحكى عن حب بين شاب وفتاة ، وهما يعانيان من عدم تفهم البيئة لحبهما . ومن المؤكد أن هذه الفكرة مستوحاة أيضا من القصائد الشعبية . ويستغل المؤلف هذه الفرصة لكى ينتقد البيئات المقدونية ويسخر من أولئك المقدونيين الذين يبيعون اسمهم للأجانب من أجل مصالحهم الشخصية وتحت تأثير الدعايات الأجنبية المغرضة فى مقدونية . وعرضت هذه المسرحية قبل الحرب العالمية الثانية ولاقت نجاحا كبيرا بسبب تنوعها الفولكلورى الحى الذى تم التعبير عنه بعدد كبير من الأغانى التى صاحبت هذا العمل المسرحى .

وعرضت مسرحية « مليون من المعذبين » فى عام ١٩٤٠ بعد أن قام المؤلف باجراء التعديلات التى طلبت منه من أجل أن يتم عرضها على خشبة المسرح . وفى هذه المسرحية يعالج المؤلف موضوعا من سيرته الذاتية . فهو يصور فيها حياة الحرفيين ، أو بعبارة أدق ، حياة صانعى الأحذية فى فترة ما بين الحربين .

ومن المعلوم أن المؤلف نفسه كان من اتباع هذه الطبقة ، ولذا فقد

كانت لديه امكانية أن يدرس أحوالها النفسية ومحنها فى الكفاح من أجل وجودها واستمرارها . وقدم فى المسرحية صورة حية للغاية عن الصراع الدائر بين الحرفيين الرجعيين المسنين وبين الحرفيين الشباب الذين يأتون بمفاهيم جديدة فى مجال العمل الحرفى .

الا أن الصراع الأساسى للمسرحية يقوم على عرض المخاطر التى تحف بوجود حرفة صناعة الأحذية بعد ظهور المصانع من الأحذية الجاهزة ، وبالتالى تم حرمان صناع الأحذية ، وأصحاب الحرفة الذهبية ، من لقمة العيش . ومن الطريف أن العنوان الأول لهذه المسرحية كان « باتا » وفقا لاسم الشركة الأجنبية المعروفة التى أغرقت مقدونية بمنتجاتها والتى بالفعل تسببت فى اغلاق أبواب العديد من محلات الحرفيين . بيد أن المؤلف غير عنوان المسرحية بالاضافة الى ما أجراه عليها من تعديلات .

وتقدم لنا هذه المسرحية صورة مفصلة لثورة صغار الحرفيين الذين كانوا يرون فى تغلغل راس المال الأجنبى خطرا على وجودهم . وهذه الثورة لا تتضمن احتجاجا شديد اللهجة موجها ضد المجتمع ، ولكنها كان تعنى – فى ذلك الحين – عدم الموافقة الضمنية على سياسة النظام الحاكم الذى كان يسلم ثروات البلاد بلا رحمة الى أصحاب رءوس الأموال الأجنبية دون أدنى مراعاة لاحتياجات السكان .

وهناك خط مشترك يربط الأدب المسرحى المقدونى وهو سعى كتاب المسرح الى أن يقدموا ويعرضوا على خشبة المسرح محن وآلام وآمال الانسان المقدونى . وتكمن أهمية المسرحيات الدرامية فى أن ظهورها كان يتسبب فى احداث تأثير سياسى وثقافى كبير للغاية . وخلافا للمسرحيات الفولكلورية الساذجة التى كانت تحفل بالرقص والغناء وتجذب جماهير المشاهدين بغرابتها كان يدوى فى المسرحيات الدرامية صوت متحرر ، هذا بالاضافة الى التأثير الكبير الذى تتركه فى نفس المتفرجين وذلك لأنه عن طريقها تتم صياغة الأدب المقدونى المعاصر . والدليل على أن حالة كتاب المسرح المقدونيين فى فترة ما بين الحربين لم تكن فريدة هو العديد من المحاولات المعروفة والمجهولة التى قام بها الكتاب المبتدئون الآخرون ولم يسعدهم الحظ بتدعيم مكانتهم .

وفى الحساب الختامى الأدبى لكل هذه المسرحيات نلاحظ تأثير الأدب الواقعى الصربى ، وكذلك التأثير الخصب للشعر الشعبى وتأثير الأدب الاجتماعى الذى كان آنذاك قويا على الأخص بين صفوف شباب الأدباء التقدميين . ومن المهم بمكان عند دراسة انجازات هذه الفترة فى الأدب المسرحى المقدونى التركيز على دراسة التأثير المتشعب العميق الذى أحدثه

الشعر الشعبى على الكتابة للمسرح . وينعكس هذا التأثير لا فحسب فى اختيار الأفكار والموضوعات وفى بناء العلاقات بين الشخصيات وفى الاستخدام الوفير لثراء الفنون الشعبية بهدف احداث تنوع ضرورى فى كل مسرحية ، بل ويتم الاحساس بهذا التأثير ، فى المقام الأول ، فى الجو وفى الأحوال النفسية للشخصيات وفى أسلوب فهمها للحياة .

وبشكل متواز مع أنشطة المسرح المحترف فى « سكوبلى » ومع قيام المسارح المحترفة من حين لآخر باحياء أنشطتها فى « بيتولا » و « شتيب » كانت تظهر فى مختلف المدن المقدونية (فى برليب وكومانوفو وتيتوف فيليس) جماعات مسرحية عمالية وطلابية . وسرعان ما قام رجال الشرطة بايقاف أنشطتها ، ولكن كان يتم اعادة تشكيل الجماعات بأسماء أخرى . وكانت هذه الجماعات المسرحية تعرض المسرحيات المؤلفة والمترجمة باللغتين الصربية والمقدونية . وعديد من الممثلين أعضاء المسرح القومى المقدونى فى « سكوبلى » بدأوا نشاطهم وعملهم فى هذه الجماعات أو فيما بعد فى فرق البارتيزان الثقافية .

والحرب وحرب التحرير الشعبية لم يوقفا الابداع المكثف للأدب المقدونى ، بل على العكس ، كانت تتم داخل وحدات المقاتلين البارتيزان العناية بجميع الأجناس الأدبية تقريبا ، وبالمسرح فى المقام الأول . وتمت كتابة العديد من المسرحيات ذات الفصل الواحد ، وكانت موضوعاتها ترتبط ارتباطا أكثر بالكفاح وبالمقاومة ، وكان يتم عرضها فى المناطق التى تم تحريرها . كما أن المسرح البلغارى كان يعمل فى « سكوبلى » خلال فترة الاحتلال (من ١٩٤١ وحتى ١٩٤٤) ، بيد أنه لم يكن يعرض الا برنامج العروض المسرحية القومية البلغارية .

وتم تشكيل أول فرقة للممثلين المحترفين فى المسرح القومى المقدونى بعد تحرير سكوبلى مباشرة ، أى فى عام ١٩٤٤ ، وتم فى الشهور الأولى تقديم مسرحيات ذات فصل واحد تعالج موضوعات النضال والتحرير ، وفيما بعد تم تقديم مسرحيات كاملة .

وتطور الأدب المسرحى أيضا بعد التحرير وجنبا الى جنب مع تطور الأدب المقدونى من ناحية الانتشار والقيمة ، وظهر مؤلفون جدد وظهرت أعمال مسرحية جديدة للمؤلفين القدامى الذين أثبتوا وجودهم فى فترة ما قبل الحرب . وكانت الظروف ، بوجه عام ، مهيأة لتطور الأدب المسرحى الحديث فى مقدونية . وتم افتتاح عدة مسارح محترفة تهتم بحب كبير ببرنامج العروض المسرحية المقدونية ، وتجدد فى نفس الوقت التراث الأدبى المسرحى .

وكان « **فاسيل الوسكى** » من أكثر كتاب المسرح نشاطا فى فترة ما بين الحربين ، وفى المواسم الأولى للمسرح القومى فى « سكوبلى » تمت اعادة عرض روايات « الوسكى » التى تم تقديمها قبل الحرب . وفى موسم ٥٢ - ١٩٥٣ عرضت لأول مرة مسرحيته الكوميدية « ٢ × ١ » التى **يسخر فيها المؤلف من أهواء مشجعى كرة القدم وحماسهم الزائد .** ورغم أن عمر هذه المسرحية الكوميدية على خشبة المسرح كان قصيرا وعابرا الا أن الأمور الجديدة التى ضمنها المؤلف هذه المسرحية كانت تمثل أكثر من رد فعل وقتى تجاه بعض الظواهر التى تصاحب الحياة اليومية . وبعد ذلك توالت المسرحيات التى عرضتها المسارح المقدونية من تأليف هذا الكاتب المقدونى الغزير الانتاج .

وفى مسرحية له بعنوان « **الشرف** » (فى ١٩٥٣) قدم لنا « الوسكى » ، فى شكل موقف نفسى متوتر ، **صورة للمفاهيم الأخلاقية العالية التى يتمتع بها الانسان المقدونى فيما يتعلق بوفاء المرأة وشرفها .** ويعرض لنا المؤلف فى هذه المسرحية تنويعا مسرحيا للفكرة الخاصة بالقتل الخطأ لانسان قريب ، وقد عولج هذا الموضوع من قبل فى الأدب المسرحى المقدونى . وفى هذه الحالة كان « الوسكى » على صلة قريبة بالشعر الشعبى الا أن هذا لا يقلل من قدر الحقيقة الواضحة القائلة بأن العقدة الأساسية للمسرحية غير مقنعة وبسيطة الى حد التفاهة .

وكما فى القصائد الشعبية التى تتغنى بمثل هذا الموضوع ، يذكر المؤلف أيضا أن المال ليس هو الدافع للقتل بل ان الدافع جد مختلف . فالعامل العائد من الخارج يدخل منزله كمسافر مجهول لكى يختبر وفاء زوجته ويغازل صاحبة الدار ، وبعد سوء فهم مؤسف يدفع حياته ثمنا لهذا التصرف الأخرق .

وفى مسرحيته « **قزمان قابيدان** » (فى ١٩٥٤) **تمت معالجة قصة حياة البطل الشعبى المشهور الذى حرر منطقة أوهريد من اللصوص .** وذكرنا فيما سبق أن الشاعر « جريجور برلتشيف » قد صور فى قصيدته « السردار » الأعمال العظيمة التى قام بها « قزمان قابيدان » . ومن الطريف أن يكون هناك اختلاف بين قصيدة « برلتشيف » ومسرحية « الوسكى » ، وعلى الأخص فيما يتعلق بالطريقة التى مات بها « قزمان » .

ففى القصيدة مات البطل « قزمان » خلال مقاومته للصوص بينما فى المسرحية يموت بطريقة مختلفة . فبعد أن انتصر على عدوه يعطيه رجال جلال الدين بك السم سرا وذلك لأن العثمانيين رأوا فى بقائه خطرا على الأمن فى تلك المنطقة من الامبراطورية . وفى هذه المسرحية التاريخية

صور « الوسكى » يضع شخصيات رائعة مثل « قزمان قابيدان » و « جلال الدين بك » و « بابا رجو » و « الدرويش » الذى يمثل دور العبيط فى قصر البك ومن خلال كلماته نسمع دويا لكثير من الحقائق المتعلقة بظلامة وبؤس فترة من فترات التاريخ .

أما مسرحيـــة « **الابن والأب** » (فى ١٩٥٥) فهى تعد من ناحية موضوعها أول مسرحية عصرية ، هذا بالاضافة الى مسرحيته المذكورة عن الكرة . وتم عرض هذه المسرحية لأول مرة فى مسرح « بيتولا » فى عام ١٩٥٥ . وقبل عرضها على المسرح فى « سكوبلى » (فى عام ١٩٦١) تعرضت لبعض التعديلات وأصبحت تحمل عنوان « الأبناء الشباب » . **والمسرحية تعالج موضوعا عن حرب التحرير الشعبية** .

والشخصية الرئيسية فى هذه المسرحية هى فلاح مقدونى وقع فى ورطة كبيرة ، فهو ابن لأحد الثوار الذين اشتركوا فى ثورة اليندن ، ولقى والده مصرعه فى الأيام التى ثار فيها الشعب المقدونى . وهو يعيش حياة منطوية أثناء الاحتلال الفاشى مشتت النفس بين ضميره الوطنى الشريف وبين رغبته الأبوية فى أن يحافظ على حياة ابنه الذى يبدى تعاطفا مع حركة المقاتلين البارتيزان . وهو يرى فى احتمال مصرع ابنه انطفاء لشعلة العائلة ومخالفة للعهد المقدس الذى قطعه على نفسه عند قبر أبيه بأنه سيحافظ على ذكراه . ولن يتمكن من الاستمرار فى المبالغة فى الوفاء لنفسه وذلك لأن القوى التى تقاومه كانت أقوى منه وهى تتمثل فى التعصب الشديد من جانب ابنه تجاه وطنه وفى الكفاح الشامل لأفراد الشعب ضد المحتل . وموضوع المسرحية جديد بالنسبة لدائرة الموضوعات التى تحرك فيها المؤلف ، وتتمثل القيمة الأساسية للمسرحية فى تقديمها وتصويرها للأحوال النفسية لممثلى الجيل القديم فى الريف المقدونى .

ثم نشر « الوسكى » مسرحية أخرى من الحيـــاة المعـــاصرة بعنوان « **نقط التماس** » **يسخر فيها من بعض الظواهر السائدة فى المفاهيم الخاصة بالزواج الحديث** .

وفى السنوات التالية للحرب والاستقلال ظهر كتاب جدد فى مجال المسرح . ومن بين أولئك الذين اختاروا الابداع المسرحى القصـــاص « **كوله تشاشوله** » الذى أشرنا الى مؤلفاته القصصية من قبل . وبينما كان فى بداية نشاطه الأدبى يكتب القصص القصيرة ذات الموضـوعات المتعلقة بالحرب أبدى فى نفس الوقت اهتماما حيا بالكتابة المسرحية . وفى البداية نشر بعض الصور المسرحية ثم برز فى مجال الكتابة للمسرح منـذ موسم ٥٠ – ١٩٥١ . بيد أن مسرحيته الأولى الطويلة « الجمعيـة

التعاونية » (فى ١٩٤٩) تظل فى حدود محاولة القيام بمعالجة مسرحية لمسألة تجميع الأراضى الزراعية فى القرى المقدونية فى سنوات ما بعد الحرب .

وحملت له مسرحيته الثانية « **غصن فى مهب الريح** » الكثير من النجاح وبها أثبت وجوده كمؤلف مسرحى ، وتم عرضهـا فى كثير من المسارح خارج مقدونية . **وتحكى هذه المسرحية عن حياة المقدونيين المغتربين فى أمريكا حيث تجرى أحداث المسرحية** . وتحدثنا المسرحية عن « فيلكو » احد العمـــال المغتربين المقدونيين الذى عاد لزيارة بلدته بعد عـديد من السنوات قضاها طواعية فى العمل بالغربة . ويتزوج من « ماجدة » الفتاة الجميلة الشابة من بلدته ، ويصطحبها معه عبر المحيط لكى يعيش بهدوء ما تبقى له من حياته المضنية .

وبذلك الزواج يسبب لنفســه فجاة العديد من الهزات والمشاكل فى حياته الخاصة وفى حياة الفتاة الصغيرة التى عبرت معه مياه المحيط فى زواج غير متكافىء من رجل يكبرها فى العمر بسنوات كثيرة على أمل عاقر بأنها ستحل بنقوده جميع مشاكل فقرها وبذلك أصبحت كالغصن الرقيق فى مهب الريح .

وبالرغم من أن المؤلف يصور بوجه عام فى هذه المسرحية الحـالة النفسية للمغترب المقدونى النموذجى الذى لم يتغير بعد قضائه لعديد من السنوات فى بيئة مختلفة تمام الاختلاف عن بيئته ، ويصور الحالة النفسية للفتاة التى قدمت من الريف ، الا أنه فى هذه المسرحية أراد أن يستغل انجازات الكتابة المسرحية الحديثة وأن يتغلغل فى المشـــاكل النفسية لشخصياته بوسائل الاستبطان المرتبطة بالتحليل النفسى . ويتجلى ذلك بوضوح فى الشخصية الرئيسية الثالثة فى المسرحية ، وهو ابن المغترب المقدونى من زوجته الأمريكية الأولى . وهى شخصية تمزقها وتحطمها المتناقضات الداخلية ومختلف الوان القلق ، وكل هذا يعد نوعا من الصدى البعيد لقلق الشباب الغاضب .

والمسرحية الثالثة لهذا الكاتب « **الظلمات** » (فى ١٩٦١) ترتبط برباط الدم بالأرض المقدونية وبالأحداث المتعلقة بالتاريخ غير البعيد للانسان المقدونى ، وذلك بالرغم من أن أحداثها تجرى أيضا خارج الأرض المقدونية ، فى العاصمة البلغارية صوفيا .

وتحكى المسرحية عن حدث وقع فى الأيام المؤسفة بالنسبة للشعب المقدونى بعد انتهاء الحرب العالمية الأولى مباشرة . ويصور لنا المؤلف

الصراع الدائر فى جناح المنظمة الثورية المقدونية الوليدة فى عام ١٩٢١ حيث تدور أحداث المسرحية ، ويصور لنا كذلك كيف أن الخلافات قد نخرت فى عظام هذه المنظمة حتى أصبحت عصابة ارهابية عادية تقوم بمذبحة مذهلة فى صفوف المناضلين الحقيقيين لحساب القصر البلغارى وباقى أعداء حرية واستقلال مقدونية . وكان « يورتشه بيتروف » مفكر الثورة المقدونية ، هو أحد ضحايا هذه المذبحة الرهيبة .

والفكرة الأساسية للمسرحية تروى حكاية الارهابى الصغير الذى ينفذ أوامر قيادته المركزية الثورية المزعومة ، ويقتل رجلا يمثل فى الحقيقة تجسيدا للمثاليات الثورية لجيله وللأجيال السابقة . ومع أن المسرحية تقوم فى أساسها على فكرة طريفة وحبكة دقيقة وتوتر مكثف وعناصر الاثارة اللازمة الا أنها تعرض أيضا بنجاح كبير لعديد من المعضلات النفسية والصراعات السلبية والتأملات الداخلية لشخصياتها بحيث تكتمل صورها البشرية .

وبهذه المسرحية أثبت « تشاشوله » أنه قد سيطر سيطرة تامة على القوانين المتميزة لكتابة المسرحية ، الأمر الذى تجلى بشكل خاص فى بعض مسرحياته الكوميدية التى كتبها فى هذه الأثناء وفيما بعد . وهكذا كانت مسرحية « **الأخدود** » (فى ١٩٥٨) التى سخر فيها من هوس حب الأفلام فى قرية صغيرة ، وكذلك مسرحيته الكوميدية « **اللعبة** » (فى ١٩٦١) ذات الحبكة المسرحية الطريفة . وهى تحكى عن احدى المسكائد الخاصة بمشكلة الاسكان . وتتميز هذه المسرحية ببناء مسرحى ماهر وبشخصيات حية ، وتشتمل على كل تلك الأمور التى تشكل النصوص المسرحية البارزة . وربما يقلل هذا من قيمتها الأدبية .

الا أن هذا المؤلف المسرحى يحقق فى مسرحيته الكوميدية « **ساعة المدينة** » الربط السليم بين عنصرين ، أى ربط الطرافة وصياغة المشهد المسرحى بالتغلغل فى المواقف الحياتية . **وعن طريق تصويره للطبقة البرجوازية الصغيرة فى الأيام الأولى للاحتلال وارتباطها بالسلطة الجديدة من خلال مواقف كوميدية حية للغاية نجح المؤلف فى أن يصور على خشبة المسرح وأن يسخر من مجموعة كبيرة من الشخصيات التى تمارس نشاطها فى السوق المقدونية وتضع مصالحها الشخصية فوق كل اعتبار .** وتعرض هذه المسرحية صور هؤلاء الأشخاص بشكل تضاريسى مجسم الأمر الذى يعد من خصائص الكتابة الكوميدية الجيدة .

وقد أثار « **تومه ارسوفسكى** » اهتمام وانتباه الرأى العام الأدبى اليه بمؤلفاته المسرحية . ومنذ فترة طويلة وهو يكتب للاذاعة وللتليفزيون.

وأثمر نشاطه عن نصوص درامية ملحوظة . وبالاضافة الى معالجته لموضوع الحرب فى مسرحيته الأولى فقد عالج فى مسرحياته الدرامية التالية موضوعات عصرية بأسلوب ملتزم .

ومسرحية « **ألكسندر** » **تطرح مسالة الاختيار فى فترة لم تكن تحتمل الحياد** . ومحاربة المحتل ومقاومته كانتا تتطلبان ، بشكل لا يحتمل التأجيل ، اتخاذ موقف مجدد . فاما مكافحة العدو واما الوقوف فى صفه . وبالرغم من هذا المضمون الجيد ومن الحوار المكتوب بموهبة ومن المقاصد الطيبة للمؤلف فان هذه المسرحية الدرامية لم تقدم صورة متكاملة للجو وللطباع فى احدى مدن الريف المقدونى ، وبوجه عام كانت تتحرك فى اطارات ضيقة تشبه التقريرات .

وقد لفت « ارسوفسكى » اليه أنظار النقاد وجماهير المسرح بمسرحيته الدرامية « **تناقض ديوجين** » . وموضوع هذه المسرحية عصرى لا فحسب لأنها تعالج أحداثا من الواقع المباشر للحياة العصرية ولكن أيضا بسبب ايحاءاتها الداخلية . **وتحكى هذه المسرحية عن محاكمة احد المهندسين المعماريين الموهوبين الذى تسبب ، سواء بخطئه المباشر او غير المباشر ، فى انهيار عمارة كبيرة مما نتج عنه حدوث خسائر مادية ضخمة ومصرع شخصين .**

ومن خلال هذه المحاكمة يشير المؤلف ، أو بعبارة أدق ، يكشف لنا النقاب عن ظاهرة عجيبة تفشت فى المجتمع المقدونى الذى لا تتزايد فيه جودة الانسان وانسانيته مع اطراد الرفاهية المادية بل يحدث العكس . ولم يحدث ذلك ، وفقا للافتراضات التى تتضمنها المسرحية ، بسبب ضياع الجانب الانسانى الناتج عن خضوع الانسان المعاصر لأمور الدنيا ، بل حدث نتيجة للارتفاع السريع لمستوى معيشة الانسان وسرعة التشبع المادى .

وهذه المسرحية الدرامية مكتوبة فى شكل محاكمة مع العودة الى أحداث الماضى الأمر الذى يضفى على الأحداث نوعا من الحيوية . ونجد تفسيرا لعنوان المسرحية فى كلمات احدى الشخصيات ، ذلك أن التناقض الموجود لدى « ديوجين » ، وهو فيلسوف يونانى قديم كان يدعو الى التقشف الشديد ، راجع الى أنه كان يبحث عن شخص خارج نفسه لا فى داخلها . والاشارات الرمزية الى الشخصية الرئيسية فى المسرحية واضحة تمام الوضوح .

ومن الطريف فى هذه المسرحية أن عملية المحاكمة تجرى أمام أعين

جمهور المشاهدين فى مسارين منفصلين · ويسعى المسار الأول الى اثبات الحقائق الموضوعية الكامنة وراء حدوث الكارثة ، وذلك لكى يتم على أساسها تحديد المسئولية البشرية القانونية للمهندس صاحب التصميم وللمهندس المنفذ ·

أما المسار الآخر فيكشف لنا النقاب عن الحياة الخاصة للمتهم · وذلك حتى تتضح أحواله النفسانية الخاصة وتتبين كيف كانت حالته النفسية وقت حدوث المصيبة · الا أن المعلومات التى تصل الى علم جمهور المشاهدين ، وكذلك الحقائق الموضوعية التى يتعرف عليها ليست كافية لاصدار حكم عادل عن مقدار جريمة أو براءة المتهم · وهكذا تظل القضية غير واضحة تمام الوضوح من جميع جوانبها ، وعلى الأخص من الناحية القانونية · وهذا يعنى أن المؤلف لم يفلح فى أن يحدد تحديدا دراميا الجوانب الانسانية والقانونية الجوهرية لهذه القضية التى أثارها بحماس وعن فهم لأبعادها ·

وكانت مسرحيته التالية هى « **حفلة الحصول على الثانوية العامة** » · ونقطة الانطلاق فى هذه المسرحية هى العادة المعروفة بأن أفراد الدفعة الواحدة الذين أنهوا معا شهادة اتمام الدراسة الثانوية يعقدون لقاء مشتركا · وفى هذه المسرحية يتم الاحتفال باليوبيل الخامس والعشرين لأفراد جيل عام ١٩٤٣ الذين اجتمعوا معا فى الحرب · فماذا حدث لهم خلال العشرين سنة الماضية ؟

لقد زاد عمر كل منهم عشرون عاما ، ولا شك أن هذه الزيادة غيرت من شكلهم البدنى ، ومن المؤكد أنها غيرت من أحوالهم النفسية · وقد حقق البعض منهم نجاحا كبيرا فى عمله ، والبعض الآخر يلعن فشله · بيد أن الكاتب لا يتوقف فحسب عند هذه الظواهر الخارجية · ففى خلال هذه الفترة الطويلة ربطت الحياة بين بعض هؤلاء الأشخاص ، ومزقت الصلات الموجودة بين البعض الآخر ، ومعظمهم خان بعضا من مثالياتهم المشتركة منذ أيام الشباب والدراسة ·

وفى هذه الحفلة ، وبعد مرور عشرين عام ، يتم بحث ودراسة أحد المواقف الغامضة الذى حدث فى أيام الحرب · وفى نهاية متوترة مثيرة ينكشف احساس كل منهم ، بل واحساسهم جميعا بالمسئولية الأخلاقية عن كل ما حدث وما سيحدث فى الحياة · وهكذا يتضح أن هذه مسرحية درامية تشير الى الوعى والى الضمير الاجتماعى ، وأن لها تميز واضح بالنسبة للوقت الذى كتبت فيه ·

ولا شك ان من أشهر كتاب المسرح فى مقدونية ، بل وفى يوغسلافيا كلها ، هو الكاتب المسرحى الشاب « **جوران ستيفانوفسكى** » المولود فى عام ١٩٥٢ · وقد حظى هذا الكاتب الموهوب بترحيب النقاد والجماهير فى طول البلاد وعرضها .

ومن مسرحياته المشهورة « **اللحم الوحشى** » (فى ١٩٧٩) التى تتحدث عن شخصية الانسان وعن كفاحه من أجل التقدم · وهى مسرحية ناتجة عن الهام أصيل وليست مكتوبة من أجل تقديم نظريات أخلاقية أو اجتماعية بل يحلل مشاكل الوجود الانسانى · ويعود بنا المؤلف فى هذه المسرحية الى الفترة السابقة للحرب العالمية الثانية مباشرة · ويحلل أسباب انهيار احدى العائلات المقدونية فى ظروف عدم الاستقرار السياسى والاجتماعى الذى كان سائدا من قبل فى يوغسلافيا الملكية .

وتتألف هذه العائلة العادية المحافظة من الأب « ديميتريا » وهو عامل بناء سابق فقد ساقيه بسبب حرفته ، ومن الأم العجوز « ماريا » التى تعيش فى عالمها الخيالى ، ومن أولادهما الثلاثة · وكل أفراد هذه العائلة يمثلون المحاور الرئيسية فى المسرحية التى تتحدث بكل وضوح عن المشاكل وعن الحقائق الجوهرية فى ذلك الحين · وركز المؤلف على تميز هذه الأسرة وعلى كفاحها من أجل البقاء وسط هذه الدوامة من الأحداث · وكل شىء فى هذه المسرحية يلف ويدور حول أفراد هذه الأسرة الذين ـ ان آجلا وان عاجلا ـ سيهبون ، كل منهم وفقا لامكانياته ، لمقاومة الفاشية التى تحوم فى الجو وتصدر دويا على مسافة قريبة · وفى النهاية تصل اليهم فى عقر دارهم وتقع الحرب التى تبذر بذور الخوف والفزع فى منطقة البلقان كلها .

ويعالج المؤلف فى مسرحيته المعروفة « **الطيران فى المكان** » (فى ١٩٨٢) موضوعا تاريخيا · فهو يعود بنا الى عام ١٩٧٨ والى العام الذى يلى مباشرة اعلان معاهدة سان ستيفانو التى قضت مرة أخرى بتقسيم مناطق النفوذ وكأنه يتم توزيع أوراق اللعب من أجل لعب دور جديد . ويصور المؤلف الصراع الذى جرى بين المصالح اليونانية والصربية والبلغارية فى قرية مقدونية نائية ، وكيفية اشتداد الوعى القومى بالهوية المقدونية بينما الشعوب البلقانية الأخرى تحاول أن توقع الشعب المقدونى تحت سيطرتها الثقافية والتاريخية · وتتم حينذاك سرقة الثروات المقدونية الثمينة وتزييف الكتب القديمة تزييفا مغرضا واعادة طلاء الصور الجيرية المرسومة على جدران وسقوف الكنائس فى مقدونية · وكل هذا يتم فى اطار تصوير المؤلف للأحوال السياسية والاجتماعية السائدة فى الاقليم المقدونى التابع للامبراطورية العثمانية .

ويسلط المؤلف الأضواء على عديد من الشخصيات ومنها شخصيات الثوار والخونة والمدمرين والبنائين والأمهات اللاتى يتنكرن لأولادهن . كما يصور الأمهات اللاتى يصيبهن الجنون بسبب سلب أولادهن منهن ، وأفراد العائلات الغنية والفقيرة ، والدمار الذى يسيطر على حياتهم من الداخل . ويتم عرض كل هذه الشخصيات بحيث أن كل شخصية منها تسلط الأضواء على الأخرى .

الا أن الضوء الرئيسى فى المسرحية مسلط على شقيقين يعملان بالبناء ويساعدان على تحويل الدير المقدونى الى كنيسة يونانية . ويقف كل شقيق منهما فى مواجهة الآخر ، كل منهما يؤثر بأسلوبه الخاص على أحداث التاريخ . وأحد الشقيقين خائن ولا يرضخ للهزيمة فى الحياة ، والثانى يقوم بدور أحد زعماء الثورة ولكنه يستسلم للهزيمة التى تدفعه فى النهاية الى قتل أخيه .

وفى مسرحية « هاى ـ فاى » (فى ١٩٨٣) يعالج «ستيفانوفسكى» موضوع الصراع بين الأجيال المختلفة . فهناك الجد الرجعى « بوريس » الذى خرج لتوه من السجن وكان فيما سبق أحد المسئولين . وتمثل جيل الوسط ابنته ، وهى مديرة فى احدى المؤسسات العلمية ويسيطر عليها القلق بسبب العلاقات السائدة فى عملها وبسبب زواجها الفاشل السابق . أما ابنها ، وهو ممثل جيل الشباب ، فهو باسم الحرية المكتسبة يرفض كل التقاليد والعادات المتبعة ، وينكر كل المقدسات الاجتماعية ويريد أن يدعم شخصيته بحيث يقف هو وحده ضد الجميع .

وبالرغم من وجود شخصيات أخرى فى المسرحية ، ذلك أن المؤلف ضم الى شخصيات المسرحية فتاة وشخصا أمريكيا وآخر روسيا وطالبا عراقيا ، الا أن الصراع الدرامى الأساسى يقوم بين الحفيد والجد الذى يريد أن يعيد حفيده الى الطريق السوى فى نظره ، ولكن دون جدوى . ولذا يجد نفسه مضطرا الى تقييد يدى حفيده وحبسه . ويصبح السجين السابق سجانا وينصب من نفسه قاضيا على حفيـده الذى يدافع عن حريته فى الاختيار وفى ألا يكون له هدف محدد وفى ألا يطبق فى تصرفاته القواعد الاجتماعية المعروفة .

ويعتبر النقاد أن مسرحيته الأخيرة « الأرواح الموشومة » (فى ١٩٨٦) هى أفضل ما كتبه « جوران ستيفانوفسكى » حتى الآن ، وأنها تعد نقطة تحول هامة فى النشاط الأدبى لهذا الأديب المقدونى الشـاب ، وذلك بالرغم من أنه فى هذه المسرحية لا يبتعد كثيرا عن المجال الاقليمى . الا أنها تعد بداية لدخوله مجال الموضوعات العالمية والانسانية العامة . ومن

مميزات هذه المسرحية أنه اتخذ فيها موقفا انتقاديا تجاه شعبه وتجاه الانسانية جمعاء وتجاه الحضارة الحالية .

وحكى لنا المؤلف من خلال أربعة وعشرين مشهدا حكاية الشاب المقدونى المتخصص فى علم الأنساب . وقد سافر هذا الشاب الى أمريكا لكى يكتب دراسة عن أبناء وطنه . بيد أنه فى أمريكا يلتقى بالمشوهين وبالمصابين بصدمات نفسية وبأولئك الذين يسرى فى دمائهم حنينهم الى بلدتهم القديمة وبالمصابين بعدوى التعصب القومى . وبوجه عام يلتقى باناس من بنى وطنه لا يتبعون على الاطلاق المجتمع الذى يعيشون فيه . وجميع هؤلاء الأشخاص محكوم عليهم بالغربة ، ويؤثر عليهم ذلك الى حد أنهم لا يشعرون بحقيقة الحيـاة التى يعيشونها . وتعبر شخصية من شخصيات المسرحية عن ذلك أفضل تعبير بقولها : « اننا لم نصل بعد الى المستقبل ، ولم نرحل بعد عن الماضى ، ونحن مجبرون على تمثيل الحاضر » .

ويعد الكاتب المسرحى والشـاعر « يوردان بلفنش » (من مواليد ١٩٥٣) من الكتاب الذين تلاقى أعمالهم المسرحية قبولا طيبا لدى الجماهير وترحيبا من النقاد ، بل وتلاقى انتقادات أيضا فى بعض الأحيان . وقد حصلت مسرحيته الأولى « اريجون » على العديد من الجوائز ، وهذا يشهد بمميزاتها من ناحية الموضوع ومن ناحية الصياغة المسرحية . و « اريجون » مسرحية سياسية اجتماعية ساخرة يتحدث فيها « بلفنش » عن مأساة المقدونيين الذين كانوا يعيشون فى منطقة بحر ايجه فى السنوات التالية للحرب الأخيرة . واستخدم فيها الأسماء التاريخية والرموز وأسـلوب تداعى الخواطر والأفكار .

وفى مسرحيته التالية « الحالة المقدونية » (فى ١٩٨٤) يصور لنا المؤلف فى اثنى عشر مشهدا مسرحيا معاناة الشخص المثالى الذى تتعارض آراءه مع الأحداث الراهنة . وبطل المسرحية هو « ترايان ستيفانوف » ، أحد أوائل الشيوعيين المقدونيين . ويظن « ترايان » بعد وصوله الى موسكو أن حلمه الأول قد تحقق فيواصل بحماس أكبر حلمه عن توحيد جميع الدول والأشخاص توحيدا متناسقا .

وهذه الصورة المرتسمة فى نفس البطل عن المدينة الفاضلة ستقوده الى معسكرات سيبيريا ، وسيتبين له أن الستالينية لا تكترث بأية معاناة ولا بأية مدينة فاضلة للسذج . وتتكرر له بعد ذلك فى يوغسلافيا نفسها تجربته مع الأشغال الشاقة فى سيبيريا ، ويتضح له من ذلك أن عجلة التاريخ لا تتوقف عن الطحن وأنها تفتح ببطء ، ولكن بدون عوائق ،

مجالات جديدة لتطور المجتمع . والنتيجة النهائية لذلك هى انهيار الاوهام وتوالدها مرة أخرى .

ويصور لنا المؤلف بطل المسرحية على انه شخص حالم مكابد . ويتمثل قدر هذا البطل فى اضطراره للعيش وسط زمن له ميول عدائية ، وتغير الزمن واصبح تحرريا الا ان أحلام الانسان لم تتحقق تحققا كاملا فى هذا الزمن ، وذلك لأن الزمن بطبيعته لا يكترث بمعـــاناة الانسان ولا يأبه بآلام البشرية .

ومن هنا تبرز الوصية التى يوصينا بها المؤلف وهى أن اجتياز الحياة ليس كاجتياز الحقل ، وأن معاناة الشخص المثالى والتزامه ، حتى ولو لم يؤثرا تأثيرا مباشرا على مسيرة التاريخ ، فانهما فى المحصلة النهائية يؤديان الى تغيير ذلك الزمن وبالتالى فانهما ليســا على الاطلاق بدون جدوى . ورغم أن المسرحية حافلة بالعذاب الانسانى من خلال تحطيم كل ما هو انسانى فى امبراطورية الظلام الستالينية ، الا أنها فى جوهرها تحمل الكثير من سمات التفـــاؤل . كما أنها تحض على عدم النظر الى التاريخ من خلال منظور رومانسى .

أما مسرحيته الثالثة « **النظرية اليوغسلافية المضادة** » (فى ١٩٨٥) **فهى حكاية انسانية عميقة ، وهى تمثل صيحة أطلقها جميع المناضلين المجهولين الشرفاء الذين يمكن أن تعتمد الثورة عليهم .**

و « جيفادين » بطل هذه المسرحية مناضل سابق وأرمل ، يعمل فى الوقت الحالى نافخا فى البوق بالفرقة الموسيقية التابعة لاحدى شركات الدفن . والبطلة هى « افروسيما » التى رحل عنها زوجها وأولادها الى جزر بحر ايجه ، ولا تعلم عنهم أى شيء .

ويصور لنا المشهد الأول من المسرحية الاستعدادات الجارية لدفن شخصية بارزة . ويرفض « جيفادين » أن يقوم بالنفخ فى بوقه بسبب غضبه من أن الموسيقى لا تصاحب الأموات العاديين فى رحلتهم الى دار الخلد ولكنها تصاحب فحسب الشخصيات المشهورة البارزة ، أى أولئك الذين استغلوا الثورة واستفادوا منها .

ويلتقى « جيفادين » و « افروسيما » فى بلغراد . وتنقل «افروسيما» كل حبها وحنانها الى طيور حديقة الحيوان التى تعمل بها ، والى « نيفن » ابنة « جيفادين » ، وهى فتاة خرساء صماء . وتعرف عن طريق الصليب الاحمر بأن ولديها على قيد الحيـــاة ، أحدهمـــا فى بولندا والثانى فى تشيكوسلوفاكيا . ويعود الابنان الى يوغسلافيا وقد نسيا لغتهما .

ويضمن المؤلف مسرحيته هـذه العديد من الموضـــوعات اليومية السياسية . وهكذا يحكى ابن « افروسيما » عن تمرد عمال بولندا وعن « فالينسا » زعيم حركة تضامن . ويحكى الابن الثانى عن الجنود الروس الموجودين فى شوارع براغ ، أما ابن « جيفادين » فيحكى عما رآه فى كوسوفو بيوغسلافيا . وهكذا يثير المؤلف الكثير من القضايا الراهنة . ولكن هناك انطباع بأنه لم يفعل ذلك بأسلوب فنى وبما يلزم من ربط عاطفى وفكرى .

والصحافة اليومية هى أحد مصادر الالهـــام الرئيسية فى هـــذه المسرحية ، وهى لا تؤثر فحسب على الموضوع وعلى طريقة معالجته وعلى عرضه للتفصيلات ، ولكنها تؤثر أيضا على اللغة المستخدمة فى المسرحية . وليس من قبيل المصادفة أنه فى أحد المشاهد وكذلك فى نهاية العرض المسرحى تظهر اللوحة المضيئة لاسم صحيفة « بوليتيكا » ، الا أن المسرحية بوجة عام ليست ذات طابع دعائى اعلانى .

ومن المؤكد أن عدد الكتاب المسرحيين فى مقدونية يتزايد يوما بعد يوم ، وهم يثبتون بأقلامهم وبأعمالهم المسرحية أن الكتـــابة لهذا الأدب الشـــاب المتطـــور تتجاوز تجاوزا كبـــيرا اطار موضـــوعاته الفولكلورية والاجتماعية ، وأنه يدخل بخطوات وئيدة ثابته فى مجال الاتجاهات الحديثة السائدة على صعيد الأدب المسرحى فى يوغسلافيا وفى العالم أجمع .

الخـاتمة

اجتهدت أن أقدم فى هذه الدراسة عن مقدونية صـــورة مبسـطة شاملة لكل تلك الجوانب التاريخية والحضارية والاجتماعية والأدبيـة التى تسلط الأضواء على هـــذه البقعة المتميزة من الأرض اليوغسلافية وتجلى ما غمض من أمور وقضايا .

وقد استفتحت دراستى هـــذه بحديث موجز عن تاريخ جمهورية مقدونية وعن كفاح الشعب المقدونى الذى توجه بحصوله على استقلاله فى اطار جمهورية يوغسلافيا . وتركيزنا على الجـانب التاريخى منذ بداية الدراسة نابع من ايماننا واقتناعنا بأن التاريخ هو أفضل مدخل للتعرف على مقدونية نفسها وعلى أهلها ومدنها وثقافتها وأدبها .

والدليل على صحة وجهة نظرنا هذه هو أن الدول المحبة للاستعمار والسيطرة تحاول بشتى الأســـاليب العمل على طمس الحقائق التاريخية وتلفيق غيرها حتى يسهل استعمار الشعوب والهيمنة عليها . وهذا بالقطع يشبه ما تتعرض له مقدونية فى أحيان كثيرة .

وعرضت الخصـــائص الجغرافية والطبيعية التى تتميز بها الأرض المقدونية ، وبينت أن الوضع الجغرافى لمقدونية مناسب للغاية وأنه على أرضها يلتقى الكثير من الطرق الهامة والرئيســـية . ولذا فقد تعرضت مقدونية منذ زمن بعيد للتأثيرات الاقتصادية والثقافية لمنطقة البحر الأبيض المتوسط ، وكانت تتحمل أيضا العواقب السلبية للغزوات المتكررة من جانب مخلف الغزاة والفـــاتحين ، على الأرض خلال الحربين العـالميتين الأخيرتين .

وتعد مقدونية منطقة جبلية فى المقام الأول ، وتلك هى السمة الرئيسية للتضاريس المقدونية • ويوجد بها عدد من البحيرات مثل أوهريد وبريسبا ودويران ، وقد نشأت نتيجة للتشققات التكتونية ولهبوط حوض بحر ايجه • وأشرنا الى أن المناخ المقدونى يتبدل بين مناخ منطقة البحر الأبيض وبين المناخ القارى ، ولذا فان مناخها يختلف اختلافا خاصا عن المناخ السائد فى المناطق المجاورة •

وفى حديثى عن المقدونيين ذكرت أن التعارف الأول بين العرب وبين السلاف الجنوبيين ، ومنهم المقدونيين ، تم لأول مرة على الحدود بين الامبراطورية الاسلامية والامبراطورية البيزنطية التى كانت قد وطنت هؤلاء السلاف داخل حدود امبراطوريتها وطعمت بهم جيشها واشتركت بهم فى محاربة العرب ، ومن ناحية أخرى انتقل بعض من هؤلاء السلاف الى جانب العرب واشترك معهم فى محاربة البيزنطيين • وبالرغم من كل هذه المعارك المستمرة فقد كان يتم عبور هذه الحدود فى أيام السلم وهكذا كان يتم دون عوائق أو عقبات تبادل الاتجاهات الروحية والأفكار وأسباب الحضارة والثقافة • ومما لا ريب فيه أن هذه الحروب المديدة سمحت بعلاقات ثقافية متنوعة ومتميزة بين الجانبين ، اذ أنه من المعلوم أن الحياةقد تفرض على المتحاربين أن يتصلوا ببعضهم وأن يتعارفوا فى جميع المجالات الممكنة والمتاحة وبمختلف الأشكال والأساليب •

وأوضحت أن هناك سبلا محتملة أخرى للتعارف بين العرب وبين السلاف الجنوبيين ، وبالتالى بين المقدونيين • وعن طريق هذه السبل تعرف السلاف الجنوبيون على الأدبوالحضارة العربيتين الاسلاميتين ، وجنبا الى جنب مع كل هذا كانت الخبرات والتقاليد الشعبية تنتقل من العرب الى السلاف الجنوبيين فى وقت الحرب ، وكذلك فى وقت السلم •

وبينت أن الأحداث التاريخية المؤسفة قد اضطرت عددا كبيرا من المقدونيين الى الاقامة خارج جمهورية مقدونية اليوغسلافية ، فى اليونان وبلغاريا • والمقدونيون الذين يعيشون داخل الحدود اليونانية محرومون من ممارسة حقوقهم القومية ، واليونان تعتبرهم من سكانها اليونانيين ولا تعترف بلغتهم القومية المقدونية ولا تسمح لهم بتلقى تعليمهم بها أو باستخدامها فى التعبير عن أنفسهم أو فى التعامل بها ، وتعاملهم على أساس أنهم من رعاياها اليونانيين •

وما حدث للمقدونيين الموجودين فى المنطقة المطلة على بحر ايجه والتابعة فى الوقت الحالى لليونان حدث أيضا للمقدونيين الموجودين فى المنطقة الواقعة عند جبل بيرين التي تتبع بلغاريا فى الوقت الحاضر •

وبلغاريا أيضا لا تعترف بوجود القومية المقدونية وتعتبر السكان المقدونيين من رعاياها البلغاريين وذلك لكى تتجاهل حقوقهم الشرعية ، وهو نفس ما تفعله مع المسلمين البلغار من أصل تركى ويعيشون داخل حدودها الاقليمية •

ومن هنا أصبحت هذه « المسألة المقدونية » سببا مستمرا فى تدهور العلاقات بين يوغسلافيا وبين هاتين الدولتين ، اليونان وبلغاريا • وبدلا من أن تزيد هذه الأقليات المقدونية التفاهم وتدعم جسور الصداقة والتعاون بين دول البلقان أصبحت حجر عثرة أمام تحسن العلاقات ، بل انها غالبا ما تؤدى الى توتر وتدهور العلاقات المتبادلة •

ومن ناحية أخرى يمكن القول بان المساواة بين أفراد الشعب اليوغسلافى وبين أفراد القوميات الأخرى الموجودة بيوغسلافيا تعد حقيقة تاريخية لا تقبل جدلا أو جدالا • والقى أفراد هذه الأقليات القومية بالماضى وراء ظهورهم وأخذوا يحسون بالأمن والأمان ويشعرون بأمل كبير فى الحاضر والمستقبل ، وكل هذا ساعدهم على تحقيق الكثير من امانيهم وعلى أن يسجلوا انجازات جديدة فى مجالات الثقافة والفنون والآداب •

ثم قمنا بجولة سريعة بين المدن المقدونية ومعالمها السياحية وآثارها التاريخية بهدف أن نتعرف عن قرب ، من خلال هذه الجولة ، على الروح المقدونية وعلى حياة المقدونيين فى ماضيها وحاضرها • وقد جمعت فى هذا الحيز البسيط من الدراسة أكبر قدر من المعلومات الجديدة الفريدة والطريقة التى اعتقد أنها ستجذب انتباه القراء والباحثين وتحوز اعجابهم •

وفى الباب الثانى من هذه الدراسة تحدثت عن الحياة الثقافية والدينية ولم يكن بالامكان ان نتحدث عن الأنشطة الثقافية والادبية دون أن نتطرق بالحديث عن الوسيلة التى يتم بها التعبير عن هذه الثقافة ألا وهى اللغة المقدونية التى حفظت للشعب المقدونى شخصيته عبر التاريخ ، وربطت أفراد الشعب المقدونى بعضهم الى بعض برباط وثيق ، وهى التى قربت بين أمزجتهم ومشاربهم وبين مشاعرهم وافكارهم وبين عاداتهم وتقاليدهم •

وكان حديثى عن اللغة المقدونية وعن العقبات التى جابهتها ينطلق من الحقيقة القائلة بان أعداء الشعوب وسالبى حريتها يعادون دوما أية لغة قومية لأنها تمثل مظهر عزة الشعب وقوته وتميز شخصيته ، ولأنها جزء لا يتجزأ من كيان الشعب ، فاذا أتيحت لهم فرصة أن يقضوا عليها أصبح يسيرا عليهم أن يعبثوا بعقلية الشعب وعواطفه • بيد أن الشعوب ذات اللغات القومية والتاريخ المفعم بالبطولات تفطن لمثل هذه المكائد

وتتمسك بلغتهـــا فى حرص بالغ الى أن يحين وقت خلاصها ونيلهـا لحريتها واستقلالها ٠

وقد حدث تناقض تاريخى بين ، فقد تم استخدام لغة السـلاف المقدونيين من أجل وضع حجر الأساس للثقافة المقدونية التى انتشرت فيما بعد بين السلاف المقدونيين الآخرين وبين جيرانهم ٠ وبالرغم من ذلك فلم تحصل اللغة المقدونية على حقها فى أن تصبح لغة أدبية معترفا بهـا الا فى القرن العشرين وذلك بسـبب الظروف التاريخية غير المواتية التى شرحناها ٠

وبعد الاستقلال اكتسبت اللغة المقدونية حقها فى أن تصبح اللغـة الرسمية لجمهورية مقدونية ، وتطورت تطورا سريعا بحيث أصبحت لغة أدبية عصرية كاملة التكوين ، بل واحتلت مكانها اللائق بها بين مجموعة اللغات السلافية وأصبح العديد من المتخصصين الأجـانب فى اللغـات السلافية يهتمون اهتماما كبيرا ببنيتها ومصادرها ٠ ولم أدع هذه الفرصة دون أن أشير الى ظاهرة وجود كلمات عربية باللغة المقدونية والى أسباب حدوث هذه الظاهرة ٠ كما عرضت لبعض نماذج من هذه الكلمات العربية الموجودة باللغة المقدونية ٠

والحياة الثقافية للشعب المقدونى تقوم على روح ابداعية ملهمة تأثرت وتشبعت بالتراث وبالتقاليد العريقة ٠ وتجلى التقـدم الثقـافى للشعب المقدونى طوال الأحداث المثيرة النابضة بالحياة لتاريخه الطويل ٠ وازدادت الثقافة المقدونية تقدما وتطورا جنبا الى جنب مع نموها وتطورها الداخلى ومع اكتسابهـا للثراء والتنوع الناجمين عن اتصـالها بمصادر الثقافة الخارجية ، وتعددت كذلك جوانب الجمال الفنية فيها واتخذت قيمها طابع الدوام ٠ ودخلت مقدونية ساحة الثقافة العالمية وهى مزودة باستقلالها ومسلحة بثقافتها الناهضة ٠

والثقافة القومية المقدونية تتوق الى التعبير عن نفسها والى تدعيم ذاتها ، وهى فى هذا المضمار تبدى اصرارا ومثابرة فى التغلب على كل الصعاب من أجل التوصل الى حقائق هذا العصر ٠ وهذه الثقافة تعى نفسها وتثق بمنجزاتها ، وهى فى كل يوم تقدم القيم القومية والعالمية ٠ ونظرا لانفتاحها على الثقافات الأخرى فهى تجد بسهولة طريقها من أجل التقدم السريع ٠ والانجازات التى تتحقق ــ يوما بعد يوم ــ فى مجال الثقافة المقدونية تثير الاعجاب من حيث تنوعها الكبير ومغزاها التاريخى وجودتها الفنية ٠

وأفضل دليـل على الجو الأدبى الفريد الذى يسود مقدونية هو أنه تنعقد بها عشرة مهرجانات أدبية وثقافية كل عام ، وقد تحدثت عن كل

منها بهدف التعريف بها ٠ ومن الطريف أن الشعر يحتل مكانا رئيسيا فى هـذه المهرجانات وعلى رأسها مهرجان ليـالى الشعر بستروجا الذى ساهم مساهمة عظيمة فى ترجمة وتدعيم الشعر المقدونى واتصـاله بالشـعر العالمى ٠

وقد يظن البعض أن الحديث عن الحياة الدينية أو عن الطوائف الدينية فى دولة اشتراكية حديث غير مرغوب فيه وحافل بالأشواك ، ولكن اذا كان هذا هو الحال بالنسبة لبعض الدول الاشتراكية فمن المؤكد أن هذا لا ينطبق على يوغسلافيا على الاطلاق ٠

فالدستور اليوغسلافى يكفل لجميع المواطنين كافة الحقوق والحريات الديمقراطية والانسانية ، بما فى ذلك حرية الشخص فى الاعتقاد الدينى باعتبار انها مسألة شخصية لا تهم الا الانسان وحده ٠ ومن هذا المنطلق تحدثت عن تاريخ الكنيسة المقدونية الأرثوذكسية وعن وضعها فى الوقت الحالى ٠ وتحدثت كذلك عن الطائفة الاسلامية فى مقدونية وعن أنشطتها المختلفة وعن بعض من عادات أتباعها ٠

وفى الباب الثالث والأخير تطرقنا بالحـديث الى الأدب المقـدونى بمعظم فروعه ٠ ويتجلى من هذا العرض أن الأدباء المقدونيين أبدعوا ، منذ الحرب العالمية الثانية ، أعمالا أدبية تعبر عن أفكار الانسان المقدونى وعن أحاسيسه ومشـاعره ، وصـوروا أيضا التحركات المعاصرة فى بلادهم ونبشوا الماضى لكى يسلطوا الأضواء على الأحداث والشخصيات التاريخية ويمنحوها قدرها الصحيح من الأهمية ٠ وتمت ترجمة العـديد من هـذه المؤلفات الى كثير من اللغات الأجنبية وهذا دليل واضح على أنها تتجاوز الحدود اليوغسلافية وأنها تأخذ مكانها المناسب فى ثقافة الشعوب الأخرى حيث تلقى الاعتراف والتقدير ٠

وفى هذا العرض الموجز عن الأدب المقدونى اقتصرت فى حديثى على بعض الأسماء الأدبية التى اكتسبت ثقلا أدبيا معينا وتركت بصمات جلية على الأدب المقدونى المعاصر وبذلك أكون قد قدمت صورة شاملة لهـذا الأدب ولأدبائه ولمؤلفاتهم ٠

المصادر والمراجع الهامة

١ ـ تاريخ الشعب المقدونى ، معهد التاريخ القومى ، سكوبلى ١٩٦٩ ، ثلاثة أجزاء .

٢ ـ ايفان كاتارجييف ، الكفاح حتى النصر ، سكوبلى ١٩٨٣ ، أربعة أجزاء .

٣ ـ جورجى أوستروجورسكى ، بيزنطة والسلاف ، الأعمال الكاملة ، بلغراد ١٩٧٠ .

٤ ـ ميلينكو فيليبوفيتش ، العناصر الشرقية فى الثقافة الشعبية للسلاف الجنوبيين ، مجلة الفيلولوجيا اشرقية ، العدد ٧١١ × ٧١ـ × لعام ١٩٦٦ ـ ١٩٦٧ ، سرايفو ١٩٧٠ .

٥ ـ بلاجيه كونسكى ، الأدب المقدونى ، بلغراد ١٩٦٨ .

٦ ـ للمؤلف ، الأدب اليوغسلافى المعاصر ، الكويت ١٩٨٤ .

٧ ـ الكسندر سباسوف ، دراسات ونظرات ونقد ، بلغراد ١٩٧٨ .

٨ ـ للمؤلف ، مختارات من الشعر المقدونى المعاصر ، القاهرة ١٩٨٤ .

٩ ـ بلاجيه كونسكى ، نظرات وكلمات ، بلغراد ١٩٧٨ .

١٠ـ خسروف ريجتيش ، الفن الاسلامى ، بلغراد ١٩٨٢ .

١١ـترايكو ستاماتوسكى ، الكفاح من أجل اللغة المقدونية الأدبية ، سكوبلى ١٩٨٦ .

١٢- ديميتار ميتريف ، مقالات ودراسات نقدية ، بلغراد فى ١٩٧٥ .

١٣- بلاجيه كونسكى ، الأعمال الكاملة ، سرايفو ١٩٨٢ .

١٤- الثروة الفنية المقدونية ، سكوبلى ١٩٨٤ .

١٥- بلاجيه كونسكى ، تاريخ اللغة المقدونية ، سكوبلى ١٩٨٦ .

كتب أخرى للمؤلف

(أ) ترجمات الى اللغة العربية

امرأة ذات وجين	الدار القومية للطباعة والنشر	١٩٦٦
اللعبة الخطرة	دار الكاتب العربى	١٩٦٩
الجاسوس الخطير	روايات الجيب	١٩٧١
مختارات من الشعر المقدونى المعاصر	الهيئة المصرية العامة للكتاب	١٩٨٤
أبو الهول		
قصائد فى حب مصر	الهيئة المصرية العامة للكتاب	١٩٨٦
صيد الديك البرى	الهيئة المصرية العامة للكتاب	١٩٨٧

(ب) ترجمات من اللغة العربية

الشعر المصرى المعاصر	دار « ميسلا » المقدونية بيوغسلافيا	١٩٨٤
قصص من مصر	دار «تسانكر»السلوفينية بيوغسلافيا	١٩٨٦

(ج) دراسات

الأدب اليوغسلافى المعاصر	سلسلة عالم المعرفة بالكويت	١٩٨٤

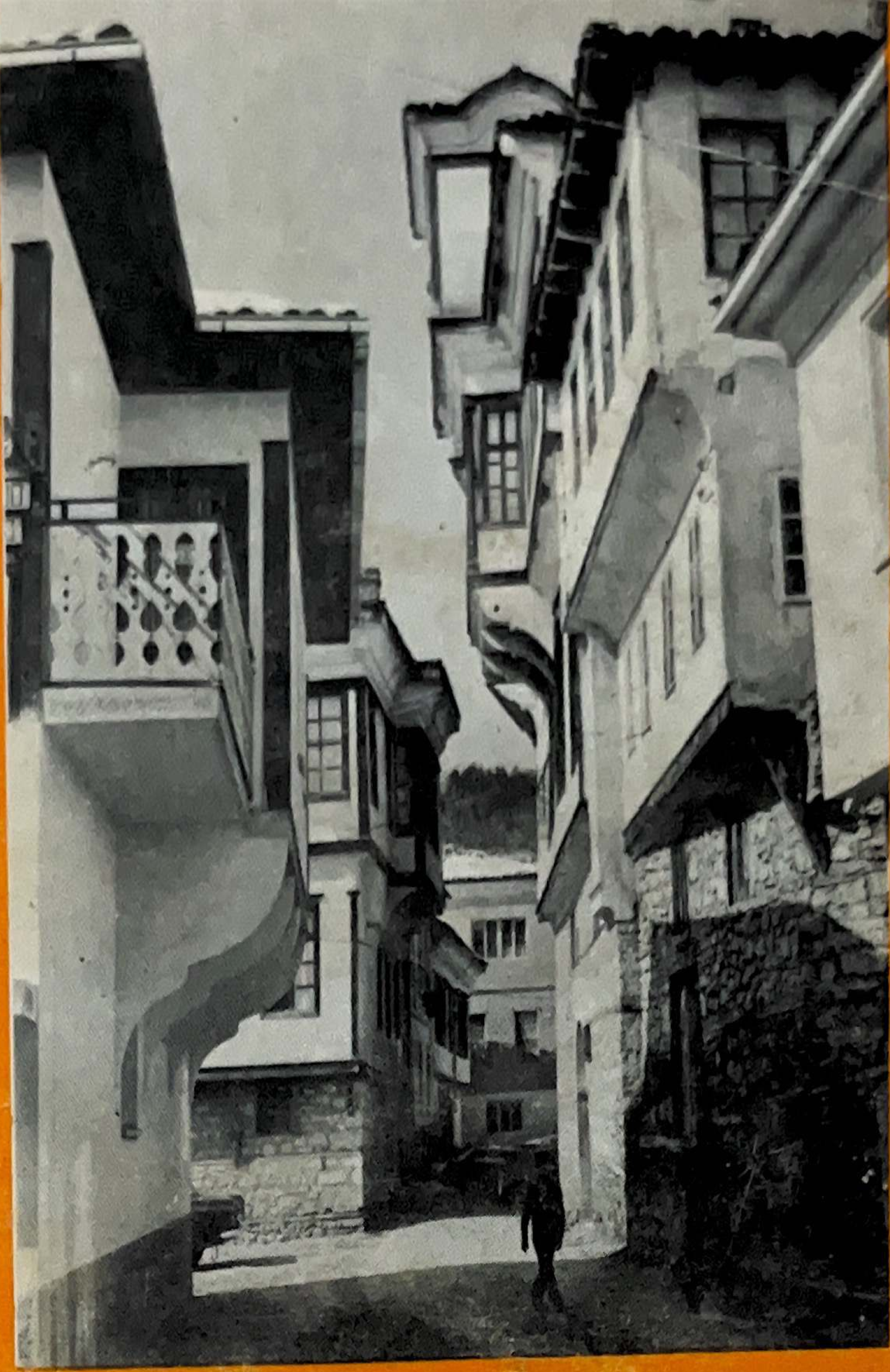
علاوة على عدد كبير من الأبحاث فى مجال الأدب اليوغسلافى والترجمات والدراسات المقارنة فى المجلات العربية مثل : العربى والبيان الكويتيتين ، الثقافة والهلال وابداع المصرية ، الثقافة الجزائرية ، الفيصل السعودية ، آفاق عربية وأقلام العراقيتين .

محتويات

مطابع الهيئة المصرية العامة لكلتاب

رقم الايداع بدار الكتب ١٩٨٧/٤٩٢٩

ISBN ـ ٩٧٧ ـ ٠١ ـ ١٤٦٣ ـ ٤



تقدم هذه الدراسة ، لأول مرة إلى القارىء العربي ، صورة مبسطة شاملة عن جمهورية مقدونية اليوغسلافية . وتعرض لنا هذه الدراسة لكل تلك الجوانب التاريخية والحضارية والاجتماعية والأدبية التي تسلط الأضواء على هذه البقعة المتميزة من الأرض اليوغسلافية وتجلى ما غمض من أمور وقضايا .

وهذه الدراسة تحوى العديد من الانطباعات عن زيارات المؤلف لهذه المنطقة ومن حصيلة هذه الانطباعات جاء الجزء الأساسى من هذا الكتاب ، والجزء الآخر مصدره قراءة مختلف المراجع والكتب التى تتحدث عن مقدونية .

وتحدثت هذه الدراسة عن اللغة المقدونية التى حفظت للشعب المقدونى شخصيته عبر التاريخ ، وتعرضت كذلك إلى الحياتين الثقافية والدينية . كما تطرقت بالحديث إلى الأدب المقدونى بمعظم فروعه

مطابع الهيئة المصرية العامة للكتاب